تقديم

عبد الله بن عبد المحسن التركي
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد، فإنها لبادرة طيبة أن تخصص «عالم الكتب» عدداً منها لموضوع مهم، يشغل الدارسين والقراء على حد سواء، هو «الاستشراق» ، وأن تقدم هذا الجهد العظيم من المقالات والبحوث ، دراسة وتوثيقاً وعرضاً، في هذا العدد المتميز.

وقضية «الاستشراق» تحظى باهتمام الجامعات ومراكز البحوث، كما تحظى باهتمام جمهرة المثقفين، لأنها تدخل في دائرة الصراع القائم بين الحضارات وتعد ثغرا من الثغور التي يندب لها العلماء المسلمون أنفسهم للدفاع عن عقيدتهم وتاريخهم وتراثهم الثقافي.

فقد اختار الله هذه الأمة وجعلها وسطاً، وأذن بنشر دينه، فعم نوره المشرق والمغرب، ولم ينصرم القرن الأول للهجرة حتى ضم الاسلام تحت لوائه جزيرة العرب والشام وأرض فارس وشمال أفريقية والأندلس وامتد إلى بلاد الروم، ثم توالت فتوح الإسلام بعد ذلك في القرون التالية لتصل إلى الهند وأطراف الصين، وليعم آسيا الوسطى والصغرى، ويدخل الى وسط أفريقيا وغربها، وهو في خلال ذلك يخرج الشعوب من الشرك والظلم والجهالة، الى الايمان والعدل والعلم الهادي الرشيد، واستطاعت الحضارة الإسلامية أن تحتوي الحضارات السابقة، فتفيد البشرية منها، بعد تقويم منآدها، ونفي بهرجها، وكشف زائفها، وتضافرت جهود علماء المسلمين في تميز الحضارة الاسلامية على سائر الحضارات، وتقدم العلوم والمعارف، حتى أصبحوا رواداً في مجالات كثيرة، بما أسسوا من نظريات، وما أرسوا من دعائم.

ثم كانت الهجمة الشرسة على ديار الإسلام في القرنين السادس والسابع الهجريين من الصليبية والتتار، وما تلا ذلك من حوادث جسام، قسمت بلاد الاسلام، وشتتت جهود أبنائه، وتحول المسار إلى جهات أخرى في العالم، حيث بدأت النهضة في أوربا، مستفيدة من هذا الزاد العلمي الطيب، الذي قدمه علماء المسلمين إلى العالم عن طيب خاطر، وباسطة جناحها على كثير من البلدان الإسلامية، تحاول صرفها عن دينها، والاستئثار بخيراتها، واحكام سيطرتها عليها.

وكان لابد لها من هيئات علمية تقوم على دراسة الحضارة الإسلامية التي بهرتها، وتكشف عن ما في هذا التراث العلمي من جوانب المعرفة، لتقوم صلتها بالبلدان الإسلامية على علم وثيق بتاريخها ومقومات حياتها، فنشأت مراكز الاستشراق تدعمها الدولة والكنيسة، وكثرت التخصصات فيها،

واعتمدت لها الأموال الطائلة، وصدرت عنها الدراسات الكثيرة، وفهارس المخطوطات، وكتب التراث العربي المحققة.

وحين أذن الله للشعوب الاسلامية بالصحوة، وانطلقت الجامعات. والمعاهد المتخصصة فيها تدرس أحوال الأمة الاسلامية، وتحاول إعادة مجدها الحضاري، كان لابد لها أن تلتفت إلى هذا الجانب «الاستشراق»، لترى ماذا صنع هؤلاء بتراثها، وكيف أثَّر غزوهم الفكري في أبناء المسلمين، ولتتبين البحث العلمي الخالص من نتاجهم — إن كان موجوداً — فتميزه عن سائر ما فعلوه، طعناً في الإسلام، وتشكيكاً في رسوله صلى الله عليه وسلم، وتزييفاً لتاريخه، واغراءً لأبنائه بنمط من الحياة يبعد بهم عن دينهم، ضماناً لاستمرار السيطرة عليهم، واستئصال مقوماتهم.

وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد أخذت على عاتقها العناية بالدراسات العربية والإسلامية، في تراثها الحافل الذي خلفه أسلافنا خلال القرون الماضية المتطاولة، وفي البحوث العلمية المعاصرة التي تعالج قضايا الأمة الإسلامية، ترى في دراسة «الاستشراق» والكشف عن تاريخه وبحوثه ومقاصده قسماً من هذه العناية التي أخذت بها نفسها، فأقامت هذه الدراسة في شعبة المخطوطات بقسم المكتبات والمعلومات في كلية العلوم الاجتماعية، وكذلك أنشأت قسم الاستشراق في المعهد العالي للدعوة الاسلامية في المدينة ، كما نشطت وحدة الاستشراق بمركز البحوث التابع للجامعة، في جمع المعلومات، والتخطيط والمتابعة لبحوث كثيرة في هذا الميدان.

وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية يسعدها أن ترى هذه المجلة المتخصصة «عالم الكتب» معنية بقضية الاستشراق، تخصص لها عدداً من أعدادها، وتحشد فيه هذا القدر الكبير من الدراسات الجادة، و«البيليوجرافيات» المختارة، والمخطوطات والكشافات، وتتناول الموضوعات التي أثيرت، والكتب التي صدرت، بالعرض والتحليل.

وهي ترجو أن يكون في هذا العدد، من المواد التوثيقية، ورصد الأعمال الاستشراقية ، ودراسة اتجاهاتها، ما يقدم للباحثين مادة علمية، تفيدهم، وتسهم في أن تصل بحوثهم إلى غاياتها، بفضل الله وعونه .. وعلى الله قصد السبيل.

عبد الله بن عبد المحسن التركي
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الدراسات

الاستشراق ودوره في توثيق وتحقيق التراث العربي المخطوط

عباس صالح طاشكندي
أستاذ مشارك في قسم المكتبات والمعلومات جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

لعل من البديهي أن نستهل دراستنا لدور الحركة الاستشراقية في توثيق وتحقيق التراث العربي المخطوط باستعراض بعض الآراء التي تناولت بالدراسة والتحليل أهداف واتجاهات الحركة من دراستها لتراث الشرق عامة والتراث العربي الاسلامي بصفة خاصة، فنتعرض بايجاز لعدد محدود من الدراسات، ننتقيها من بين خضم من المؤلفات التي تعرضت لأهداف الدراسات الاستشراقية.

فيذهب البعض نحو تأكيد خلفية الحركة في دعمها للصراع الحضاري بين الغرب والشرق وموقفها المعادي من الشرق عامة ومن الاسلام والعرب بصفة خاصة، بينا يقف البعض الآخر منها موقف المؤيد عن طريق تأكيد أدوارها الايجابية الرائدة تجاه ابراز ودراسة تراث الشرق بما حوى من المضامين الفكرية والثقافية. وفريق آخر يقف بين الاتجاهين، لا يغفل أخطار الاستشراق على الفكر الاسلامي العربي، ولا يقلل من مضامينه الايديولوجية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، لكنه في نفس الوقت لا ينكر دوره في العناية بتراث الشرق جمعاً وتصنيفاً وتوثيقاً وترجمة وتحقيقاً.

يقف ادوارد سعيد في كتابه[1] الذي استحوذ قدراً هائلاً من التعليقات، من الحركة الاستشراقية، وخاصة من خلال تحليله نماذجها البريطانية والفرنسية موقفاً صارماً يربطها بالنزعة الاستعمارية من ناحية، والعنصرية التي يمارسها الغرب تجاه الشرق من ناحية أخرى. فالاستشراق كما يراه، لا يعدو كونه ممارسة غربية للتفوق الموقعي على الشرق « يعتمد الاستشراق، بطريقة ثابتة، من أجل استراتيجيته على هذا التفوق الموقعي المرن الذي يضع الغرب في سلسلة كاملة من العلاقات المحتملة مع الشرق دون أن يفقده للحظة واحدة كونه نسبياً صاحب اليد العليا . ولماذا كان ينبغي أن يكون الأمر على غير هذه الشاكلة، خصوصاً خلال مرحلة الهيمنة الأوربية الخارقة منذ أواخر عصر النهضة حتى الوقت الحاضر؟»[2]

ومن هنا فان نتاج الحركة الاستشراقية مهما كان بريقه العلمي سيصب في خاتمة الأمر لتحقيق غايات تهدف الى تأكيد التبعية بأبعادها العلمية والسياسية والسوسيولوجية والعسكرية والاقتصادية. وعلى الرغم من اتفاق العديدين ممن تناولوا دراسة أهداف الحركة الاستشراقية على تأكيد الأطماع الاستعمارية والنيل من نقاء تراث الشرق والمساس بشخصياته الفذة، إلا ان دراسة ادوارد سعيد تميل إلى التنظير وتخضع جهود الحركة لمقاييس نقدية إستمدها من تحليل الانتاء الفكري للمستشرقين أنفسهم، فيرى بأن « الاستشراق قد وصف الشرق في إطار خصائص غربية حديثة ترفع الشرق من عوالم الابهام الصامت، حيث كان قد انطرح مهملاً الى وضوح العلم الأوربي الحديث.»[3]

وفي الجانب الآخر، يقف العقيقي[4] من الاستشراق موقف المؤيد، متحمساً لما قدمته الحركة من جهود، رصدها في كتابه الموسوعي بعنوان «المستشرقون» وتطغى على آرائه ايجابيات الحركة،

ويعتبر نفسه مستشرقا ضمن فئة الاستشراق المارونية، فيتناول اسهامات الاستشراق في مجالات العناية باللغات الشرقية وآدابها ونشر مصادرها المخطوطة والعناية بآثار الشرق بصفة عامة.

«ولقد بلغ المستشرقون من تعليم لغاتنا وحفظ تراثنا والكشف عن آثارنا، واحيائها بالنشر والترجمة والتصنيف، ذلك المبلغ، وبمنهج ومميزات ووسائل لم تتوفر لنا من قبل...»(٥)

كما يؤكد بأن التراث العربي الاسلامي هو تراث انساني.

«ولأولئك الأجانب الغرباء نصيب فيه. وتسقط (في حالة القول بعدم التخلي عن تراثنا للأجانب) صفته الانسانية في تأثره بالثقافة العالمية وأثره فيها من اليونان والفرس والرومان إلى أوربا وأفريقيا وآسيا حتى الشرق الأقصى.

ولولا جهود المستشرقين لما أحطنا به أو اهتدينا إلى كل عظمة أسلافنا، وحققنا تواريخ أولى دولنا، وما دامت ثقافتنا عالمية ومن سماء الشرق انبثقت الأديان الثلاثة المنزلة، حق لعلماء العالم تمحيصها لمعرفة مصادر حضارتهم وتقصيهم صلات بلدانهم بالشرق العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحديد تاريخهم منه في ضوئها..»(٦).

وفي معرض رده على الهجوم الذي يشنه علماء العرب والمسلمين للمستشرقين عامة وخاصة فيما يتعلق بأهدافهم التبشيرية والنيل من الاسلام والمسلمين يؤكد بأنه :

«لو استهدف الرهبان الجدل والتبشير فحسب لاكتفوا بتعليم العربية واهملوا ما عداها من اللغات التي قل أو انقرض المتكلمون بها كاليونانية القديمة والعبرية، والسريانية، والكلدانية، وما كلفوا أنفسهم انشاء بواكير مكاتب الترجمة والمعاهد والمكتبات، والمطابع والمجلات لحفظ تراثها ونشر ذخائره والتصنيف فيه وترجمته الى لغات العالم بأسره»(٧)

وإذا كان تحليلنا الموجز لأعمال كل من ادوارد سعيد ونجيب العقيقي كنماذج تكشف عن اتجاهين مختلفين لتحليل أهداف الحركة الاستشراقية، فان العديد من الدراسات التي أنجزها بعض المفكرين المسلمين تجاه مفهوم الاستشراق وأهدافه قد استهدفت النظر برؤية وموضوعية وعمق وأخضعت الفكر الاستشراقي للتحليل والبحث، فالدراسات التي انجزها طيباوي بعنوان «المستشرقون الناطقون بالانجليزية»(٨) ومحمد البهي بعنوان «الفكر الاسلامي الحديث»(٩) والشيخ مصطفى عبد الرازق بعنوان «تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية»(١٠) والسامرائي بعنوان «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» (١١)، تعد دراسات معمقة حاولت أن تكشف موقف الاستشراق من الاسلام وتخضع إسهاماته لموازين التحليل والنقد والدراسة، كما حاولت في الوقت نفسه ألا تغفل الكشف عن الإيجابيات التي صاحبت الحركة في مراحلها المختلفة، وقد قام محمود حمدي زقزوق مؤخرا باصدار دراسة تعرض للاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري(١٢) تناول فيها دراسة نشوء الاستشراق وموقف المستشرقين من الإسلام، كما استعرض أهدافهم الدينية والعلمية والتجارية والسياسية،وما أسهموا به من أعمال. واختتم دراسته بتوضيح ما يجب اتخاذه من جانب المسلمين من مواقف تجاه الاستشراق، داعيا لدراسته واستيعابه ونقده، واقترح اصدار موسوعة علمية تقوم على أساس صحيح، مهمتها الرد على المستشرقين، وانشاء مؤسسة إسلامية علمية عالمية، وتكوين جهاز عالمي للدعوة الاسلامية، ونشر دائرة معارف اسلامية جديدة، واخراج ترجمة اسلامية صحيحة لمعاني القرآن الكريم، وتنقية التراث الاسلامي من الشوائب التي علقت به. كما دعا إلى تأكيد وتكثيف الحضور الاسلامي في الغرب عن طريق المشاركة في البحوث العلمية والتدريس.(١٣)

وتولى أحمد سمايلوفتش دراسة فلسفة الاستشراق(١٤) فأوضح دوافعها النفسية والتاريخية والاقتصادية والايديولوجية والدينية والعلمية، وكشف عن اتجاهاتها العقدية والعلمية وعلاقتها بكل من الاستعمار والتبشير والصهيونية،وافرد فصولاً لتحليل نماذج من أعمال بروكلمان ونالينو ونيكولون وبلاشير وجيب وكراتشكوفسكي وفون غرنباوم وجونثالث وآدامز وغيرهم، كما ركز دراسته على أثر الاستشراق في الأدب العربي المعاصر، فتناول اسهامات المستشرقين في مجالات العناية بتراث الشرق نشرا وتحقيقا ودراسة.

ونخلص من هذا إلى أن موضوع الاستشراق وأهدافه ظل مثار جدل كبير وخاصة من علماء المشرق، فما من مؤتمر أو ندوة علمية يرتبط موضوعها بالثقافة الشرقية إلا وكان للاستشراق نصيب فيه. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر عرض فلايشهامر في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي في الجزائر(١٥) لتاريخ وثقافة الاسلام في مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فوك، حتى انبرى له أحمد حماني(١٦) معقبا عليه ومفندا ما جاء في آراء كارل بروكلمان عن الاسلام والمسلمين من فساد وجهل وتحريف وزيف وتخريف،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدما نماذج من آرائه في مسائل العقيدة الاسلامية وشخصية الرسول عليه افضل الصلاة والسلام، وعرض ايضاً لآراء غولدزيهر صاحب نظرية أن الفقه الاسلامي تأثر كثيرا بالقانون الروماني، وأنه كان مصدرا من مصادره استمد منه بعض أحكامه، وكشف عن أخطار هذا المستشرق الذي اندس تحت ستار ما عرف عنه من لين واعتدال ومداهنة تجاه بعض المسائل الاسلامية(١٧) . وقدم نبيه عاقل في نفس الملتقى(١٨) دراسة موجزة استعرض فيها نماذج من آراء المستشرقين المعادية للاسلام والعرب، اردفها باستعراض الأسباب التاريخية التي أدت إلى ظاهرة العداء، مؤكدا على الدوافع الدينية والاستعمارية.

«وينبغي أن ننبه إلى أن الكثير ممن نسميهم بالمستشرقين لم يكونوا علماء أو أساتذة جامعة أو رجال بعثات أثرية بل كان بينهم العديد من الجواسيس والموظفين في وزارات الخارجية ووزارات المستعمرات ودوائر الاستخبارات وغير ذلك.»(١٩)

وهو الأمر الذي أكده المستشرق ألريش هارمان مدير معهد جوته الألماني في مقالة نشرها مؤخرا في مجلة الباحث(٢٠) حين استعرض ــ بشكل مختصر ــ منجزات ومواقف الاستشراق الألماني في الشرق الأوسط.

«كانت الدراسات الألمانية حول العالم الاسلامي قبل عام ١٩١٩ أقل براءة وصفاء نية، فقد كان كارل هاينريش بيكر هو من كبار مستشرقينا، منغمسا في النشاطات السياسية، حتى أنه أصبح في عام ١٩١٤ شديد الحماس لمخطط استخدام الاسلام في أفريقيا والهند كدرع سياسة في وجه البريطانيين وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لتورطه في هذا الموضوع.

وعندما غدا وزيرا للثقافة في بروسيا أيام جمهورية فايمار، سعى جهده لرأب الصدع بين الأعداء السابقين..»(٢١)

ونخلص من هذا كله إلى أن الاستشراق مهما كانت نتائجه ايجابية فيما يتعلق ببعض الجوانب، فإن الدوافع الاساسية دينية أو اقتصادية أو استعمارية أو فكرية أو جميعها معا ستظل من الثوابت المرتبطة بمفهوم الصراع الحضاري والغزو بشتى أشكاله وألوانه. وهو منهج إتَّبَعَ لتحقيق أغراضه ودوافعه أشكالا شتى من الوسائل والطرق، وحقق بالفعل نتائج كبيرة، أهمها أن الغرب قد استطاع خلال هذه الحركة اكتساح أسوار الشرق مركزا على دراسة موروثاته الحضارية، وهو المدخل لفهم الحضارات الشرقية بصفة عامة، محاولا أن يدس فيها ما شاء من التحريف والفساد بهدف التشكيك والوصول إلى الدوافع الحقيقية له.

ولما كان هدف هذه الدراسة تحليل الاستشراق ودوره في توثيق وتحقيق التراث العربي المخطوط، فاننا نكتفي بهذا القدر الموجز من التحليل الذي تناول استعراض دوافع وأهداف الحركة بصفة عامة، وننتقل لدراسة الدور الذي اكسبها معظم رصيدها من الاشادة والايجابية، مسلطين الضوء على جهود المستشرقين في ضبط التراث المخطوط وتوثيقه، ومنهجهم في نشره وتحقيقه.

أ ــ التوثيق

ففي مجال ضبط المخطوطات العربية وفهرستها وتوثيقها، تولى المستشرقون مسؤولية اصدار مئات من الفهارس المتميزة كأدوات ببليوجرافية تحصر الانتاج المخطوط في عدد من المكتبات العالمية الكبرى، نوجز الاشارة إليها فيما يلي :

أولا : في المانيا

- أصدر المستشرق فليشر **H.O. Fleisher** فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة درسدن الأهلية عام ١٨٣١م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق فليشر **H.O. Fleisher** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة مجلس الشيوخ في ليبزيغ عام ١٨٣٨م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق جيلد ميستر **J. Gildmeister** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة جامعة بون عام ١٨٧٦م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق أومر **J. AUmer** فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الأهلية بميونخ عام ١٨٨٦م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق برتش **F.A. Pertsch** فهرس مخطوطات مكتبة جوته عام ١٨٩٢م في خمسة أجزاء.
- أصدر المستشرق اهلوارد **W. Ahlwardt** فهرس مخطوطات المكتبة الملكية ببرلين عام ١٨٩٩ م في عشرة أجزاء.
- أصدر المستشرق بروكلمان **C. Brockelmann** فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة همبورج الأهلية عام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٩٠٨م في مجلد واحد.

ثانيا : في المملكة المتحدة

- أصدر المستشرقان كوريتون **W. Cureton &** وريو **C. Rieu** الفهرس الخاص بالمخطوطات العربية في المتحف البريطاني عام ١٨٧١ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق ريو **C. Rieu** ملحقا لفهرس المخطوطات العربية في المتحف البريطاني عام ١٨٩٤ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرقون إليس **A. Ellis** وادوارد **Edward** ومرجليوث **Margoliovth** وفلتون **Fulton** ملحقا لفهرس المخطوطات العربية في المتحف البريطاني عام ١٩١٢م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق لوث **O. Loth** فهرس المخطوطات العربية بالمكتب الهندي في لندن عام ١٨٧٧ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرقان دينيسون روز **E. Denison Ross** وبرون **Browne** فهرس المخطوطات العربية والفارسية بمكتبة ديوان وزارة الهند في لندن عام ١٩٠٢ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق روبين ليفي **Ruben Levy** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة المكتب الهندي في لندن عام ٧٩٣٧م في اربع مجلدات.
- أصدر المستشرق مورلي **W.H. Morley** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية والهندية الموجودة في مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٨٣٨م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق لي استرانج **G. Le Strange** ملحقا لفهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٨٨١ م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرقون مورلي **Morley** ولي استرانج **Le Strange** وبرون **Browne** وجب **Gibb** ملحقا لفهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٨٨١ في مجلد واحد..
- أصدر المستشرق الكساندر نيكول **Alexander Nicol** فهرس المخطوطات الشرقية بالمكتبة البودلية عام ١٨٧٧م.
- أصدر المستشرق بيوزي **E. Pusey** ملحقا لفهرس المخطوطات الشرقية بالمكتبة البودلية عام ١٨٣٨م.
- اصدر المستشرق بالمر **E. Palmer** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة كلية ترينيتي **Trinity College** عام ١٨٧٠م.
- أصدر المستشرق برون **Ed. G. Browne** فهرس المخطوطات الاسلامية بمكتبة جامعة كمبردج عام ١٩٠٠م.
- أصدر المستشرقان جب **E. Gibb**ووير **T.H. Weir** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية بمكتبة جامعة جلاسكو عام ١٩٠٦م.
- أصدر المستشرق ابوت **T.K. Abbot** فهرس المخطوطات المحفوظة بمكتبة كلية ترينيتي **Trinity College** في دوبلين عام ١٩٠٠م.
- أصدر المستشرق منجانا **A. Mingana** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة جون ريلاندز **John Rylands** عام ١٩٣٤م.

ثالثا : في النمسا

- أصدر المستشرق فلوجل **G. Flugel** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية بمكتبة فيينا العامة عام ١٨٦٧م في ثلاثة مجلدات.
- أصدر المستشرق كرافت **Kraft** فهرس المخطوطات العربية والتركية الموجودة بمكتبة الجمعية الآسيوية في فيينا عام ١٨٤٢ في مجلد واحد.

رابعا : في فرنسا

- أصدر المستشرق دي سلان **Baron De Slane** فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في باريس عام ١٨٩٥ في ثلاثة أجزاء.
- أصدر المستشرق بلوشيه **E. Blochet** فهرس الحاقي للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في باريس عام ١٩٢٥م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— أصدر المستشرق بلوشيه E. Blochet فهرس المخطوطات الشرقية بمجموعة شيفر Scheffer عام ١٩٠٠م.

— أصدر المستشرق جريفو R. Griveau فهرس الحاقي للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في باريس عام ١٩٠٩م.

— أصدر المستشرق بلوشيه فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية التي منحها دكورديمانش Decourdemanche للمكتبة الوطنية في باريس عام ١٩٠٩م.

خامسا : في ايطاليا

— أصدر المستشرق دي هامر G. De Hammer فهرس المخطوطات الشرقية كملحق للفهارس التي اصدرها يوسف السمعاني لمخطوطات مكتبة الفاتيكان بروما، عام ١٨٢٧م.

— أصدر المستشرق الكاردينال ماي May فهرس الحاقي للمخطوطات الشرقية بمكتبة الفاتيكان عام ١٨٣١م.

— أصدر المستشرق ديلا فيدا Della Vida فهرس المخطوطات الاسلامية في مكتبة الفاتيكان عام ١٩٣٥م.

— أصدر المستشرق جراف G. Graf فهرس المخطوطات العربية المسيحية عام ١٩٣٤م.

— أصدر المستشرق فون روزن Von Rosen فهرس المخطوطات الشرقية بمجموعة ماسيجلي Massigli عام ١٨٨٥م.

— أصدر المستشرق بسيونيوس A. Biscionius فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة فلورنسا عام ١٧٥٢م.

— أصدر المستشرق بوروميه F. Boromee فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية بمكتبة الامبروزيانا عام ١٨٤٨م.

— أصدر المستشرق جريفيني E. Griffini فهرس المخطوطات اليمنية في مكتبة الامبروزيانا عام ١٩١٤. في مجلدين.

سادسا : في اسبانيا

— أصدر المستشرق ديرنبورج H. Derenbourg فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٠٣ في مجلدين.

— أصدر المستشرق ليفي بروفنسال Provencal فهرس الحاقي للمخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٢٨ في أربعة مجلدات.

— أصدر المستشرق روبلس F. Robles فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية الاسبانية بمدريد عام ١٨٨٩م.

— أصدر المستشرقان ريبرا J. Ribera واسن M. Asin فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جونتا الأسبانية عام ١٩١٢م.

سابعا : في هولندا

— أصدر المستشرقون دوزي Dozy وكيونين Kuenen ودي جونج De Jong ودي خويه De Goeje وهوتسما Houtsma فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة أكاديمية لوجدونو باتافيا في ليدن عام ١٨٧٧ في ستة مجلدات.

— أصدر المستشرقون دي خويه وهوتسما وجون بول Juynboll فهرس المخطوطات العربية في أكاديمية ليدن عام ١٩٠٧ في ثلاثة مجلدات.

— أصدر المستشرق ويليريس Weuleresse ودي جونج De Jong فهرس المخطوطات الشرقية في الاكاديمية الملكية بامستردام عام ١٨٦٢م.

— أصدر المستشرق دي جونج De Jong فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة كلية اوترخت عام ١٨٦٢.

ثامنا : في الدول الإسكندنافية :

— أصدر المستشرق تورنبغ C. Tornberg فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية في مكتبة جامعة ابسالا عام ١٨٤٩.

— أصدر المستشرق زترستين Zettersteen فهرس الحاقي للمخطوطات الشرقية بمكتبة جامعة ابسالا عام ١٩٣٠.

— أصدر المستشرق مهرن Mehren فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة كوبنهاجن عام ١٨٥١م.

تاسعا : في الاتحاد السوفيتي

— أصدر المستشرق دورن Dorn فهرس المخطوطات الشرقية لمكتبة لينغراد العامة عام ١٨٥٢م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- أصدر المستشرق البارون فان روزن **Von Rosen** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة المتحف الآسيوي بلينينغراد عام ١٨٨١م.
- أصدر المستشرق البارون فان روزن **Von Rosen** فهرس المخطوطات العربية التابعة لمدرسة اللغات الشرقية بوزارة الخارجية عام ١٨٧٧.
- أصدر المستشرق جوتوالد **Gottwald** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة جامعة قازان عام ١٨٥٥ في مجلدين.
- أصدر المستشرق دورن **Dorn** فهرس المخطوطات الشرقية في المكتبة الأمبراطورية العامة في بطرسبرج عام ١٨٥٢م.
- أصدرت المستشرقة كاشتاليفا **Kashtaleva** فهرس المخطوطات العربية في مكتبة طشقند عام ١٩٣٧.
- أصدر المستشرق كراتشكوفسكي **Kratchovski** فهرس المخطوطات العربية من القوقاز في القسم الآسيوي من متحف مجمع العلوم عام ١٩٣٦.

عاشرا : في الولايات المتحدة الأمريكية

- أصدر المستشرق إنوليتمان **Littmann** قائمة للمخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستون عام ١٩٠٤م.
- أصدر المستشرق ماكدونالد **McDonald** فهرس المخطوطات العربية والتركية في مكتبة نيوبرى بشيكاغو عام ١٩١٢م.
- أصدر الدكتور فيليب حتي **Hitti** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة جامعة برنستون عام ١٩٣٨م.
- أصدر المستشرق نيموى **Nemoy** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة جامعة ييل عام ١٩٥٦م.

وبالوقوف عند هذه النماذج الموجزة التي استعرضنا فيها رصدا، جهود الحركة الاستشراقية في توثيق التراث العربي المخطوط، ممثلة فيما أصدرته من خلال رجالها من فهارس وأدلة تكشف عن المخطوطات العربية في بعض المكتبات الرئيسية في العالم، يجدر أن نتناول بالتحليل أهم ما يميز هذه الجهود من ملامح ببليوجرافية رائدة في مجال توثيق المخطوطات العربية.

أولا : تتميز حركة توثيق التراث العربي المخطوط على أيدي المستشرقين بالعناية التي أبدوها تجاه عناصر الوصف الببليوجرافي للأعمال المخطوطة. فالفاحص لأعمال رصد حركة التأليف العربية بدءاً بكتب الطبقات العربية وكتاب الفهرست لابن النديم، وما يلي ذلك من تصنيف مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبري زاده، وكشف الظنون لحاجي خليفة، وهدية العارفين للبغدادي، وغير ذلك من كتب تصنيف العلوم العربية، يلاحظ بوضوح **اقتصارها** على عدد محدود من العناصر الوصفية الببليوجرافية بينما نجد أن أقدم الفهارس التي أصدرها المستشرقون قد أولت عناصر الوصف الببليوجرافي عناية خاصة، إذ أن الفهرس الذي أصدره المستشرق بسيونيوس **Biscionius** للمخطوطات الشرقية بمكتبة فلورنسا عام ١٧٥٢م لم يقتصر على ذكر المؤلف والعنوان، بل اشتمل على عناصر تتناول معظم المكونات المادية للمخطوط كالورق والخط والحجم والتجليد والناسخ والتاريخ المدون وغير ذلك، وهذه ظاهرة جديدة لم تكن توليها كتب التصانيف العربية عناية تذكر.

وعلى الرغم من أن الفهارس التي اصدرها المستشرقون قد اعتمدت في مناهجها الببليوجرافية على طريقتين، أحداهما تعتمد أسلوب التحقيق والإطالة، والأخرى تعتمد الايجاز والاختصار، فانها تتفق جميعا في الحد الأدنى لعناصر الوصف الببليوجرافي لكل عمل مخطوط.

وقد ساعد هذا الاتجاه على توسيع نطاق دراسة المخطوطات العربية، وأمكن من خلال توسيع عناصر الوصف دراسة مجالات أوسع في الكتاب العربي المخطوط كالتجليد والخطوط العربية وفنون الزخرفة والتذهيب ونماذج أساطين الخط ومواد الكتابة وفنون اخراج الكتاب العربي الأخرى.

ثانيا : بذل المستشرقون جهدا كبيرا في تحقيق عناصر الوصف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البيليوجرافي لبعض الأعمال المخطوطة وخاصة في بيانات التأليف والعناوين والتواريخ، وأخضعوا الأعمال الموصوفة للتحقيق والنقد بغية اثبات البيانات الصحيحة، وأمكن لهم اخراج فهارس نموذجية يصعب مجاراتها في يومنا الحاضر، نذكر على سبيل المثال الفهرس الذي اصدره اهلوردAhlwardt لمخطوطات المكتبة الملكية في برلين عام ١٨٩٩ في عشرة مجلدات، والذي تولى فيه تحقيق بيانات التأليف والعنوان والاخراج على نحو مثالي، جعل من هذا العمل مرجعا هاما للتحقيق والمراجعة والمقارنة.

أسهمت حركة الاستشراق في دفع عجلة الضبط البيليوجرافي للمخطوطات العربية، وذلك عن طريق محاولاتها إصدار الفهارس لأهم مجموعات المخطوطات في الدول الأوربية وغيرها، وايفاد المختصين لفهرسة المجموعات الشرقية في مواطنها الأصلية، وتأهيل الكفايات الوطنية لممارسة أعمال الضبط البيليوجرافي للمخطوطات. وقد تخرج على أيدي بعض المستشرقين جيل من المختصين أمكن لهم الاسهام بجهود بارزة، تاركين بصمات واضحة في ميادين التوثيق والعمل البيليوجرافي للمخطوطات.

ولم يقتصر عمل المستشرقين على ضبط المخطوطات العربية القائمة في مكتبات بذاتها فحسب، بل اسهموا أيضا في دراسة مصادر التراث العربي مستهدفين تصنيفه وتوثيقه وحصره بشكل شامل. ويأتي في هذا الاطار جهود المستشرقين هامر بورجستال Hammer-Purgstall[٢٢] الذي سعى إلى جمع مصادر التراث العربي حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، والمستشرق اربثنوت Arbuthnot[٢٣] في دراسته للمؤلفين العرب، والمستشرق كريمر Kremer[٢٤] في دراسته للمؤلفين للتاريخ الثقافي الشرقي، يتوجها جهود المستشرق كارل بروكلمان[٢٥] في دراسته لتاريخ الأدب العربي، وعلى الرغم من التحفظات الشديدة التي نبديها على آراء بروكلمان تجاه الاسلام وعناصر التراث العربي ورجالاته، إلا أن كتابه يعتبر دراسة رائدة في ميدان حصر مصادر التراث العربي. كشف في الجزء الأول منه عن مصادر اللغة العربية والشعر الجاهلي، كما خصص الجزء الثاني لعصر النهضة العربية بدءاً من سنة ٧٥٠م حتى سنة ١٠٠٠م، وأفرد الملحق الأخير لمصادر التاريخ والسير والكتب التي تم تأليفها في التراث العربي. تبع ذلك أعمال كل من هارت Huart[٢٦] وبيزي Pizzi[٢٧] ودي خوية De Goeje[٢٨] ونيكلسون Nicholson[٢٩] وكريمسكي Krymzki[٣٠] ومتز Metz[٣١] وجب Gibb[٣٢] ورشر Rescher[٣٣] في تغطية مصادر التراث العربي للحقب المختلفة.

ونخلص من هذا كله إلى تقرير أن تلك الجهود الايجابية التي بذلها المستشرقون في ميدان توثيق التراث العربي المخطوط على الرغم من أنها قد أدت بالفعل إلى توثيق وضبط كميات هائلة من مخطوطاتنا العربية في أرجاء مختلفة من الأرض، إلا أنها ـــ في نفس الوقت ـــ قد أسهمت بدور هام ورئيسي في تحقيق أهداف الحركة الاستشراقية بصفة خاصة، حيث أمكن من خلال تلك الأدوات البيليوجرافية التعرف بدقة على طبيعة حجم الموروثات العربية المكتوبة، وبالتالي تحليل مضامينها الفكرية والمادية عن طريق النقد والدراسة، وانتقاء الأعمال التي تستفيد منها الحركة في تحقيق أهدافها الدينية أو العسكرية أو السياسية أو الايديولوجية للتحقيق والنشر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب ـــ التحقيق

ويبقى أن نعالج العنصر الثاني من هذه الدراسة ، وهو ما يتعلق بدور الاستشراق ونهجه في تحقيق ونشر التراث العربي المخطوط. وفي هذا الصدد يجدر أن نشير ـــ بايجاز ـــ لمناهج التحقيق عند المستشرقين وخاصة ما يتعلق منها بمناهج تحقيق المخطوطات العربية.

لقد انشغلت حركة الاستشراق منذ بداية عهد فريدريك الثاني ملك صقلية في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وعهد الفونس ملك قشتالة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بقضية نقل العلوم العربية وترجمة كتبها، وتقرر في مؤتمر فيينا عام ١٣١١ ميلادية، والذي ترأسه البابا كليمان الخامس، تأسيس مدارس خاصة بتعليم العربية في كل من باريس وبولون واكسفورد وسلمنكا[٣٤] مهمتها اعداد مبشرين يقومون بالتنصير، وتهيئة جيل من المختصين يعملون على ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية.

ومع قيام النهضة الأوربية واتساع المعاهد المتخصصة وظهور الطباعة بعد منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أخذت الحركة في النمو السريع واتسع اهتمامها بالتراث العربي، فترجمت أول أجرومية عربية في غرناطة عام ١٥٠٥م، وتلاها صدور أول كتاب مطبوع بالحروف العربية في أوربا وهو كتاب صلاة الصاوي والذي طبع عام ١٥١٤م بمدينة البندقية. وأنشأ فرديناند دي ميديتشي عام ١٥٨٦م مطبعة عربية لطبع الكتب الطبية والفلسفية لابن سيناء وغير ذلك من الكتب العربية، الأمر الذي دفع تدريجيا إلى ظهور بواكير النشر العربي في مجالات كتب النحو واللغة العربية والقواميس وكتب التاريخ والأدب والطبقات. فظهر كتاب المجمع المبارك لابن العميد، وكتاب تاريخ الدول لابن العبري، وكتاب نظم الجوهر لسعيد بن البطريق، وتاريخ أبي الفداء، ومقامات الحريري وغيرها من الأعمال العربية الأساسية[٣٥].

على أن مناهج التحقيق التي كانت تسود أوربا في تلك الفترة، أي بعد القرن الخامس عشر الميلادي، هي نتاج اجتهادات الجماعات التي اهتمت باحياء التراث اليوناني اللاتيني القديم، وهي التي اعتمدت في بادىء الأمر على منهج لا يقوم على مقارنة النصوص وتحقيقها من نسخ متعددة بل يعتمد على اختيار نص واحد تعاد صياغته ونشره، وتطور منهجهم فيما بعد بحيث عملوا على تكوين نص واحد متكامل مبني من مختلف الروايات والنصوص وأسموه بالنص الكامل[٣٦].

واعتمد بعض المستشرقين الأوائل من الرهبان على مثل هذا المنهج في ترجمة بعض الأعمال العربية إلى اللاتينية. ومع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي اتسعت الحاجة إلى النشر، واتسع بالتالي نطاق الاجتهادات في مجال مناهج التحقيق، وأخذت طابعا علميا يقوم على جمع النسخ والمقابلة والتصحيح وضبط الأعلام والأماكن والتواريخ وتحقيق النصوص والتعليق عليها وتذييلها بالفهارس اللازمة. وبدىء في وضع أسس وأصول أقرب ما تكون إلى القواعد والتعليمات، اعتمد منها المستشرقون في تحقيقهم ونشرهم للأعمال العربية الأصول التالية :

١ ــ انتقاء المخطوطات العربية المرشحة للنشر.
٢ ــ جمع نسخ المخطوط الواحد.
٣ ــ تحديد الاختلافات بين النسخ.
٤ ــ العناية بالتصحيح والمقابلة بين النسخ بهدف احياء أصحها.
٥ ــ تحقيق ونقد النصوص وفق أصول علمية ومنهجية.
٦ ــ وضع الفهارس المتنوعة للعمل الواحد.
٧ ــ اجادة الطباعة والاخراج والنشر وفق أصول مقننة.

وباستثناء ارهاصات محدودة كتلك التي أصدرها كولومب Collomp لأصول نقد النصوص اللاتينية عام ١٩٣١م[٣٧] فلم تصدر قواعد تفسيرية تختص بأصول نقد النصوص العربية وتحقيقها إلا حين ألقى المستشرق الألماني برجستراسر Bergstrasser مجموعة من المحاضرات لطلاب كلية الآداب بالجامعة المصرية ــ جامعة القاهرة حاليا ــ في العام الجامعي ١٩٣١/١٩٣٢ عن أصول نقد النصوص ونشر الكتب، والتي لم تر النور إلا في وقت متأخر، حيث أعدها الدكتور محمد حمدي البكري للنشر وصدرت عام ١٩٦٩م[٣٨]وهي التي اشتملت على تعليقات وقواعد تعالج النسخ المختلفة للعمل الواحد، وما يعترض المحقق في احياء أصحها من مشاكل وصعوبات، مستخدما نماذج وأمثلة عديدة لمشاكل اختيار النسخ وتكوين عشائرها. كما عالج في القسم الثاني مشاكل تهذيب النصوص ونقدها مركزا على خصائص تحقيق الصحة اللغوية والموضوعية باستعراض نماذج وأمثلة عديدة من أعمال التحقيق. ولعل أبرز ما جاء في معالجته لقضايا نقد النصوص تأكيد صعوبة وضع قواعد ثابتة على اعتبار أن كل عمل مخطوط يتميز بظروف خاصة به، وبالتالي يصعب تعميم القواعد على نحو عام تخضع له جميع الأعمال المخطوطة.

ومن هنا يمكن اعتبار القسم الثاني من تلك المحاضرات بمثابة توجهات تحيط المحقق بالأصول العامة لنقد النصوص باستخدام قاعدة عريضة من الحالات والاحتمالات مدعومة بالأمثلة القائمة في أعمال التحقيق. أما القسم الأخير من محاضراته فقد خُصِّصَ لتوضيح طريقة العمل في اخراج أعمال التحقيق بدءاً بطرق البحث عن النسخ المختلفة، واعداد المقدمة، واخراج النصوص مشتملة على الهوامش والتعليقات والشروح، وانتهاءً بطرق اعداد الفهارس والكشافات والمصادر.

وفي الأطار نفسه، التزمت جمعية المستشرقين الألمان باستخدام قواعد نشر النصوص الكلاسيكية، اليونانية واللاتينية، وطبقتها على النصوص العربية في نشرها للسلسلة الاسلامية Bibliotheca Islamica باشراف المستشرق ريتر Ritter، وهي نفس القواعد التي

تبنتها فيما بعد جمعية غيوم بوده Association Guillaume Bude في نشرها للنصوص العربية[٣٩].

وفي العام ١٩٤٥ أصدر بلاشير Blachere بالاشتراك مع سوفاجيه Souvaget قواعد نشر النصوص العربية وترجمتها[٤٠] أعيد فيها نشر قواعد جمعية غيوم بوده مع ايلاء عناية أكبر لأصول ترجمة الكتب العربية إلى اللغة الفرنسية، متأثرين في ذلك بأصول نقد النصوص اللاتينية وترجمتها إلى اللغات الأوربية الحديثة.

يتضح من هذا كله أن جهود الحركة الاستشراقية في ميدان مناهج تحقيق التراث العربي المخطوط قد تأثرت إلى حد كبير بأصول نقد النصوص الكلاسيكية اللاتينية القديمة، وهي الأصول التي تم استخدامها — باديء ذي بدء — في حسم الصراع الديني الذي ساد أوربا إبان عصر النهضة بين الفرق الكاثوليكية والبروتستانتية، ودفع بالفرق المتصارعة إلى اخضاع نصوص الوثائق الكلاسيكية للشك والنقد دعما لمعتقداتهم وآرائهم المختلفة. كما اخضعت تلك المناهج النصوص العربية بأكملها للأسس الفللوجية ومباديء التوثيق العلمي دون اعتبار لأصول التدوين ومعاييره وفنونه عند العرب.

وعلى الرغم من أن المستشرقين على دراية تامة بلدور العرب في أصول التدوين وفنون المقابلة والتوثيق من النصوص والروايات والأسانيد وابتداع أصول السماعات والقراءات والاجازات والتوقيعات وتوثيق النسخ ومعايرة سلوك الكتابة والتدوين مما يميز المدونات العربية المخطوطة عن غيرها، إلا أن مناهجهم جاءت خلوا من تلك الاعتبارات الهامة في التدوين العربي.

ومن هنا فلا جدال في أن البعض من المستشرقين اعتمادا على أصول نقد النصوص الكلاسيكية القديمة وتحت ستار العقلانية والمنهجية والأسس الفللوجية قد بث من بذور الشك والتحريف على النصوص العربية الموثقة ما أساء إلى أصالتها، وأمكن لهم بالتالي تحقيق أهداف الحركة الاستشراقية في النيل من تراث الشرق والتشكيك فيه.

على أنه وبالرغم من تلك الاعتبارات فقد تركت مناهج المستشرقين في التحقيق أثرا كبيرا على الشرق، إذ جاءت بعض المحاولات العربية في ميدان أصول نقد النصوص ونشرها امتدادا لمناهج المستشرقين، فيقدم صلاح الدين المنجد لقواعده.

«ان هذه القواعد التي نقدمها غايتها توحيد طرق النشر والتعريف به. وقد استقيناها من نهج المستشرقين الألمان، ومن خطة جمعية غيوم بوده..»[٤١]

بينما يصر عبد السلام هارون في دراسته المتميزة بعنوان «تحقيق النصوص ونشرها»[٤٢] على التخلص من أسار سيادة الاستشراق بوضع منهج يستمد أصوله من معايير التدوين والتوثيق عند العرب، ألحق بالمواصفات التقنية لنشر الكتاب العربي المخطوط، واضعا بذلك مناهج التحقيق عند المستشرقين في مكانها المناسب من التقويم.

مراجع البحث

١ — ادوارد سعيد، **الاستشراق**، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٢ — نفس المرجع السابق ص ٤٢

٣ — نفس المرجع السابق ص ١١٢

٤ — نجيب العقيقي، **المستشرقون**، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥م.

٥ — نفس المرجع السابق. جزء ٣، ص ١١٤١

٦ — نفس المرجع السابق. جزء ٣، ص ١١٦٣

٧ — نفس المرجع السابق. جزء ٣، ص ١١٥٨

٨ — محمد البهي. **الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، دار الفكر بيروت، ١٩٧٣. ص ٥٨١ — ٦١٢ (أعيد فيه نشر دراسة طيباوي).

٩ — محمد البهي. نفس المرجع السابق

١٠ — مصطفى عبد الرازق. **تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية**. المؤلف، القاهرة ١٩٦٦.

١١ — قاسم السامرائي. **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**. دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، ١٤٠٣هـ.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٢ ــ محمود حمدي زقزوق. **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**. سلسلة كتاب الأمة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ١٤٠٤ هـ.

١٣ ــ نفس المرجع السابق. ص ١٣٠ ــ ١٥٣

١٤ ــ احمد سمايلوفتش. **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**، (رسالة دكتوراه) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

١٥ ــ وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بدولة الجزائر، **محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي**. المجلد الثاني، الجزائر، ص ٣٥٧ ــ ٣٦٤.

١٦ ــ نفس المرجع السابق. ص ٣٧٢ ــ ٣٨٦.

١٧ ــ نفس المرجع السابق. ص ٣٨٣ ــ ٣٨٦

١٨ ــ نفس المرجع السابق. المجلد الثاني. ص ١٨٥ ــ ٢١٧

١٩ ــ نفس المرجع السابق. ص ٢٠٠

٢٠ ــ اولريش هارمان. **الاستشراق الألماني** منجزات ومراجعة مواقف. **الباحث**، العدد الأول، السنة الخامسة، شباط ١٩٨٣. ص ١٤٣ ــ ١٥١.

٢١ ــ نفس المرجع السابق. ص ١٤٥

22. J.V. Hammer - Purgstall, Literaturgeschichte der Araber, von ihrem Beginn bis zu Ende des zwolften Jahrhunderts der Hidschret, 7 Bde, Wien 1850 - 1856.

23. Arbuthnot, F., Arabic Authors, A manual of Arabian History and Literature, London 1890.

24. A.V. Kremer, Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Bd. II, Wien 1877.

25. C. Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature (Die Literaturen des Ostens in Einzeldarstellungen 1,2) Leipzig 1901.

26. Cl. Huart, Literature Arabe, Paris 1902. 4e Ed. eb. 1923; A History of Arabic Literature, London 1903.

27. I. Pizzi, Litteratura Araba, Milano 1903: (Manuali Hoepli, Serie Sc. 335/336).

28. M.J. de Goeje, Die arabische Literature in Kultur der Gegenwarthsg. Von P. Hinneberg, I. IV, Berlin. Leipzig 1906.

29. B. Nicholson, A Literary History of the Arab, London 1907, 4 ed. 1923.

30. A Krymski, Istoria Arabov i Arabski Literaturi, Moskau 1912.

31. A Mez, Die Renaissance des Islam, Heidelberg 1922,

32. H.R. Gibb, Arabic Literature, An Introduction. London 1926.

33. O. Rescher, Abriss der Arabischen Literaturgeschichte 1, II. Stuttgart 1925, 1933.

٣٤ ــ أحمد سمايلوفتش. نفس المرجع السابق ص ٧٤

٣٥ ــ نفس المرجع السابق. ص ١٦

٣٦ ــ محمد حمدي البكري. **أصول نقد النصوص ونشر الكتب محاضرات المستشرق الألماني برجستراسر** دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٩. ص ١١ ــ ١٢.

37. P. Collomp. La Critique des Textes. Paris, 1931

٣٨ ــ محمد حمدي البكري. نفس المرجع السابق.

٣٩ ــ صلاح الدين المنجد. **قواعد تحقيق المخطوطات**. الطبعة الرابعة. دار الكتاب الجديد، بيروت. ١٩٧٠. ص ٨.

40. R. Blachere et J. Souvaget. Regles Pour Editions et Traductions de Textes Arabes. Paris, 1945

٤١ ــ صلاح الدين المنجد. نفس المرجع السابق. ص ٨

٤٢ ــ عبد السلام هارون. **تحقيق النصوص ونشرها**. مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٥.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أعمال المستشرقين (١)

محمود حمدي زقزوق
أستاذ بجامعة قطر - الدوحة

تتمثل جهود المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل في اعمال مختلفة تشكل في مجموعها كلًا واحداً. ويمكن تلخيص هذه الأعمال في عدة أمور هي :

١ ــ التدريس الجامعي.

٢ ــ جمع المخطوطات وفهرستها.

٣ ــ التحقيق والنشر.

٤ ــ الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية.

وفيما يلي نلقي نظرة سريعة على هذه الأعمال:

[١] التدريس الجامعي ...

يكاد يكون هناك في كل جامعة أوروبية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية، بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق مثل جامعة ميونيخ حيث يوجد بها معهد للغات السامية والدراسات الإسلامية ومعهد لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى. ويرأس كل معهد أستاذ ويساعده بعض المحاضرين والمساعدين. وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي وتعليم العربية وتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه ممن سيواصلون أعمالهم في المجال الاستشراقي الأكاديمي أو غيره من مجالات أخرى في السلك الدبلوماسي أو الالتحاق بأعمال في الأقسام الشرقية بدور الكتب، أو في مراكز البحوث المهتمة بالشرق، أو غير ذلك من أعمال في جهات لها صلة بالشرق.

ومن هنا تأتي أهمية ما يحمله المستشرقون من أيديولوجية بالنسبة لما يخلفونه من آثار في الدارسين على أيديهم وما ينطبع منهم على غيرهم (٢).

ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العربية والإسلامية التي تخدم الدراسات والبحوث العلمية للدارسين.

وتفتح هذه المعاهد أبوابها للدارسين من كل مكان ومنها يتخرج أيضا بين الحين والحين أعداد لا بأس بها من العرب المسلمين الذين يعودون إلى بلادهم لتولي مهمة التدريس في جامعات بلادهم.

ويتفانى المستشرقون في أعمالهم ويخدمون أهدافهم بإخلاص تام وتفان إلى أقصى حد وبكل الوسائل. ولديهم صبر عجيب ونادر في البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى : « الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم» (٣).

ولهم معرفة جيدة بأهم ما ينشر عن الدراسات العربية والإسلامية في بلادنا، ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والإسلامية قديمها وحديثها. وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهي أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالإثم إذا نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

[٢] جمع المخطوطات العربية ...

اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي. وكان هذا العمل مبنياً على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثاً غنياً في شتى مجالات العلوم. وكان بعض الحكام في أوروبا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد ساعد الفيض الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمة الدراسات العربية في أوروبا وتنشيطها. ومنذ الحملة النابليونية على مصر عام ١٧٩٨ م تزايد نفوذ أوروبا في الشرق وساعد ذلك على جلب الكثير من المخطوطات. وكانت الجهات المعنية في أوروبا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق. فعلى سبيل المثال أرسل «فريدريش فيلهم الرابع» ملك بروسيا « ريتشارد ليبسيوس» إلى مصر عام ١٨٤٢م، و«هينريش بترمان» عام ١٨٥٢م إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية. وقد تم جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة، وقد لقيت هذه المخطوطات في أوروبا اهتماماً عظيماً، وتم العمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة وفهرستها فهرسة علمية نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقاً، وتشير إلى ما يتضمنه من موضوعات وتذكر اسم المؤلف وتاريخ ميلاده ووفاته وتاريخ تأليف الكتاب أو نسخه .. إلخ. وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين في الاطلاع عليها في مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو إجراءات معقدة.

وقد قام مثلاً الوارد **Ahlwardt** بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة برلين في عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فناً ودقة وشمولاً . وقد صدر هذا الفهرس في نهاية القرن الماضي واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط. وقد قام المستشرقون في الجامعات والمكتبات الأوروبية كافة بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة، وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف.

وهناك دراسات للمستشرقين عن هذه المخطوطات في مجالات عديدة. وعلى سبيل المثال قامت باحثة من المستشرقين بإعداد بحث عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر، قال عنه الشيخ أمين الخولي بعد أن سمعه أثناء حضوره لمؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين:

«لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكي بحثاً عن نوادر مخطوطات القرآن في القرن السادس عشر الميلادي. وإني أشك في أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات. وأظن أن هذه المسألة لا يمكن التساهل في تقديرها»(٤).

وهنا كلمة حق يجب أن تقال وهي أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة. وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة في كثير من بلادنا العربية والإسلامية وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها.

[٣] التحقيق والنشر ...

ولم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها، بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر. فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث وقابلوا بين النسخ المختلفة ولاحظوا الفروق وأثبتوها ورجحوا منها ما حسبوه أصحها وأعدلها، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام أثبتوها في أواخر الكتب التي نشروها، وقاموا في بعض الأحيان بشرح بعض الكتب شرحاً مفيداً(٥).

وهكذا استطاعوا أن ينشروا عدداً كبيراً جداً من المؤلفات العربية، كانت عوناً كبيراً للباحثين الأوروبيين من المستشرقين وغيرهم من بلاد الشرق. وقد عرفنا الكثير من كتب التراث محققاً ومطبوعاً على أيديهم. ومن بين هذه الكتب نذكر ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ نشرهم لسيرة ابن هشام، والإتقان للسيوطي، والمغازي للواقدي، والكشاف للزمخشري، وتاريخ الطبري، وكتاب سيبويه، والاشتقاق لابن دريد، والأنساب للسمعاني، ومعجم الأدباء لياقوت، وتجارب الأمم لابن مسكويه، وفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم، واللمع لأبي نصر السراج، والبديع لابن المعتز، وحي بن يقظان لابن طفيل، والمختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي، والملل والنحل للشهرستاني، وعمدة عقيدة أهل السنة والجماعة للحافظ النسفي، وفتوح الشام للأزدي البصري، وفتوح الشام للواقدي، والكامل للمبرد، والجمهرة لابن دريد، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي، وكتاب المناظر لابن الهيثم، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، والأحكام السلطانية للماوردي، وفضائح الباطنية للغزالي، وتاريخ اليعقوبي، والفهرست لابن النديم، وكشف الظنون لحاجي خليفة، والتعريفات للجرجاني، وطبقات الحفاظ للذهبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان،

وتهذيب الأسماء للنووي، وصحيح البخاري، والمقتضب لابن جني، ومقالات الإسلاميين للأشعري، والوافي بالوفيات للصفدي، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمر وعثمان الداني، والرد الجميل على مدعي ألوهية المسيح بصريح الإنجيل للغزالي، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، والأغاني للأصفهاني، والأوائل للسيوطي، والطبقات لابن سعد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والفقه الأكبر لأبي حنيفة، وعدد هائل من دواوين الشعر العربي في عصوره المختلفة.

[٤] الترجمـــة ...

ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضاً بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، فقد نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر والمعلقات وتاريخ أبي الفداء وتاريخ الطبري، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ المماليك للمقريزي، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، والإحياء والمنقذ للغزالي، وغير ذلك من مئات الكتب في اللغة والأدب والتاريخ والعلوم الإسلامية المتعددة، هذا فضلاً عما ترجم في القرون الوسطى من مؤلفات العرب والمسلمين في الفلسفة والطب والفلك وغير ذلك من علوم .

وقد سبق أن عرفنا في الفصل السابق أن القرآن قد تمت ترجمته لأول مرة في القرن الثاني عشر. وقد قام المستشرقون منذ ذلك الوقت وحتى الآن بإعداد العديد من ترجمات القرآن إلى اللغات الأوروبية كافة، وقد مهدوا لترجماتهم بمقدمات وضعوا فيها تصوراتهم عن الإسلام، وبذلك أعطوا للقارىء من بادىء الأمر تصورهم الذي لا يتفق في معظم الأحيان مع الحقائق الإسلامية، بل قد يصطدم مع هذه الحقائق اصطداما جوهرياً.

وفيما يلي بيان تقريبي بعدد الترجمات المعروفة التي تمت في عدد من اللغات الأوروبية من قبل غير المسلمين[٦].

في اللغة الألمانية	١٤	ترجمة
في اللغة الانجليزية	١٠	ترجمات
في اللغة الإيطالية	١٠	ترجمات
في اللغة الروسية	١٠	ترجمات
في اللغة الفرنسية	٩	ترجمات
في اللغة الأسبانية	٩	ترجمات
في اللغة اللاتينية	٧	ترجمات
في اللغة الهولندية	٦	ترجمات

[٥] التأليــــف ....

تعددت مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين وبلغ عدد ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب[٧].

لقد ألفوا في التاريخ العربي والإسلامي، وفي علم الكلام، وفي الشريعة، وفي الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي، وفي تاريخ أدب اللغة العربية، وفي الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة النبوية، وفي النحو العربي وفقه اللغة العربية. ولم يتركوا مجالا من مجالات العلوم العربية والإسلامية إلا وألفوا فيه.

ولهم بعض مؤلفات قيمة ذات فائدة علمية للباحثين، ولهم مؤلفات أخرى تزخر بالطعن في الإسلام، وتمتلىء بالأكاذيب التي ليس لها في سوق العلم نصيب. وسنتحدث بشيء من التفصيل عن بعض الأمثلة من هذه الكتابات عند عرضنا لآراء المستشرقين حول الإسلام في هذا الفصل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى بعض المؤلفات ذات القيمة العلمية كنماذج للمؤلفات المفيدة.

(أ) تاريخ الأدب العربي ....

من تأليف المستشرق الألماني كارل بروكلمان (توفي ١٩٥٦م) وهو كتاب أساسي في الدراسات العربية والإسلامية لا يستغني عنه باحث في الدراسات العربية والإسلامية، وقد قام بروكلمان بهذا العمل الضخم بمفرده.

ولا يقتصر هذا الكتاب على الأدب العربي وفقه اللغة، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الإسلامية. فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها والمطبوع. ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين. وقد صدر أولاً في مجلدين في عامي ١٨٩٨م، ١٩٠٢م ثم أتبعه المؤلف بثلاثة مجلدات تكميلية كبيرة

تضم في مجموعها حوالي ٢٦٠٠ صفحة في الفترة من عام ١٩٣٧م إلى عام ١٩٤٢م، ثم أعاد نشر المجلدين الأساسيين في عامي ١٩٤٣، ١٩٤٩ في طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية.

وقد حصلت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ــ إدراكاً منها لأهمية هذا الكتاب لكل باحث عربي ــ حصلت عام ١٩٤٨م على موافقة بروكلمان وإذنه بترجمة الكتاب إلى العربية، وقد بعث بروكلمان إلى الإدارة المذكورة بجزء كتبه بخطه وباللغة العربية يحتوي على تصحيحات وزيادات لغرض إلحاقها بالترجمة. وقد قام الدكتور عبد الحليم النجار رحمه الله بترجمة بعض أجزاء من هذا الكتاب إلى العربية بتكليف من الجامعة العربية، وصدر الجزء الأول منها عام ١٩٥٩م. ووصل ما صدر من أجزاء حتى الآن ستة أجزاء. وكانت الترجمة قد توقفت بعد وفاة الدكتور النجار وصدور الأجزاء الثلاثة الأولى.

وقد تم تقسيم الكتاب كله إلى ثمانية عشر جزءاً وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتوزيع باقي الأجزاء على مجموعة من الباحثين لترجمتها حتى يتسنى نشر الكتاب كله دفعة واحدة. وقد طُلب مني القيام بترجمة الجزء السابع عشر. وكانت المنظمة العربية تستحث الباحثين بين الحين والحين برسائل رسمية لإنجاز هذا العمل. ولكن رياح التيارات السياسية التي اجتاحت المنطقة العربية في السنوات الأخيرة عصفت بهذا العمل الثقافي البحت ولم نعد نسمع شيئاً من المنظمة العربية صاحبة التكليف بالترجمة ولا من أية جهة أخرى.

ويكفي هنا لتعريف القارىء بقيمة هذا الكتاب أن نورد السطور التالية من مقدمة الدكتور عبد الحليم النجار للكتاب .. والتي وردت في الجزء الأول من الترجمة العربية. يقول رحمه الله في بداية المقدمة :

« كان تعريب كتاب تاريخ الأدب العربي «لكارل بروكلمان» أملاً يراود كل قارىء بالعربية حينا يبحث في علوم العرب وآدابهم، أو يحاول سبر جهود العلم العربي ومتابعة خطواته في تأسيس ثقافة العالم الجديد وتنمية حضارته، أو يريد حصر ما تشتت وإحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربي في مكتبات العالم وخزائن الكتب، ليتخذ من ذلك آيات بينات للفخر والاعتزاز، أو عدة ومدداً للبعث والإحياء ، أو يتطلع أخيراً إلى معرفة ما ترجم إلى لغات العالم من ذلك التراث الخالد، وما أثير حوله من بحوث، وصنف من دراسات قدمت خطى العلم والأدب ودفعتهما إلى الأمام في الشرق والغرب».

وقد كان بروكلمان يدرك أن عمله في حاجة مستمرة إلى الإكمال ــ بناء على ما يكتشف من مخطوطات ولذلك كان دائب العناية بإكماله على مدى نصف قرن. ويقوم الآن الباحث التركي المسلم فؤاد سيزكين ــ بإكمال عمل بروكلمان، وذلك في كتابه (تاريخ التراث العربي) بالألمانية الذي ترجم بعضه إلى العربية، ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنوات.

(ب) دائرة المعارف الإسلامية ..

على الرغم مما لنا نحن المسلمين على هذه الدائرة من مآخذ كثيرة فإنها تعد ثمرة من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين. وقد تم إصدارها في طبعتها الأولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٣٨م. وقد تولت نقلها إلى العربية لجنة دائرة المعارف الإسلامية من خريجي الجامعة المصرية منذ عام ١٩٣٣م ولكنها لم تصل في الترجمة إلا إلى حرف العين .. وقد عمد المترجمون إلى نشر تعليقات هامة في أعقاب الكثير من المقالات لتصحيح الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون، وقام بكتابة هذه التعليقات مجموعة من العلماء المعروفين.

وقد تجاوز المستشرقون فيما بعد هذه الدائرة المتداولة، وقاموا بإصدار دائرة معارف إسلامية جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات. وقد ظهرت الطبعة الجديدة باللغتين الانجليزية والفرنسية فقط من عام ١٩٥٤م حتى عام ١٩٧٧م.

وقد أشار نجيب العقيقي إلى أن اللجنة العربية لترجمة دائرة المعارف ترجع الآن إلى الطبعة الجديدة إبتداء من حرف العين بدلاً من الرجوع إلى الطبعة القديمة التي تقادم بعض معلوماتها[٨].

(ج) المعاجـــم ....

للمستشرقين باع طويل في مجال المعاجم والقواميس اللغوية.

وقد سبق أن أشرنا إلى إنجاز أول قاموس لاتيني عربي في القرن الثاني عشر الميلادي. ونذكر في هذا الصدد أيضاً المعجم العربي اللاتيني الذي ألفه جورج فيلهلم فرايتاج [ت ١٨٦١ م] ذلك المعجم الذي لا يزال يستعمل حتى اليوم[٩]. بالإضافة إلى العديد من القواميس الصغيرة والكبيرة التي تجمع بين العربية وغيرها من لغات أوروبية مختلفة كالانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من لغات أوروبية أخرى.

وهناك مستشرقون ينفقون سني عمرهم في إعداد مثل هذه المعاجم. وحسبنا أن نشير إلى معجم اللغة العربية القديمة المرتب حسب المصادر، فقد قضى أوجست فيشر [ت ١٩٤٩ م] أربعين عاماً في جمعه وتنسيقه، وتعاون معه عدد من المستشرقين.

ونخص بالذكر هنا أيضاً المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذي يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل. وقد تم نشره في سبعة مجلدات ضخمة في الفترة من عام ١٩٣٦م حتى عام ١٩٦٩م. وتفيد من هذا المعجم الجامعات والمعاهد الإسلامية كافة في العالم.

أهــــداف المستشرقين ...

بعد أن تعرفنا على طرف من أعمال المستشرقين يستبد العجب ببعضنا وتعتريه الدهشة لموضوع الاستشراق ويتساءل :

ما الذي يدعو الباحث الغربي إلى بذل كل هذا الجهد والعمر والمال في دراسة عالم غريب عنه .. يدرس لغاته التي تختلف تماماً عن لغته، ويحاول جاهداً فهم آدابها وعقائد أهلها وتاريخهم؟

ما الذي يحمله على ذلك وقد كان في وسعه أن يوجه كل تلك الجهود لدراسة مجالات أوروبية أخرى يمكن أن تظهر فيها مواهبه وإمكاناته الفكرية من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون أكثر فائدة له من الناحية العملية؟ وكما يقول نجيب العقيقي :

«فلو أن أحدهم انصرف طوال حياته إلى كل الكلمات المتعارضة، أو جمع طوابع البريد النادرة، أو كتابة القصص البوليسي، بدل التحقيق والترجمة والتصنيف، لخرجت به من تلك الجزائر المتعددة التي يعيش فيها المستشرقون إلى العالم الرحب في القرن العشرين، ولعادت عليه برخاء من العيش وشهرة بين الناس وسلامة من النقاد»[١٠].

ويعتقد نجيب العقيقي أن الدافع العلمي كان وراء كل الجهود الاستشراقية . والعقيقي ــ على الرغم من أنه عربي ــ يعتبر نفسه واحداً من المستشرقين. فقد صنف نفسه في كتابه (المستشرقون) تحت عنوان المدرسة المارونية بوصفه واحداً من أتباع هذه المدرسة التي أسهمت بجهودها في مجال الأستشراق[١١].

ولكن المستشرق الألماني المعاصر «رودي بارت» يرى أن الدافع العلمي في الحركة الاستشراقية بدا أظهر ما يكون اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر. ويعني هذا في رأيه ان معظم الكتابات الاستشراقية قبل ذلك كان ينقصها الطابع العلمي. يقول «بارت»:

«... إننا في دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة»[١٢].

ولكن الأمر بالرغم من ذلك ليس أمراً عادياً أو من قبيل المصادفة .. فاتجاه الأوروبيين لدراسة الشرق وإقامة مؤسسة ضخمة لذلك هي مؤسسة الاستشراق لابد أن تكون وراءه أهداف معينة.

ويستطيع كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية. وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من إسار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلاً إلا بدرجة ضئيلة[١٣].

والهدف الديني للاستشراق كان يسير منذ البداية في اتجاهات ثلاثة متوازية تعمل معاً جنباً إلى جنب، وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يلي :

١ ــ محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه؛ وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه .. إلخ .

٢ ــ حماية النصارى من خطره بحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ــ التبشير وتنصير المسلمين. وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق.

وقد كان قرار «فيينا» الكنسي في ١٣١٢م وقرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج بعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون، وتأسيس مجلة العالم الإسلامي **The Muslim World** عام ١٩١١م عن طريق صمويل زويمر رئيس المبشرين في الشرق الأوسط، والذي توفي في أوائل الخمسينيات من القرن الحالي ــ كانت هذه بعض الشواهد الظاهرة في اتجاه خدمة الهدف الديني والعمل من أجله في محيط الاستشراق.

وإذا كان الهدف الديني لم يعد ظاهراً الآن في الكثير من الكتابات الاستشراقية فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً. إنه لايزال يعمل من وراء ستار بوعي أو بغير وعي. فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى ــ المشتغلين بدراسة الإسلام ــ وأكثرهم متدينون، أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في النصرانية ويهاجمها ويفندها مثل عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء ، كما أنه من الصعب عليهم أيضاً أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها[١٤].

ونحن إذ نسجل ذلك فإننا ننبه في الوقت نفسه إلى أن ذلك ليس حكماً عاماً على جميع المستشرقين. فهناك فريق من المستشرقين قد حاول جاهداً الالتزام بالحيدة والموضوعية وأنكر على كثير من زملائه نزواتهم التي انحرفت بهم عن النزاهة العلمية، وهناك من أنصف في جانب وتحامل في جانب آخر.

يقول «مونتجمري وات»:

«جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام. وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة. فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها».

ويقول «برنار لويس» :

« لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية».

ويقول «نورمان دانييل» :

« على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاماً»[١٥].

ولكن الهدف الديني لم يكن هو كل شيء، فقد كانت هناك أيضاً أهداف أخرى للاستشراق تقترب أو تبتعد من الهدف الديني. ومن هذه الأهداف ما يأتي:[١٦]

١ ــ أهداف علمية :

وقد كانت مقصد بعض من ظهروا في عصر التنوير في أوروبا، فمنهم من قرأ الكتب الدينية وفحصها وأدرك أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية ومؤيدة لما جاء في كتبها من إيمان بالله وكتبه ورسله ودعوة إلى الحق والخير والصلاح. ولكن هؤلاء كانوا قلة .

٢ ــ أهداف تجارية :

وقد ظهرت تلك الأهداف التجارية في عصر ما قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد كان الغربيون مهتمين بتوسيع تجارتهم والحصول من بلاد الشرق على المواد الأولية لصناعاتهم التي كانت في طريقها للازدهار. ومن أجل هذا وجدوا أن الحاجة ماسة للسفر إلى البلاد الإسلامية، والتعرف عليها ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية، حتى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد، وتحقيق ما يصبون إليه من وراء ذلك من تحقيق فوائد كثيرة تعود على تجارتهم وصناعتهم بالخير العميم.

ولذلك كانت المؤسسات المالية والشركات وكذلك الملوك في بعض الأحيان يزودون الباحثين بما يحتاجون إليه من مال، كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية.

ونظراً لأهمية الدين وتأثيره الفعال في الأخلاق والمعاملات فقد اتجه هؤلاء الباحثون لدراسته وكتابة التقارير وتأليف الكتب عنه.

ولكن هذه الطائفة كانت أيضاً قلة مثل الطائفة السابقة.

٣ ــ أهداف سياسية :

ظهرت تلك الأهداف السياسية واضحة جلية واتسع مداها باتساع رقعة الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عشر والعشرين كما سبق أنْ أشرنا إلى ذلك. واضطرت الدول الاستعمارية أن تعلم موظفيها في المستعمرات لغات تلك البلاد، وأن تدرس لهم آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسون هذه المستعمرات ويحكمونها، وقد اتجهوا في هذه المرحلة إلى العناية باللهجات العامية والعادات السائدة كما عنوا بالدين والشريعة.

فئات المستشرقين ...

ومن خلال هذا العرض السريع لأهداف المستشرقين المختلفة التي كانت تتداخل مع بعضها في أحيان كثيرة يتضح لنا أن المستشرقين فئات مختلفة تتراوح بين التعصب والإنصاف. فإذا تجاوزنا من لهم ميول تبشيرية خفية أو سافرة نجد أن المستشرقين العلمانيين ينقسمون إلى فئات مختلفة :

(أ) فريق من طلاب الأساطير والغرائب، من هؤلاء الذين افتروا على الإسلام واخترع خيالهم المريض حوله الأقاصيص الكاذبة. ولم يكن لهذا الفريق في سوق العلم نصيب. وقد ظهر هذا الفريق في بداية نشأة الاستشراق. واختفى بالتدريج.

(ب) فريق من المرتزقة الذين جندوا دراساتهم وبحوثهم في خدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعمارية. وقد أشرنا إليهم عند حديثنا عن الاستشراق والاستعمار.

(ج) وفريق من المتغطرسين الذين أخذتهم العزة بالإثم وأعمتهم الضلالة عن النزاهة العلمية، فراحت أقلامهم تقطر حقداً وعداوة وطعناً في الإسلام من أمثال: «بدويل» و«بريدو». و«سيل» من القرن الثامن عشر. وقد كان لكتابات بعضهم مثل «سيل» أثر كبير في الغرب لمدة طويلة. ويتساوى مع هؤلاء في الحقد والعداوة للإسلام مجموعة من الملحدين الذين ينالون من الإسلام نيلهم من النصرانية

(د) فريق تعرض للإسلام باسم البحث العلمي ولكنهم انحرفوا عن جادة الصواب فراحوا يتلمسون نقاط ضعف في الإسلام، ويشككون في صحة الرسالة الإسلامية، وفي التوحيد الإسلامي، وفي القرآن من حيث مصدره أو نصه، وفي الحديث من حيث صحته، وفي قيمة الفقه الإسلامي الذاتية، وفي قدرة اللغة العربية على التطور .. إلخ.

(هـ) وهناك فريق من المستشرقين التزم في دراسته للإسلام بالموضوعية والنزاهة العلمية وأنصف الإسلام والمسلمين. وقد أدى الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام[١٧].

(و) وهناك فريق من المستشرقين توفر على دراسة اللغة العربية وفقه اللغة والأدب العربي أو اشتغل بالمعاجم وما شابه ذلك، ولهؤلاء بحوث قيمة مفيدة.

ويهمنا عند عرض آراء المستشرقين حول الإسلام أن نناقش تلك الآراء الاستشراقية الأساسية التي ترسخت في الأذهان، وأصبح لها حجية أو شبه حجية. وخاصة إذا كانت هذه الآراء صادرة باسم العلم والمنهج العلمي واستخدام أساليب النقد والتحليل في البحث. فقد ينخدع بعضهم بتلك الشعارات العلمية. ولكن البحث والتنقيب في هذه الآراء يظهر لهم أنهم كانوا يجرون وراء سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاؤوه لم يجدوه شيئاً.

أما الفرق الأخرى فإما أن أمرها مفضوح، وغشها مكشوف، وكذبها صراخ، وهذه ليس لنا معها حديث لأن المستشرقين أنفسهم يعترفون الآن بأن مثل هذه الفرق لا وزن لها، وإما أنها فرق منصفة للإسلام أو لا صلة لدراساتها بالإسلام. ولذلك فهي بعيدة عن موطن الشبهات.

ولعلنا في مناسبة أخرى نعرض لآراء المستشرقين المنصفين للإسلام ونوفيهم حقهم من التقدير.

منهج المستشرقين ...

وقبل عرض أمثلة من آراء هذه الفئة التي صدرت آراؤها ومواقفها باسم العلم والموضوعية يهمنا هنا أن نتعرف على المنهج الذي يستخدمه المستشرقون في دراساتهم للإسلام.

يقول «رودي بارت» :

«... فنحن معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن[18].

وقد لا يبدو على هذا المنهج غبار من وجهة النظر العلمية. «فالقوم يدرسون العلوم الإسلامية العربية، ويضعون نظريات، ويكونون آراء في أثناء ما يقومون به من دراسات، ويهتمون بتقديم أدلة وأسانيد لهذه الآراء والنظريات، يستمدونها من المراجع الإسلامية نفسها، وهذا العمل في ظاهره عمل علمي سليم. ولكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه مصنوع، وكثيراً ما يكون الدافع إليه الرغبة في التجريح، وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية»[19].

فقد عرض مثلاً أحد المستشرقين المعاصرين وهو (جاستون فييت) في كتابه «مجد الإسلام» ـــ تاريخ الإسلام عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب ينضح بالحقد والطعن في الإسلام وتاريخه، لأن «جاستون فييت» اختار فقط النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اختاره هو سلفاً، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين[20].

والبحث العلمي النزيه لا صلة له إطلاقاً بالرغبة في الطعن والتجريح، والبحث عن نقاط الضعف والتشويه، وتسقط الأخطاء. والأسلوب العلمي يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التي نستنبط منها ما نستنبط من نظريات، ولكن الرغبة في التجريح والتشويه كثيراً ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من نظريات. «فهم لا يترددون في الاعتماد على الأحاديث الضعيفة وهم ينقبون في طوايا كتب التاريخ والسير عن أخبار ضعيفة غير ثابتة يدعمون بها آراءهم. ولهم صبر لا ينفد في استكشاف هذه المخبوءات واستغلال الضعيف من الدلالات. ومهما يكن من شيء فهم لا يستوعبون دراسة ما بأيديهم من المسائل، وكثيراً ما يغفلون النصوص والأخبار التي تناقض ما يقررون»[21].

وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم في شيء، وإنما هو انحراف عن النهج العلمي السليم. وهذا الانحراف العلمي هو للأسف طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام، الأمر الذي يجعلنا ـــ نحن المسلمين ـــ نقف من هذه الدراسات موقف الحذر، ويحتم علينا الكشف عما فيها من زيف وخداع.

فالكثير من النظريات والآراء التي يقولون بها مبنية على افتراضات لا أساس لها وتخمينات لا سند لها.

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا ـــ نحن المسلمين ـــ في الرأي حول الإسلام، وإنما الغريب أن يتفقوا معنا في الرأي، وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه ﷺ يختلف عن المنطلق الذي يصدر عنه تفكير المسلمين. ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة. فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التي تنظر إلى الإسلام على أنه دين سماوي ختم به الله الرسالات السماوية، وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، وأن القرآن الكريم وحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا مسلمين. وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لبعضهم ممن تحول إلى الإسلام. وهذا التحول إلى الإسلام يعني في الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقي.

ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام. ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم. فعندما أرفض وجهة نظر معينة لا بد أن أبين للقارىء أولاً وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها ثم لي بعد ذلك أن أوافقها أو أخالفها.

وعلى هذا الأساس نقول: إن الكيان الإسلامي كله يقوم على أساس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذي تلقى القرآن وحياً من عند الله. ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الإسلام حتى يستطيع القارىء أن يفهم سر قوة هذا الإيمان في تاريخ المسلمين[22]، ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين في معتقدهم وتصوراتهم أو يوافقهم «غير أن هذا المنهج المنطقي والطبيعي في العرض قلما يتبع مع الأسف، وكثيراً ما يحدث العكس. فيتعرض القارىء نتيجة لذلك ـــ ما لم يكن على علم ـــ إلى شيء من الإيحاء برأي معين، أو يتعرض على الأقل إلى اختلاط في الأمور يجعله عاجزاً عن التمييز بين الأصل المتوارث لدى جماعة المسلمين وبين رأي الكاتب. وهكذا نجد كثيراً من المستشرقين الذين يحملون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة يهملون ملاحظة مبادىء أولية للمنهج العلمي في معالجة المسائل التاريخية. فهم يؤكدون مثلاً أن القرآن من إنشاء محمد. ثم يذهبون مذهباً بعيداً في تأسيس الأحكام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد، وسرعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبة الحقائق»[٢٣].

وقد يكون صحيحاً القول بأن ألوان التحامل القديم على الإسلام قد خفت حدتها إلى درجة كبيرة منذ مطلع هذا القرن، ولكنها للأسف الشديد لا تزال تعيش قوية، ولا تزال هناك فئة من الباحثين الغربيين المهتمين بدراسة الإسلام تحرص حتى اليوم على نشر ألوان التحامل القديم في العالم الغربي على نطاق واسع بأساليب مختلفة.

فإذا عبر المسلمون عن استيائهم إزاء التحامل الظالم على الإسلام من جانب المستشرقين فإن هذا يعني في نظر بعض الباحثين الغربيين عدم قدرة المسلمين على فهم الأمور فهماً علمياً، فالمستشرقون ليس لديهم أحكام مسبقة كما نعتقد، والحقائق التي يتوصلون إليها تتسم بالحياد والموضوعية والعلمية[٢٤].

ومعنى ذلك أن علينا أن نتقبل ما يقوله السادة المستشرقون عنا وعن ديننا ونحن صاغرون، وليس لنا حتى مجرد حق التعبير عن الاستياء وإلا فنحن متخلفون جاهلون، قاصرون عن فهم الأمور فهماً علمياً.

ولست أدري من الذي ندب مثل هؤلاء الناس المتغطرسين لتنويرنا؟ ومن أعطاهم حق الوصاية الفكرية علينا؟

أليس هذا يعد تدخلاً سافراً في أخص أمورنا الذاتية؟ وهل يقبل هؤلاء أن نتدخل في أي أمر من أمورهم صغر أم كبر؟!.

الهوامش

(١) نشرت هذه الدراسة في الفصل الثاني من كتاب الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى الذي أصدرته رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في قطر، وأعيد نشرها بإذن منها ومن المؤلف.

(٢) طيباوي: (الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي، ص ٥٩٠).

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . ص ٢٧.

(٤) راجع العقيقي ٣٥٢/٣ وما بعدها. وكذلك ٥٩٨/٣. راجع أيضا: Fueck, op.clt. 189-191.

(٥) اللبان ص ٢٠.

(٦) نحن مدينون في هذا الجزء من الإحصاء بالشكر للأخ الفاضل الدكتور / حسن المعايرجي. وهو مهتم بموضوع ترجمات القرآن. وقد احصى حتى الآن ترجمات للقرآن الكريم في مائة وإحدى وعشرين لغةً في انحاء العالم كافة.

(٧) إدوارد سعيد ص ٢١٦.

(٨) العقيقي ٣٧٢/٣.

(٩) بارت ص ١٨

(١٠) العقيقي ٦٠٥/٣

(١١) لست أدري كيف ادرج نجيب العقيقي نفسه في عداد المستشرقين مع انه يتحدث عنهم بصيغة «الآخرين» فيقول مثلا: لقد بلغ المستشرقون من تعاليم لغتنا وحفظ تراثنا والكشف عن آثارنا وإحيائها بالنشر والترجمة والتصنيف ذلك المبلغ لمنهج ومميزات ووسائل لم تتوفر جميعاً (كذا) لنا من قبل. راجع ٥٩٨/٣. وإذا كنا ندهش لصنيع العقيقي فإننا في الوقت نفسه لا نقلل من قيمة الجهد الكبير الذي بذله في إعداد كتابه القيم « المستشرقون».

(١٢) بارت ١٠.

(١٣) إدوارد سعيد ص ٢٦٥.

(١٤) اللبان ص ٣٤

(١٥) نقلًا عن المرجع السابق ٣٦، ٣٧.

(١٦) انظر : الاستشراق للدكتور إسحق موسى الحسيني ١٥ ــ ١٧ (محاضرة في الموسم الثقافي للأزهر).

(١٧) راجع : العقيقي ٦١٩/٣ وما بعدها، والسباعي : الاستشراق ص ٢٢ وما بعدها.

(١٨) بارت ص ١٠.

(١٩) اللبان ٣٢.

(٢٠) انظر في ذلك النقد القيم لكتاب فييت «مجد الإسلام» للدكتور حسين مؤنس (ملحق بكتاب الدكتور البهي: الفكر الإسلامي الحديث من ص ٥٦٥ إلى ٥٧٧).

(٢١) اللبان ٣٣.

(٢٢) : د. حسين مؤنس (المرجع السابق) ٥٦٩.

(٢٣) طيباوي (الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي) ٥٩٢/٥٩١. أنظر ايضاً ص ٥٨٨.

(24) H.A. Flasher–Barnicol: Die Islamische Revolution, Stuttgart 1981, p. 60.

مواقف من الاستشراق الإفريقياني

ابراهيم اسحق ابراهيم

يسعى هذا المقال لخلق قران مقبول يستوعب إلى حد ما الاتجاهات الذهنية الصلبة التي تصر على الفصل بين حقلي الدراسات الشرقية والدراسات الإفريقية. وهذا الاستيعاب لا ينجح بأية درجة ما لم يمكن لخلق المعبر الفسيح بين الحقلين، بحيث تبدو التشابهات بين خواص هذه الدراسات، في حقليها الجغرافيين، متوحدة الملامح وخاضعة لأحادية في المنهج. ولنقل ببساطة ان الذهن الغربي الذي شكل المنهج التاريخي للدراسات الجارية في الحقلين الشرقي والإفريقي كان غير منشق على نفسه حسب الاتجاهين الجغرافيين. وإضافة لذلك فإن الزحف المستمر لرقعة التداخل بين الشرق وإفريقيا في خارطة العالم العربي الإسلامي كان مربكاً للمناهج الغربية وهي تتعامل مع إفريقيا العربية الإسلامية. وذلك الإرباك يتطابق تماماً مع إرباك أساسي يواجه تلك المناهج الغربية منذ عهد مبكر وهو طاقة الجماعة المسلمة، أينما وجدت، على مقاومة الضغوط العدائية الواقعة عليها. ومن هنا تتوحد جذور ومظاهر الجماعة العربية الإسلامية في الشرق وأفريقيا معاً، وتلزم دواعي هذا الاتحاد مناهج الباحثين الغربيين بالتماثل والتطابق.

ستحصر هذه المعالجة نفسها في بعض المهام والانجازات التي قام بها في إفريقيا رحالة وباحثون مثل هنريش بارت، لودفيج بوركهارت، جوستاف ناختيفال وليو فروبينيوس. ولنفترض منذ البداية أن اشتراكهم جميعا في الهوية الألمانية لم يكن تمييزاً لهم عما سواهم من الإفريقيانيين الغربيين، وهو أيضا قد لا يؤثر كثيراً في خطوط معالجتنا للظاهرة الإفريقيانية كاستشراق. ثم يتمثل النقاش الرئيسي لخطة هذا القران الاستشراقي الإفريقياني في ملاحظات تتخذ من بارت وفروبينيوس دون غيرهما بُورتين تطلع منهما أغلب أمثلتنا. أما كيف نستوعب هؤلاء الألمان الأربعة في دائرة الاستشراق كجسم معرفي، وفي ذات الوقت نتوصل للإقرار باسهامهم في ترقية المعارف الإفريقية، فهو أمر قد يحوجنا إلى البحث عن تعريف سائغ للاستشراق وتحديد للمسارات الانتقالية في رحلات هؤلاء الباحثين ثم مراجعة لما قد أنجزوا في كل من الحقلين الدراسيين.

أوجز أنور عبد الملك، صاحب المقالة المعروفة في نقد الاستشراق، نقلا عن موسوعة لاروس الكبرى، تعريفاً للمستشرق يقول: «العالم المتضلع في معرفة الشرق ولغاته وآدابه... الخ»(١). ثم قفا على آثاره إدوارد سعيد بتعريف مسهب هو: «فكل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه — ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخاً، أو فقيه لغة في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم هو أو هي بفعله هو استشراق»(٢). ويخلق هذان التعريفان مشكلة تنبع من مصطلح «الشرق»، لكننا نتجاوزها بتبسيط جغرافي عملي. فشرقي المتوسط بذاتيته الاسلامية العربية يفرض وجود جناحات متنامية لهذه الذاتية، على المستويين التاريخي والجغرافي. أما الجناح التاريخي فيتغلغل في أوربا وآسيا إلى أبعاد موغلة، ثم تقتضي الضرورة أن ينسحب عن بعضها من بعد. ويمتد الجناح الجغرافي ليغطي البلاد العربية والاسلامية والبقاع التي تأثرت بالعرق واللسان العربي، نطقاً أو كتابة، وبالثقافة الإسلامية، من أوربا الجنوبية حتى إفريقيا الإستوائية، ومن المحيط الهادي إلى المحيط الأطلنطي.

بمفهوم هذه الجناحات يتم تصنيف طائفة من الافريقيانيين كمستشرقين. وبينما ينظر كثير من المؤرخين في مجال الاستشراق إلى الباحثين الغربيين في مناطق شرق المتوسط ومصر والمغرب العربي بعين القبول، لا يكاد أحد يلقي نفس النظرة على بحاثة بلاد السودان وما يتبعها جنوبي الصحارى الإفريقية الكبرى إلا

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

بشيء من التجاوز. ولعل طائفة من المهتمين بالتصنيفات الاستشراقية لا يستطيع إطلاق صفة المستشرق على أي من الألمان الأربع الذين انتخبتهم هذه المعالجة إلا على ضوء من خلفيات رحلاتهم واهتماماتهم في شرق المتوسط وشمال إفريقيا العربية. ونجد مثالاً لهذا الموقف في مقال عنوانه «الرحالون الألمان إلى البلاد العربية»، كتبه محمد علي حشيشو [٣].

حظي بوركهات هناك بحوالي ثلاثين وستمائة كلمة كانت كلها عن مساعيه في مصر وجزيرة العرب. أما رحلته إلى شمال سودان وادي النيل عام ١٨١٣م فلم يشر المؤلف إلى ما تضمنتها أو نتجت عنها إلا في حوالى ستين كلمة فحسب. ورغم أن تلك الرحلة قد مدت المتخصصين في تاريخ المنطقة بمادة مرجعية تناهت في أهميتها[٤]، إلا أن الكاتب يوجز أخبارها في عجالة، قائلاً: «وكانت خطة بوركهارت أنْ يبدأ رحلته الاستكشافية الإفريقية من مصر فيلتحق بقافلة إلى فزان، وبعدها يواصل رحلته لاكتشاف منابع النيجر. وبينما كان ينتظر القافلة في القاهرة، تمكن من مقابلة محمد علي باشا، الذي أعجب بشخصيته وبعلمه، وأمده بتوصيات للقيام برحلة إلى النوبة. وإذ أعتبر هنالك جاسوساً لباشا مصر فقد مُنع من مواصلة رحلته، فالتحق بقافلة كانت تسير كل عام من الصعيد عبر الصحراء النوبية إلى سجندي وسنار. وفي سجندي[٥] تحول مع قافلة أخرى عبر طريق لم يطرقها أوربي بعد، تمر من بربر إلى سواكن، على البحر الأحمر، ومنها أبحر إلى جدة»[٦].

إن التقليل من شأن القطاع العربي الاسلامي بإفريقيا في معالجات مصنفين للاستشراق من النوع الأحادي النظرة قد تنجلي مثالبه إذا ما نظرنا إلى قائمة الرحالين الألمان إلى البلاد العربية كما عددّهم في مقاله محمد علي حشيشو. فهنالك فيلبراند فون أولدنبورغ، فيلهلم فون بولد نزيله، لودلف فون زودهايم، برنارد فون برايدنباخ، آرنولد فون هارف، تليهم بعثة جامعة جوتنجن التي نجا منها كارستين نيبور وحده، ثم أولرش ياسبر زيتسن، وأخيراً بوركهارت. وكل المذكورين، عدا بوركهارت، ساحوا في شرق المتوسط ومصر ولم يتعدوا تلك المناطق جنوباً أو غرباً. أما ناختيفال وبارث وفروبينيوس فألمان رحلوا في بلاد السودان وأثروا الدراسات الاستشراقية التي يصنف فيها حشيشو وأضرابه، لكن الذي قلناه في المبتدأ عن ذلك الفصل التعسفي بين الحقلين الاستشراقي والإفريقياني هو الذي يعيق النظر إلى تضمينهم وسط الرحالين إلى البلاد العربية.

ومع ذلك فإن ميل كثير من هؤلاء الباحثين الرحالة نحو كلية المعرفة (Polyhistory) كانت بمثابة قران كاف، في حد ذاته، للعبور بين الاستشراق والإفريقيانية. فقد دفعت بهم كلية المعرفة نحو تعدد الرحلات وتنويع الميادين، فذهبوا أحياناً إلى الحقل الشرقي وأحياناً تجولوا في الميدان الإفريقي. بوركهارت توزع بين جزيرة العرب ووادي النيل، ورحل بارت في الأناضول وأوربا الشرقية والجنوبية وبلاد السودان الغربي والأوسط[٧]، وركب فروبينيوس مع المراكبية العمانيين والحضارم عام ١٩١٥م في المحيط الهندي ليدرس أثرهم الثقافي على إفريقيا[٨]. وهكذا ينتج عن ذلك الازدواج في اجتهاد هذه الفئة من الباحثين تداخل في المعرفة والمعالجة بين الحقلين الشرقي والإفريقي، ثم ينطبع على مجالات هذا التداخل كله وسم المنهج الغربي السائد في الدراسة (أو الكتابة) عن «العالم المختلف» والمغاير للغرب، أكان شرقياً أو إفريقياً.

لتأكيد وحدة المنطلق والمنهج في الأبحاث الشرقية والإفريقية قد نسأل أنفسنا. إلى أي حد اختلفت نظرة الغرب إلى كل من شرق المتوسط وأفريقيا خلال الفترة الواقعة بين القرن الخامس عشر والعشرين للميلاد؟ وما نوعية العقول التي خططت للتعامل الغربي مع هاتين المنطقتين طوال هذه الحقبة؟ فمن الإجابة على سؤالين كهذين تنشأ متشابهات للخلفيات التاريخية والمحركات العقلية المؤثرة في الاستشراق والإفريقيانية، ويتأكد بذلك قالبهما المفرد. ومن ثم تعيدنا هذه التساؤلات للعروبة والإسلام ومواجهتهما للغرب. يستشهد غسان سلامة بقول لإدوارد سعيد (ثم ينقده) نصه هو أن «المشرق العربي والإسلامي واجه أوربا وحده بتحد لم تستطع تعديه، سياسي وثقافي وإلى حد اقتصادي»[٩]. وهذا التحدي الذي كان دينياً ولغويا وعرقياً يمتد من الفتح الاسلامي للشام والمغرب والأناضول عبر الحروب الصليبية وما بعدها. ثم تندمج العروبة اللغوية والعرقية في الإسلام خلال الأزمنة التي تنضم فيها إلى هذا الكيان المتحدي أعراق ولغات جديدة تشربت ثقافاتها بالإسلام والعربية والعروبة. يصور هشام جعيط، كما يروي غسان سلامة، هذا الاندماج بقوله: «ليست العروبة مفهوماً إثنياً حتى ولو كانت كذلك في البدء: إنها البوتقة الثقافية حيث تمازجت عناصر إنسانية شديدة الاختلاف مما سمح لها لاحقاً بالتعبير عن ذاتها»[١٠]. وتجيء

عناصر أخرى لتزيد الترابط الآسيوي الإفريقي، في إطاره الإسلامي والعربي، أمام مواجهة النهضة الأوربية الطالعة في القرن الخامس عشر الميلادي.

ضمن هذه العوامل نجد الجغرافي والتاريخي والحضاري. وناصيف حتي يستشهد ببيير رومدو ليؤكد أن التلاصق «الجغرافي بين إفريقيا والمنطقة العربية كان من أهم العوامل التي دفعت تاريخياً إلى تفاعل بين المنطقتين. وساهم ذلك في انتشار العقيدة الاسلامية في معظم أنحاء القارة الإفريقية. وبذلك نقلت إحدى بذور المواجهة العربية الأوربية إلى إفريقيا. فالتبشير المسيحي الذي استخدم في أحيان كثيرة كغطاء للاستعمار الأوربي التقليدي اصطدم بالانتشار الإسلامي وكان من بين أهداف الاستعمار محاولة احتواء النفوذ العربي ــ الاسلامي وإخراجه من قواعده في إفريقيا. كذلك ساهم التلاصق الجغرافي في تعريب شمال إفريقيا وأجزاء من شرقها في مرحلة مبكرة من مراحل الانتشار الاسلامي. وتواصل التفاعل بين شعوب السواحل الشمالية والشمالية الشرقية لإفريقيا في ظل الاستعمار الأوربي الذي وُجد في كل أنحاء القارة وساهم في ذلك التفاعل استمرار التجارة بين مراكزها التقليدية شمال وجنوب الصحراء»(١١).

هكذا تزامن التهديد الأوربي للشواطىء الإفريقية غرباً وشرقاً مع تهديد للشواطىء الجنوبية والغربية والشرقية لجزيرة العرب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وسرعان ما تحولت الاحتكارات التجارية كدافع لارتياد الشواطىء العربية إلى صراع حول الاستراتيجيات بين البرتغال وهولندا وإنجلترا وفرنسا. وفي نفس الوقت تحول الاحتكاك التجاري بين الأوربيين وأفارقة الشط الغربي إلى انتزاع مئات الآلاف من الأهالي وتحميلهم في السفن عابرات القارات نحو الأراضي الجديدة. أوربا في عصر الثورة الصناعية،وهي تبحث عن الأسواق والمواد الخام والمحطات الاستراتيجية، ظلت مهاجمة للشعوب الأخرى في القارات الخمس بضراوة. وبينما بلغت هذه المزاحمات الأوربية على استغلال إفريقيا وآسيا، تجارياً وسياسياً، قمتها في القرن الثامن عشر، ولدت ظاهرة الرحالة الأوربي الطامع في الوصول إلى أعماق جزيرة العرب ومجاهل إفريقيا. ومنذئذ، وعبر القرن التاسع عشر، حتى العشرين، تكاد تزدوج هذه المساعي نحو القارتين. فالحلم بدخول مكة المكرمة والمدينة المنورة يجاور الحلم باكتشاف منابع النيل والنيجر. في القرن الثامن عشر جاب جيمس بروس شواطىء البحر الأحمر من السويس إلى باب المندب ثم توغل في الحبشة ونهر النيل. ولما طلع القرن التاسع عشر رأينا بوركهات يزور بلاد النوبة، ويحاول السفر إلى فزان والنيجر، ثم يصل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. وربتشارد بيرتن يحضر في مكة عام ١٨٥٣ موسم الحج ثم ينزل إلى زنزبار عام ١٨٥٦ ليصحب سبيك في رحلته لاكتشاف منابع النيل.

لحد ما يمكن اعتبار المؤلفين من الرحالة الأوربيين إلى آسيا وإفريقيا طلائع للاستشراق والإفريقيانية. والقول بالتواطؤ الاستعماري للاستشراق لم يعد بدعة منذ ظهور كتابات شهيرة في هذا الحيز لنقاد مثل أنور عبد الملك، محمد البهي، فروخ والخالدي، مالك بن بني، إدوارد سعيد وهشام جعيط. أما كيف أسس الرحالة الأوربيون لزيادة المعلومات التي تطورت عليها كل من عمليات الاستشراق والاستعمار في مجاليهما فهي مسألة تحتاج إلى النظر في بعض المؤلفات التي أرخت لهذه الرحلات ومحركاتها الثقافية والفكرية. ونجد مثالين لهذه في كتابي جاكلين بيرين وساري ناصر(١٢). ولعل القرن السابع عشر هو الوقت المناسب للنظر لبدايات الاستشراق كعمل علمي معتبر حيث ظهرت كتب قواعد العربية وموسوعات عن العالم الاسلامي في أوربا.. كذلك انتشرت كراسي تعليم اللغة العربية في جامعاتها ثم أنشأت الجمعيات الخاصة بالدراسات الشرقية في هذا القرن والقرن التالي(١٣). لودفيكو دي فارتيما البولوني كان قد زار مكة المكرمة والمدينة المنورة عام ١٥٠٤ م على الأرجح متنكراً في زي المماليك، وسرعان ما ترجمت روايته إلى اللاتينية وانتشرت في أوروبا(١٤). وفي أواسط القرن السابع عشر وصل غريغوريو داكوادرا البرتغالي إلى المدينة المنورة مدعياً الانتساب للإسلام(١٥). وربما صح وصول المطران الهندي ماثيو دي كاسترو إلى المدينة المنورة عام ١٦٤٣(١٦). ثم في مطلع القرن الثامن عشر نشرت قصة زيارة الإنجليزي جوزف بيتس دكستير إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت ستار الرق(١٧).

مع تزايد أخبار الرحلات إلى شواطىء ومدن الجزيرة العربية ظلت إفريقيا مجهولة الأعماق حتى تنبه أوائل المستشرقين لترجمة أعمال الجغرافيين المسلمين. فمختصر لكتاب الإدريسي (ت ١١٥٤م) نشر في إيطاليا عام ١٥٩٢ وترجم عام ١٦١٩م. ثم ترجم لاروك كتاب أبي الفداء (ت ١٣٣١م) إلى الفرنسية عام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٧١٧ وصدرت باللاتينية في لندن عام ١٦٥٠م(١٨). وتوالت ترجمات للأصطخري والمقدسي وابن بطوطة (ت ١٣٧٩م) في القرن التاسع عشر. أما الأصول العربية لكتب الجغرافيين المسلمين، وفيهم بالإضافة إلى السابقين ابن حوقل (ت ٩٩٧م) والبكري (ت ١٠٩٤م) وابن سعيد والحسن بن الوزان (ت ١٥٥٠) وابن خلدون (ت ١٤٠٦)، فقد كانت الأساس لكتاب الجغرافي الإنجليزي وليام ديسبورو كولي المسمى (Negroland of the Arabs) الصادر في لندن عام ١٨٤٠م.

لكن قاعدة سبق الرحالة لأعمال المستشرقين فيما يخص استكشاف مجاهل القارتين لم تكسر في إفريقيا أيضاً. فكتاب الرحالة الإنجليزي براون «أسفار في إفريقيا ومصر وسوريا من ١٧٩٢ إلى ١٧٩٨» ظهر في لندن عام ١٧٩٩م. وكان هذا المغامر قد زار مملكة دارفور الإسلامية في بلاد السودان الأوسط آنئذ. وزار مملكة دارفور ذاتها وجارتها مملكة وداي بعد عام ١٨٠٣ الرحالة العربي محمد بن عمر التونسي. ثم ترجم أخبار سفرتيه الطبيب الفرنسي بيرو ونشرهما في باريس عامي ١٨٤٥ و١٨٥١ على التوالي. وفي الوقت الذي تجول فيه الرحالة الفرنسي كايو في نهر النيل الأوسط كان كلابرتون ودنهام وودني يستكشفون شمال ووسط إفريقيا بين ١٨٢٢ و١٨٢٤م. حول توالي الرحالة في زياراتهم لبلاد العرب إنطلاقاً من موقفهم كطلائع استراتيجية كتبت جاكلين بيرين متحدثة عن النفوذ الفرنسي في مصر وسوريا ولبنان وشمال إفريقيا وقتئذ: «وهذا ما يفسر معنى وجود الفرنسيين في البحر الأحمر اعتبارا من عام ١٨٣٠. ولم تكن غايتهم من ذلك رسم خرائط لسواحله، بل كانت الحبشة هي التي اجتذبتهم، فلم يمر كومب وتاميزيه وفيّره وغالينيه وروشه وهيريكور بشبه الجزيرة العربية إلا سعياً وراء هدفهم الحقيقي في مكان آخر»(١٩). ورغم سلامة طوية كثير من الكتاب الرحالة وحرصهم على تصوير الحياة العربية والإفريقية على الهيئة التي شاهدوها إلا أن تعميم إدوارد سعيد اللاذع حول موقف غالبيتهم غير الإرادي، رحالة ومستشرقين، يظل واضحاً للعيان. في رأي إدوارد سعيد: «ذلك أنه في اللحظة الحاسمة التي كان فيها على المستشرق أن يقرر ما إذا كان ولاؤه وتعاطفه مع الشرق أو مع الغرب الفاتح، اختار المستشرق الغرب دائماً، منذ زمن نابليون وحتى اللحظة الحاضرة»(٢٠)

في كتابه «جاذبية الإسلام» ١٩٨٠، والذي حوى رداً على الهجوم الذي شنه المشارقة على الاستشراق، سرد مكسيم رودنسون تاريخ المواجهة الثقافية والفكرية الناتجة عن الاحتكاك طويل الأمد بين الشرق والغرب، ثم توصل لرأي نير حول مذاهب الاستشراق. قال رودنسون: أن الشك العقلاني الأوربي كان ينظر للإسلام كدين عقلاني بمقابل الدغماطية الكاثوليكية، وكان ينظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم كحاكم سموح وعادل، وأن أوربا القرن الثامن عشر نظرت نحو الشرق المسلم بعين صديقة ومتفهمة. ثم يردف: «هذه النظرة العقلانية الموحدة سوف تنكسر خلال القرن التاسع عشر إلى ثلاثة تيارات متمايزة: الأول هو الاستشراق الاستعماري النفعي الساعي وراء المعلومات الضرورية لتثبيت هيمنة المستعمر وإزاحة العقبات أمام تقدمه، والثاني هو الاستشراق العاطفي الشعري الباحث عن إثارات غريبة خارج أوربا القديمة المضجرة، والثالث هو تيار التجميع العلمي الأكاديمي المنكب على تكوين جهاز علمي ذي مستوى عال لفهم الشرق»(٢١).

هذه الأطر كانت أحب إلى قلب غسان سلامة من تجاهل إدوارد سعيد النسبي لبعض المكاسب المهمة التي يمكن تحصيلها من أعمال المستشرقين الجديين، ومن تذويب أنور عبد الملك للحصيلة الاستشراقية في حركة تحرر شعوب العالم الثالث من الإمبريالية، ومن تناسي هشام جعيط للخطر الكامن في التعلم على أيدي المستشرقين دون تخل لمواقفهم.(٢٢) وهذا الشمول من غسان سلامة يشبه كثيرا التفهم الذي يبديه رضوان السيد وهو يداور حول الرافضين مطلقاً للاستشراق، واللائذين دائما بالمادة الاستشراقية كمعين، ومقلدي المستشرقين، ليؤكد جدوى التأمل النقدي الاستشراقي الرصين، ذلك الذي لا يلمز الاستشراق في جهده ولا تعشى أبصاره البهرجات(٢٣). مثل غسان سلامة ورضوان السيد يبرز موقف عقلاني من الاستشراق للشيخ حمد الجاسر وهو يشهد مؤتمر باريس عام ١٩٧٣. فالجاسر يعترف بالإسهام العلمي للإستشراق في إحياء التراث العربي وفي توصيف وفهرسة المادة المتغربة الموجودة في دور الحفظ الغربية. ومع ذلك فإن الدور الاستعماري لقطاع معين من الاستشراق لم يغب عن باله، ويرى الجاسر أن ذلك الطور يغالب فقط بالعلم المتنامي الذي يشيده ويتربى عليه المشارقة(٢٤).

يمكننا أن نتعرف على النماذج الثلاثة التي شخصها مكسيم رودنسون في أوساط المستشرقين الألمان الذين عملوا في الحقل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإفريقي خلال فترات متفاوتة من القرنين التاسع عشر والعشرين. فالمتواطىء الاستعماري هو كارل هينر ش بيكر، مؤسس (مجلة الإسلام) الألمانية والمتوفى عام ١٩٣٣. وكان بعض البحاثة العرب قد برأ الاستشراق الألماني تماماً من أية أهداف استعمارية أو تبشيرية أو عداء للعرب أو الإسلام.(٢٥) ثم حصل الرايخ الألماني منذ عام ١٨٨٥ على مستعمرات إفريقية يقطنها مسلمون في الساحل الشرقي وبقيت فيها حتى عام ١٩١٨. وقد دفع هذا الوضع بسمارك لتأسيس معهد اللغات الشرقية ببرلين عام ١٨٨٧ وتجهيزه للحصول على معلومات عن الشرق الإسلامي ولإعداد موظفين يلمون باللغات الشرقية كي يعملوا في السلك الدبلوماسي أو التبشير الديني. ويشهد أوليريش هارمان على انغماس بيكر في المؤامرة الاستعمارية الألمانية بإفريقيا في قوله :«كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام ١٩١٩ أقل براءة وصفاء نية، فقد كان كارل هينرش بيكر — وهو من كبار مستشرقينا — منغمساً في النشاطات السياسية، حتى إنه أصبح في عام ١٩١٤ شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في إفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين».(٢٦)

أما في جانب الاستشراق الإفريقياني الجدي والملتزم فيبرز ألمان متأخرون مثل أوغست فيشر الذي تخصص في المغرب العربي وأنو ليتمان الخبير في الدراسات الحبشية. فإذا عدنا إلى عصر الرحالة هواة المعرفة الكلية في أواسط القرن التاسع عشر واجهنا عملاقان في الكشف الجغرافي والتاريخي والإثنوغرافي واللغوي لبلاد السودان هما هنريش بارت وجوستاف ناختيقال. وكان بارت قد طاف في غرب ووسط إفريقيا بين الأعوام ١٨٤٩ و١٨٥٥ حيث زار مملكة باقرمى وبلاد الفولبا والهوسا والكانوري. وساعده تحدثه اللغات المحلية الانفة الذكر وتمكنه من العربية وتأقلمه على عادات الأهالي المسلمين في لباسهم ومآكلهم وأخلاقهم الحميدة على اكتساب الاحترام في أوساط الجماعات والسلطات الإقليمية التي مرّ عليها. ولم يغفل بارت عن الاطلاع على كتاب وليام ديسبورو كولى حول جغرافية غرب إفريقيا وكذلك على كتاب كلابرتون ودنهام (Narratives of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa) الصادر في لندن عام ١٨٢٦. وإلى جانب هذين استخدم بارت مؤلفات الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن العلاقات التجارية والسياسية الباكرة بين ممالك بلاد السودان ودويلات طوائف شمال إفريقيا. وكانت ثمار رحلته مدهشة في حقول الجمع اللغوي والأدبي والتاريخي والجغرافي. ويعتبر كتابه (Resien in Afrika) بمجلداته الخمسة، بالإضافة لما سبق، إسهاماً عظيماً في مجال الرصد الإثنولوجي.

تجول بارت في بلاد السودان الغربي في وقت لم تنضج فيه دراسات اللغات الشرقية، هذا إلى جانب أن المنطقة التي ساح فيها ظلت حتى يومذاك شبه مجهولة لدى الأوربيين. وكانت حركة التوغل الإسلامي في بلاد السودان، والتي بدأت منذ القرن الهجري الخامس، قد جمعت بين العرب والبربر وشعوب السافانا جنوبي الصحارى الإفريقية الكبرى طوال القرون العشرة التي تلت، جمعتهم في المغازي وفي التجارة والدبلوماسية وفي قوافل الحج وطلب العلم. وكان في مقدور بارت أن يتعرف على تاريخ هذا التوغل الإسلامي الطويل الأمد في تلك المناطق من خلال المخطوطات التي إطلع عليها وأجتزأ منها لأوربا لأول مرة مثل كتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي تلميذ أحمد بابا التمبكتي المسمى «تاريخ السودان»، وكتاب «تزيين الورقات بجمع مالي من الأبيات» لعبد الله شقيق الداعية الكبير عثمان بن فوديو، وكتاب «الإنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» لمحمد بيلو بن عثمان بن فوديو. ورغم أن ترجمة إنجليزية للكتاب الأخير كانت قد أضيفت لكتاب كلابرتون ودنهام عام ١٨٢٦ إلا أن «تاريخ السودان» لم ينشر إلا عام ١٨٩٨ كما لم ينشر «تزيين الورقات» إلا عام ١٩٢٠. وقد استند بارت إلى فحوى هذه المخطوطات وإلى المتواتر الشفهي الذي عاصره مما يرويه الأهالي عن مغازي المرابطين وعصور ازدهار ممالك غانا وسنغاي وكانم وبرنو وودّاي ثم حركة الفولبا السلفية لكي يسجل صورة تاريخية رائدة لانتشار الاسلام واللغة العربية في بلاد السودان. وبذلك تم إدراك الجاذبية التي نالها الاسلام في تلك المناطق عندما ذوّب الخلافات القبلية والعشائرية وأقام حكماً موسعاً ومستقراً تحت زعامة ملوك أسلم أسلافهم ثم تمسك الأخلاف من بعدهم بعقائدهم وممارساتهم.(٢٧)

يلخص فيلكس كلاين فرانكه الإنجاز الاستشراقي الإفريقياني لبارت في ثلاثة مقاطع. ثمن عمله في مجال التاريخ يقول:« إن أبحاث بارت في تاريخ السودان ذات قيمة لا تقدر لأنها تعتمد إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حد بعيد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد وكانت مجهولة في أوربا تقريباً. وقد قام بارت بفحص النصوص ومقارنتها وبالتدقيق في صحة معلومات الجغرافيين العرب وبتقديم افتراضات وتعليلات وتصويبات حيثما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف في المعلومات».(٢٨) وعن عنايته بالمعارف الجغرافية والإثنولوجية واللغوية على السواء يقول فيلكس: «لقد قام بارت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة عن السودان. ولم يستفد من أبحاثه واكتشافاته حقلا الجغرافيا والإثنولوجيا فحسب، وإنما أفاد الاستشراق من ذلك بنفس القدر. فلم يبحث أحد من قبله تاريخ الإسلام في السودان كما فعل هو. ولكن كتابه «رحلات في أفريقيا» لا يعتبر مصدراً لا ينضب بالنسبة للمؤرخ فحسب، بل وكذلك بالنسبة لعالم اللغة بين المستشرقين».(٢٩) أما عن مكانة عمل بارت في ترسيخ أقدام الاستشراق ببلاد السودان فيقول فيلكس: «فالسودان مثلاً، ظل، بغض النظر عن التاريخ العربي، فترة طويلة على هامش الدراسات والأبحاث الاستشراقية. وحاول بارت منذ ذلك الحين مواجهة هذه العزلة، وذلك بنقله للأبحاث الاستشراقية من حدود الشرق إلى قارة جديدة، إلى عالم جديد، يحتاج إلى مزيد من التقصي والاستكشاف».(٣٠)

إن الوضع الحالي للغة العربية كوسيلة للتفاهم بين شعوب قطاع كبير من غرب إفريقيا، وكمخزن تأثير ثابت على لغات متميزة كالهوسا والفولاني والماندي والصنغاي والولوف والكانوري، إنما ينبع التأريخ له من الملاحظات الأولية التي قدمها بارت في أواسط القرن التاسع عشر. فبالإضافة إلى التقارب الذي صنعه الإسلام واللغة العربية بين شعوب غرب إفريقيا، ساعدت العقيدة واللغة أيضاً على ربط غرب إفريقيا بالكيان العربي الإسلامي العريض بشكل ثابت. صورة ذلك الربط نراها في عبارات لمحمد جلال عباس تقول: «إن هذه الشعوب الإفريقية التي دخلت الإسلام قد أصبحت بحكم إنتمائها إلى الأمة الاسلامية على صلة بلغة الأقوام التي تعربت في الشمال الإفريقي والتي ترجع إلى أصول عربية في الشمال الإفريقي أيضاً وفي الشرق الأوسط وبخاصة مهبط الوحي في الحجاز. فقد انفتحت العلاقات عبر الصحراء تجارياً وسياسياً، وامتدت على طريق الحج مما ألزمها باستخدام اللغة العربية للتفاهم عبر هذين المحورين».(٣١)

ولأن ناختيغال لم يكن أقل حرصاً على الجدية العلمية من بارت فإننا لن نمكث لديه طويلاً. ففي الأعوام ١٨٧١ و١٨٧٤ رحل ناختيغال من طرابلس الغرب عبر فزان إلى أربع ممالك إسلامية تقع في بلاد السودان الأوسط والشرقي هي كانم وبرنو حول بحيرة تشاد ثم شرقاً إلى مملكتي ودّاي ودارفور، ومنها نزل مع النيل إلى مصر. وقد جاء كتابه ذي المجلدات الثلاثة (**Sahara Und Sudan**) والمطبوع في برلين عام ١٨٧٩ حاوياً لمادة غنية بسجل التراث الشفهي التاريخي والملاحظات الجغرافية والإثنوغرافية التي أثارت كثيراً من حيوات المناطق التي زارها. وبالطبع لا ينكر أحد أن الإمبريالية، في عصر التكالب على إفريقيا، تمكنت من استخدام هذه المجهودات العلمية كي تشق طريقها إلى هذه المناطق الإفريقية، لكن ذلك لا يضيف الاستشراق الجدي غير المتواطىء بالضرورة إلى الأدوات الاستعمارية التي كانت للإمبريالية جاسوسها الحضاري وشاهد الزور واللسان المبرر لمخططاتها وأوزارها.

ونصل إلى ليو فروبينيوس (١٨٧٣ ــ ١٩٣٨) فنجد صورة نافرة للتمازج بين مدلل الأجهزة الاستعمارية والهاوي «العاطفي الشاعري الباحث عن إثارات غريبة خارج أوربا القديمة المضجرة» كما يقول رودنسون. فبدلاً من الاستفادة من إنجازات بارت وبراون وناختيقال واضرابهم، أو تفهم الوعي الذي جلبه القرن العشرون للعلوم الاستشراقية في مجالات الإثنوغرافيا وقرباتها خاصة، نرى فروبينيوس يتردى في طلب صورة الشرق الوهمي الذي كان يبحث عنه لين ولامارتين وفلوبير ونرفال وشاتوبريان، وفي نفس الوقت يشارك أثنين من أكثر رواد الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر تعالياً وبغضاً لأهل البلاد المرتادة كل عيوبهما، ونعني بهما جورج فورستر سادلير المبعوث البريطاني في بومباي وجيفورد بلغريف.

شغل فروبينيوس بتجميع مواد إفريقية صنفت تحت علم الانثروبولوجيا الثقافية. وقد رفضت له إحدى شعب الدراسات الإفريقية بألمانيا أطروحة للدكتوراة فصرف النظر عن مساعيه الأكاديمية وصار إثنوغرافياً هاوياً. ثم قام فروبينيوس ما بين ١٩٠٤ و١٩٣٥، أي بعد إستتباب الأستعمار في معظم البقاع الإفريقية، بإثنتي عشر رحلة إلى هذه القارة حيث طاف بأركانها، فالتقى بأقزام الكنغو والبربر وعرب جبال الأطلس وفزان والهوسا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واليوروبا في غرب إفريقيا والسواحليين بشرقها. وقد جمع فروبينيوس من المواد الثقافية ما كونت متحفاً يعرف باسمه في فرانكفورت. أما مؤلفاته، وكلها تدور حول الثقافات الإفريقية، فقد بلغت نيفاً وأربعين مجلداً. وكانت زيارته للخرطوم وكردفان قصيرة جدا إذ لم يمكث إلا ما بين منتصف فبراير ومنتصف إبريل من عام ١٩١٢. وكانت كردفان محطاً لرحلات علمية مثمرة خلال القرنين السابقين أشهرها التي كانت لروبل ١٨٢٩ والدكتور شارلز كني ١٨٥٧ ثم براو ١٨٧٦. ومثلما حضر علي بك (أو دمنغو باديا أي لبليخ الإسباني) في مكة عام ١٨٠٦ موكب الحج للإمام سعود بن عبد العزيز، كان فروبينيوس في مدينة الأبيض عاصمة كردفان يوم ١٩١٢/٢/٢٧ حينما وصلها لورد كتشنر لافتتاح خط السكة الحديدية الواصل إلى هناك.

كان يصحب فروبينيوس، الذي لا يتكلم أية لغة غير أوربية، في رحلة كردفان، دليلاً يرجح كونه شامياً ويدعى محمد الموقاقسي. وكانت السلطة الاستعمارية في السودان ابان حكم الإنجليز تهوى استعمال الشوام في قلم المخابرات. ولهذا يرجح أن السلطات الاستعمارية قد ألحقت ذلك الدليل بفروبينيوس حتى يقوده حيث تشاء السلطات ويكون عيناً عليه. ولما لم يعطنا فروبينيوس أية إشارات تخص طريقة جمعه للتراث الشعبي الذي حصله في كردفان فإن الاحتمال قائم بأن المترجم كان قد ساق فروبينيوس إلى أوساط التجار الصعايدة والإغريق والهنود واليهود والحضارم واليمنيين في الأبيض ولم يتركه يتعرف على أهل البلد. وفي عام ١٩٢٣ خرجت الحصيلة التي جمعها فروبينيوس من رحلته تلك تحت اسم (حكايات شعبية من كردفان)[٣٢].

ضمت هذه المجموعة الحاوية لإثنتي عشر حكاية ومعها مقدماتها كل ما يمكن أن يعد نابياً في حق الثقافة السودانية. فعلى غرار فلوبير ولين كان فروبينيوس يؤمن بأن الشرق وإفريقيا تتصفان بانعدام الاحتشام في المسائل الجنسية، في واقع الحياة وفي الأدب على السواء[٣٣]. ويقود هذا الرأي أصحابه إلى الاعتقاد في وجود الإباحية والإفراط الجنسي والشذوذ لدى الأمم الشرقية والإفريقية. وبعدئذ فهذا النمط المفترض في صورتهم الشرقية أو الإفريقية لا يتغير مع الزمن. ويكفي لمن يجمع الإثنوغرافيا من الشرق أن يقرأ ترجمات بيرتن وليتمان وغيرهما لكتاب (ألف ليلة وليلة) ثم يذهب إلى الشرق ليجد الدلائل على استمرار تلك الخواص الشاذة بين الأهالي. وكان المناخ الأخلاقي المتشدد في العصر الفكتوري بأوربا مساعداً على نشر هذه الصور التي يؤمن أولئك الكتاب برواجها لدى المجتمعات العفوية أو الهمجية، كما يدّعون ، في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وأوشانيا. ولم يمض زمن قليل حتى كانت دور النشر الغربية تخرج تلك الحكايات التي جمعها فروبينيوس من كل أنحاء إفريقيا تحت بند «الإيروتيكا» أو المثيرات.

كان فروبينيوس كما تدل مقدمته للمجموعة الكردفانية حريصاً على اصطناع علاقات غير موجودة بين حكاياته الإفريقية، خاصة الكردفانية منها، و(ألف ليلة وليلة). ويبدو أنه جاء إلى الأبيض لا لشيء إلا لسماع حكايات تؤكد نظريته هذه. وهذا الشعور يجعل الدليل المترجم يقوده فقط إلى أوساط الغرباء حيث يتوقع سماع مثل تلك الحكايات. فإذا أضفنا إلى ذلك رحلة فروبينيوس عام ١٩١٥ على سفينة شراعية مع المراكبية الحضارم كي ينظر في احتمالات تأثيرهم على ثقافات شرق إفريقيا لاحظنا كيف كان يفكر عام ١٩١٢ ابان زيارته لكردفان. وعلى كل حال فإن مقدمته للحكايات الكردفانية كانت صريحة إذ يقول «إني أرى بين القصص التي جمعتها في السودان والقصص التي قرأتها في (ألف ليلة وليلة) شبهاً كبيراً يثير التفكير في الرابطة بين الأبيض مثلاً في غرب السودان وفارس بلاد العجم. يخيل إليّ أن النبع الذي نقل منه السودان هو عين النبع الذي نهل منه مبدعو (ألف ليلة وليلة)»[٣٤].

وهكذا يسقط فروبينيوس في أخطاء المناهج والتطبيقات المعهودة للمدرسة الانتشارية (Diffusionist) في دراسات التراث الشعبي والأديان واللغات وغيرها حيث لا تفسر التماثلات بين تراث الشعوب المتباعدة إلا من خلال نظرية الاحتكاك والاتصال والاستلاف.

كان لقصر المدة التي قضاها فروبينيوس في كردفان، وانحيازه إلى فكرة النمطية الشرقية الثابتة حتى قبل أن يبدأ جولته، وعدائه للأهالي ثم إلتصاقه بالسلطات الاستعمارية، كان لكل هذه اليد الطولى في جعل إسهامه الاستشراقي الإفريقياني المفرد يمثل فشلاً ذريعاً. وبذلك صارت مادته مصطنعة في الجمع ومغلوطة في التعليل والتفسير. ورغم أن فروبينيوس كان في مجالات إفريقيا المدارية أكثر نجاحاً، الشيء الذي أكسبه عطف حركة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

«الزنوجة» (Negritude) التي يمثلها ليوبولد سيدار سنغور وأنصاره، إلا أنه في سودان وادي النيل كان عدائياً وخارجاً عن مألوف العلماء. ففي المقدمة لمجموعته من حكايات كردفان وصف فروبينيوس سكان المنطقة الوسطى من نهر النيل بالبربرة والجهل وما رأى في أرضهم إلا سماجة الطبيعة كما يقول.(٣٥) وهذا يذكرنا بسادليير وبلغريف الذين رميا بدو الجزيرة العربية بأوصاف فادحة مثل الهمجية والفساد(٣٦). ومن ثم يعيدنا هذا النهج المغرض إلى طائفة المستشرقين دعاة الخصوصية السفلى لكل ما هو غير أوربي أو ليس بغربي.

بدا فروبينيوس عام ١٩١٢ في كردفان، بملابسه الأفرنجية ولغته الأوربية ودليله الشامي، أبعد ما يكون من هيئات بوركهارت وبارت وناختيقال الذين سافروا في ملابس الأهالي وبين جماعاتهم وشاركوهم طعامهم وتكلموا لغتهم ثم احترموا كل ما يخصهم. لكن فروبينيوس ظل يمشي في رحاب الاستعمار الإنجليزي الذي حطم قبل ثلاثة عشر عاماً فقط من وصول فروبينيوس إلى تلك البلاد ثورة السودانيين الكبرى المعروفة بالمهدية، ثم لم يتوقف حتى عام ١٩١٢ من اغتيال الأهالي تحت حجج إخماد الثورات الدينية. ومن طرف ثان فإن فروبينيوس لم يعرف عن سودان وادي النيل إلا ما هو مسطر في كتب الاستعداء الاستعماري السافر التي نشرها ريجنالد ونجت لكي يكسب بها تأييد مواطنيه لفكرة إعادة فتح السودان وهي (عشر سنوات في الاعتقال) ١٨٩٢ للقس أهرولد، و(السيف والنار في السودان) ١٨٩٦ لفون سلاطين، ثم (المهدية في السودان المصري) ١٨٩١ لونجت نفسه. وهكذا كان فروبينيوس يومئذ في واد وأهل البلد في واد آخر.

شهدت العقود الأولى من القرن العشرين سيطرة المستشرقين والإفريقيانيين من موظفي الاستعمار في معظم بلاد شرقي المتوسط وإفريقيا. فهنالك جلوب في الأردن وكرومر في مصر وماكمايكل في السودان وميك في نيجيريا وكاربو في شاد وهلم جرا. ثم تعلم أبناء البلاد المستعمرة، بعضهم على أيدي المستشرقين، وبعضهم على أيدي الإفريقيانيين الغربيين، حتى أصبح هؤلاء البلديين، تدريجياً، هم الإختصاصيين في شئون بلادهم. وهنالك آراء كثيرة تتصارع الآن حول مصير الاستشراق، وربما تواجه الإفريقيانية نفس الموقف. لكن الذي نميل إلى تأكيده في كلتي الحالتين هو رأي جدير بالتدبر يضعه غسان سلامة هكذا: «في اليوم الذي يضطر فيه الغرب لترجمة دراساتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عن بلداننا، باعتبارها أفضل المراجع المتوفرة عنا، نكون قد بدأنا دق المسامير في نعش الاستشراق».(٣٧) ولا نرى حتى الآن ما يمنع أن يصدق هذا القول في الوقت نفسه على الإفريقيانية المستوردة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هـوامش

(١) أنور عبد الملك (١٩٨٣)، «الاستشراق في أزمة» في مجلة **الفكر العربي** بيروت، ع ٣١، ج ٥، يناير — مارس ١٩٨٣، ص ص ٧٠ — ١٠٥.

(٢) إدوارد سعيد (١٩٨١)، **الاستشراق**، تعريب كمال أبو ديب، بيروت ص ٣٨.

(٣) محمد علي حشيشو (١٩٨٢)، «الرحالون الألمان إلى البلاد العربية»، في **المستشرقون الألمان**، إعداد صلاح الدين المنجد، بيروت، ص ص ٧٩ — ٩٢.

(٤) نتج عن رحلة بوركهارت الى النوبة كتابه **Travels in Nubia, 1819** وهو مؤلف يتخذه دارسو تاريخ السودان الوسيط مرجعاً أساسياً. أنظر أعمال كرافورد، ماكمايكل، هولت، رتشارد هل، شبيكة، سبولدنق، يوسف فضل حسن، ومصطفى محمد سعد.

(٥) المقصود مدينة (شندي) التاريخية في شمال السودان. وهذا الخطأ المتكرر لا يجوز عزوه للمطابع.

(٦) محمد علي حشيشو، المرجع السابق.

(٧) فيلكس كلاين فرانكه (١٩٨٢)، «أبحاث هنريش بارت في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية في إفريقيا»، ترجمة محمد علي حشيشو في **المستشرقون الألمان**، المرجع السابق، ص ص ٣٩ — ٥٤.

(٨) ابراهيم اسحق ابراهيم (١٩٨٢)، «كردفان ليوفروبينيوس» في جريدة **الصحافة** السودانية، الخميس ١٩٨٢/٧/٢٩، ص ص ٤ — ٥.

(٩) غسان سلامة (١٩٨١)، «عصب الاستشراق» في مجلة **المستقبل العربي**، بيروت، ع ٢٣، ج ٣، يناير ١٩٨١، ص ص ٤ — ٢٢.

(١٠) غسان سلامة، المرجع السابق.

(١١) ناصيف حتي (١٩٨٣)، «العرب والأفارقة في عالم متغير» في مجلة **المستقبل العربي**، بيروت، ع ٥٤، مج ٦، أغسطس ١٩٨٣، ص ص ٤٥ — ٧١.
(١٢) جاكلين بيرين .(ب ت) اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت. **Sari j. Nasir (1979), The Arabs and the English, London.**
(١٣) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ١٦ وانور عبد الملك، المرجع السابق، ص ٧١.
(١٤) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٣٨ — ٥٣.
(١٥) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٦٥ — ٦٦.
(١٦) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٩٠ — ٩١.
(١٧) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٩٢ — ٩٦.
(١٨) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ١٣٦ — ١٤١.
(١٩) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ٣٢٦.
(٢٠) إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص ١٠٧.
(٢١) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ١٦.
(٢٢) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ص ٥ — ١٤.
(٢٣) رضوان السيد (١٩٨٣)، «ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق بالغرب» في مجلة **الفكر العربي**، المرجع السابق، ص ص ٤ — ٢٣.
(٢٤) حمد الجاسر (١٩٨٠)، **رحلات**، الرياض، ص ص ٢٩٩ — ٣١٩.
(٢٥) ميشال جحا (١٩٨٣)، «الاستشراق الألماني المعاصر» في مجلة **آفاق عربية**، بغداد، ع ١٠، مج ٨، حزيران ١٩٨٣، ص ص ٤٥ — ٤٩.
(٢٦) محمود حمدي زقزوق (١٤٠٤هـ)، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، قطر، ص ص ٤٤ — ٤٥.
(٢٧) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.
(٢٨) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.
(٢٩) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.
(٣٠) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.
(٣١) محمد جلال عباس (١٩٨٣)، «اللغة العربية في إفريقيا» في مجلة **الدارة**، الرياض، ع١، مج٩، يوليو ١٩٨٣، ص ص ١٧٦ — ٢٠٣.
(٣٢) إبراهيم إسحق إبراهيم، المرجع السابق.
(٣٣) إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص ص ١٢٦ — ١٢٧ و١٨٦ — ١٨٧.
(٣٤) إبراهيم إسحق إبراهيم، المرجع السابق،
(٣٥) إبراهيم إسحق إبراهيم، المرجع السابق.
(٣٦) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ٢٤٤ وص٣١٨.
(٣٧) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ١١.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية

فؤاد فرسوني
مكتبة معهد الإدارة العامة
الرياض

الدراسات الاقليمية تقابل المصطلح الانجليزي: Area studies وتشير المعاجم المختلفة إلى معنى المنطقة أو الأقليم كترجمة لكلمة: Area واختيار استخدام **إقليم أو منطقة كترجمة لكلمة** Area يعتمد على النص أو سياق الكلام، وفي مجال هذا المقال استخدمنا كلمة **إقليم** كترجمة للكلمة الانجليزية آنفة الذكر وكان هذا الاستخدام لسببين **أولهما**: إستقرار هذه الترجمة إلى العربية في الأدب المكتوب في الموضوع، **وثانيهما: أن** معاجم اللغة تفيد باستخدام كلمة (منطقة) في إطار جغرافي مناخي ومضمونها المكاني يغطي عادة (رقعة واسعة من الأرض)، بيد أن كلمة **(إقليم) في المعجم الوسيط** الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٣٩٣ هـ قد أخذت حدودا ومعالم واضحة وجلية أكثر حيث يبرز في تعريفها عنصر الأرض، والعنصر البشري معا من جهة، ومن جهة أخرى تبين لنا في التعريف السمات المشتركة للمجتمع أو المجتمعات المعنية في (إقليم معين) [١].

وفي الشارحة التي تسوقها **قائمة رؤوس الموضوعات لمكتبة الكونجرس بطبعتها التاسعة** ورد أن الدراسات الاقليمية قد تقسم جغرافيا حسب المكان المتصل بالدراسات، ويرى محررو **القائمة المذكورة** أن الدراسات الاقليمية في مسمياتها تتكون وتتغير وفق الاقليم أو البلاد المدروسة وتتحدد تلك الدراسات وتأخذ شخصية مميزة وتصف المكان قيد البحث، مثل: الدراسات الهندية، الدراسات اليابانية، الدراسات الأفروآسيوية [٢]، الدراسات العربية، **الدراسات الشرق أوسطية**..

وفي هذا المقال يؤكد الكاتب على **النوع الأخير** المذكور من هذه الدراسات، **أي الدراسات الاقليمية الشرق أوسطية أو** المتعلقة (بالشرق الأوسط).

ومصطلح (الشرق الأوسط) حديث العهد، وقد برز منذ الحرب العالمية الثانية، **واستخدم هذا المصطلح ليغطي جغرافيا الأقطار الواقعة حول المنطقة الشرقية** من البحر الأبيض المتوسط مشتملا بذلك على تركيا، واليونان، بالاضافة إلى إيران، وكذلك شمال أفريقيا، وقد أطلق مصطلح (الشرق الأدنى) على الجزء الأوسط من هذه المنطقة، وقد استخدمه الجغرافيون الأوروبيون في العصر الحديث، وفي معالجة أولئك الجغرافيين لمنطقة الشرق استخدموا **ثلاثة مصطلحات** في تقسيمهم لها **حسب بعدها عن أوروبا وهي: الشرق الأدنى، الشرق الأوسط، والشرق الأقصى**، وقد مرّ استخدام هذه المصطلحات بمراحل متتابعة من تعديل المضمون، ففي فترة الحرب العالمية الثانية استخدم البريطانيون مصطلح **(الشرق الأوسط)** للمنطقة العسكرية التي تركزت قيادتها في المنطقة بمصر، واستمر استخدام **المصطلح** ليغطي الأقطار التي نعرفها الآن بالرغم مما أبدته الجمعيتان الجغرافيتان الأمريكية والبريطانية من تحفظات إزاء دقة وصحة هذا الاستخدام، وقد يبدو من المتعذّر تصور «الشرق الأوسط» كوحدة متجانسة المكونات، تملك إمكانات قوية لتشكيل وحدة Unity متشابهة مع أوروبا أو أمريكا اللاتينية مثلا، وبوجه عام **فإن المصطلح مصطنع ومستورد جلبته هنا القوى العظمى لخدمة أغراضها السياسية والاستعمارية**، ومن هنا فقد **استخدم مصطلح (الشرق الأوسط) أثناء فترة الحرب العالمية الثانية ليشمل** بالتفصيل: تركيا، اليونان، قبرص، سوريا، لبنان، العراق، إيران، فلسطين، الأردن، مصر، السودان، ليبيا، ودول الجزيرة العربية بما في ذلك المملكة العربية السعودية، الكويت، اليمن، مسقط وعمان، البحرين، قطر، والامارات العربية، وقد أسهمت الأحداث التي أعقبت الحرب في توسيع الرقعة الجغرافية المشمولة في مصطلح الشرق الأوسط بحيث أصبح يضم تونس والجزائر والمغرب، بالاضافة إلى ذلك، فإن العوامل والروابط الدينية والجغرافية والثقافية تجعل رجال السياسة يستخدمون مصطلح (الشرق الأوسط) آخذين بعين الاعتبار أفغانستان، وباكستان، وقد يثير شمول اليونان بين أقطار الشرق الأوسط بعض

التساؤلات، بيد أن هناك عوامل تاريخية وغيرها تدخلت في هذه المعالجة، وقد كان لليونان دور واضح في إظهار «المسألة الشرقية» في أحداث سنة ١٨٢١م ضد الدولة العثمانية (٣)، وبالنسبة للعالم الغربي، يبقى **(الشرق الأوسط)** عبارة عن سلسلة من الضرورات الاستراتيجية المتصلة التي تفرض وجود علاقات وثيقة بدول محددة، وبالتالي فقد دخلت بعض أقطار (الشرق الأوسط) في اتفاقيات عسكرية تشابكت فيها الاعتبارات السياسية والثقافية والاقتصادية والدفاعية، وشمول الأقطار في **وسط هذه البقعة** يتسم بالاستقرار، بيد أن حدود الشمول للأقطار الأخرى متغيرة، ففي وسط هذه البقعة قدر كبير من التجانس الحقيقي حيث يقع **(العالم العربي)** هنا وتجمع بين أقطاره علائق ووشائج قوية من الدين واللغة والثقافة...، كما تتمتع هذه الأقطار من وجهة نظر جيولوجية اقتصادية بثروات طبيعية شتى يبرز فيها البترول، الذهب، الفوسفات... ويبدو أن النطاق الجغرافي لاستخدام مصطلح **(الشرق الأوسط)** قد أخذ بشكل جلي تشكيلا من الأقطار التالية المذكورة في إصدارات مؤسسة Europa عن هذه البقعة من العالم في دليلها المعروف الموسوم بعنوان **الشرق الأوسط وشمال أفريقيا The Middle East and North Africa 28 ed** أفغانستان، الجزائر، البحرين، قبرص، مصر، إيران، العراق، فلسطين، الأردن، الكويت، لبنان، ليبيا، المغرب، عمان، قطر، المملكة العربية السعودية، السودان، سوريا، تونس، تركيا، الامارات العربية المتحدة، اليمن الشمالي، اليمن الجنوبي (٤).

لعبت **العوامل الدينية والسياسية دوراً أساسياً في ظهور الدراسات الأقليمية الشرق أوسطية**، ولا شك في أن هذه العوامل مازالت عوامل محركة فعالة في سير هذه الدراسات.

وبالنسبة لطبيعة **هذه الدراسات** فإنها **«وسائل»** أكثر منها **«غايات»** للباحث الغربي، وهي في مجملها تركيمات من معارف متنوعة أكثر منها حقل بيّن المعالم للبحث العلمي، وعلى أية حال، فإن هذه الدراسات مازالت حديثة بعد ومازالت قواعدها ترسى وتعمّق، ومازال المشتمل الموضوعي لها يتشكل متأثرا بمنظومة منوعة من المؤثرات ذات الارتباطات العديدة بالمؤسسات المختلفة التبشيرية الدينية، الحكومية، السياسية، المؤسساتية، الجامعية إلى جانب المؤثرات المرتبطة بشخصية الباحث الغربي ذاتها، وقد تنامت **أهمية** هذه الدراسات في السنوات الأخيرة مع تزايد الادراك لأهمية الشرق الأوسط السياسية والاقتصادية، وبخاصة في أعقاب حرب رمضان من سنة ١٩٧٣م (٥).

وتنال الدراسات الاقليمية الشرق أوسطية عناية ودعما في أوروبا والولايات المتحدة، ومن بين **الجهات** التي تسهم في تمويل هذه الدراسات مثلا في الولايات المتحدة غير الجهات الدينية، وزارة الصحة والتربية والخدمات، مؤسسة فورد، والجامعات الأمريكية، مؤسسة روكفلر، مؤسسة جوجنهايم، وبرنامج فولبرايت للبحث الجامعي العلمي، ومجلس البحث في العلوم الاجتماعية، والهيئة الأمريكية للجمعيات العلمية، ويميّز بين نوعين من الدعم المالي في هذا المجال، **دعم للدراسات الأكاديمية** في المرحلة الجامعية الأولى **ودعم للبحث المتعمق**، وبالرغم من **تذبذب** وتقلب أحوال **الدعم المالي** للدراسات الشرقأوسطية، فإن **وزارة الدفاع الأمريكية تمارس نوعا من الثبات والاتساق في انفاقها على برامج هذه الدراسات** الأمر الذي يكشف خطورة مرامي هذه الدراسات واستغلال ما تتوصل اليه في مواجهة شعوب هذه المنطقة الاسلامية، كما أن **هذه الدراسات تتلقى دعما ماليا من بعض شركات الأعمال المشتغلة في منطقة الشرق الأوسط وبخاصة في أقطار الخليج العربي** ويبرز بين هذه الشركات **الشركات البترولية التي تقدم الدعم المالي للدراسات الشرقأوسطية وفق برنامج ثابت طويل الأمد** (٦) وتطمع المؤسسات والجامعات الغربية المشرفة على مثل هذه الدراسات الى الحصول على الأموال اللازمة لاستمرار برامجها استنادا الى سببين تبديهما:

أولاً: أهمية هذه الدراسات، وما تتمخض عنه من نتائج (٧).

ثانيا: رصيد الدولار البترولي المتراكم في بعض أقطار الشرق الأوسط ويبدي الغرب بعض التذمر لتعذر الحصول على **أموال كثيرة** لدعم هذه الدراسات من خزائن دول منطقة الشرق الأوسط، وبخاصة الدول الغنية منها **ادراكا** من هذه الدول **للمآرب** غير العلمية والهامة التي **تتمحور** حولها هذه الدراسات، بيد أن بعض المهتمين والمتحمسين لهذه الدراسات يعقد الأمل على تحسين مستوى الدعم المالي لهذه الدراسات، اعتمادا على **الالتزام بالموضوعية العلمية في المنهج والهدف** في هذه الدراسات وتنظيم سير هذه الدراسات **ونحن نشك في تحقق الانسلاخ بين**

الدوافع الدينية والعلمية لهذه الدراسات.

ويتسلح المشتغلون بهذه الدراسات:

١: **بمعرفة لغوية:** وقد كشف تقرير لامبرت Lambert Report حول دراسة قامت لعينة من المشتغلين بهذه الدراسات في أمريكا بأن ٧ر١٦٪ من المشتغلين بالدراسات الشرقأوسطية قد حصلوا على معرفة لغوية، وأقاموا في منطقة الشرق الأوسط، ويتقن ثلث أعضاء العينة لغة من لغات الشرق الأوسط العربية أو الفارسية أو التركية أو العبرية، وأن نصف أعضاء العينة قد أكتسبوا مهارة متقدمة في لغتين من اللغات الشرقأوسطية الرئيسية المومأ اليها آنفا.

٢: **معرفة عن الأقطار المدروسة** مبنية على الاقامة فيها، حيث أن أقل من نصف أعضاء العينة المدروسة في **تقرير لامبرت** السالف الذكر قد انفق أكثر من عامين من العيش في المنطقة، مع الاقامة لمدة لا تقل عن ستة أشهر في **أي قطر** شرقأوسطي، وقد عاش ٢٠٪ منهم لمدة لا تقل عن ستة أشهر في أكثر من قطر في المنطقة، ومن الطريف أن تذكر أن **أغلب هذه الاقامة قد أخذ** مكانه في الأقطار التالية:

مصر، لبنان، تركيا، وفلسطين المحتلة.

والمريب في هذه الدراسات أن تقرير لامبرت المذكور قد كشف أن **أهداف هؤلاء المقيمين في شتى أقطار الشرق الأوسط** محل **شك** في أن تكون مرتبطة بأهداف **البحث العلمي الموضوعي** لأحوال المنطقة حيث أن ١٥٨ (٢ر٢٢٪) من أعضاء العينة المدروسة كانوا من غير المتخصصين الأكاديميين.

وقد أوضح **تقرير لامبرت** أيضا **الدافع الديني** من وراء هذه الدراسات من خلال **إيضاح دور الكنيسة النشط فيها**، إذ أبان التقرير أن **نسبة المتخصصين الأكاديميين** الذين تبعثهم الحكومة للشرق الأوسط كانت متدنية، بينما كانت **نسبة هؤلاء المتخصصين الأكاديميين عالية جداً بين المتشغلين بأنشطة الكنيسة** الذين يقيمون في هذه البقعة، وهكذا فإن النتيجة المعرّاة التي ينتهي اليها التقرير المذكور تكشف أن **هؤلاء المقيمين في المنطقة ممن يدعون التخصص** في الدراسات الشرقأوسطية ليسوا في الحقيقة كذلك لأنهم **غير مؤهلين أكاديميا بما فيه الكفاية** للقيام بهذه الدراسات بالرغم من خلفياتهم الدراسية التي أبان التقرير **أن بعضها كان في حقل اللاهوت**، وقد يكون لما تمخض عنه التقرير أثر في الاهتمام بإرساء قواعد أعمق للدراسات الأكاديمية لهذه المنطقة من العالم، من خلال الاهتمام الذي يولى **لمركز الدراسات الشرقأوسطية** في شتى الجامعات، الى جانب مراكز الدراسات الاسلامية والعربية، وتتباين **الدراسات التي تأخذ مكانها** في هذه المراكز في أهميتها الموضوعية كما تدل **رتب** Ranks **الأهمية للتخصصات التالية:**

الموضوع	رتبة الأهمية
ـ علم الانسان	١
ـ العلوم السياسية	٢
ـ اللسانيات (علم اللغة)	٣
ـ الاقتصاد	٤
ـ علم الاجتماع	٥
ـ علم النفس	٦

وحقل دراسات الاقليمية الشرقأوسطية، وحقل الدراسات الاستشراقية شقيقان، والاستشراق إصطلاح رحب المضمون يشمل الاشتغال بالبحث في العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق، **وقد بدأ هؤلاء المستشرقون** كتاباتهم عن **الدين الاسلامي، وعلومه المختلفة** وعن نبي الاسلام وحياته محاولين قدر جهدهم أن يشوهوا الصورة الكريمة التي رسمها الله سبحانه وتعالى للاسلام ولنبي الاسلام (٩) وقد أثرت في دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين **فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون اليه**، حيث سخّر هؤلاء المستشرقون «العلم الذي يسمو به الانسان لاذلال الانسان ... أو الطعن في تراثه وعقيدته بغير الحق» (١٠)، ومنهج البحث الذي يستخدمه المتخصصون في دراسة منطقة الشرق الأوسط والمرتبط بمصطلح الدراسات الاستشراقية، هذا المصطلح الذي استخدمه ونشره العلماء الألمان في هذا المجال، يتوجه لدراسة الحضارات الشرقية الماضية، ويؤكد أيضا على التاريخ الفكري أو التصور المثالي لهذه الحضارات.

واعتمدت الدراسات الاستشراقية على طرائق البحث النقدية التي وضعت لاعادة دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية واللاتينية والعبرية (١١) والمتأثرة بالنظريات التاريخية السائدة في القرن الثامن عشر، وقد عنيت الدراسات الاستشراقية **باللغة**

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وتاريخها كأداة لفهم النصوص المدروسة في المجالات المختلفة كالدين الاسلامي، الأدب العربي، وعلى وجه الاجمال فقد «**عالجت** الدراسات الاستشراقية التراث الثقافي الاسلامي ونظرت اليه كنسخة غير كاملة أو مشوهة لمنظومة التراث اليهودي ـــ الاغريقي الروماني ـــ المسيحي»[١٢].

ومن هنا طبعت **الدراسات الاستشراقية بالتعصبات الدينية النصرانية والسياسية والفكرية التي** برزت جلية في فترة مبكرة من العصر الحديث وسمت تاريخ المواجهة بين أوروبا النصرانية والشرق الأوسط الاسلامي، وقد **خدمت سياسات أوروبا الاستعمارية التي أفادت من المعلومات المرجعية عن هذه المنطقة وشعوبها لدى التخطيط لغزوها عسكريا وفكريا، وتوضح الفقرات السابقة حدود الدراسات الاستشراقية** وتوجهاتها التي **لا** تركز على **الأحوال المعاصرة لمنطقة الشرق الأوسط والتي اعتمدت أيما اعتماد على دراسة أدب الموضوعات المختلفة المخطوط والمنشور، وتأتي الدراسات الشرق أوسطية** لتكمل الدائرة، **وتتناول** الشرق الأوسط المعاصر معالجة لأحواله وفساد أهله على النقيض من معالجة الدراسات الاستشراقية التي نظرت في حضارة الشرق الأوسط الماضية، **واسهام أهله في** الحضارة العالمية[١٣].

إن دراسة الباحث الغربي لثقافة غربية بالنسبة اليه ليست على كل حال قضية سهلة، فليس من اليسير أن نحكم على معرفتنا لما **تعنيه** ثقافة أخرى لأن تحديدنا لما تعنيه تلك الثقافة لحقيقة أو تصور معين قد يتباين مع التحديد **الذي** وضعته تلك الثقافة لتلك الحقيقة أو التصور، وقد لا يختلف اثنان حول هذه المقولة بأن الحقائق الثقافية مشكلات وليست حلولا، وبالتالي فإن معالجتها والحكم عليها ليس بالأمر اليسير، ولوضع القضية المطروحة آنفا بصورة أخرى نقول: هل من الممكن أن يفهم الغربيون الحضارة أو الثقافة الاسلامية تماما من غير أن يكونوا مسلمين؟.

وينطرح السؤال في كل فترة في التاريخ الاسلامي، وفي كل قطر من أقطار الشرق الأوسط الاسلامية، **إن أبناء الشرق الأوسط يسافرون للغرب، ويتلقون دراساتهم الجامعية هناك،** ويعيشون في الوسط الثقافي الغربي، **بل إن بعض هؤلاء يكتبون** ويدرِّسون مواد حول أوطانهم التي قدموا منها، **وينسحب هذا القول على الغربيين الذين يسافرون للشرق الأوسط، يعلمون لغاته، ويحقق بعضهم عن قناعة الدين الاسلامي، ويعيشون بانسجام في الوسط الاسلامي، ويدل هذا على امكانية فهم الثقافات الأخرى، وقد أخذ المشتغلون بالدراسات الشرقأوسطية بهذا التصور وأكدوا** على عنصر **الاقامة ومعاشرة الناس في منطقة الشرق الأوسط،** بيد أن المعرفة التي يحصلونها تبقى مثار نقاش لدى النظر في كونها مناسبة أم غير مناسبة!

والحكم على كونها مناسبة لا يجري في فراغ، بل يرتبط بهدف حتى تقول إنها مناسبة لأهداف هذا الحقل أو ذاك من حقول الاهتمام التي تتراوح بين الدين، والسياسة، والتجارة والنفوذ ومعنى ذلك أن **هذه القضية تقودنا** إلى ضرورة **تحديد** «الدراسات الاقليمية» التي **تنطلق** من **مقولة** مفادها أن **المفاهيم الغربية لا تصلح كقاعدة مناسبة لفهم الآخرين،** وبكلمة أخرى فإن **الدراسات الاقليمية تطرح القول** بأن هناك **أوجها ما هامة من التباين** بين **الشعوب والثقافات، في الفترات التاريخية المتعاقبة،** وهذا يوضح **عدم صلاحية** الاعتماد على **المفاهيم السائدة في ثقافة معينة لفهم الظاهرة الثقافية في واحدة أخرى،** أي أن كل ثقافة ينبغي أن تدرس وينظر فيها وتفهم في ضوء مؤشرات تلك الثقافة، ويوضح هذا ضرورة بحث الثقافة في أطر المعاني السائدة فيها.

وهذا المنحى ينص في **محصلته** على أن **مفهوم الثقافة الحقيقي هو ما تحدده هي،** وهكذا فاننا لا نستطيع أن نعبر عن هذا المفهوم في ثقافة معينة اذا لم نترجمه بلغتها أو إذا لم نستخدم مقولاتها في ترجمته، **ولا يتعمق المشتغلون بالدراسات الشرق أوسطية في المنهج، بل يكتفون** في الغالب بطرح **فرضيتهم** القائلة بأن هناك أمورا معينة عن الشرق الأوسط (أو أية منطقة أخرى) **ينبغي أن تعرف تمهيد الطريق لفهم كافة الأمور المتصلة بالمنطقة، وهكذا فإن مفتاح هذا الفهم** عند **بعض** المشتغلين بالدراسات الشرقأوسطية **يتجلى في استكشاف المؤثرات العميقة لعظمة الاسلام،** أو عبقرية اللغة العربية، أو عناصر ثقافية معينة، **وعند البعض الآخر فإن مفتاح الفهم قريب ومتاح من خلال الحدس والمعرفة اللصيقة والادراك الصادق لكافة الأمور المتصلة بالشرق الأوسط،** ومع إدراكنا بأن ما **نشرته** بعض هذه الدراسات **من تعميمات عن المسلمين** في منطقة الشرق الأوسط **يفتقر للصدق العلمي** فهيَ لا تحدد المكان أو الزمان أو غير ذلك

من العوامل أو ظروف ومرامي البحث (١٤).

وعلى وجه الاجمال فانه من المتفق عليه في **الدراسات الاقليمية الشرق أوسطية** أنها تستند إلى **فكرة جوهرية** وهي أن «أهداف الدراسة، أو الحقائق التي يراد معرفتها، تشكل القاعدة الموجهة والمنظمة لمشروع هذه الدراسة، وليس للمنهج أو الموضوع المدروس» وهكذا فان الدراسات الاقليمية الشرقأوسطية تأخذ بهذه **المقولة** التي تنص على أن **المعرفة لهذه البقعة ميسرة وممكنة فقط** للأشياء **الموجودة**، وعندما نقول المعرفة فاننا هنا نساق إلى طرح تساؤل حول قيمة اطلاق مصطلح **المعرفة** على دراسة الموضوعات الشرق أوسطية! كما يقودنا **ذكر الموضوعات الشرق أوسطية إلى طرح قضية** أخرى عن الدراسات الشرق أوسطية، **فهذه الدراسات تبرز الحاجة إلى دراسات متكاملة**، دراسات بيموضوعية Interdisciplinary للمنطقة، أكثر منها إلى أن تسمى «الدراسات الشرق أوسطية». ويرجع **الاهتمام** بالدراسات **البيموضوعية** للمنطقة إلى **أصول** مختلفة لم تتسم بالتأثير في وجهة هذه الدراسات، وقد **تمت هذه الدراسات** في فترة **ما بعد الحرب العالمية الثانية** التي **ارتبطت كثيرا بالتنمية في أقطار الشرق الأوسط**، والتي شهدت تأثير دول «العالم الثالث» النامية وموقفها من الحرب الباردة.

وتنتشر وتتواصل هذه الدراسات في وقتنا الحاضر، ولا ينكر القائمون عليها أنها «دراسات تتجسد فيها اللاموضوعية، والتشويه العقائدي، والتعصب الديني وتغيب في كثير منها السمة الأكاديمية العلمية»(١٥)، وتخدم في مجملها أهدافا عسكرية وتبشيرية ومصالح سياسية واقتصادية في منطقة الشرق الأوسط.

تنعقد صلة جوهرية بين هذا الجزء الهام من العالم: **الشرق Orient والحضارة والثقافة الأوروبية**، إنه المنطقة التي يشعر الغرب إزاءه بالمواجهة، إنه محل مصالح ومطامع الغرب، إنه مصدر تصورات الغرب **العميقة** المتواترة «عن الاخر» **ويمكن النظر للدراسات التي قدمها الغرب عن هذه البقعة كأسلوب غربي للتغلب على، واعادة تكوين، والتحكم بمنطقة الشرق، والعلاقة** بين الشرق والغرب **علاقة قوة**، وغلبة، **والاستشراق** ذو **دلالة** قيمة على **هيمنة القوة الأوروبية - الأطلسية على الشرق**، أكثر منها على حقول بحث عن الشرق، **والاستشراق** ليس بعيدا على أية حال عما أطلق عليه **(فكرة الغرب)** الفكرة الجماعية **السائدة في نفوس الغربيين** تمييزا لهم عن غير الغربيين، الفكرة التي رسمت فكرة **«التفوق» الغربي على سائر بني البشر!!! واعتمد الاستشراق** أيما اعتماد في استراتيجيته في التعامل مع الشرق على ذاك **الشعور المزيف بالتفوق**، ولا **يعبر الاستشراق** فحسب عن **مادة موضوع** ديني أو سياسي، **إنه فكر** تبشيري جغرافي سياسي موزع في كتابات، دينية، اجتماعية، تاريخية، لغوية، اقتصادية، وجمالية، **إنه تكريس للتمييز الجغرافي** بين عالمين غير متكافئين الشرق والغرب في نظر الأوروبيين، **إنه سلسلة من المصالح** التي اتخذت وسائل متعددة تبشيرية، لغوية، نفسية، اجتماعية ... لتحقيق مآربها، بل إن **الاستشراق يعني أكثر من هذا، فهو يجسد، ويلتزم، ويضمر ارادة أو مقصدا ليفهم**، بل **ليسيطر** في بعض الحالات على، **ويستخدم لخدمة مصالحه** هذه المنطقة من العالم، وتكاد **الدراسات** الاستشراقية **تكون مرادفة لدراسات الاستعمار والثقافة** والتبشير، وتتضافر **في هذه الدراسات طائفتان من المفاهيم**: المعرفة والقوة، والأولى أداة للثانية، وبها تتوسل في المقام الأول للسيطرة، حيث أن **معرفة قطر أو بقعة معينة تيسر سبل الهيمنة** الواعية عليه أكثر من السلاح والمال، **والمعرفة في نظر المستشرقين تعني الالمام بشتى جوانب الحضارة** المتصلة **بمنطقة معينة**، منذ بدايتها ومرورا بفترة ازدهارها وانتهاء بفترة ركودها وانحسارها، والقدرة على تحقيق ذلك الالمام، بل إن **المعرفة** عندهم تعني **تجاوز الالمام بالوضع الماضي إلى الوضع المستقبلي** لمنطقة معينة، بقصد التحقق من السيطرة على حاضر هذه المنطقة ومستقبلها، **وقد تركت الدراسات الاستشراقية آثارها في نفوس الشرقيين بنفس الوقت الذي تركتها فيه في نفوس الغربيين.**

تركت هذه الآثار في نفوس أهل منطقة تخلفت وشعر الغرب إزاءها بالتفوق، وتجري السنون، ويتعمق هذا الشعور بالفارق في هذه القسمة التي أفضى استخدامها التاريخي والواقعي إلى تأكيد أهمية **الفارق** الذي **اصطنعه الغرب** بين أهله وأهل الشرق، **وقد اقترنت في الغرب النصراني فكرة الاستشراق في بداياتها الأولى مع اهتمامات الكنيسة بهذه المنطقة، وقرار مجلس الكنائس في اجتماعه سنة ١٣١٢ لتأسيس أقسام للدراسات العربية،**

والسريانية، والعبرية، واليونانية في الجامعات الأوروبية، في باريس، أكسفورد، بولونيا، أفيجنون وسلامانكا، **وقد تطورت حقول الدراسات مع مر الزمن واتسعت** ، وحتى **منتصف القرن الثامن عشر،** كان **جل أولئك المستشرقين من رجال الكنيسة** الذين تمتعوا بقسط وافر من العلم، وكان من بينهم المتخصصون في اللغات السامية، والاسلاميات، ومع **نهاية القرن الثامن عشر** غطت **حقول الدراسات الاستشراقية آسيا برمتها، ومع منتصف القرن التاسع عشر تراكمت المعرفة وأوعيتها في الدراسات الاستشراقية،** وحتى **بعيد منتصف القرن التاسع** عشر كانت **باريس مركزا مزدهرا لهذه الدراسات،** وكانت **تحتضن** مقر **جمعية الدراسات الآسيوية** Societe Asiatique وتكاد الدراسات الاستشراقية تكون قد غطت كل مبحث ابتداء من تحقيق وتحرير وترجمة النصوص إلى النميات Numismatics والدراسات الانثروبولوجية والآثارية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والأدبية والثقافية في كل حضارة آسيوية وشمال أفريقية معروفة قديمة كانت أم حديثة، بيد **أنه** تجدر الاشارة هنا **إلى أن المستشرقين قد ركزوا أكثر على انتاج الاجيال السابقة في العصور الماضية في شتى اللغات والحضارات المدروسة،** مع استثناء واحد متصل بمعهد نابليون للدراسات المصرية Napoleon's Institud D'Egypt الذي أظهر اهتماما كبيرا بدراسة مصر الحديثة ووفائعها وحقائقها المعاصرة، **والشرق الذي درسه المستشرقون كان إلى درجة كبيرة من خلال الكلمة المكتوبة، إن الأثر الذي طبعه الشرق كان من خلال الكتب والمخطوطات، وكحقل للبحث جرى تقعيده في الغرب، فان الدراسات الاستشراقية قد مارست تأثيرها بثلاث طرائق: على الشرق ذاته، وعلى المستشرق، وعلى المستهلك الغربي لمعلومات الاستشراق،** وليس من الصواب أن نطفف من قدر **وقوة هذه العلاقة الثلاثية، والشرق في نظر الغرب يعاد تشكيله وتصحيح وضعه** من خلال الدراسات الاستشراقية، هذا **الشرق الخارج على والقابع وراء حدود المجتمع الأوروبي، ووجهة** النظر هذه **تغرس وتغذى** في نفوس الأوروبيين وتعلم وتدرس، وقد **أصبح لها المؤسسات والجمعيات والدوائر الجامعية والمطبوعات الدورية،** المهتمة بنواحي دراستها وتدريسها، ولها تقاليدها و «لغطها» وقد **انتشرت وتخللت الأفكار الاستشراقية الكتابات** الشعرية والأدبية وغيرها من الكتابات الأوروبية منذ زمن بعيد، **وتحمل هذه الأفكار عداءً سافراً وهجوما مجنونا على الاسلام ونبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعتبره النصارى مارقاً عن دينهم،** ويعبر عن هذا العداء مثلا، ما أورده **دانتي،** الشاعر الايطالي المشهور صاحب ملحمة **«الكوميديا الالهية»** هذه الملحمة الشعرية المترجمة إلى الانجليزية والتي تدرس في مناهج اللغة والأدب الانجليزي في أغلب أقسام اللغة الانجليزية في الجامعات في عالمنا العربي الاسلامي.

وتتمثل في ملحمة دانتي الوشيجة الوثيقة بين الصورة التي رسمها الاستشراق للاسلام ومنظومة القيم النصرانية المعادية لدين الله الحنيف، إنه حكم Judgement **في ذهن النصراني** الأوروبي في شتى أقطار الغرب **هذا الذي سجله دانتي** في رحلته الى عالم الجحيم Inferno، وعبر المطهر Purgatorio الى الجنة من خلال ملحمته الشعرية، وفي وصف رحلته الى عالم الجحيم، في الفصل ٢٨ من وصفه للجحيم، وضع هذا الشاعر النصراني الكافر الرسول عليه الصلاة والسلام في الدائرة الثامنة من دوائر الجحيم التسع الى جانب الخونة والزنادقة، والأشرار، وأشار الى الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم تحت اسم (Maometto)، هذا الاسم الذي يمر عليه آلاف أو عشرات الآلاف من طلبتنا العرب المسلمين في دراستهم للكوميديا الالهية من غير توقف أو تمييز، ويذكر كاتب هذا المقال الذي تخرج من قسم ا للغة الانجليزية في الجامعة الأردنية قبل قرابة ثلاثة عشر عاما أنه لم تجر أية اشارة أو نقد لهذا الفصل عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ولا عن الفقرات التي هاجم فيها دانتي أيضا في **ملحمته علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولا يستغرب** هذا الكاتب ذلك لأن الأستاذ الذي درس هذه المادة المنهجية آنذاك واسمه هاري مارتنز Harry Martins قد كان نصرانياً بريطانيا محفوفا بكل التبجيل وبخاصة في السنين الأولى من خدمته وتدريسه، ويقودنا هذا الكلام الى الاشارة الى ضرورة تمحيص مناهج اللغة الانجليزية وفحصها بدقة واختيار من يدرسها بعناية **ويفضل أن يكون من بين أبناء العرب المسلمين الغيورين على الاسلام،** وتجدر الاشارة هنا الى أن دانتي في ملحمته آنفة الذكر لم يكتف بمهاجمة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، بل هاجم أيضا فلاسفة وقادة المسلمين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذين تمتعوا بالسيرة الصالحة الطيبة، ومن هؤلاء الطبيب الرئيس ابن سينا، وابن الرشد، وكذلك القائد الفاتح قاهر الصليبيين صلاح الدين الأيوبي، وقد وضعهم في بداية الجحيم في ملحمته قاتله الله، ودانتي يقر بفضل هؤلاء جميعا، بيد أنه حاكمهم وحكم عليهم وأدانهم لأنهم مسلمون أي في نظره غير نصارى.

ويجسد موقف دانتي العدائي للاسلام صورة صادقة للنظرة الغربية من الاسلام، هذه النظرة التي **دعمتها الدراسات الاستشراقية النظرية**، وتشكل الدراسات العملية للشرق شطرا **طفيفاً من الدراسات الاستشراقية**، إن **مواجهة العالم الأوروبي** للشرق **وللاسلام** بشكل خاص قد **أسهم في ترسيخ النظرة العدائية التي رسمها دانتي للمسلمين** الذين مثلهم النصارى الأوروبيون كخارجين Outsiders، **ويبرز في الدراسات الاستشراقية قدر كبير من التفصيل والتحليل** تبدو هذه الدراسات من خلاله **دراسات تشريحية حصرية، أو باستخدام لغة الاستشراق، دراسات تخصص وتقسم الأمور التي تعالجها حول الشرق والاسلام بالذات الى شرائح يتيسر التعامل معها والتمكن منها، بايجاز شديد، فاننا نخلص الى القول بأن الدراسات الاستشراقية منطلقة من ومعبرة عن شكل من الخوف** من أن يهب هذا الكيان القوي لعالم الاسلام والمسلمين ثانية ويقوى ويتوسل بالايمان والعلم ويعم الجهاد وتتدعم الدعوة الى الهدى ونور الحق في الاسلام، **وتمخض هذا الخوف لدى الغرب في وعيهم بأن الشرق أو قل العالم الاسلامي يتقدم ويتقدم** مع استحالة ايقاف هذا التقدم، **ويتمتع بثروات شتى، وأن العالم الاسلامي يعنى وسيعنى بصورة مستمرة عالماً مختلفاً عن العالم الغربي.**

وتجدر الاشارة هنا الى الوشائج بين السياسة والاستشراق، أو بتعبير آخر، الى **فرص الاحتمال القوي حول استخدام الأفكار والنتائج المتمخضة عن الدراسات الاستشراقية في تنفيذ المآرب السياسية الأوروبية في عالمنا الاسلامي، إن العالم الغربي يخضع المسلم الشرقي لدراسته،** اذ هو محور اهتمامه، **يتفحصه بمجهرية وروية، ككائن يتصف بالاختلاف عنه وبالآخرية** Otherness التي تكون شخصية جوهرية، **مشكلة بحث تستحث هذا العالم الغربي وهذه الشخصية التي ينظر اليها هذا العالم شخصية سلبية** Passive، **لا مشاركة** Nonparticipating **تتمتع بذاتية تاريخية مميزة، غير فاعلة** non-active **أو مستقلة ذات سيادة،** وهكذا **فالمستشرق يسعى** لا مشاحة إلى تحقيق الوصول إلى إعادة قولبة شخصية المسلم الشرقي، وإلى **بناء علاقة من اللاانتماء والاغتراب** بين هذا المسلم وذاته، **والمستشرق في تعامله** مع العالم الاسلامي في الشرق **يتبنّى** مسبقاً مفاهيم جوهرية ثابتة في ذهنه عن أقطار هذا العالم، وشعوبه، **مفاهيم** تتجسد على هيئة **تصنيف إثنولوجي يتطرف ويدخل حدود العنصرية**، وقد **غذّت عقول الأوروبيين خرافة تميّز الجنس الآري** عن أجناس الشعوب الأخرى **وساهم العلماء الأوروبيون في بثّ هذه الخرافة ومن هؤلاء مثلاً** فردريك شليجل Fridrich Schlegel، وليون بولياكوف Leon poliakov، جوبينو Gobineau، رينان Renan، ويل Weil، هامبولدت Humboldt، ستانتال Steinthal، بيرنوف Burnouf، ريموزات Remusat، بالمر Palmer دوزي Dozy، موير Muir، **إلى جانب الدور الذي كان للجمعيات الاستشراقية** في هذا الصدد، ومنها مثلاً جمعية الدراسات الآسيوية Sociète Asiatique التي تأسست في سنة ١٨٢٢ في باريس، الجمعية الملكية للدراسات الآسيوية Royal Asiatic Society التي تأسست في لندن سنة ١٨٢٣، والجمعية الأمريكية للدراسات الشرقية American Oriental Society التي تأسست في سنة ١٨٢٤، **إلى جانب أدب الرحلات والقصص والشعر الذي أسهم في تعميق التقسيمات التي وضعها المستشرقون وتكريسها** سواء كانت هذه التقسيمات جغرافيةً أم زمنية، أم عنصرية Racial، **وتضم هذه الاسهامات** أسماء أوربية شتى نسوق منها مثلاً: هوجو Hugo، شاتوبريان Chateaubriand، لامارتين Lamartine، كنجليك Kinglake، نيرفال Nerval، فلوبير Flaubert، لين Lane، بيرتون Burton، سكوت Scott، بايرون Byron ويمكن أن نضم إلى هذه القائمة من الأسماء، أسماء كثيرة أخرى تتبع فترة أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين مثل: Doughty، بريس Barrés، لوتي Loti، لورانس T. E. Lawrence وفورستر Forster، وقد مهدت شتى هذه الدراسات للسيطرة الاستعمارية على الشرق الاسلامي، والاستعمار ببساطة تحديدٌ بل قُلْ خَلْقٌ للمصالح في هذه المنطقة، وهذه المصالح تبشيرية نصرانية، اتصالية، عسكرية ،

وثقافية، وبالطبع كانت **القوتان الاستعماريتان الرئيسيتان بريطانيا وفرنسا وبالنسبة للاسلام وللعالم الاسلامي، فإن بريطانيا على سبيل المثال، تشعر أن لها مصالح مشروعة من وجهة نظرها كقوة نصرانية، في أن تعمل حارساً عليه وخادمة للكنيسة**، ومن هنا **تكوّن جهاز معقد من المنظمات والجمعيات لوضع هذه المصالح وبخاصة التبشيرية منها موضع التنفيذ، ومن هذه المؤسسات جمعية نشر الثقافة المسيحية**

Society For Promoting Christian Knowledge (1698)

وجمعية نشر الانجيل في المناطق الأجنبية Society for the Propagation of the Gospel in Foreign Parts (1701).

وقد خلفتهما في المهمة التبشيرية :

— الجمعية التبشيرية البليوية

The Bapist. Missionary Society (1792).

— جمعية الكنيسة التبشيرية

The Church Missionary Society (1799)

— جمعية الانجيل البريطانية والأجنبية

The British Foreign Bible Society (1804)

— جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود

The London Society For promoting Christianity Among the Jews (1808).

وقد **أسهمت هذه الجمعيات** بصراحة (وعلى المفتوح) في **توسيع نطاق السيطرة الأوربية، وقد تآزرت جهودها مع جهود الجمعيات العلمية المختلفة**، والتجارية، وصناديق الاكتشافات الجغرافية، وصناديق الترجمة، **بالاضافة** إلى زرْع وتأسيس المدارس، والبعثات، والمكاتب القنصلية والمعامل واستقرار الجاليات الأوربية في الشرق الاسلامي، وكان هناك **تناغم واتفاق** بين **دائرة الاستشراق، ونطاق الاستعمار**، وفي هذا المقام تجدر الاشارة إلى أن **الاستعمار قد كشف زيف صور كثيرة كان المستشرقون قد رسموها عن الشرق الاسلامي**، [١٦] **والأمر الذي أعطى دفعاً للدراسات المعاصرة** من هذه المنطقة، وقد أخذت هذه الدراسات **بالمنهج اليموضوعي في** معالجتها لهذه المنطقة، ومن هنا **تمخضت** عن اتباع هذا المنهج **دراسات متكاملة تتداخل فيها علوم الدين والعلوم السياسية، والاستراتيجية ووالاجتماعية واللغوية والأدبية والثقافية**

والعسكرية، وتتباين النظرة إلى تصنيف وضع هذه الدراسات، حيث يعتبرها بعض الباحثين مثل **إدوارد سعيد**[١٧] **العالم الفلسطيني** الذي كتب برؤية نافذة وأسلوب علمي متعمق في الاستشراق، **الشكل الحديث للدراسات الاستشراقية والتعبير الجديد الذي تقمصته**، لأن المنطق واحد لكافة هذه الدراسات، والغرض واحد لها جميعا ، فهي تهدف إلى معرفة الشرق الاسلامي، وغزوه والهيمنة عليه، وإعادة تشكيله باستخدام الفكر والسلاح، إلا أن **البعض الآخر يرى أن الدراسات الاستشراقية والدراسات الإقليمية يمثلان حقلين مختلفين** كالمستشرق الانجليزي المعروف جب، وقد **بحث كاتب هذا المقال العلاقة** بين هذين النوعين من الدراسات، فأُخِذَتْ عينتان من الدراسات الإقليمية ضمنتا أربعة عشر قطرا سبعة منها اسلامية، والأقطار السبعة الأخرى الباقية أوربية[١٨-٣٣]، وتم تحليل الموضوعات فيها للتحقق من نمط البحث واتجاهاته الموضوعية واتساق المعالجة بالنسبة للأقطار الاسلامية من جهة والأقطار الأوربية من جهة أخرى، **ويوضح الجدولان [١، ٢] التوزع الموضوعي** للمعالجات البحثية في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية، والأقطار الأوربية، وقد وُضّح في الجداول عدد الصفحات التي استوعبتها معالجة كل موضوع لإعطاء دلالة على حجم الأهمية التي أوليت لمعالجة كل موضوع، وقد حُسِبت النسب المئوية ورتبت الأهمية لشتى الموضوعات في الدراسات الإقليمية الإسلامية كما هو واضح في **الجدول [٣]، ويلاحظ من الجدول المذكور أن حقلي السياسة والادارة والاقتصاد قد تمتعا بأعلى الرتب**، بينما احتلت **التربية والجغرافية والدين رتباً وسيطة**، وجاء **في الرتب الأخيرة اللغة والأدب والعلوم**، وقد دُرِس التوزع الموضوعي واتجاهات الأهمية فيه في الدراسات الاقليمية الأوربية،وتم حساب رتب الأهمية للموضوعات التي جرت معالجتها كما هو موضح في الجدول [٤]، وقد تم حساب الارتباط احصائياً بين **أهمية** الموضوعات المختلفة المبحوثة **في** الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية من ناحية، والدراسات الاقليمية الأوربية من ناحية أُخرى.

وجرى جدولة البيانات عن الموضوعات وأعدادها، ورتب أهميتها في الدراسات الاقليمية المومأ إليها كما هو جلي في جدول [٥].

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

القطر	عدد الباحثين	الاتجاه: الجميع	أوضاع المجتمع [illegible]	الجغرافيا: البيئة والسكان	اللغات	الدين	التربية	الإعلام	الأدب والفن	السياسة والإدارة: نظام الحكم	التيارات السياسية	الاتجاهات السياسية	العلاقات الخارجية	الأمن	الجيش	الاقتصاد: بنية الاقتصاد	الزراعة	الصناعة والنفط	التجارة	النقل والمواصلات	الفرع
الأردن	٦	٠.٦		٠.٢٥		٠.١٣	٠.٢١	٠.٢١		٠.١٣	٠.١٩		٠.١٥	٠.١٢	٠.١١	٠.١٧			٠.١٠		٠.٣٥
الباكستان	٦	٠.٧		٠.٢١	٠.١٦	٠.٢٠	٠.٢٠	٠.١٩	٠.١٦	٠.٢١			٠.٢٢	٠.٢٢	٠.٣١	٠.٢٩	٠.١٢	٠.٢٦			٠.٢٨
السعودية	٥	٠.٨	٠.٢٢	٠.٢٢		٠.٢٠	٠.٢٢	٠.١٣		٠.٢٧			٠.١٥	٠.١٩	٠.١٧	٠.٢٧	٠.٢٧	٠.٤١			٠.٢٧
السودان	٦	٠.٨		٠.٢٢	٠.١٩	٠.١٧	٠.١٢	٠.١٣	٠.١١	٠.٢١			٠.١٧	٠.١٢	٠.١١	٠.٢٩	٠.٢٧			٠.٦	٠.١١
سوريا	٧	٠.٦		٠.٢٥		٠.٢١	٠.١١	٠.١٠	٠.١٠	٠.١٣	٠.١٥	٠.١٣	٠.٢٥	٠.١٥	٠.١٦	٠.١٥	٠.٢٥	٠.٢٠			٠.٢٥
لبنان	٨	٠.٨	٠.٢١	٠.٢٢	٠.٩	٠.٧	٠.١٧	٠.٢١	٠.١١	٠.١٩			٠.١٣		٠.١٣	٠.٧	٠.١٥	٠.٣٢	٠.٢٣		٠.٢١
موريتانيا	٢	٠.٦		٠.٢١	٠.٢٢	٠.٥				٠.٢٣				٠.٦	٠.٧	٠.١٠	٠.١٠	٠.١٠	٠.٩		٠.٢١

الجدول (١) : التوزع الموضوعي للمعالجات البحثية في الدراسات الإقليمية للأقطار الإسلامية

القطر	عدد الباحثين	الاتجاه: الجميع	أوضاع المجتمع [illegible]	الجغرافيا: البيئة والسكان	اللغات	الدين	التربية	الإعلام	الأدب والفن	السياسة والإدارة: نظام الحكم	التيارات السياسية	الاتجاهات السياسية	العلاقات الخارجية	الأمن	الجيش	الاقتصاد: بنية الاقتصاد	الزراعة	الصناعة والنفط	التجارة	النقل والمواصلات	الفرع
ألمانيا الاتحادية	٧	٠.٨	٠.٨	٠.٢٨	٠.١٠		٠.٢٠	٠.١١	٠.٣٨	٠.١٦	٠.١١		٠.٢٣	٠.١٥	٠.٢٠	٠.٢١	٠.٢٠	٠.١٨	٠.٢٦		٠.١٥
ألمانيا الشرقية	٦	٠.٨	٠.٧	٠.٨	٠.٨	٠.١٥	٠.١١	٠.١٩		٠.٢٣		٠.٢٧	٠.٢١	٠.٢٠	٠.٢٠	٠.٢٧	٠.٢٠	٠.١٥			٠.١٥
بولندا	٦	٠.١٠		٠.١٠		٠.١٣	٠.٢٠	٠.١٥	٠.١٩	٠.٢١	٠.٢٥		٠.٢١	٠.٢٣	٠.١٧	٠.٢٥	٠.٢٣	٠.١٩			٠.٢٥
تشيكوسلوفاكيا	٦	٠.٩	٠.١٠	٠.١١			٠.١١	٠.١٩	٠.١٥	٠.١٩	٠.١٥	٠.١١	٠.١٩	٠.٢١	٠.٢٣	٠.٢٩	٠.٢١	٠.٢١			٠.٢٢
فنلندا	١٠	٠.٨		٠.٥	٠.٦	٠.١١	٠.٩	٠.٨	٠.٢٥	٠.١٨	٠.٥	٠.١٠	٠.١٥	٠.٨	٠.٩	٠.١٥	٠.٥	٠.٧	٠.١٠	٠.٥	٠.٢٧
[illegible]	٥	٠.٨	٠.١٥	٠.١٩		٠.١٥	٠.١٠	٠.١٠	٠.٢١	٠.١٩	٠.٩	٠.٦	٠.١٣	٠.٨	٠.٧	٠.١٦	٠.١٢	٠.١١		٠.٠٤	٠.١٩
هنغاريا	٦	٠.٨	٠.١٧	٠.٢٥			٠.٢١	٠.٢٩	٠.١٩	٠.١٣		٠.٨	٠.٢٩	٠.١٩	٠.١٧	٠.٢٨	٠.٣٢	٠.١٩			٠.٩

الجدول (٢) : التوزع الموضوعي للمعالجات البحثية في الدراسات الإقليمية الأوروبية

الجدول [٣]

أهمية الموضوعات المختلفة في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية			
الموضوع	عدد الصفحات المكرسة لمعالجته	النسبة المئوية ٪	الرتبة
الاجتماع	٩٣	٤ر٩	٨
الأدب والفن	٣٨	٢	١٠
الاعلام	٩٧	٥ر١	٧
الاقتصاد	٤٥٢	٢٣ر٨	٢
التاريخ	٢٠٨	١١	٣
التربية	١٠٤	٥ر٥	٥
الجغرافية	٢٠٢	١٠ر٦	٤
الديـن	١٠٣	٥ر٤	٦
السياسة والادارة	٥٢٢	٢٧ر٥	١
العلـوم	١٠	ر١٥	١١
اللغـة	٦٦	٣ر٥	٩

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجدول [٤]

أهمية الموضوعات المختلفة في الدراسات الاقليمية الأوربية

الموضوع	عدد الصفحات المكرسة لمعالجته	النسبة المئوية ٪	الرتبة
الاجتماع	١١٦	٦	٦
الأدب والفن	١٢٢	٦ر٣	٥
الاعلام	١١٤	٥ر٩	٧
الاقتصاد	٤٢٧	٢٢	٢
التاريخ	١٧٣	٨ر٩	٣
التربية	١١١	٥ر٧	٨
الجغرافيا	١٥٦	٨	٤
الدين	٥٤	٢ر٨	٩
السياسة والادارة	٦٣٠	٣٢ر٥	١
العلوم	١٥	٠ر١٧	١١
اللغة	٢٢	١ر١	١٠

الجدول [٥]

الارتباط بين رتب الأهمية للموضوعات المختلفة في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية من جهة، والدراسات الاقليمية الأوربية من جهة أخرى

ن الرقم	الموضوع	رتبة الموضوع في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية	رتبة الموضوع في الدراسات الاقليمية الأوربية	ف الفرق بين الرتب	ف٢ مربعُ الفرق بين الرتب
١	الاجتماع	٨	٦	٢	٤
٢	الأدب والفن	١٠	٥	٥	٢٥
٣	الاعلام	٧	٧	٠	٠
٤	الاقتصاد	٢	٢	٠	٠
٥	التاريخ	٣	٣	٠	٠
٦	التربية	٥	٨	٣ـ	٩
٧	الجغرافيا	٤	٤	٠	٠
٨	الدين	٦	٩	٣ـ	٩
٩	السياسة والادارة	١	١	٠	٠
١٠	العلوم	١١	١١	٠	٠
١١	اللغة	٩	١٠	١ـ	١
					٤٨
					مج ف٢ = ٤٨

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد **استخدمت معادلة سبيرمان** لحساب **معامل الأرتباط [ر]** بين **رتب الأهمية للموضوعات المختلفة في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية** من جهة، **والدراسات الاقليمية الأوربية** من جهة أخرى، كما هو موضح أدناه.

$$\text{ر} = ١ - \frac{\text{٦ مج ف}^{٢}}{(\text{ن}^{٣} - \text{ن})}$$

$$= ١ - \frac{٦ \times ٤٨}{١٣٣١ - ١١}$$

$$= ١ - \frac{٢٨٨}{١٣٢٠}$$

$$= + ٠٫٧٨ \text{ر}$$

وهذا الجواب يشير إلى ارتباط موجب قوي بين أهمية الموضوعات المبحوثة في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية والأوربية، وكانت الخطوة التالية التي اتخذها الباحث هنا هي معرفة رتب **أهمية الموضوعات** المبحوثة في **الدراسات الاستشراقية** لحساب الارتباط بينها وبين رتب أهمية هذه الموضوعات في **الدراسات الاقليمية الاسلامية، وقد رجعنا إلى سير ونتاج المستشرقين وبخاصة في كتابات صلاح الدين المنجد، الذي عُني بدراسات المستشرقين** في كافة الموضوعات، وقام «بوضع مسرد شامل لما كتبه المستشرقون من دراسات عن تراثنا الاسلامي منذ منتصف القرن ١٩ تمهيدا لنقله إلى اللغة العربية» وقد قدم خلاصة ما اختار من دراسات هؤلاء المستشرقين في كتابه: **المنتقى من دراسات المستشرقين: دراسات مختلفة في الثقافة العربية**. ـــ ج ١ . ـــ ط٢ بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٣٩٦/١٩٧٦. ـــ ٤٨ص، هادفاً إلى أن يتيح **المنتقى** «للمثقفين (العرب) الاطلاع على نتاج علماء الغرب، ومناهجهم في البحث، وطرقهم في الدرس، وعلى مصادرهم وينابيع دراساتهم»، **وقد أبرز المنجد دور الاستشراق الألماني**، وقد «اشتغل الألمان في الآداب العربية .. بهمة ونشاط بين ترجمة ونشر وبحث وتنقيب، ولعلهم أكثر المستشرقين عملاً في نشر الآداب العربية»(٣٤).

والواضح في الدراسات الاستشراقية **أن اسهامات بروكلمان** المستشرق الألماني المعروف Brockelmann, تقدم **مثلاً نموذجياً لجهود المستشرقين**، وقد قام كاتب هذه المقالة بقراءة ما كتب وما كتبه بروكلمان، ووجد أن هذا المستشرق غزير الانتاج موسوعيّ الثقافة وملم بمعرفة غنية عن لغات الشرق حديثها وقديمها من عربية، وعبرية، وسريانية، وتركية..، وقد **قام كاتب المقالة بالتحليل الموضوعي لأكثر من ٢٦٠ كتابا ومقالة كتبها؛ بالاضافة إلى ذلك فقد جرى تحليل أعمال نخبة** من **المستشرقين الألمان** ، وكذلك أعمال مستشرقين من أقطار أوربية أخرى ضمت **ايطاليا، بريطانيا، السويد، فرنسا**(٣٥) **دعمت وأسهمت بشطر غالب بارز في الدراسات الاستشراقية.**

ويوضح الجدول التالي أسماء، وجنسيات وأعداد هؤلاء المستشرقين الذين أُخضعت مجموعة مختارة من كتاباتهم للتحليل الاحصائي الموضوعي.

[الجدول [٦] أسماء وجنسيات نخبة المستشرقين الذين درست أعمالهم]

الاسم		الجنسية	عدد العلماء الذين حللت أعمالهم المختارة تبعا لأقطارهم
بروكلمان ، كارل	Brockelman, C.	ألماني	
شنايدر، أ.م.	Schneider, A.M.	ألماني	
شاخت، ي.	Schacht, J.	ألماني	
كراوس، ب	Kraus, P.	ألماني	
تشنر، فرانز	Taeschner, F.	ألماني	
كرايمر، ب	Kraemer, J.	ألماني	
ريتر، هـ.	Ritter, H.	ألماني	٧
جب، أ.	Jibb, A.	انجليزي	١
جبرايلي	Gabrieli	ايطالي	
نلينو، ك.	Nallino, C.	ايطالي	٢
ويت، ج.	Wiet, G.	فرنسي	١
زيترستين، ك.	Zettersteen, C.	سويدي	١

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما يوضح الجدول المعروض فيما يلي:

التحليل الموضوعي الاحصائي لاثنتي عشرة ببليوجرافية مختارة بأعمال نخبة المستشرقين الأوربيين في كتاب **المنتقى من دراسات المستشرقين** / لصلاح الدين المنجد والذين **ذكرت** أسماؤهم وجنسياتهم في **الجدول [٦]**.

الموضوع	عدد المؤلفات	النسبة المئوية٪	رتبة الأهمية٪
الاجتماع	٤	١	٩
الأدب	٦٢	١٦ر١	٣
الاقتصاد	١	ر١	١١
التاريخ	٤٧	١٢ر٢	٤
التربية	٢٣	٦	٥
الجغرافية	١٣	٣ر٣	٦
الديـن	١٥٢	٣٩ر٥	١
السياسة والادارة	٢	ر١	١٠
العلـوم	٨	٢	٨
الفلسفة	٩	٢ر٣	٧
اللغـة	٦٤	١٦ر٦	٢

[**الجدول ــ ٧ ــ** رتب أهمية الموضوعات المختلفة في الدراسات الاستشراقية]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولمعالجة الارتباط بين رتب الأهمية للموضوعات المختلفة في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية من جهة، والدراسات الاستشراقية من جهة أخرى جدولت البيانات التالية:

ن الرقم	الموضوع	رتبة الموضوع في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية	رتبة الموضوع في الدراسات الاستشراقية	ف الفرق بين الرتب	ف٢ مربع الفرق بين الرتب
١	الاجتماع	٨	٩	١ــ	١
٢	الأدب	١٠	٣	٧	٤٩
٣	الاقتصاد	٢	١١	٩ــ	٨١
٤	التاريخ	٣	٤	١ــ	١
٥	التربية	٥	٥	٠	٠
٦	الجغرافية	٤	٦	٢ــ	٤
٧	الدين	٦	١	٥	٢٥
٨	السياسة والادارة	١	١٠	٩ــ	٨١
٩	العلوم	١١	٨	٣	٩
١٠	اللغة	٩	٢	٧	٤٩
					مج ف٢ = ٣٠٠

الجدول [٨] رتب أهمية الموضوعات المبحوثة في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية، والدراسات الاستشراقية.

وقد استخدمت معادلة سبيرمان لحساب **معامل الارتباط** [ر] بين رتب الأهمية للموضوعات المختلفة في الدراسات **الاقليمية للأقطار الاسلامية** من جهة، **والدراسات الاستشراقية من جهة أخرى، كما هو موضح أدناه:**

$$\text{ر} = ١ - \frac{\text{٦ مج ف}^{٢}}{(\text{ن}^{٣} - \text{ن})}$$

$$= ١ - \frac{٣٠٠ \times ٦}{١٣٣١ - ١١}$$

$$= ١ - \frac{١٨٠٠}{١٣٢٠}$$

$$= -٣٦\text{ر}٠$$

ويدل الجواب على وجود ارتباط سالب ضعيف بين **رتب أهمية الموضوعات في الدراسات الاقليمية للأقطار الاسلامية، والدراسات الاستشراقية، ومثل هذه النتيجة تدعم وجهة النظر القائلة باختلاف الدراسات الاقليمية للشرق الاسلامي، عن الدراسات الاستشراقية بعبارة أخرى فإنهما يكونان حقلين متميزين من حقول البحث التي** ينتهج فيهما المستشرق، وخبير الدراسات الاقليمية هنا نهجين غير متماثلين ولا أقول غير متصلين أو متآزرين. وقد استوقفتني **دراسة احصائية. لأوعية الانتاج العربي الاسلامي الكلاسيكي قام بها كمال اليازجي** ونالت هذه الدراسة اهتمامي لقضية وددت التحقق والتثبت منها وهي : **عدم تركيز الدراسات الاستشراقية على الانتاج الفكري العربي الاسلامي الكلاسيكي وشمولها للأعمال المبحوثة على مختلف مستوياتها ومكاناتها،** الأمر الذي يثير الأسئلة حول دقة تمثيلها لعموم ذاك الانتاج ومصداقية هذا التمثيل. وبالتالي موثوقية النتائج التي توصل إليها المستشرقون في دراساتهم لذلك الانتاج!!!.

ويوضح **الجدول التالي رقم [٩] التوزيع الاحصائي للأوعية المدروسة في شتى العلوم العربية الاسلامية، ويتبين من الجدول الرتب العليا التي يتمتع بها موضوع الدين ، وموضوع الأدب، وكذلك العلوم واللغة،** وكما يلاحظ من الجدول فإن التطابق في رتبة الأهمية لم يتحقق بين الدراسات الاستشراقية، ودراسة اليازجي (١٩٧٨) إلا في موضوع واحد فحسب، ثم تأخذ الفوارق بين رتب أهمية الموضوعات المختلفة الأخرى تظهر **وتتباين** وتتباعد أحيانا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجدول [٩] التوزيع الاحصائي للأوعية المدروسة في شتى العلوم العربية الاسلامية(٣٦)

الموضوع	العدد الكلي حصر ودرس	النسبة المئوية٪	رتبة الأهمية
التاريخ	٢٩	١٠ر٦	٥
الجغرافية	١٧	٦ر٢	٧
اللغة	٣٧	١٣ر٥	٤
الأدب	٦٣	٢٣	٢
الدين والسيرة النبوية	٦٧	٢٤ر٥	١
الفلسفة	٢٠	٧ر٣	٦
العلوم	٤٠	١٤ر٦	٣

ولمعالجة **الارتباط** بين رتب **الأهمية للموضوعات المختلفة في الدراسات الاستشراقية** من جهة، **ودراسة اليازجي** الاحصائية لأوعية الفكر العربي الكلاسيكي من جهة ثانية صنفت البيانات التالية:

ن الرقم	الموضوع	رتبة الموضوع في الدراسات الاستشراقية	رتبة الموضوع في دراسة اليازجي الاحصائية	ف الفرق بين الرتب	ف٢ مربع الفرق بين الرتب
١	الأدب	٣	٢	١	١
٢	التاريخ	٤	٥	١—	١
٣	الجغرافية	٦	٧	١—	١
٤	الدين والسيرة النبوية	١	١	٠	٠
٥	العلوم	٨	٣	٥	٢٥
٦	اللغة	٢	٤	٢—	٤
					مج ف٢ ٣٢

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جدول [١٠] رتب أهمية الموضوعات المبحوثة في الدراسات الاستشراقية، ودراسة اليازجي (١٩٧٨).

وقد عولجت قضية الارتباط بين رتب الأهمية للموضوعات المختلفة في الدراسات الاستشراقية من جهة، **ودراسة اليازجي** (١٩٧٨) الاحصائية لأوعية الفكر العربي الكلاسيكي من جهة أخرى، باستخدام معادلة سبيرمان، وجرى حساب معامل الارتباط [ر] على النحو التالي :

$$ر = ١ - \frac{٦ \text{ مج ف}^{٢}}{(ن^{٣} - ن)}$$

$$= ١ - \frac{٦ \times ٣٢}{٢١٦ - ٦}$$

$$= ١ - \frac{١٩٢}{٢١٠}$$

= + ٠,٠٨ر

ويلاحظ من الجواب أن ليس هناك **ارتباط هام** بين رتب **أهمية الموضوعات** المبحوثة في **الدراسات الاستشراقية، ودراسة اليازجي** (١٩٧٨) مما يؤكد صواب الغرض الذي طرح عن **طبيعة المجال والمعالجة الوعائية في الدراسات الاستشراقية.**

موقفان متميزان : المستشرق وخبير الدراسات الاقليمية المسيحي، والعالم الجغرافي والرحالة المسلم :

في الفقرات السابقة بانت لنا العلاقة بين الدراسات الاستشراقية والاقليمية من جهة ومآرب القوى الاستعمارية الأوروبية من جهة أخرى، كما كشف تلك الفقرات اعتماد المستشرقين الفائق والغالب على النصوص في دراساتهم ونتائجهم، وأخذ خبراء الدراسات الاقليمية بمبدأ الرحلة والاقامة في المنطقة ومعاشرة أهلها بل والدراسة فيها أحيانا كسبيل هام من سبل التحصيل، وتنطلق الدراسات الاستشراقية والاقليمية للشرق الاسلامي من موقف جوهري يتسم بالمواجهة والشعور بتميز وتفوق الحضارة المادية الأوروبية في هذه الحقبة الزمنية التي بدأ العرب يأخذون فيها بأسباب العلم والبحث ويقطعون خطوات فيها نحو التصنيع والتكامل والتكافل والاعتماد على الذات الأمر الذي يثير فزع العالم الأوروبي المسيحي، يقول الأستاذ برنارد لويس الذي عمل رئيسا لقسم الدراسات الاسلامية في جامعة لندن / اكاديمية الدراسات الشرقية والأفريقية: «إن وصول الاسلام الى مركز القوة أمر له خطورته ... إن الاسلام دين قوة، ... فاذا لم ينتبه الى خطر الاسلام فان أمتي السبت والأحد (أي اليهود والنصارى) سيعانون من نتائج وخيمة»(٣٧)، ومن هنا فان الرحالة الغربي الذي يرتاد الشرق الاسلامي ويتنقل فيه ويستقر فيه مددا تتباين يأتيه يتزيأ ويظهر برداء الباحث.

وهو في الحقيقة يد ووسيلة للسلطة والكنيسة الأوروبية، والمستشرق الأوروبي مثلا يدرك هذه الحقيقة، وتتلون نظرته ومعالجته وفق ذاك الادراك، ويوضح هذه المقولة موقف المستشرق الهولندي دوزي Dozy من الرحالة المسلم أبي القاسم محمد بن حوقل البغدادي، فابن حوقل من جغرافيي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وظل يتجول في شتى الأقطار نحو ثلاثين سنة، وقد غادر ابن حوقل بغداد سنة ٣٣١هـ (٩٤٣م) طلبا لدراسة البلاد والشعوب بالاضافة للتجارة، وطاف في العالم الاسلامي من شرقيه الى غربيه ويبدو أنه شاهد كل ما كتب عنه وعاينه.

يتسم أسلوبه بالواقعية والتفصيل والتحليل والتفسير، ويبدو ذلك من وصف ابن حوقل بلرم عاصمة صقلية جغرافيتها البشرية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والاقتصادية، واتصل ابن حوقل بالفاطميين، وتنقل الى اسبانيا أو بلاد الأندلس، «وقد ذهب المستشرق الهولندي» دوزي Dozy الى أن هذا الرحالة كان يتجسس ويعمل لحساب الفاطميين في الأندلس، وتفسير «دوزي» هذا منبثق من فهمه الدقيق لهذا الدور، ومن هنا فان «دوزي» يسبغ على الفاطميين نفس الدور الذي لعبه ويلعبه الأوروبيون المستعمرون، فدوزي يذهب في القول الى أن الفاطميين كانوا يتطلعون الى الاستيلاء على تلك البلاد أي الأندلس، ولهذا سعوا الى جمع المعلومات عنها، وقد أشار «دوزي» الى ما كتبه ابن حوقل حول ضعف تلك البلاد، راميا بذلك الى حث الخليفة الفاطمي على التقدم لغزوها، واستند «دوزي» الى كلام ابن حوقل عن أهل تلك البلاد: «ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها ... وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها، ومواقع نعمها ولذاتها ... وليس لجيوشهم حلاوة في العين، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ...».

والرحالة المسلم بالمقارنة مع المستشرق النصراني الذي اعتمد كثيرا على دراسة النصوص، واعتمد على المشاهدة والحقائق، مثلا، أبو عبد الله المقدسي المعروف بالبشاري، أعظم جغرافيي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان «يعتمد على الرحلة والمشاهدة في جل كتاباته ...، وكان المقدسي بوجه عام دقيق الملاحظة باحثا ناقدا يتحرى تمحيص ما ينقل»، وقد امتاز الجغرافي المسلم الذي تنقل في أقطار أوربا في وصفه ومعالجاته بالدقة والموضوعية، ويتجلى هذا في كتابات ومعالجات محمد بن محمد الشريف الادريسي، صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» والذي كان من غير ريب من أعلام الجغرافيين المسلمين الذين كان للرحلات شأن عظيم في آثارهم العلمية، وقد ولد في سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م) ودرس في جامعة قرطبة، وطاف في الأندلس وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى، وقد زار فرنسا وانجلترا، ولبّى دعوة الملك روجر Roger فنزل في بلاطه بصقلية، وقد وقع اختيار الملك عليه ليؤلف له كتابا في وصف الكرة الأرضية، ويحمل هذا الاختيار للمهمة دلالة هامة على ما كان للمسلمين من تفوق في العلوم والفنون في ذلك العصر، إن ما كتبه عن مصر والشام وفرنسا وايطاليا وألمانيا والأراضي المطلة على البحر الأدرياتيكي، يشهد بأنه أفاد كثيرا من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد، ولا يتوفر الباحث بوجه عام على الكثير من المعلومات عن سيرة الأدريسي، ويعترف المستشرقون بمكانة الادريسي واسهاماته الجغرافية وبمعالجاته الموضوعية، وإنصافه المسيحيين في صقلية في وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء، وفي دراستنا للأدب الجغرافي وأدب الرحلات لدى المسلمين، نجد أن الرحالة المسلم يصرف شطرا كبيرا من تطوافه في ديار المسلمين، وقد قدّم لنا الرحالة المسلم بوجه عام صورا صادقة عن الأماكن التي تم الوصول اليها، وعن الحياة الاجتماعية في تلك الأماكن في تلك الأوقات، وقطع في أسفاره مسافات كبيرة عز أن نجد نظيرا لها، فابن بطوطة على سبيل المثال قطع مسافة قدّرها بعض العلماء بخمسة وسبعين ألف ميل، وهي مسافة لا يظن أن رحالة غيره قطعها، وقد عرف الرحالة المسلم بنبل خلقه وبالتسامح الديني واحترام عقائد الآخرين الذين يلتقي بهم في تجواله، فهذا العالم الأديب الفقيه زين الدين عبد الباسط، كان أبوه خليل بن شاهين الظاهري من أمراء المماليك وأعلام رجال الادارة في عصره بل كبار المؤلفين كما يشهد بذلك كتابه «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك»، وهو عرض للوظائف السياسية والادارية في إمبراطورية المماليك في القرنين السابع والثامن من بعد الهجرة (١٣ – ١٤م).

وقد قام عبد الباسط برحلة طويلة قضى بها بضع سنوات في زيارة الممالك والدويلات الاسلامية، وقد عرف عبد الباسط بالتسامح الديني واحترام عقائد الآخرين كما يتبين من حديثه عن طبيب يهودي لقيه سنة ٨٦٩، واسم هذا الطبيب «موسى بن صموئيل بن يهودا المالقي الأندلسي ... لم أسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم ..» وعلى وجه الاجمال فإن الرحلات والأسفار كانت من أول السبل لطلب العلم في تلك العصور، فقد كانت الكتب نادرة، وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من إقليم الى آخر.

وكان منهم من اشتغل بالتجارة، وقد وصلوا الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطىء المحيط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وساحل أفريقيا الشرقي وجزر المحيط الهندي، ويشير الى اتساع الرقعة الجغرافية التي تنقلوا فيها والعثور على كميات وافرة من النقود الاسلامية في روسيا وفنلندة والسويد والنرويج، بل في سويسرة وأيسلنده والجزائر البريطانية، وترجع قطع العملة التي عثر عليها الى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الخامس بعد الهجرة (٧ – ١١م).

مسمّى جديد للدراسات الاقليمية : الدراسات القطرية

تتخذ الدراسات الاقليمية منحى يميزها Country Studies أكثر عن الدراسات الاستشراقية التي تدرس وتبحث وتحاول التعميم في نتائجها عن الشرق الاسلامي، حيث أخذت تلك الدراسات تركز على الأقطار، وقد تبين بوضوح هذا المنحى في الدراسات الاقليمية في مرجع يعتبر من بين أحدث المطبوعات في مجال الدراسات الشرقأوسطية وعنوان هذا المرجع:

Middle Eastern Studies : Egypt, Sudan, Jordan, Lebanon, Syria, Iraq, The Arabian Peninsula, (Israel) ,Turkey, Iran./ by Dorr, Steven R., Consultant George Atiyeh.- Washington, D.C.: Woodrow Wilson International Center For Scholars, Smithsonian Institution, 1981.- 540 P.

وقد تعرض هذا المرجع الى أكثر من خمسمائة مكتبة ومركز معلومات ومنظمة، ويقدم المرجع بيانات وصفية وتقويمية لشتى المؤسسات المغطاة، وقد نمت وازدهرت الدراسات الاقليمية على يد الأمريكيين. وقد تمخض عن المنحى الذي اتخذته والذي جرت الاشارة إليه آنفا تغيير في المسمى الذي يطلق عليها من الدراسات الاقليمية إلى الدراسات القطرية Country Studies[٤٠] وقد أعدت أكثر هذه الدراسات (الجامعة الأمريكية) الواقعة في شارع وسكنسن في واشنجتن / بمقاطعة كولمبيا، وينفذ هذه الدراسات في الجامعة الأمريكية «برنامج الدراسات الاقليمية الأجنبية» وفق عقد متفق عليه مع وزارة الدفاع الأمريكية، وقد قدم هذا البرنامج أكثر من مائة من الدراسات القطرية التي تمثل دراسات حالة البلدان المشمولة بأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والجغرافية والثقافية والدينية، ويعمل في ذلك البرنامج نحو ثلاثين خبيرا بينهم ثمانية عشر متخصصا في دراسات الأقطار الأجنبية.

ويخدم أهداف هذا البرنامج مكتبة فيها ما يزيد عن سبعة آلاف مجلد، معظمها باللغة الأنجليزية وقد غطت الدراسات التي أنجزها البرنامج أقطار الشرق الأوسط التالية : الأردن، الامارات العربية المتحدة، السودان، سوريا، لبنان، مصر، ليبيا، المملكة العربية السعودية، اليمن الجنوبي، اليمن الشمالي، إيران، الباكستان، قبرص، والكيان الاسرائيلي في فلسطين المحتلة، وتحصل عليها المكتبات عن طريق مطبعة الحكومة الأمريكية USGPO بواشنجتن والذي ينشر كافة مطبوعات الحكومة ويطبعها ويجلدها، ومن بين منشوراته التي تجاوزت ٢٥٫٠٠٠ والتي تزداد بمقدار ٣٠٠٠ عنوان سنويا يتوفر ٢٧٠ بيليوجرافية موضوعية تغطي الدراسات الاقليمية والتقارير والأدلة والنشرات وغيرها من أوعية المعلومات، وفي معالجتنا الراهنة سنستمر في الأشارة الى «الدراسات الاقليمية»، وليس المسمى الجديد «الدراسات القطرية» وينطلق هذا الموقف من عدة عوامل هي:

١ – استقرار مسمى ومفهوم «الدراسات الاقليمية» في أذهان الباحثين والمتخصصين أكثر.

٢ – استقرار استخدام مصطلح «الدراسات الاقليمية» في الأدب المنشور في هذا المجال.

٣ – استمرار القائمين على إصدار هذه الدراسات في نظرتهم الشاملة الى منطقتنا، ومعالجتهم لها في إطار اقليمي يشمله مصطلح «الشرق الأوسط» الذي تزايدت أهميته في نظر أمريكا والغرب بوجه عام، واجتذب انتباها متناميا منهم في العقد المنصرم بوجه خاص، فالشرق الأوسط كما يقرون يحتل مكانة مرموقة في هذا العالم حيث أنه من ناحية تاريخية يمثل مهد الحضارة الغربية، وقد أنزلت فيه ثلاث ديانات سماوية هي الاسلام والمسيحية واليهودية، وقد برزت في الساحة السياسية الدولية بصورة أوضح وأعمق هذه المنطقة من العالم، وقد أسهمت في إبراز هذه الصورة قضايا شتى منها الصراع العربي الصهيوني، أزمات البترول التي مرت، الأحداث التي تأخذ مكانها في منطقة الخليج العربي والقرن الأفريقي وأفغانستان ولبنان.

ومن مراكز البحث والمعلومات التي تعبر عن النظرة الشاملة في معالجة منطقة الشرق الأوسط، والتي أصدرت وتصدر العديد من الدراسات المتصلة بهذه المنطقة:

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

— Abbots Associates. Inc.
801 North Pitt Street,
Alexandria, Virginia 22314 - (703) 836 - 8080

وتعرف هذه المؤسسة الخاصة بأبحاثها الهامة وبخاصة في الموضوعات العسكرية والسياسية، والكثير من هذه الأبحاث متصل بالشرق الأوسط أو أحد أقطاره ومنها:

- Jureidini, P.A. & R.D. Mclaurin/ Beyond Camp David: Alignments and leaders in the Middle East (1981).

Haley, P.E. & L.W. Snider. eds. /The Lebanese War, the Middle East and International politics (1979).

- Snider, L.W. & R.D. Mclaurin / Saudi Arabia's Air Defense Requirements in the 1980 s (1978).

- Selected Middle East Publications, issued by AAI, and contains over 100 titles.

— Advanced International Studies Institute (AISI), (University of Miami).
Suite 1122, East - West Towers
4330 East - West Higway
Bethesda, Maryland, 20014/ (301) 951-0818

يتبع هذا المعهد جامعة ميامي بفلوريدا، ويقوم بدراسات بيموضوعية في حقول السياسة الدولية، والسياسة الخارجية الأمريكية مع الاهتمام بالدراسات السوفياتية والسياسة السوفياتية الشرقأوسطية، ومن عناوين هذه الدراسات:

- Kohler, F.D. etal/The Soviet Union and the October 1973 Middle East War (1974).

- AISI / Moscow and the Palestinian (197-).

— American Enterprise Institute For Public Policy Research 1150 - 17th Street, NW
Washington, D.C. 20036/ (202) 862-5800.

هذا المعهد مؤسسة تربوية وبحثية تهتم بدارسة مشكلات وقضايا السياسة الوطنية، على مستوى محلي ودولي، وقد نفذ هذا المعهد منذ سنة ١٩٦٠ حتى أواخر السبعينات برنامجا من الدراسات الشرقأوسطية التي تمحورت حول مصالح السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وحول موضوعات هامة شملت الصراع العربي الصهيوني، أثر السوفيات وسياساتهم، النخبة السياسية، العلاقات الأمريكية السعودية، توازن التسلح في منطقة الخليج العربي، مصالح أمريكا في الخليج العربي، توازن التسلح بين العرب والكيان الاسرائيلي، الاقتصاد السعودي، الأزمة السياسية اللبنانية، ومن بين عناوين المنشورات الصادرة عن المعهد:

- Nakhleh, Emile A. / A Palestinian Agenda for the West Bank and Gaza (1980).

- Nakhleh, Emile A. / The West Bank and Gaza: Toward the Making of palestinian State (1979).

- Abdul-Rauif, Muhammad/ The Islamic Doctorine of Economics and Contemporary Economic Thought: Highlight of a Conference (1979).

- Elazar, D.J./The Camp David Framework for peace: a Shift toward Shared Rule (1979).

- Tahtinen, D.R. / National Security Challenges to Saudi Arabia (1978).

- Anthoug, J.D./the Middle East: Oil, Politics, and Development (1975).

- Lenczowski, G. / Political Elites in the Middle East (1975).

- Javits, J. / Prospects, for Peace in the Middle East.

AIE Foreign Policy and Defense Rev.

وتعالج هذه النشرة التي تصدر مرة كل شهرين السياسة الأمريكية المتصلة بإيران والخليج العربي.

٤ — American Foreign Policy Institute
449 South Capital Str., SW.
Suite 500, Washington, D.C. 2003/(202) 384-1569.

يرتبط معهد السياسة الخارجية الأمريكية بمجلس الأمن الأمريكيASC في بوسطن بولاية فيرجينيا، وقد كان الشرق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأوسط محل سلسلة من الأبحاث لأهميته وصلته بقضية «الأمن القومي الأمريكي»، ومن منشوراته:

- The Impact of the Iranian Events Upon (persian) Gulf and United States Security (1979).
- International Security Review:

وهي مجلة ربيعية يوزعها المعهد، وتصدر أصلاً عن مركز دراسات الأمن الدولي التابع لمجلس الأمن الأمريكي/المؤسسة التربوية.

٥ — American University
Center For Mediterranean Studies
Massachusetts and Nebrask Avenues, N W
School of International Service,
Washington, D.C. 20016/ (202) - 686-2477

على رأس هذا المركز مدير عربي الأصل أسمه عبد العزيز سيد، وتنضوي تحت مظلة هذه المؤسسة مجموعة من الهيئات التي تنظم وتعد المحاضرات والمؤتمرات والندوات ومشاريع الأبحاث المتصلة بالشرق الأوسط.

٦ — American University, Foreign Area Studies (FAS)
5010 Wisconsin Av., NW
Washington, D.C. 20016 / (202) - 686 - 2769

وقد سبق التحدث عن «برنامج الدراسات الاقليمية الأجنبية».

٧ — Aspen Institute For Humanistic Studies
2010 Massachusetts Av., NW
Washington, D.C. 20036/ (202) 466-6120

يجتذب المعهد الخبرات من شتى الأقطار للقيام بالدراسات ويترأس برنامج الدراسات الشرقأوسطية الدكتور كولين وليامز من جامعة ييل Yale، وعن طريقه يمكن الحصول على الدراسات الشرقأوسطية وعنوانه:

Queenstown, P.O.BOX 150
Maryland 21658, USA

٨ — Batelle Memorial Institute
Columbus, Ohio

وتنطلق معظم أنشطته من خلال مكتبة واشنجتن وعنوانه:

Battelle Memorial Institute, Washington Operations
2030 M Str., NW,
Washington, D.C. 20036/(20) 785 - 8400.

تتصل أنشطة البحث التي يقوم بها المعهد بقضايا السكان، الخصوبة السكانية، الأسرة وحجمها، تخطيط الأسرة، وقد قام المعهد بمجموعة من ا لدراسات المتعلقة بعدد من أقطار الشرق الأوسط منها: مصر، الأردن، المغرب، السودان، وتونس، وتتوفر قائمة بمنشوراته وتزود لطالبيها مجانا:

٩ — Brookings Institution
1775 Massachusetts Av., NW
Washington, D.C. 20036/ (202) 797-6000

تقوم المؤسسة بنشاط معروف من البحث والنشر في موضوعات عديدة تشمل الاقتصاد، الحكومات، السياسة الخارجية، والعلوم الاجتماعية على وجه الاجمال، وتنفذ المؤسسة مشاريعها من خلال ثلاثة برامج: الدراسات الاقتصادية، دراسات الحكومات، ودراسات السياسة الخارجية، بالاضافة لبرنامج آخر للدراسات العليا، وبرنامجان آخران مساعدان للتحسيب والنشر.

وتولي المؤسسة الآن عناية بالدراسات الشرقأوسطية، ويقوم الباحث وليام ب . كوانت Quandt بدراسة سياسة الشرق الأوسط، وأثر السياسة الخارجية السعودية، والدور السعودي في سياسة منظمة الأوبك التسعيرية والعلاقات الأمريكية السعودية، وتتركز أنشطة البحث والدراسة الحالية في هذه المؤسسة حول قضايا التنمية في أقطار الشرق الأوسط، ومشكلة الطاقة وعلاقتها بالسياسة الأمريكية وقد صدر عن المؤسسة:

Toward Peace in the Middle East: Report of a Study Group (1975).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٠ — CACI, Incorporated

1815 North Fort Myer Drive,

Arlington, Virginia 22209/(703) 841-7800

Policy Sciences Division, Middle East

يجري قسم العلوم السياسية البحث المتصل بالشرق الأوسط، والذي يعالج موضوعات اقتصادية، وسياسية، وعسكرية، ومن بين الدراسات التي أنجزت:

- The Economy of North Yemen and U.S. Military Assistance (1979).

- The Economic Implications of a Middle East peace: an Economic Development Model For the West Bank and Gaza Strip (1978).

ويدير شعبة دراسات الشرق الأوسط في قسم العلوم السياسية عربي اسمه فريد أبو الفظي.

١١ — Carnegie Endowment for International Peace,

Washington Office, 11 Dupont Circle, NW

Washington, D.C. 20036/ (202) 797-6400

تدعم مؤسسة كارنيجي البحث والحوار والدراسات في الشئون الدولية، وقد تنامى اهتمام المؤسسة حديثا بالدراسات الاقليمية، وتنطلق أنشطة هذه المؤسسة المتصلة بالشرق الأوسط من مكتبها في نيويورك، ومن بين منشورات المؤسسة المتعلقة بالشرق الأوسط وأقطاره:

- The Economics of the West Bank and Gaza since 1967

- Opec

- Syrian Intervention in Lebanon

- Middle East Negotiations

- Egyptian Domestic Political Depate.

- Israelis Speak about Themselves, and the Palestinians.

-The Arms and Policy of the Shah of Iran.

١٢ — Center For Naval Analysis (CNA)

2000 North Beauregard Str.,

Alexandria, Virginia 22311 / (703) 998-3500

يتبع المركز جامعة روتشستر Rochester منذ ١٩٦٧، ويشتغل فيه قرابة مائة وخمسين باحثاً، وتتراوح موضوعات الأبحاث عن الشرق الأوسط بين الموضوعات الاقتصادية، والموضوعات الاستراتيجية، ومن عناوين منشورات المركز:

- Weinland, R.G./ Superpower Naval Diplomacy in the October 1973 Arab-Israeli War (1978).

- Wells, A.R. / The 1967 June War: Soviet Naval Diplomacy and the Sixth Fleet, a Reappraisal (1977).

- Durch, W.J. / The Cuban Military in Africa and the Middle East: From Algeria to Angola (1977).

- Durch, W.J. / Revolition From a F.A.R.: the Cuban Armed Forces in Africa and the Middle East (1977).

١٣ — Foreign Policy Institute (FP I),

(Johns Hopkins University)

School of Advanced International Studies

1740 Massachustts Av., NW

Washington, D.C. 20036/ (202) 785-6200

افتتح معهد دراسات السياسة الخارجية في تموز سنة ١٩٨٠، خلفاً لمركز واشنجتن لأبحاث السياسة الخارجية، ومهمته إجراء الدراسات حول القضايا الهامة الراهنة المتصلة مثلاً بالطاقة، الأمن الدولي، السياسات الاقتصادية، ويشكل الشرق الأوسط حقلاً هاماً في برنامج دراسات المعهد، من المنشورات التي صدرت عن المركز المذكور والتي يتوقع أن يواصل المعهد البحث فيها:

- Roberts, S. / the Foundations of Israeli Foreign Policy: Survival or Hegemony (1974).

- Klieman, A. / Soviet Russia and the Middle East (1970).

١٤ — CenterFor Strategic and International Studies (CSIS).

(George University)

1800 K Street, NW

Washington, D.C. 20006 / (202) 887-0200.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تغطي دراسات المركز مناطق شتى من العالم تشمل الشرق الأوسط، أفريقيا ...، وتعالج هذه الدراسات موضوعات عديدة كالموارد الطبيعية، الدفاع، الاقتصاد الدولي، الشركات، التكامل، اتخاذ القرارات في الحكومة، وقدتناولت الدراسات الشرقأوسطية للمعهد: الخليج العربي، التسلح في الشرق الأوسط، العلاقات المصرية الاسرائيلية ، الأبعاد السلمية للعلاقات الأفريقية العربية، الحرب الأهلية اللبنانية، العوامل الدينية ودورها في الصراع في الشرق الأوسط، وبرنامج البحث الحالي في المعهد يعالج الأبعاد السياسية والاقتصادية للتحديث في المملكة العربية السعودية.

ومن بين عناوين المنشورات الصادرة عن المركز والتي تعكس اهتماماته ومآربه:

- Kramer, M. / Political Islam (1980)
- Cottrell, A.J & F. Bray/ Military Forces in the Persian Gulf (1978).
- Price, D.L. / Oil and Middle East Security (1976).
- Long, D.E. / Saudi Arabia (1976).
- Greveld, M Van / Lessons of the Yom Kippur War (1979).
- Religious Factors in Conflicts in the Middle East (1979).
- Abshire, D. et al./ Egypt and Israel: Prospects For a New Era (1979).

١٥ ــ Historical Evaluation and Research Organization (HERO) T.N. Dupuy Associates.
2301 Gallows Rd, Dunn Loring, Virginia 22027
P.O. Box 157.

تعنى أبحاث هذه المؤسسة بالتاريخ العسكري، وتولي سياسة البحث هنا عناية للأبعاد العسكرية للصراع العربي الاسرائيلي، ومن بين منشوراتها:

Elusive Victory: the Arab - Israeli War 1947 - 1974 (1978).

١٦ ــ Institute For Policy Studies (IPS).
1901 Q Str., NW
Washington D.C. 20009 / (202) 234 - 9382
(Middle East Research).

كان الشرق الأوسط محل عدد من الدراسات التي عالجت السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط في مجالات السياسة والاقتصاد والتغير الاجتماعي، وقد كان للباحث ميشيل كلير M. Klare دور نشط في هذه الدراسات، ومن بين اصدارات المعهد:

- Halliday, F. / After the Shah (1979)
- Halliday, F. / Mercenaries : Counter - Insurgency in the Gulf (1978).
- Ahmed, Eqbal / The Iranian Revolution: Race and Class Special Issue (1979).

١٧ ــ Middle East Research and Information Project 1470 Irving Str., NW
Washington, D.C. 20010 / (202) 667-1188.

يجمع هذا التنظيم عددا من الباحثين المتخصصين العاملين في كامبردج، ماساتشوستس، وواشنجتن، ويعنى بالبحث ونشر المعلومات حول دور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، الثورات السياسية في المنطقة، والقضية الفلسطينية، ومن بين الباحثين المساهمين في دراساته فوزي الأسمر، فرد هاليدي، وقد نشرت هذه المؤسسة قائمة بتقاريره:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٨ ــ Middle East Resource Center (MERC)
1322, 18th Str., NY
Washington, D.C. 20036/ (202) 659-6846

تأسس المركز سنة ١٩٧٥، وتهدف أنشطته البحث عن العدالة والمساواة في فلسطين، ومن منشوراته الدورية الشهرية:

- Palestine - Israel Bulletin

١٩ ــ Middle East - North Africa Research Associates
P.O. Box 6503
Washington, D.C. 20009/ (202) 332-0849

تقدم هذه المؤسسة الاستشارية الأبحاث والتقارير حول السياسة والاقتصاد والثقافة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ونشرت مجموعة من التقارير الاقليمية عن المنطقة، ويتوفر

الباحثون فيها على خدمة ترجمة من وإلى العربية.

٢٠ — Rand Corporation, Santa Monica, Calif.
Santa Monica, Calif.

من مؤسسات البحث النشيطة التي قدمت دراسات هامة عديدة عن الشرق الأوسط، وتعنى بمعالجة وتحليل القضايا الدولية والمحلية المؤثرة على المصالح الأمريكية، وأمن الولايات المتحدة، وتناولت دراساتها الشرقأوسطية القضايا السياسية والاقتصادية والتنموية والاستراتيجية من حيث مساسها واتصالها بمصالح الأمن للولايات المتحدة، وينيف عدد باحثي المؤسسة عن ثلاثين، والدراسات الاستراتيجية الصادرة عن المؤسسة في أغلبها تمت وفق عقود مع المؤسسات الحكومية الأمريكية، وهي غير قابلة للبيع والتداول.

وقد نشرت المؤسسة سنة ١٩٧٩ قائمة بيليوجرافية بدراساتها الشرقأوسطية المنشورة بعنوان:

A Bibliography of Selected Rand Publications: Middle East

وفيه أكثر من ٦٣ كتاباً وتقريراً، وتوزيع القوائم البيليوجرافية مجانا لطالبيها ومن عناوين منشورات المؤسسة:

- Smithies, A. / The Economic Potential of the Arab Countries (1978).
- Kerr, M.H. et al./ Inter-Arab Conflic Contingencies, and the Gap between the Arab Rich and Poor (1978).
- Pascal, A.H. / Men and Arms in the Middle East: The Human Factor in Military Modernization (1979).
- Wien, J.M. / Saudi - Egyptian Relations: The Political and Military Dimensions of Saudi Financial Flows to Egypt.

٢١ — Resources For the Future (RFF)
1755 Massachusetts Av., NW,
Washington, D.C. 20036/ (202) 328-5000

تعالج أبحاث هذه المؤسسة الموضوعات الاقتصادية على مستوى السياسات المحلية والدولية وبخاصة بما يتصل بالموارد الطبيعية، السكان، والطاقة، وقد شهد العقد الأخير عدداً من الدراسات الشرقأوسطية التي تناولت الزراعة والبترول والسوق البترولية:

- Moran, T.H. / Oil Prices and the Future of OPEC.
- Well, D.A. / Saudi Arabian Revenues and Expenditures.

٢٢ — Stanford Research Insitute, International
Arlington, Virginia 22209/ (703) 524-2053.

يقوم هذا المعهد بأبحاث نظرية وتطبيقية، وتغطي موضوعات الأبحاث الاقتصادي والحكومات، ويتولى الأبحاث الشرقأوسطية في المعهد قسمان، ويشتغل في مركز المعهد في واشنجتن سبعون باحثاً، والقسمان المذكوران آنفا هما: مركز الدراسات الاستراتيجية: Strategic Studies Center

ويشتغل في هذا المركز عشرون باحثاً، ومن الأبحاث الشرقأوسطية:

- Review of 1975 Program Recommendations of Joint U.S. - Saudi Arabian Working Group on Science and Technology (1978).
- U.S. Security Interests in the (persian) Gulf Area (1973).
- Great Power Interests and Conflicting Objectives in the Mediterranean - Middle East - Persian Gulf Region (1974).

٢٣ — Center for Economic Policy Research.

يجمع ويوفر المركز البيانات الاقتصادية عن أكثر من ٣٥ دولة، والبيانات عن انتاج البترول في الأقطار التابعة لمنظمة الأوبك والسياسات المالية لتلك الأقطار، ويولي المركز عناية خاصة بالمملكة العربية السعودية، وإيران، وفي المركز قواعد معلومات عن الكويت، العراق، الجزائر، وليبيا، البحرين وقطر والامارات العربية، وللمؤسسة مجموعة من النشرات الصادرة عن عدد من أقطار الشرق الأوسط.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢٤ — Woodrow Wilson International Center For Scholars Smithsonian Institution Building.
1000 Jefferson Drive, SW
Washington, D.C. 20560/ (202) 357-2429

ويعمل المركز علي تيسير امكانات البحث والاستفادة من مصادر المعلومات الغنية المتوفرة في شتى المؤسسات في العاصمة الأمريكية.

ويستقدم المركز الباحثين في الشئون الشرقأوسطية وبخاصة من خلال برنامج التاريخ والثقافة والمجتمع، ومن أعمال المركز المنشورة:

- Bennigsen A. / Traditionalist Ideologies. in the USSR: Muslim Sufi Brotherhoods.
- Berges, D. / Egypt between the Wars, 1967 - 1973.
- Chevallier, D. / Islamic Civilization and Arab Culture in Contemporary Development: Middle East and North Africa.
- Kelley, J.B. / British and American Policy towards Saudi Arabia From 1930-1950.
- Khalid, Mansour / Government, tradition and Modernization in the Sudan.
- Rentz, G. / The Making of Saudi Arabia, 1902-1953.
- Knapp, W.F. / The Growth and Character of the United States Presence in the Middle East Since 1945.

٢٥ — American University, School of International Service Middle East Section,
Massachusetts and Nebraska Ave., NW
Washington, D.C. 20016/ (202) 686-2483.

وتغطي الدراسات الأكاديمية منطقة الشرق الأوسط، وتتناول المساقات في مجال الدراسات الاقليمية تاريخ الشرق، وثقافته، سياساته، إقتصاده، آدابه والتنمية فيه، وعمل الدكتور محمد مغيث الدين على وضع الأسس لبرنامج للدراسات الاسلامية.

٢٦ — Catholic University of America,
Department of Semitic and Egyptian Languages and Literature, 620 Michigan Av., NE
Washington, D.C. 20017/ (202) 635-5083

ويقدم قسم اللغات السامية والمصرية برامج للدراسات العليا والبحث في اللغات العربية، والقبطية والسريانية، والقصد من وراء هذه البرامج هو تنمية المهارات اللغوية المطلوبة لتفسير وفهم الآداب المسيحية لمنطقة الشرق الأدنى في إطارها التاريخي:

٢٧ — Gorgrtown University, School of Languages and Linguistics, Arabic Department
Nevils Building, Room 420
35th and N Streets, NW
Washington, D.C. 20057((202) 625 - 4809

وتشمل الأبحاث والمؤلفات الأعمال المعجمية والنحوية في اللغة العربية، واللهجات العربية السورية، والمصرية، والمغربية، ومن بين الباحثين العاملين في قسم اللغة العربية هنا الأستاذ الدكتور ابراهيم شلبي.

٢٨ — Middle East Center,
School of Advanced International Studies,
The Johns Hopkins University
1740 Massachusetts Av., NW
Washington, D.C. 20036/ (202) 785-6200

وعلى رأس هذا المركز الدكتور فؤاد عجمي، ويعمل المركز بالتعاون مع «معهد الشرق الأوسط» ومع جمعية الشيباني للقانون الدولي الذي رأسه مجيد خضوري، وتغطي الدراسة في المركز مواضيع شرقأوسطية عديدة تاريخية، سياسية، ادارية، اقتصادية، بالاضافة لموضوعات الشريعة الاسلامية، والعلاقات الدولية، كما يقدم المركز دراسات اقليمية تشمل: شمال أفريقية، الجزيرة العربية، تركيا، إيران، والكيان الاسرائيلي:

٢٩ — The Defense Technical Information Center
DOD, Washington, D.C., 20301/202.545 -6700

ينشر هذا المركز أعمالا متعلقة بالأسلحة والتسليح، وبعض هذه الأعمال قابل للتداول، ويتوفر الباحث على البيانات الأحصائية المالية حول مبيعات الولايات المتحدة ومساعداتها من

الأسلحة لأقطار الشرق الأوسط في الحولية السنوية الصادرة تحت عنوان:

Foreign Military Sales and Military Assistance Facts.

٣٠ — Foreign Service Institute
School of Area Studies
1400 Key Boulevard,
Arlington, Virginia 22209

تقدم هذه المؤسسة برنامجاً لدراسات الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، ومساقات دراسية متقدمة في الدراسات الاقليمية، تعالج فيما تعالجه لغات الشرق الأوسط: العربية، التركية، الفارسية، العبرية، اليونانية. وقد صدر عن المؤسسة ببليوجرافية انتقائية بالدراسات الاقليمية الشرقأوسطية والشمالأفريقية، وهي بعنوان:

A Selected Functional and Country Bibliography For Near East and North Africa (١٤)

حواشي وملحوظات:

١ — الاستشراق كلمة مولدة، دخلت الى العربية في العصر الحديث، ويعرض لنا في الأدب المكتوب الذي يعالج قضية الاستشراق مصطلحات الدراسات الاستشراقية، الاستشراقيات، دراسة المشرقيات، الدراسات الشرقية، والمصطلح الأول مناسب ومستخدم كثيرا، ويورد جبور عبد النور في: المعجم الأدبي.— بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩ — ص١٧ ثلاثة اتجاهات أو أوجه للاستشراق:

أ — كل دراسة يقوم بها الغربيون لقضايا الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتاريخه، ولغاته، وآدابه، وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداته والدين فيه.

ب — بدأ أهل الغرب خلال القرون الوسطى بدراسة لغتين شرقيتين الأولى هي العبرية لصلتها بالدين المسيحي، والثانية العربية لكثرة عدد الذين يتكلمون بها، ولوفرة المؤلفات المكتوبة بها والفلاسفة والأطباء (والعلماء) الذين اعتمدوها في عرض علومهم، ثم انتشر تعلم اللغات الشرقية الأخرى كالسريانية والفارسية والتركية، وأنشأ الأوربيون المعاهد الخاصة لذلك، ونقلت إلى اللغات العربية نخبة من الكتب العربية وسواها.

وكان لحملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ أثر بليغ في تفتح الأبصار في أوربا على الشرق وقضاياه فازداد الاقبال على مؤلفاته وآدابه وتاريخه وعلى دراسة الاسلام والسيرة النبوية.

ج — نجم عن اتساع الدراسات وتشعبها ظهور اختصاصات متعددة في البيئات الاستشراقية فوقف بعض العلماء مثلاً جهدهم على دراسة الشرق العربي وتخصصت فئة بجانب معين من الدراسات الاستشراقية كالاسلام، اللغة والأدب، التاريخ والجغرافيا.

٢ — من المفيد استيعاب المعاني القاموسية لكلمة شرق، ومشتقاتها؛ في المعجم الوسيط.
— القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٣٨١/١٩٦١. ص ٤٨٣.
شرّق أخذ في ناحية المشرق
والشارق : الجانب الشرقي
والمشارقة : سكان المشرق وأحدهم مشرقي،
ومشرق البلاد الاسلامية في شرقي الجزيرة العربية، والجمع مشارق.

٣ — ينبغي أن نأخذ ما يكتبه نصارى الأقطار العربية عن الاستشراق والمستشرقين بتمحيص، والغالب أن يكتبوا بروح إيجابية تستقبل الاستشراق وتحتفي به وتبجله، أنظر مثلاً: يوسف اليان سركيس/ معجم المطبوعات العربية والمعرّبة...
ص ١٥٧٩ — ١٥٨٠: يقول سركيس عن المستشرق الفرنسي «الراهب اليسوعي : ولد في مقاطعة فرنش كونته بفرنسا، وتوفي في بكفيا بعد أن خدم الرسالة في سوريا وغيرها خمسين سنة، له قاموس عربي فرنساوي طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٨٦٢، وسنة ١٨٨٨»، فتعليقنا هنا أن سركيس يمتدح أن صرف هذا الراهب شطراً غالباً من عمره في خدمة الكنيسة والتبشير، وقد كان لنصارى البلاد العربية المهاجرين لأمريكا والغرب دور هام في بناء المكتبات والمجموعات الغنية بمصادر المعلومات عن الشرق والاسلام فعزيز سوريال عطية خلال سبعة عشر عاماً من البحث والعمل الأكاديمي استطاع بناء مجموعة غنية في مكتبة مركز الدراسات الشرقية في جامعة يوتا Utah وتحمل المكتبة اليوم اسمه.

٤ — الاهتمام الأمريكي بالشرق الأوسط كمنطقة لها أهمية استراتيجية واقتصادية ودينية .. متنام، ويعبر عنه العناية التي تولى للبحث وتوفير مصادر المعلومات عن هذه المنطقة، ولهذا نجد أن المجموعة الشرقية في المكتبة الوطنية الكبرى، مكتبة الكونجرس، تحتل ركناً أساسياً، وتحتوي على ما يزيد على مليون مجلد مرتبة في خمسة أقسام منها مجموعة الشرق الأدنى، ومجموعة جنوب آسيا، والمجموعة العبرية ....؛ وتضم أوعية المعلومات المنشورة بلغات المنطقة في شتى الموضوعات باستثناء القانون، والطب، والتكنولوجيا، وبالنسبة لمجموعة الشرق الأدنى فتضم منشورات تغطي في الحقيقة الشرق الأدنى والأوسط وشمال أفريقيا أي المنطقة الممتدة من أفغانستان في الشرق حتى المغرب في الغرب، ومن تركيا ووسط آسيا شمالاً إلى السودان جنوباً، وتضم المجموعة ٧٢ ألفا من الكتب والدوريات والتقارير وغيرها من أوعية المعلومات المنشورة بالعربية وكذلك التركية والفارسية والأرمنية، بالاضافة إلى قدر قليل من منشورات اللغة البنجابية، البوشتو، الأوزبكية، والكرخ، وهناك أكثر من ١٠٫٠٠٠ من المنشورات عن الاسلام.

ويوفر العنوان التالي بيانات عن مكتبات ومؤسسات أخرى ذات مجموعات هامة عن الاسلام والشرق الأوسط :

A Directory Information Resources in the United States. - Rev. ed. - Washington, D.C. : LC, 1973.

٥ — منذ أن بدأ الاستشراق إلى الوقت الحاضر، لم يتوقف الاهتمام الغربي بدراسة اللغة العربية، وقد بلغ عدد أساتذة اللغة العربية والمتخصصون فيها حدا دفعهم إلى تأسيس جمعية لتنسيق وتنظيم شئونهم وأنشطتهم وأبحاثهم.

واسم الجمعية وعنوانها :

American Association of Teachers of Arabic.
Oriental Institute
1155 E. 58th Str.,
University of Chicago
Chicago, IL. 60633

وقد تأسست الجمعية سنة ١٩٦٣ وضم أعضاؤها أكثر من ١٨٠ من المتخصصين بالعربية وآدابها، ومن منشوراتها :

— مجلة سنوية بعنوان : العربية.

— نشرة سنوية للجمعية.

ويجتمع أعضاؤها وتتعاون مع جمعية أمريكا الشمالية للدراسات الشرقية.

٦ — للمنظمات المسيحية دور هام في الاستشراق ودراسة الاسلام والشرق الأوسط، وتظهر كمنظمات خيرية ، بيد أن مآربها الجوهرية التبشير ومساعدة النصارى ومهاجمة الاسلام، مثلاً: الجمعية الكاثوليكية الخيرية للشرق الأدنى:

Catholic Near East Welfare Association - New York. التي تتخذ مقرا لها في مدينة نيويورك في أمريكا، تدعم برامج تبشيرية بصور مختلفة في ١٨ من أقطار الشرق الأوسط، وتسهم في تعليم القساوسة والراهبات وتنشر مجلة:

Catholic Near East Magazine

٧ — دراسة الشرق الأوسط والأسلام قد لا يمر يوم دون أن يكون هناك نبأ عن مسيرتها المتواصلة؛ أنظر مثلاً جريدة : الندوة، العدد ٧٣٦٠، يوم الأحد، ١٠ شعبان ١٤٠٣، ص ٣، العمودان الأخيران؛ تقول السطور:

[عروض حول الاسلام في مكتبة واشنطن : هناك اهتمام متزايد بالاسلام في واشنطن وفي العديدمن الأماكن بالولايات المتحدة فقد عقدت العديد من من المنظمات والجامعات بعض الندوات حول الموضوع وقبل أيام قليلة فقط عقد مركز الدراسات العربية في جامعة جورج تاون ندوة تناولت العلاقة بين الاسلام والسياسة في الشرق الأوسط، وفي واشنطن أعلنت مكتبة مارتن لوثر كنج أنها ستقيم خمسة عروض تتناول محاضرات وأفلاماً حول الاسلام وذلك في كل يوم ثلاثاء من الأسابيع الخمسة القادمة ويستمر العرض من الساعة ٧ — ٩ مساء [وينتهي العرض] في ١٦ يونيو، والمواضيع التي ستتناولها العروض هي محمد ﷺ ، وانتشار الاسلام في طريق الله، الدين والسياسة، الأدب في الاسلام، الصوفية والفلسفة الاسلامية، الاسلام في أفريقيا، وسيشترك في تقديم المحاضرات الدكتور لويس كانتوري من جامعة ماريلاند في بالتيمور، والدكتورة فدوى مالطي دوغلاس من جامعة تكساس في أوستن والدكتور عبد العزيز سعيد من الجامعة الأمريكية (؟)، والدكتور سليمان نيانج من جامعة هوارد].

وتشجع برامج الدراسات الاقليمية الرحلة لأقطار المنطقة والاقامة فيها ودراسة الموضوعات الشرق أوسطية عن كثب؛ وفي نفس المصدر السابق نجد خبراً يقع في هذا الاطار بعنوان: [« طلاب أمريكيون في زيارة عمل للأردن ومصر»: يترأس الدكتور ألان تيلور من مدرسة الخدمة الدولية في الجامعة الأمريكية في واشنطن مجموعة من ١٦ طالباً أمريكياً بعضهم من الخريجين.. للبدء في جولة دراسة للأردن في نطاق منهاج خاص حول ديناميكية السياسة العربية الداخلية،... ثم تتوجه إلى القاهرة وتبقى هناك حتى الرابع عشر من يونيو .. وصرح الدكتور تايلور بأن هذه هي المرة الرابعة التي تنظم فيها الجامعة الأمريكية في واشنطن رحلة إلى الشرق الأوسط، وقد جرت الرحلات الأولى في الأعوام ١٩٨٠، ٨١، ٨٢].

٨ — تعمل الدول الأوربية غربية كانت أم شرقية على التأثير على طالب العلم المسلم سواء من خلال برامج التعليم في بعض الموضوعات التي يدرسها الأوربيون في المؤسسات المختلفة في أقطار الشرق الأوسط الاسلامية، أو من خلال تأثيرهم الفكري عليهم أثناء تلقيهم الدراسات في نفس المؤسسات الأوربية؛ أقرأ الخبر التالي، ترى مدى الخطر الكامن في مثل تلك الجهود، والخبر منشور في مجلة :الدعوة، العدد ٧٦٣، شوال (١٤٠٠)، ص٧، العمود ٢:

[« إفساد الأجيال»: بثت إذاعة كابول أن ١٥ ألف طالب أفغاني سيتلقون علومهم العالية في الاتحاد السوفياتي في السنة الدراسية ١٩٨٠ — ١٩٨١ .. (و) يدرس ٤٢ استاذا سوفياتيا في جامعة كابول ومؤسسة العلوم والصنائع، وأن يتدرب ١٠ متخرجين في كل كلية من كليات الجامعة في الاتحاد السوفياتي ثم يعودون للتدريس فيها] وتجدر ملاحظته أن الدول الأوربية وأمريكا تتبارى في اجتذاب الدارسين من الشرق وإليه!.

٩ — أصبح لدى المسلمين اليوم وعي كامل بمآرب مراكز ومعاهد الدراسات الاسلامية الأمريكية والأوربية المرتبطة بخدمة أهداف السياسة الأمريكية الاقتصادية والعسكرية ودوافعها المختلفة الاستراتيجية والدينية والثقافية الخطيرة على الاسلام والمسلمين، وكان هذا الوعي حصيلة معاناة طويلة ودراسات وأبحاث جمة.

١٠ — الحق أن نقول أن معالجة الكتاب المسلمين للموضوعات المتصلة بالاستشراق والدراسات الاسلامية لتوعية القراء في منطقتنا مبثوثة في شتى المجلات الدينية منها والعامة؛ مثلاً نجد الحديث التالي عن الاستشراق في لقاء مجلة الدعوة «مع الاستاذ أنور الجندي» المنشور في: الدعوة، العدد ٨٤٥، رجب (١٤٠٢)، ص ٢٤ — ٢٥:

يقول الجندي [كنت أعرف الاستعمار ومخططاته في السيطرة والاحتواء، ... قال هاملتون جب ... إن الغرب يعد منذ وقت بعيد محاولة لتغريب الأمة الاسلامية وذلك باحتوائها وإذابتها ...، ثم جاءت مؤامرة التبشير الغربي في المعاهد التعليمية كاشفا عن هذا الخطر وكان الحديث عن الاستشراق وأخطاره ما زال جديدا لم يتكشف بعد على هذه الصورة...]، وقد أخبر الجندي أنه قدّم [دراسات حول التبشير والاستشراق ومحاولات التغريب والغزو الثقافي ...وكشف الزيف الذي حاول الاستشراق ودعاة التغريب بثه في النفس المسلمة خلال سنوات طويلة عن طريق الصحافة وأجهزة الاعلام من دعوى تعريفه بعظمة الحضارة الغربية وأنها المنطلق الوحيد للمسلمين لبناء مجتمعهم...].

١١ — [إن الدول الاسلامية ذات أهمية في العالم بما لها من موقع سياسي وموارد طبيعية وملياو ٢٠٠ مليون نسمة من السكان، ٤٣ دولة...] هذا غيض من فيض يمكن تسجيله عن العالم الاسلامي وأهميته ومكانته وثرواته.

أنظر : خالد المجالي «أضواء على المخيم الاسلامي بتركيا» في مجلة: الدعوة، العدد ٧٦٧، ذو القعدة (١٤٠٠)، ص ٢٠ — ٢١.

http://archivebeta.Sakhrit.com

١٢ ــ ذكرنا أن المستشرقين قد عملوا ويعملون أن يسود «الاغتراب» نفس المسلم؛ والاغتراب مشكلة خطيرة، ويعني انعدام المغزى في واقع الحياة، ويعني الانسلاخ عن هموم وقضايا ومصالح الأمة، للمزيد من القراءة عن الاغتراب أقرأ:

«الاغتراب في الوجودية» في مجلة أفكار، العدد ٥٢ (١٩٨١) ص ٧٦ — ٧٩.

١٣ ــ الدراسات الاسلامية الحديثة كانت محل ندوات ومنشورات عدة، مثلاً، أنظر عرض ما تمخضت عنه ندوة الدراسات الاسلامية الحديثة المعقودة في مركز دراسات الشرق الأدنى في جامعة كاليفورنيا بلوس انجلوس، وقد ضمت الندوة زهاء خمسين مدعواً معظمهم من أساتذة الجامعات الأمريكية، ومن المدعوين من يعنى بمجال الدين عقيدة وشريعة، ومنهم من يعنى بدراسة المجتمعات الاسلامية، ومنهم من يعنى بمجال التاريخ والحضارة الاسلامية، ومنهم من يعنى بالأدب العربي...، وبين هؤلاء المدعوين عدد من المسلمين منهم فضل الرحمن من الهند ويعمل في جامعة شيكاغو، والاستاذ البريطاني الذي اعتنق الاسلام وسمي بحميد ويعمل في جامعة كاليفورنيا في بركلي والأستاذ الباقي هوماس التونسي الذي يعمل في نفس الجامعة، والأستاذة عفاف لطفي السيد من جامعة كاليفورنيا ببركلي أيضاً، والأستاذ محمد فتحي عثمان من جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض إلى جانب عدد من مسيحيي العرب منهم العالم الفلسطيني ادوارد سعيد، من جامعة كولومبيا بنيويورك، وكذلك منح خوري، وفرح زيادة وغيرهم، ولم يكن بين المتحدثين في الندوة غير مسلم واحد هو فضل الرحمن الذي كان له إشادة هامة في كلمته وهي أن ما يتعلق بالاسلام باعتباره ديناً، فإن الباحثين المسلمين أقدر على دراسته وعرضه.

ومن الموضوعات التي طرحت في هذه الندوة:

ــ التاريخ الاسلامي، تاريخ الشرق الأدنى، التاريخ الحديث / لألبرت حوراني.

ــ تقويم الاستشراق الألماني من يوليوس فلهوزن إلى كارل بكر/ جوزيف فان اس .

ــ الوجهة اللغوية في دراسة الاسلام والمرتبطة بالثقافة الفرنسية/ لإدوارد سعيد.

ــ سوسيولوجيا الاسلام/ لادموند بيرك الثالث.

ــ الاسلام والتجربة التاريخية للشعوب الاسلامية: التحدي المعروض على الباحثين المعاصرين/ ايرالا بيدوس.

ــ الشعر العربي والاتجاهات المتنوعة للنقد الأوربي: مزايا الممارسة النقدية وعيوبها/ جاروسلاف استيتكفيتش.

ــ الدراسات الاسلامية ومستقبل الاسلام/ فضل الرحمن.

للمزيد عن هذه الندوة أقرأ: محمد فتحي عثمان «المستشرقون المعاصرون في تجربة للنقد الذاتي» في: مجلة العربي، العدد ٢٥٢، نوفمبر (١٩٧٩)، ص ٣٤ — ٣٩.

١٤ ــ حيث توجد تفصيلات ودراسات أعمق، نجد حقلاً تركزت فيه أكثر اهتمامات الدراسات الاقليمية أو الاستشراقية؛ ولذلك دلالة على مكانة وأهمية الموضوع أو المكان المدروس؛ مثلاً في الدراسة عن مصر يذكرون أن «المعلومات المتوفرة عن مصر القديمة أكثر تفصيلاً وحجما بالمقارنة مع المعلومات المتوفرة في دراسة أي مجتمع آخر من المجتمعات الحديثة».

أنظر مثلاً : Nyrop, et al./Area Handbook of Egypt. - 3 rd ed. - Washington, D.C.: American University, 1976. - P. V. I.

المراجـــع

١ ــ **المعجم الوسيط**، ج ٢ . ــ القاهرة : مجمع اللغة العربية، ١٣٩٣/١٩٧٣.ــ ص ٧٥٦، ٩٣١.

٢ ــ Library of Congress / **Subject Headings**, vol. 1. - 9th ed. Washington, D.C.: LC, 1980.

٣ ــ **Encyclopaedia Britannica**, vol. 15. - Chicago: EBC, 1973. - p. 407-408.

٤ ــ The **Middle East & North Africa.** - London: Europa, 1980. - P. VIII-X.

٥ ــ Binder, L. / The **Study of the Middle East.** - NY: Wiley, 1976 - p.2.

٦ ــ Binder, L. / **Ibid.** - p. 3

٧ ــ Binder, L. / **Ibid. - p. 3**

٨ ــ Binder, L. / **Ibid.** - p. 4

٩ ــ **Lambert**, Richard / language and Area Studies Review. - Philadelphia: A A PSS, 1973. - p. 4 - 12, 59, 69, 70, 78, 93, 109-117.

١٠ ــ عفاف صبره / **المستشرقون ومشكلات الحضارة** . ــ القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٨٠ ــ ص ٨.

١١ ــ صلاح الدين المنجد / **المنتقى من دراسات المستشرقين، الجزء الأول** . ــ ط ٢. ــ بيروت : دار الكتاب الجديد، ١٣٩٦/١٩٧٦. ــ ص ج ــ د

١٢ ــ Lambert Report . - **of cit.**- p. 9.

١٣ ــ نجيب العقيقي / **المستشرقون ، الجزء الثاني**. ــ القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥ ــ ص ٤٣٠.

١٤ ــ **Lambert Report.** - op cit. - p. 16.

١٥ ــ جرجي زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية، المجلد الثاني. ــ بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٦٧ ــ ص ٥١٥.

١٦ ــ Said, Edward W. / **Orientalism.** - London: Routledge, 1978. - p. 1-311.

١٧ ــ Said, Edward W. / **Ibid.**- p. 11-217.

١٨ ــ Nyrop, R.F. elal. / Area Handbook of Palcistan.- Washington, D.C.: GPO. 1975 - P.I. - XIII

١٩ ــ Nyrops R.F. etal / **Area Handbook for Syria.** - 2nd ed. Washington, D.C.: GPO/ 1971, p. 1-xooo

٢٠ ــ Keepe, E.K. et al./ **Area Handbook for Poland Washington,** D.C.: GPO, 1972, p. i-XIII.

٢١ ـ Keefe, E.K. et al,/ **Area Handbook for East Republic of Germany**.- Washington, D.C.: GPO, 1974, p. 1-XIII.

٢٣ ـ ID. / **Area Handbook of the Republic of Turkey**. - **Washington, D.C. : GPO, 197 p. - 1- XIII.**

٢٤ ـ Keefe, E.K. et al. / **Area Handbook For Czechoslovakis** Washington, D.C.: GPO, 1971, p.1.-XII.

٢٥ ـ Stoddard, T.L./ **Area Handbook for Finland** Washington, D.C.: GPO, 1974, p. 1-XIII.

٢٦ ـ Smith, H. H. et al./ **Area Handbook for Iraq**. Washington, D.C. :GPO, 1971. - p.i - 100.

٢٧ ـ Curran, S. D. & Schrock, J. / **Area Handbook for Mauritania**. **- Washington, D.D. USGPO, 1972. - I - VIII.**

٢٨ ـ Keefe, E.K. etal / **Area Hanbook for Hungary** Washington, D.C.: GPO, 1973. - p. 1 - XIII.

٢٩ ـ Keefe, E.K. etal./ **Area Handbook for Austria** Washington, D.C.: GPO, 1967. - p. 1-XIII.

٣٠ ـ Nelson etal. H.D. / **Area Handbook for the Democratic** Republic of Sudan . - Washington, D.C.: GPO, 1973, - p.1-XIII.

٣١ ـ Nyrop, R.F. et al. / **Area Handbook for the Hashemite Kingdom of Jordan**. - Washington, D.C.: GPO, 1974.- p. 1-XII.

٣٢ ـ Nyrop, R.F. etal. / **Area Handbook for Saudi Arabia**. - Washington DC: GSPO, 1977. - p. 1-XIII.

٣٣ ـ Smith, H. H. etal. /**Area Handbook for Lebanon**. - Washington, D.C.: GPO, 1974. - p.1-IX.

٣٤ ـ أنظر «قائمة بمؤلفات الأستاذ بروكلمن الرئيسية» في : صلاح الدين المنجد/ **مصدر سابق**. ص ـ٢٧ ـ ٤١.

٣٥ ـ جرى الاعتماد في التحليل الاحصائي لمحتويات البيليوجرافيات الانتقائية المشتملة على أعمال منتخبة لفئة مختارة من المستشرقين الألمان والانجليز والطليان والسويديون والفرنسيون على قوائم المؤلفات التي أوردها:

صلاح الدين المنجد/ **مصدر سابق**. ص ١ ـ ٢٤٥.

٣٦ ـ كمال اليازجي / «أمهات الكتب العربية القديمة : دراسة إحصائية» في **كتاب العيد**. ـ بيروت : الجامعة الأميركية، ١٩٦٧. ـ ص ٢٨٦.

٣٧ ـ **Middle East Review**, vo. XII, No. 1, Fall 1979.

وهذا المصدر سبق في مقال للدكتور محمد عبدالله «التبشير باليهودية وسياسة التوسع الاسرائيلي» في مجلة : **الأمة**، السنة ٢، العدد ٢٠، شعبان (١٤٠٢) / حزيران (١٩٨٢)، ص ٢٠.

٣٨ ـ زكي محمد حسن / **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**. ـ بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠١/١٩٨١. ـ ص ٥ ـ ١٧٧.

٣٩ ـ نفس المصدر. ص ٥ ـ ١٢.

٤٠ ـ Dorr, Steven R. / **Middle Eastern Stuidies**, - Washington, D.C.: Smithsonian Institution, 1981. - p. 210.

٤١ ـ **Ibid** . - p. 10 - 430.

ARCHIVES
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دار الرّفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع
تسهم أيضا - في تقديم دراسة جادة عن الاستشراق
حيث تقدم كتابها
الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية
للدكتور قاسم السامرائي
(الرياض : ص.ب ١٥٩٠ ت ٤٧٧٧٢٦٩)

المستشرق ونصّه

فدوى مالطي - دوجلاس
قسم اللغات والآداب الشرقية والإفريقية
جامعة تكساس/أوستن

لا شك في أن موضوع الاستشراق والمستشرقين قد أصبح في الوقت الراهن موضوعا ذا أهمية كبيرة في العالم العربي. غير أن نقاش هذا الموضوع اتخذ طابع الانفعال أكثر من محاولة استيعاب ابعاده. واعتقد أن أحد أسباب ذلك يعود إلى تجاهل جوهر التجربة الاستشراقية التي تتركز في ارتباط الاستشراق بالنص.

وما هي طبيعة الاستشراق؟ لكي يكون موقفنا واضحا ولكي نحقق غرضنا من هذه الدراسة، نعرف كلمة «استشراق» في الاستشراق المهني أو الحرفي — أي الاستشراق الذي يشتمل على دراسات علمية عن الشرق وليس كلمة استشراق كدلالة على الفكر أو المفاهيم العامة أو الشعبية في الغرب عن هذا الشرق. وعندما نقول الاستشراق والمستشرقون نتكلم بالفعل عن مدرسة اكاديمية تتكون من دراسة ثقافة وحضارة أخرى، بمعنى أننا نتكلم عن الغرب ودراساته عن الشرق. لكن يبدو موضوع الاستشراق أكثر تعقيدا من ذلك حيث أنه قد اختلط بظاهرة أخرى وهي رد الفعل على الاستشراق ومذاهبه.(١) وسوف ندرس في هذا البحث مفهوما أساسيا في الاستشراق وهو مفهوم النص.

والمناقشة حول الاستشراق وطبيعته ترق إلى عصر ولادة الاستشراق نفسه إذ يولد وينشأ رد الفعل — إيجابيا كان أم سلبيا — بجانب الاستشراق نفسه.(٢)

وقد اتهم نقاد الاستشراق هذه المدرسة بمواقف تقع خارج المسائل العقلانية أو الفكرية نفسها، إذ قيل ان المستشرقين مثلوا رجال سياسة واستعمار وإن الأسباب التي تحثهم على الدراسة تتألف من نوازع سياسية أو ايديولوجية — بدلاً من نوازع حيادية — على سبيل المثال.(٣). يضاف إلى ذلك ما يقال عن احتقار الاستشراق للشرق والتعامل معه بكراهة وسلبية.(٤)

هذه المسائل هي بلا شك مسائل هامة، لكنها بالفعل تتعلق — إلى حد ما — بطبيعة العلم ونوعيته. هل هو من الواجب — مثلا — أن تكون الدراسات عاطفية وأن ترسم صورة ايجابية لموضوعها؟. يجب على العلم أن يشتمل على الحقيقة وبالتالي أن نحكم عليه من خلال هذه الحقيقة. فمن وجهة نظر السياسة — على سبيل المثال — ليست المسألة واضحة البتة. لو نظرنا بدقة في وضع الاستشراق السياسي نلاحظ أن الاستشراق لا يمتلك رأيا سياسياً واحداً. فهذا هو المستشرق الفرنسي **(Massignon)** الذي ظل يدافع عن الشرق الأوسط، أو الايطالي كايتاني **(Caetani)** الذي سمي «بالترك» لأنه رفض غزو ايطاليا لليبيا.(٥) وحتى وقتنا الراهن نلاحظ أن علماء الغرب يختلفون اختلافا أساسيا في النظر لقضية فلسطين.

إذن هذا الاختلاف السياسي يذكرنا بأن الاستشراق ليس مدرسة سياسية بل مدرسة علمية. ولكي نفهمه كما ينبغي أن يفهم، علينا أن نفحصه أولا وبدقة كظاهرة علمية. يعني أننا — على سبيل المثال — لا نعتبر أدب الرحلات نصوصا استشراقية بما أنها ليست نصوصا علمية، بمعنى الكلمة التقليدي. وهذا بالرغم من أن بعض الكتاب قد اعتبروا هذه النصوص برمتها أمثلة للاستشراق.(٦) لكن هذا الاختلاط بين نصوص علمية ونصوص غير علمية يمتلك تضمنات منهجية عميقة ليست — بالضرورة — صحيحة بل تحتاج إلى فحص دقيق.

وادوارد سعيد — على سبيل المثال — قد حاول في كتابه عن الاستشراق فحص نصوص مختلفة من وجهة نظر منهجه الأدبي. وقد اختار لهذا البحث نصوصا تمتد من كتب التاريخ — كتاريخ كايمبردج للاسلام **(the Cambridge History of Islam)** إلى أدب الرحلات، كمحاولة لعزل مفاهيم الاستشراق ولتوضيح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أهدافه كمدرسة فكرية تتعلق بالسياسة والاستعمار، ومن ثم لبحث طبيعته الأساسية. ويفترض معنى الاستشراق هذا أن النصوص العلمية مؤسسة على نفس الأبنية العقلية (mental structures) أو على نفس العقليات (mentalités) كالنصوص غير العلمية، وبالتالي فإن الباحث يستطيع أن يقارن مباشرة بين هذين النوعين من النصوص وأن يعالجهما كأنهما من نوع واحد. وقد عجز مشروع سعيد عن اتمام هدفه المقصود، وذلك لأسباب عدة، منها أن معظم النصوص التي عالجها لا تمثل نصوصا استشراقية بالمعنى الكامل. وتبدو النتائج التي وصل إليها من خلال هذه الدراسة بعيدة جدا عن الطبيعة الحقيقية للاستشراق العلمي أو المهني.(٧) إذ لكل مجال أو طراز — علمي أو غير علمي — تقاليده وقواعده الخاصة. والبحث الذي لا يرتكز على فهم اختلاط التقاليد والقواعد من مجالات مختلفة يفقد قوته العلمية ويضيع أثره وسلطته.

فلا نستطيع إذن أن نفهم أي تراث أدبي أو ثقافي إلا من خلال فحص ظروفه وطبيعته الخاصة. ومن ثم فان أي نقد أدبي لهذه النصوص يبتدىء بالنظر في قواعد هذا التراث وأشكاله، ومن ثم يفهمها. وعندما يفهم الناقد هذه القواعد والأشكال يستطيع أن يتساءل عن أنواع الأبنية العقلية أو العقليات التي تشكل أساس القواعد نفسها. وتكون المقارنة بين نصوص من تراثين أو طرازين مختلفين مفيدة بعد اتمام هذه العملية.

ينطبق هذا على ظاهرة الاستشراق بمعنى ضرورة النظر أولا في لب الاستشراق العلمي قبل النظر في ظواهر أخرى لها صلة بالاستشراق ولكنها خارجة عنه. لأن هذا اللب يمثل — بالفعل — اهتمام المستشرق وسبب وجوده. وبالرغم من ذلك فان محللي هذه الظاهرة من الفكر الغربي ونقادها لم يعتنوا بهذا اللب كما اعتنوا بجوانب الاستشراق الأخرى.

ويمتلك — بالطبع — الاستشراق كمدرسة علمية مفاهيم وقواعد تساعد على تحديد أهدافه ومن ثم على تحقيقها. لكن كما هو الحال مع أي مشروع ثقافي أو حضاري ليس من الضرورة أن تنطق هذه المفاهيم والقواعد بشكل واع. بمعنى أن المستشرق يدركها من خلال تدريبه الفكري في المجال بالذات. وبما أن كل مجال علمي يؤيد نفسه إلى حد ما فتبقى هذه الأبنية وتستمر بجانب المجال في حد ذاته.

ولعل المفهوم الأهم الذي يتعلق بالاستشراق كمنهج هو مفهوم النص أو قاعدته. ويتألف هذا المفهوم من تشكيل أو تأسيس النص وقراءته. نحن إذن نعتني ليس فقط بمفهوم بل بمنهج — أو بطريقة لفهم النصوص بشكل عام، ومن ثم بمجموعة قواعد لمعالجة هذه النصوص تنتج عن هذا المفهوم وتساعد على تأييده.

ولا شك أن مفهوم النص كنص ومعالجته يمثل قاعدة من قواعد الاستشراق الأساسية. إن معظم تدريب المستشرق يحتوي على دراسة اللغات الكلاسيكية، وخصوصا اللغة العربية. ويتحول هذا التدريب اللغوي مبكرا إلى قراءة النصوص وترجمتها. ويبلغ المستشرق «نضجه» العلمي عند تمكنه من ترجمة النصوص ومن ثم تحقيقها والتعليق عليها وتفسيرها، يمتاز الاستشراق، إذن، بالتركيز على النصوص وعلى التراث الأدبي الأعلى وبذلك يختلف عن المجالات العلمية الأخرى، كالتاريخ أو الفلسفة — على سبيل المثال. ومهما اختلفت المجالات التي يتعامل معها المستشرق فان تقليده اللغوي والنص يظل عماد تدريبه. وإذا أردنا أن نتكلم عن رؤية استشراقية خاصة، فينبغي علينا أن نفهم هذا اللب ومعانيه الضمنية. لأن الاستشراق يملك رؤية خاصة في النص تقوده إلى بناء النص والتعامل معه. ومن ثم تظهر فلسفة تساعدنا على فهم الاستشراق في حد ذاته.

ولكي ندرك مفهوم النص هذا لنأخذ مثالا من كتب الأدب الذي حققه مستشرق بريطاني وهو أ.ف.ل. بيستون A. F. L. Beeston ، ففي تحقيقه وترجمته لـ «رسالة القيان» للجاحظ يعبر بيستون عن فلسفته في تحقيق النص وتقديمه. وبما أن هذا النص قد حُقق وتُرجم من قبل فيفسر بيستون موقفه بوضوح. ويختلف التحقيق الذي يقدمه المستشرق عن التحقيق المعروف لعبد السلام هارون لأسباب عدة. يميز بيستون نفسه عن «المحققين المعاصرين» العرب، إذ يرى موقفهم من النص — ومن ثم تحقيقهم — مختلفا عن موقفه. يلوم المحقق العربي في تغيير النص من وجهة نظر النحو وتصحيح اخطائه النحوية واللغوية.(٨) يضاف إلى ذلك ما يقوله بيستون عن أسلوب الكتابة أو الأورثوغرافية في هذا التحقيق. فهنا أيضا يضع بيستون عبد السلام هارون في الطبقة نفسها التي تمثل «المحققين المعاصرين»

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الشرق الأوسط. إذ لا يتفق بيستون مع هؤلاء المحققين في تقديم النص على سبيل يساعد القارىء المعاصر على قراءته ــ مثلا في حال تصحيح أخطاء الكتابة لكي تتفق وقواعد النحو العربي. على عكس ذلك، يحافظ المحقق البريطاني على الخصائص أو الصفات التي تظهر في المخطوطات القديمة وذلك بالرغم من أنها قد تمثل أخطاء نحوية أو قد تعثر طريق القراءة بالنسبة للقارىء المعاصر.(٩)

وهذا يمثل موقف بيستون من النص. نحن ــ بالطبع ــ لا نحكم على هذا الموقف ولا نزعم أنه غير لائق أو غير علمي، نريد فقط أن نشير إلى الموقف بكونه موقفا يعبر عن فلسفة ما للنص، إذ تحول هذه الاجراءات طبيعة النص من نص يقرأ بسهولة إلى أثر تاريخي أو آثاري.

من الواضح أن بيستون لا يحاول تقديم نص يبقى غير مقروء، كما أن عبد السلام هارون لا يحاول تقديم نص غير صحيح من وجهة نظر التاريخ، من الملاحظ أن كلا منهما قد اختار أن يتجنب أحد الأخطار. فالطريق الأفضل في رأي بيستون يكمن في تجنب إمكانية تحديث النص أو تجديده بالرغم من أن سلوك هذا الطريق قد يترك بعض الأخطاء النصية التي لم توجد في النص الأصلي. بينا يفضل عبد السلام هارون أن يصحح الأخطاء، بالرغم من تعريضه لخطر ثان وهو تغيير الشكل الأصلي للنص.

نستنتج من ذلك أن اهتمام المحقق العربي يرتكز على تصحيح النحو بينا اهتمام المحقق «الاستشراقي» يرتكز على تصحيح التاريخ. فقد يعطي المحقق الغربي الأولوية للتاريخ بينا يعطي المحقق العربي الأولوية للنحو، ولكل موقف منهما طبيعته العلمية الصحيحة، لكن الاختيار بينهما ذو أهمية. وذلك لأن المستشرق عندما يعطي الأولوية للتاريخ يرسخ النص في عصره ويعرض لخطر تركه في هذا العصر. وتنقص هذه العملية ما يسميه بول ريكور (**Paul Ricoeur**) باستقلال النص (**autonomy**). وتعبر هذه الخاصية عن امكانية أن يتفوق أي نص مكتوب على السياق الذي أوجد فيه وأن يتكلم في سياقات جديدة. وهذا الاستقلال النصي هو العنصر الذي يعطي أية كتابة جوهرها النصي، أي امكانيتها على توفير قراءات ومعان جديدة.(١٠) ولا يتحقق هذا الاستقلال النصي في الأثر التاريخي إذ يختصر معناه على وجوده في سلسلة تاريخية ما.

ونقدر أن نشير إلى أن الظاهرة الاستشراقية التي تتكون من تعامل خاص مع النص تجرد هذا النص بالتالي من خاصية من خصائصه النصية. لكن عندما ندرس أسلوب تعامل المحققين المعاصرين العرب مع النص، تتبين لدينا نتيجة مختلفة عما سبق وهي أن نوعية هذا التعامل تمتاز بالمحافظة على خاصية استقلال النص.

يضاف إلى هذا الموقف المعين من تحقيق النص وتقديمه مانستطيع أن نعتبره جزءا أساسيا لهذا الموقف الاستشراقي يتكون من استخدام هوامش أو تفسيرات وتعليقات إلى درجة زائدة في النص. وبجانب هذا كله نلاحظ خاصية أخرى تبدو بوضوح في نظام الترجمة الاستشراقية، وهي استعمال قوسين معقوفين أو قوسين عاديين في ترجمة النص من العربية إلى الانجليزية ــ أو بالفعل إلى أية لغة غربية.

وهذه الخصائص بجملتها تعالج النص ليس كأثر تاريخي فحسب بل تحوله إلى معوق لا يستطيع أن يتحرك دون سناد ألا وهي التعليقات. ونستطيع ملاحظة ذلك بوضوح في استخدام القوسين المعقوفين. لأن احدى خصائص الترجمة الاستشراقية تتألف من تضمين كلمات في قوسين، وليست هذه الكلمات بالضرورة موجودة حرفيا في النص، لكن المترجم يظنها موجودة على مستوى ضمني في النص العربي. وبينا هذه العملية قد تكون ضرورية أحيانا إلا أن المترجم قد يستخدمها لكي يتجنب مسئولية الاختيار ما بين ترجمة حرفية وترجمة أكثر مجازا. وبالرغم من ذلك فان نتيجة هذه العملية تقود أحيانا إلى الاحساس ــ كما عبر عنه عالم عربي أمريكي مشهور ــ بعدم قدرة المؤلف العربي على الكتابة. ومن الواجب أن نفهم أثر التعليقات والتفسيرات الزائدة في هذا السياق. وهذه المعالجة ــ بالتالي ــ تدل ضمنا على أن النص يبقى نصا غير مقروء دون هذه التعليقات المختلفة. نقدر أن نضيف ــ نتيجة لذلك ــ أن المستشرق ينظم أو يبني النص من جديد.

وتجرد هذه المعالجة النصية ــ بالفعل ــ النص الأصلي من موقفه الوجودي كنص. فيصبح ــ بدلا من ذلك ــ نوعا من النص الامكاني أو الاحتمالي الذي لا يتحول إلى نص كامل إلا عندما تحيطه التضمينات والتفسيرات والتعليقات. بمعنى أن طبيعة النص تتغير ومن ثم لا يفهم هذا النص إلا من خلال الخصائص

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الثانوية الموجودة أو في القوسين أو في الهوامش والتي تصبح من بعد جزءا أساسيا من النص العربي/ الاستشراقي. فالنص العربي / الاستشراقي قد حل محل النص العربي الأصلي كنص يحمل معنى ما ونتيجة لذلك كنص بالمعنى المطلق.

وتقوى هذه العملية عند بعض المستشرقين الاحساس بأنهم يعيدون إلى الحياة نصوصا قد فقدت من قبل. لكن عدم وجود نسخة صحيحة من نص ما وانتشارها لا يدلان على أن مضمون النص قد ضاع، إذ أنه نشأت عادة عند المؤلفين العرب في نقل مستمر لمادات وقطع من نص إلى نص آخر.

وعلينا أن ننبه القارىء إلى أن هذه النقطة الأساسية لطبيعة الاستشراق ليست ظاهرة مفردة، بل تتعلق بمعالجة النص كأثر تاريخي، وبنوع من التصوير الاسطوري الذي يبدو أساسيا لطبيعة الاستشراق الذي أريد أن اسميه بـ «التصور الشامبوليوني».

وكما هو معروف فان شامبوليون كان عالم آثار من فرنسا حل طلاسم اللغة الهيروغليفية المصرية، أي أنه سمح للعلماء بأن يقرأوا نصوصا لم تقرأ من قبل، أو بعبارة أخرى أنه أعاد لنصوص صامتة صوتها القديم. ونحن إذن عندما نقول إن التصور الشامبوليوني قد أثر على الاستشراق نزعم أن مهنة الاستشراق قد حددت نفسها من خلال قدرتها على تفسير نصوصها ولم يكن لها وجود حقيقي من قبل.

ولا يدل هذا الموقف على سوء نية الاستشراق نحو الشرق. إنما يعبر عن العقليات السائدة في عصر ولادة الاستشراق. وقد نشأ مجال الاستشراق في القرن التاسع عشر بجانب الدراسات الكلاسيكية، أي الدراسات التي تهتم بلغتي الاغريق والرومان وحضارتيهما. واعتبرت هاتان اللغتان والحضارتان «ميتتين». يضاف إلى ذلك وجود المجالات الأخرى التي كان يهتم بها العصر والتي تحتوي على علم اللغات والفيلولوجيا. وتدل هذه الملحوظات على أن الاستشراق هو ولد عصره.

ولكن بالرغم من أن الاستشراق لا يمثل تآمرا على الشرق، موضوع دراساته، تبقى هنالك مشكلة تبدو من التحليل الوارد أعلاه. فان الحضارة الاسلامية ـــ على عكس حضارتي الاغريق والرومان ـــ لا تمثل حضارة ميتة، بل حية، إذ استمرت هذه الحضارة وتطورت من خلال القرون. ونستطيع أن نزعم أن التصور الشامبوليوني عند المستشرقين قد قاد بعضهم أحيانا إلى معالجة الحضارة العربية الكلاسيكية والاسلامية كأنها ميتة ومن ثم إلى عدم الاهتمام بدرجة الاستمرار الحضاري. وبما أنها حضارة تمتلك هذا الوجود التاريخي المستمر فإن قيمها وعقلياتها الحضارية والثقافية قد استمرت وتطورت أيضا. وتوجد ـــ نتيجة لذلك طرائق في الحضارة نفسها تساعدها على نقل هذه القيم والعقليات. فعندما يدرس الاستشراق موضوع دراساته على طريق الحضارات والنصوص الميتة، يتجنب الطرائق الموجودة في الحضارة نفسها.

وتبدو هذه النقطة بوضوح أكثر عندما نقارنها بوضع الباحث العربي المعاصر. فهو ـــ بالاضافة إلى الأمور العلمية المحضة التي تحثه على الدراسة ـــ يهتم باحساسه الشخصي بهويته الحضارية، إن كان هذا الاهتمام على مستوى واع أو لا واع. وبينما هذا الاحساس بالهوية الحضارية يعرض لخطر المفارقة التاريخية من جهة، ومن جهة أخرى يدافع عن تحويل النص إلى مجرد أثر تاريخي.

هذه المعالجة للنص ـــ كأنه أثر تاريخي محتاج إلى تنظيف وتنظيم وتفسير ـــ قد أنجبت مفاعيل جانبية غير مرغوب فيها. أفسدت أحيانا قراءة المستشرق للنص في حد ذاته. ونشير إلى عملية القراءة ليس بالطبع إلى قراءة الحروف والكلمات ولكن إلى قراءة تقود إلى فهم النص بجملة صفاته النصية، لأن المستشرق ـــ بالطبع ـــ عندما يحقق النص أو يترجمه، يقرأ هذا النص بمعنى قراءة الحروف. لكن عقلية المُحقق تبقى العقلية السائدة ولا تسمح لعقلية المقرىء أن تتحقق بطريقة ملائمة لفهم النص.

وإلى حد ما ، فان الاهتمام بأمانة النص كأثر تاريخي وبفهمه الفيلولوجي الصحيح قد صرف انتباه المستشرق عن النص كمثال للأدب. إذ من المحتمل أن موقفه الذي يشتمل على التحقيق والتعليق شارك في النزعة الاستشراقية لرؤية النصوص العربية القديمة (وخصوصا النصوص الأدبية) كنصوص ذرية التنظيم وناقصة الوحدة أو الالتحام. وقد توجد أسباب أخرى لسوء الفهم هذا، كالفرق بين التقليد الجمالي العربي والتقليد الجمالي الغربي. ولكن الستار الفيلولوجي يمثل عقبة إضافية أمام أنواع التحليل الأدبي الذي يساعد على كشف المميزات الجمالية الخاصة بالنص العربي القديم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكي نستطيع أن نستخرج الطاقة الكامنة من النص، أو ــ بعبارة أخرى ــ لكي ينفذ النص امكانيته الكاملة كنص، علينا أن نميز طريقتين لفهم النص. تتألف الطريقة الأولى من الطريقة التاريخية بينما تحتوي الطريقة الثانية على الطريقة الأدبية أو التحليلية. وقد ميز النقاد هاتين الطريقتين. فلكل منهما منافعهما الخاصة. ويجب على الباحث ألا يسمح لعملية التحقيق والتفسير الضرورية بأن تحول الطريقة التاريخية إلى طريقة آثارية تشوه وجه النص باستخدام القوسين وتخبئه باستخدام التعليقات الزائدة، إذ يمكن للباحث أن يضع هذه التعليقات في دراسة جانبية للنص. ومن جهة أخرى، تتحقق الطريقة الأدبية أو التحليلية. وعلينا أن ننبه إلى أن النص لا يحتاج دائما إلى تعليقات وتصحيحات. لأنها تؤدي أحيانا غرضها في المساعدة على فهم النص ولكنها أحيانا أخرى تؤدي إلى تخبئة هذا النص.

الهـــوامش

١) لدراسة منهجية شاملة تعالج هذه المسائل وكل من ردود الفعل على الاستشراق ــ من السلبي إلى الايجابي، أنظر دراستي،
«In the Eyes of Others: The Middle Eastern Response and Reaction to Western Scholarship,» in Mutual Perceptions East and West, eds. B. Lewis, M. Case, and E. Leites, تحت الطبع

٢) نفس المرجع.

٣) انظر ــ على سبيل المثال ــ كتاب إدوارد سعيد،
Edward W. Said, Orientalism (New York; Pantheon, 1978)
لمراجعة وعرض لهذا الكتاب، أنظر دراستي،
«Re-Orienting Orientalism,» The Virginia Quarterly Review, 55 (1979), pp. 724-733.

٤) أنظر ــ على سبيل المثال ــ محمد البهي، «المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الاسلام» في «الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، (القاهرة : مكتبة وهبة، ١٩٧٥). ولأمثلة اخرى، انظر دراستي،
«In the Eyes of Others.»

٥) انظر لاسماء أخرى،
Francesco Gabrieli, «Apology for Orientalism,» Diogenes, 50 (1965), pp. 131 - 132.

٦) هذا هو موقف ادوارد سعيد ــ على سبيل المثال.

٧) وعروض الكتاب التي كتبها العلماء المهنيون، ان كانت سلبية، كعرض س.ف. بيكينغام،
C.F. Beckingham, Bulletin of the School for Oriental and African Studies, XII (1979), pp. 562 - 564.
او ايجابية ، كعرض البرت حوراني،
Albert Hourani, «The Road to Morocco,» The New York Review of Books, March 8, 1979, pp. 27 - 29.
تتفق كلها تقريبا على ان الكتاب لا يصف بطريقة جيدة العلماء المهنيين.

٨) A.F.L. Beeston, The Epistle of Singing Slave-Girls by Jahiz (Warminster, England: Air & Phillips, (1980), ص ٧ وما يليها

٩) نفس المرجع، ص ٩.

١٠) Paul Ricoeur, Hermeneutics and the Human Sciences (Cambridge Univeristy Press, 1981), ص ٩١.

شارل بلاّ والجاحظ

جليل العطية
باريس

شارل بلّا ، واحد من ألمع المستشرقين في العالم اليوم، وهو نموذج فذّ للمدرسة الاستشراقية الفرنسية الكلاسيكية، إنه إمتداد لمدرسة ماسينون Massignon وبلاشير Blachére.

وللأستاذ بلّا صفات يتميز بها عن أقرانه، منها دقته في البحث والتحقيق العلميين، وحيدته وإنصافه العرب وحضارتهم، وحذقه اللغة العربية، حذقاً يحسده عليه بعض العرب، أنفسهم!

وولد بلّا عام ١٩١٤ وأتم دراسته الثانوية في المغرب ثم نال «الليسانس» من جامعة بوردو Bordeaux الفرنسية، وحصل على (التبريز) على المستوى القومي، وفي سنة ١٩٣٥ عين أستاذاً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس فأستاذاً للغة والحضارة العربيتين في جامعة باريس (١٩٥٦) ثم في السوربون حتى عام ١٩٧٨ حيث طلب إحالته للتقاعد.

وإلى جانب ذلك عمل مديراً لمعهد الدراسات الاسلامية في جامعة باريس (٩٦٨ — ١٩٧١) ثم مديراً لقسم الدراسات العربية والاسلامية في السوربون نفسها من عام ١٩٧٢ إلى ١٩٧٨م.

— يتولى الأستاذ بلّا — منذ عام ١٩٦٣ — إدارة الطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الاسلامية ونشر فيها الكثير من الموضوعات العلمية الرصينة.

— عضو المجمع العلمي لعلوم ما وراء البحار وعضو مراسل للمجمع العلمي العربي في الهند (عليكرة).

— حضر عدداً كبيراً من المؤتمرات العلمية وألقى مئات المحاضرات في شتى أنحاء العالم تتناول جوانب من الحضارة العربية — الإسلامية.

— يكتب بالانجليزية والايطالية والاسبانية (إضافة إلى الفرنسية والعربية).

آثــاره : أ ــ العامة :

لبلّا آثار كثيرة سنحاول الاحاطة بها، قدر الامكان (مرتبة زمنياً).

١ — ١٩٥٤ — ملاحظات عن المخطوطات العربية في برلين.
Oriens (مجلة) مج ٧ (ص ٨٥ — ٨٦)

٢ — ١٩٥٤ — رسالة في الفلك لابن قتيبة.
Arabica (مجلة) مج ١ (٨٦ — ٨٨)

٣ — ١٩٥٤ — الأنواء عند العرب
Arabica مج ٢ (١٧ — ٤١)

٤ — ١٩٥٦ — ثقافة معاوية.
SI (الدراسات الاسلامية) (مجلة) مج ٦ (٥٣ — ٦٦

٥ — ١٩٥٧ — الشاعر ابن مفرّغ الحميري.
منوعات ماسينون (باريس) مج ٣ (١٩٥ — ٢٣٢)

٦ — ١٩٥٧ — مراحل الانحلال الثقافي في المشرق العربي (؟) (٨١ — ٩٢)

٧ — ١٩٦٠ — مشروع من أجل إعادة نشر، مروج الذهب، للمسعودي (بالانجليزية) «الكتاب الألفي» للمسعودي (٣ — ٤)

٨ — ١٩٦٠ البصرة ، بلد الواقعية والواقعيين.
وقائع المؤتمر الخاص بالاجتماع الاسلامي (كتاب): (٣٣١ — ٣٤٥)

٩ — أكان «المسعودي» مؤرخاً أم أديباً؟
(بالانجليزية) مجلة الدراسات التاريخية الاجتماعية (٢٣١ — ٢٣٤)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٠ ــ ١٩٦١ ابن حزم الأندلسي
مجلة الدراسات التاريخية الاجتماعية مج٩ (٧١ ــ ٧٤)

١١ ــ ١٩٦١ آراء في «ثورة في الآداب العربية»
Oriens مج ١٩ (١٠٧ ــ ١١١)

١٢ ــ ١٩٦٢ ــ إسبانية الاسلامية في آثار المسعودي
مؤتمر الدراسات العربية والاسلامية (في قرطبة) ــ كتاب
(٢٥٧ ــ ٢٦٤)

١٣ ــ ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ ــ تصور الحلم في المعتقدات الاسلامية صحيفة معهد الدراسات الاسلامية (مدريد)
مج ٦، ٧ (١ ــ ١٢)

١٤ ــ ١٩٦٢ ــ النثر العربي في بغداد
Arabica مج ٩ (٤٠٧ ــ ٤١٨)
(نقله إلى العربية د. اكرم فاضل: المورد، (مجلة)
(عدد خاص ببغداد) مج ٨ : ٤ (٤٨٥ ــ ٤٩٠)

١٥ ــ ١٩٦٣ ــ الجد والهزل في صدر الاسلام
الدراسات الاسلامية (مجلة) مج ٢ (٣٥٣ ــ ٣٦٢).

١٦ ــ ١٩٦٣ ــ شاعر من المدينة (المنورة)
Oriens مج ١٦ (٩٩ ــ ١٠٩)

١٧ ــ ١٩٦٤ ــ تباين مفهوم الأدب.
الدراسات الشرقية مج ٥، ٦ (١٩، ٣٧)

١٨ ــ ١٩٦٥ ــ من أجل وضع برنامج لنشر المخطوطات العربية الخاصة باسبانية BAEO (مجلة) مج١ (١٥٩ ــ ١٦١)

١٩ ــ ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ ــ دوائر المعارف (الموسوعات) في العالم العربي
الدفاتر التاريخية العالمية (مج٩ (٦٣١ ــ ٦٥٨)

٢٠ ــ ١٩٦٦ ــ ملاحظات عن طبوغرافية فرنسة في كتاب Roger (نزهة المشتاق للادريسي).
منوعات Crozet (كتاب) مج٢ (٧٩٧ ــ ٨٠٧).

٢١ ــ ١٩٦٨ ــ أبو العنبس الصيمري ــ أحد ظرفاء بغداد
دراسات شرقية (تكريما لبروكلمان) (كتاب) (١٣٣ ــ ١٣٧)

٢٢ ــ ١٩٦٨ ــ المسعودي والشيعة الأمامية.

٢٣ ــ ١٩٧٠ ــ Josephschacht (ترجمة حياة هذا المستشرق الألماني بمناسبة وفاته).
Arabica (مج ١٧ (١ ــ ٢).

٢٤ ــ «الموشح والزجل همزة الوصل بين ثقافات مختلفة
مجلة كلية الآداب (بجامعة الرياض) مج ١ (٣٨ ــ ٥٢)

٢٥ ــ ١٩٧٣ ــ الناقعة على الآلة الجامعة للروداني (١٠٩٤ هـ) (تحقيق)
مجلة الدراسات الشرقية (دمشق) مج ٢٦

٢٦ ــ ١٩٧٤ ــ الدراسات الاسلامية في عشرين عاماً.
Arabica مج ٢١ (١ ــ ١٠)

٢٧ ــ ١٩٧٩ ــ عبد الجليل بن وهبون .. شاعر أندلسي متشائم الفصل (مجلة العدد (٢٥) (يونيو) (٥٠ ــ ٥٣).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آثاره ب ــ الخاصة (ببليوغرافيا : الجاحظ)

١ ــ ١٩٤٩ ــ صحف مختارة من كلام أبي عثمان الجاحظ (منتخبات من كتب الحيوان والبخلاء والبيان والتبيين مع مقدمة بالفرنسية) ــ صدر الجزء الأول منه فقط.

٢ ــ ١٩٥١ ــ البخلاء ــ ترجمه إلى الفرنسية ــ صدر في مجموعة من الروائع لليونسكو.

٣ ــ ١٩٥٢ ــ النابتة للجاحظ ــ وثيقة هامة للتاريخ السياسي الديني للاسلام. (تحقيق وترجمة).
AIEO مج ١٠ (٣٠٢ ــ ٣٢٥)

٤ ــ ١٩٥٣ ــ في الرد على المشبهة (تحقيق
المشرق (مجلة ــ بيروت) حزيران (يونيو) ــ مج ٤٧.

٥ ــ ١٩٥٤ ــ التبصر بالتجارة (ترجمة إلى الفرنسية)
Arabica (١٥٣ ــ ١٦٦)

٦ — ١٩٥٥ — التربيع والتدوير (تحقيق)
صدر عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية — دمشق. (١١٥ ص).

٧ — ١٩٥٥ — الفصل الأخير من كتاب البخلاء (ترجمة)
Arabica مج ٢ (٣٢٢ — ٣٥٢).

٨ — ١٩٥٥ — ١٩٥٦ — كتاب القول في البغال — (تحقيق) (١٧٨ ص)
صدر عن شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ضمن مكتبة الجاحظ.

٩ — ١٩٥٦ — لعبة أدبية منسوبة للجاحظ (عن مخطوطة إستانبول) المشرق (؟)

١٠ — ١٩٥٦ — ذم العلوم ومدحها (تحقيق) (يرى أنها منحولة)
المشرق مج ٥٠ (٧٠ — ٧٨)

١١ — ١٩٥٧ — مصنفات الجاحظ (جرد بيليوغرافي)
Arabica مج ٣ (١٤٧ — ١٨٠)

١٢ — ١٩٥٧ — مفاخرة الجواري والغلمان (تحقيق وتعليق)
دار المكشوف — بيروت (٩٤ ص).

١٣ — ١٩٥٨ — رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في فعله (يرى أنها منحولة)
المشرق مج٥٢ (٤١٧ — ٤٩١)

١٤ — ١٩٦١ — الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء (كتاب للأستاذ بلّا، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني — دمشق — ٤٧٠ ص).
(سنتناول هذا الكتاب في الفقرة القادمة).

١٥ — ١٩٦٢ — الأمامية في فكر الجاحظ.
SI (دراسات إسلامية) مج ١٥ (٢٣ — ٥٢)

١٦ — ١٩٦٣ — كتاب مزيف آخر (منسوب إلى الجاحظ).
منوعات Masse (كتاب)
(٣١٧ — ٣٢٦)

١٧ — ١٩٦٥ — حول كتاب الفتيا للجاحظ
دراسات عربية وإسلامية في تكريم المستشرق «جب»
(كتاب) : (٥٣٨ — ٥٤٦).

١٨ — ١٩٦٦ — الجاحظ رائد الجغرافية الانسانية (في كتاب الأمصار وعجائب البلدان) (تحقيق).
المشرق مج ٦٠ ج٢ (١٦٩ — ٢٠٥)

١٩ — ١٩٦٧ — الجاحظ والبلدان والحضارات والعقائد الدينية
JA (المجلة الآسيوية) باريس — ج ٢٥٥ (٦٥ — ١٠٥).

٢٠ — ١٩٦٧ — رسالة الجاحظ في (المفاخرة) تحقيق وترجمة
Arabica مج ١٤ (٢٥٩ — ٢٨٣).

٢١ — ١٩٦٩ — المسائل والجوابات في المعرفة (تحقيق)
المشرق مج ٦٣ (٣١٦ — ٣١٩).

٢٢ — ١٩٦٩ — من رد الجاحظ على أبي إسحاق النظام (تحقيق)
المشرق مج ٦٣ (٣١٩ — ٣٢٦).

٢٣ — الجاحظ والأحنف بن قيس (تحقيق)
المشرق (تشرين الثاني — كانون الأول) : (٦٦١ — ٦٧٢)

٢٤ — ١٩٧٦ — من رسالة جاحظية في تفضيل البطن على الظهر (تحقيق عن مخطوطة المتحف البريطاني الرقم ١١٢٩).
حوليات الجامعة التونسية (١٨٣ — ١٩٢) مج ١٣.

٩ — آراء :

لقد أوجز الأستاذ بلا آراءه عبر أطروحته الهامة التي نشرها في باريس (١٩٥٣) وعنوانها :

Le Milieu Basrien et La Formation De Gahiz

والترجمة الحرفية لهذا العنوان:
الوسط البصري وتكوين الجاحظ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد أشرف على إعداد هذه الرسالة الجامعية الهامة أستاذه ريجيس بلاشير .BLACHERE

بعد ذلك بعدة سنوات، صدرت في دمشق (١٩٦١) الترجمة العربية تحت عنوان : الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، تولى الترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني (وهو من المتخصصين بنشر آثار أبي حيان التوحيدي، أحد ألمع تلامذة المدرسة الجاحظية!). قدم الكيلاني لكتابه قائلاً :

«اشتملت هذه الدراسة الموضوعية عن الوسط البصري، على كل ما له علاقة بمدينة البصرة منذ القرن الأول حتى زمان الجاحظ سواء من الناحية الاجتماعية أو الأدبية أو الفكرية أو الاقتصادية مع الحرص على إظهار التفاعلات التي عملت على تكوين شخصيته وذهنيته الجبارة».

وعمد المترجم إلى الحاق بحث لبلّا عن «الجاحظ في بغداد وسامراء» (نشره في مجلة الدراسات الاسلامية ــ التي تصدر في روما (١٩٥٢).

فترجمه والحقه بالكتاب «إتماماً للفائدة».

وكان د. علي جواد الطاهر مصيباً عندما استغرب تصرف الكيلاني في تغيير عنوان الكتاب في جملة ملاحظات نشرها تحت عنوان «ترجمة مصادر الجاحظ (المورد مج: ٢ (٢٦٧ ــ ٢٦٩) (١٣٩٥ هـ ــ ١٩٧٥م)».

من آراء بلّا في هذا الكتاب.

○ إننا لا نستطيع دراسة الجاحظ من (الداخل) بل من الجائز دراسته من (الخارج) على اعتبار أن أغلب آثاره هي أبعد من أن تكون نتيجة هواية كاتب واعٍ لمواهبه، بل هي مشروطة بحوادث ذوات طبائع متنوعة، فيجب إذن التفتيش عن الفرصة والدوافع في الحالة الفكرية والاجتماعية والدينية والسياسية السائدة حينئذ، كما يجب التفتيش في ظروف حياته الخاصة التي دفعته إلى كتابة رسالة في الجد والهزل والفرق بين العداوة والحسد وعندها يصبح التوقيت الزمني لآثاره أمراً لا غنى عنه.

○ الجاحظ، ألف كتباً لم تلبث، لمعالجتها أحياناً مواضيع غير عادية، أن اصبحت غير مفهومة، وقد أصابها التشويه غير المقصود، وزادتها خطورة: تشويهات متعمدة، ونحن اليوم إزاء مقاطع عديدة مغلقة بسد محكم.

○ إن الجاحظ في الواقع نتاج صافٍ للبصرة، حيث قضى فيها القسم الأدنى من حياته، ولكنه كان نبته إقليمية تغذت بنسغ قوي مستمد من أرض خصبة، فلم تتفتح بصورة كاملة.

○ إن عصره (الجاحظ) الذي دعاه بعضهم (أحمد أمين) بعصر الجاحظ، هو بلا ريب من العصور الهامة والفاصلة في التاريخ الاسلامي.

○ إن تهكم الجاحظ ذاتي فان ملاحظته وتصويره عيوب معاصريه يجعلانه أقرب إلى لابروير **Bruyére** وموليير **Moliére** فهماً إلى غيره من كتاب العربية، وهذا ما يحملنا على اعتباره نسيج وحده في هذا الباب، ويجدر بنا ألا ننسى أنه عاش في البصرة، في وسط سادت فيه الخفة والتهكم وعمّه الميل إلى البحث والتندر، ومن هنا نشأ ميله (الجزئي) إلى المزاح، شريطة ألا يخرج هذا المزاح عن حدوده.

○ لم يكتف الجاحظ بالنظر والسمع، فقد التهم كل الكتب التي وقعت تحت يده، وفي الوقت الذي كان يوّسع أفق ثقافته العربية، أخذ في تعلم التاريخ والأدب الفارسيين في كتب (نُقلت حديثاً إلى العربية)، وقد زودته مراقبته للوسط الاجتماعي إبان تطوره، بمعلومات أفاد منها على مقياس واسع، في آثاره المقبلة.

○ يمتاز (الجاحظ) بروعة الأسلوب المتنوع وقوته مع التزامه الحرية.

○ الجاحظ لم ينج من العيوب التي امتاز بها الكتاب العرب، الآخرون، وقد استطاع مع ذلك في كثير من مؤلفاته أن يحتفظ باهتمام القارىء إلى حد يجعل جميع آثاره تقرأ بلذة على الرغم من (التكرار) الذي حاول تجنبه، وعلى الرغم من فقدان النهج المنطقي وتسلسل الأفكار والاستطرادات التي لا تحصى التي تعطي أسلوبه طابعه وطعمه الخاص

○ إن آثار الجاحظ، بصرف النظر عن عدد كبير من المقاطع ذات القيمة الأدبية والفنية والجمالية فهي، أي ــ آثار الجاحظ ــ ينبوع ثر من المعلومات، عن الفعالية الفكرية والدينية والعلمية والاجتماعية عند العرب والأعاجم حتى أواسط القرن الثالث للهجرة، وهي أبعد من أن تؤلف وحدة متجانسة، متماسكة، بل تظهر عند قراءاتها، كأنها سياق غير متلاحم الأجزاء من الأحاديث والاستشهادات والملاحظات والآراء، لا يربط بينها رابط ظاهر أو علامة منظورة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه أهم الآراء التي طرحها «بلّا» في أطروحته، وقد أضحت هذه الآراء منذ نشرها (١٩٥٣) بالفرنسية و(١٩٦١) بالعربية، منهلا للدارسين، وإذا كان البعض قد أشار إلى أفكار الأستاذ «بلّا» ــ وهذا ما تقتضيه الأمانة العلمية ــ فان البعض لم يكن أميناً، وآثر سرقة جهود مستشرق أمضى سنوات، والتهم مئات الكتب في سبيل وضع هذه الدراسة [يذكر بلّا بامتنان مساعدة أستاذيه : ماسينون وبروفنسال، في رفده بنوادر المطبوعات العربية المتوفرة في خزانيتهما].

كما ناقش البعض آراءه، وأحدث هؤلاء علي بوملحم (في كتابه : المناحي الفلسفية عند الجاحظ (بيروت : ١٩٨٠) فقد ناقش فكرة بلّا بأن الجاحظ نتاج صاف للبصرة، قائلاً:

يؤخذ على هذا الرأي إغفاله تأثير بغداد في الجاحظ، تلك المدينة التي كانت عاصمة الدنيا آنذاك، والتي سلخ فيها أبو عثمان (الجاحظ) نحو نصف عمره، فيها صنف أكثر كتبه، فضلاً عن أن الأخذ بنظرية تأثير البيئة التي اعتمدها (بلّا) تحتم عليه السير بها إلى نهاية المطاف والقول بأن الجاحظ تلقى تأثير بغداد كما تلقى تأثير البصرة (ص ٢٣).

وقد تابع بلّا جهوده في دراسة الجاحظ، ونشر تراثه المخطوط، وقد تولى تصوير معظم المخطوطات الجاحظية حالماً بنشر «مكتبة الجاحظ»! فكان أن نشر طائفة منها .. وفي مقدمة هذه النصوص :

القول في البغال،

نشر هذا الكتاب تحت عنوان مكتبة الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ــ ٨٦٨ م ــ حقق الكتاب وعلق عليه ووضع الفهارس شارل بلّا ــ أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس .. وقد تولى شيخ الخطاطين : سيد إبراهيم، تزيين الكتاب بخطوطه الرائعة.

عثر الأستاذ بلّا على مخطوطة «القول في البغال» في مكتبة داماد ابراهيم باشا (رقم ٩٤٩) باستانبول وأشار (ص ٤) إلى وجود نسخة من هذه المخطوطة في الموصل ــ غير أنها فقدت .

وقدم للكتاب بعشر صفحات، ركز فيها على إثبات نسبته إلى الجاحظ، وقال إنه صنفه بعد «الحيوان» وحدد ٢٤٠ ــ ٢٤٥ هـ زمناً تقريبياً لوقت التصنيف. وحاول تقديم صورة «عصرية» لكيفية تفكير الجاحظ في وضع هذا الكتاب الطريف، موضحاً أن الجاحظ، عندما فرغ من تصنيف «الحيوان» وجد بين أوراقه، مادة شعرية ونثرية أدت إلى نهوضه بوضع هذا الكتاب!.

وقد صنع بلّا للكتاب فهارس علمية دقيقة.

واثر صدور «القول في البغال» تولى الأستاذ عبد السلام محمد هارون نقده، نقداً عنيفاً (مجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة) مج ٢ ج١ (١٧٨ ــ ١٨٨) ــ ١٩٥٦ .. بعد ذلك نشرت المجلة رد الأستاذ بلّا (مج ٣ ج١ (١٦٢ ــ ١٦٣) ــ ١٩٥٧ .. وقد اتسم رده بالهدوء والتواضع والإيجاز، وأيد الأستاذ هارون في بعض فقراته، وخالفه في غيرها، وفي نهاية التعقيب، غمز الأستاذ هارون ، غمزاً خفيفاً بسبب عدم ملاحظته بعض الاضطراب الذي لحق بعض صفحات كتاب «العثمانية» الذي تولى تحقيقه!.

ومن النصوص الجاحظية الهامة التي حققها بلّا كتاب التربيع والتدوير، والمؤسف أنه لم يترجم مقدمته التي كتبها بالفرنسية والتي شغلت زهاء (١٥) صفحة، ولعل السبب أن الكتاب صدر عن «المعهد الفرنسي للدراسات العربية» بدمشق، فلم يعرف القارىء العربي رأيه في أهم نص ساخر كتبه الجاحظ ! ويحسن بنا الإشارة إلى أن الأستاذ بلّا وضع في ختام الكتاب، قاموساً لغوياً شرح فيه المصطلحات اللغوية، التاريخية والاجتماعية بالفرنسية، وهكذا يمكن القول إن كتاب التربيع والتدوير، يعد من أهم الكتب التي ينتفع بها دارسو الأدب العربي من المستشرقين الجدد، بشكل خاص.

وكان الأستاذ بلّا يرغب نشر كتاب البخلاء، وعندما سبقه إلى ذلك الدكتور طه الحاجري، آثر الاكتفاء بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية، وتعتبر هذه الترجمة من أهم الأعمال العربية التي نقلت إلى الفرنسية، وبرهن بلّا في هذه الترجمة، على طول باعه في فهم اللغة الجاحظية العويصة! ولا بد هنا من التنويه باعجاب الأستاذ بلّا بنشر الأستاذ الحاجري لكتاب البخلاء!.

○ في عام ١٩٦٢ دُعي بلّا لزيارة الهند وإلقاء محاضرة مناسبة، يختار موضوعها بنفسه، فكان حصيلة ذلك دراسة «الهند والهنود في نظر الجاحظ» وكتب بلّا هذه الدراسة بعد أن خاض عباب الفكر الجاحظي، وألقاها باللغة الانجليزية، وقد أعجب اخواننا الهنود بهذه المحاضرة الطريفة، فتولوا ترجمتها إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللغة العربية، و شرتها مجلة (ثقافة الهند) التي يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية (مج ١٤ ج٢ (أبريل / نيسان ١٩٦٣) ـــ ٥٨ ـــ ٧٠)..

في مطلع الدراسة، أشار المحاضر إلى جذور العلاقات العربية/الهندية وازدهارها على مرّ العصور، وبيّن أهمية الموقع الستراتيجي الذي تحتله البصرة، وأوضح احتكاك الجاحظ بطائفة من الهنود الذين يقيمون في ثغر العراق، وكذلك بعدد من العرب الذين زاروا الهند.

ويرى المحاضر أن الجاحظ تأثر بالفلسفة الهندية من خلال كتاب السند هند، وغيره من روائع الفكر الهندي ومما قاله:

ومن الجدير بالذكر أن الجاحظ كان ممن اعترفوا بنظرية التطور قبل داروِن بكثير، فوضع كتاباً أسماه «فخر السودان على البيضان»، عدّ فيه الهنود أيضاً من الأولين.

○ واعتنى الاستاذ بلّا بجهود الجاحظ في علم الجغرافية، فنشر طائفة من الدراسات والنصوص، محاولاً إثبات أصالة الفكر الجغرافي عند الجاحظ، داحضاً نظريات خصومه، ومن بين هذه النصوص «كتاب الأمصار وعجائب البلدان» الذي نشره تحت عنوان مثير، عاطفي هو: الجاحظ: رائد الجغرافية الانسانية، وأشار في تقديمه إلى قلة عناية الوراقين بهذا النص، وهكذا لم تصل الينا سوى قطع صغيرة منها، يحتفظ بها المتحف البريطاني (الرقم ١١٢٩)، ورد الأستاذ بلّا إتهامات المسعودي وخلص إلى أن الجاحظ: يدرس العالم من خلال الانسان، ويضع أسساً متينة لجغرافية مرتكزة على نظريته الشخصية فيما يربط الكائنات بوسطها من الروابط، وفيما للتربة والماء والهواء من تأثير في كل الكائنات، ولذلك يتطرق لخصائص البلدان واختلافها ويثني على الله الذي «جعل بعض الاختلاف سبباً للائتلاف».

وإلى جانب ذلك يدرس (الجاحظ) ما للمجتمع البشري من الأنظمة السياسية والدينية والاقتصادية، وتدل ملاحظاته على فطنته وقدرته على مجاوزة حدّ البسيط إلى المركب والمفصل إلى المجمل.

فلا يرتفع دفعة واحدة إلى ما نسميه الآن، بالجغرافية الانسانية ولكنه يقترب إليها شيئاً فشيئاً .

وقد شجع بلّا تلامذته على التعمق في دراسة الفكر الجغرافي للجاحظ ، فكان أن ترّسم اندريه ميكيل MIQUEL خطى أستاذه فقدم أطروحته : (١٩٦٧م)

La géographie humaine

du Monde Musulman

Jusquau milieu dull siecle

فكانت مثالاً للجهد العلمي الرصين، واصل ميكيل دراسة الفكر الجغرافي العربي عامة، والفكر الجغرافي عند الجاحظ خاصة، مسترشداً بأفكار أستاذه .

ومن حسن الحظ أن هذه الدراسة وجدت طريقها إلى قراء العربية، بعد أن تولى إبراهيم خوري تعريبها وصدر جزآن منها (عن وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ـــ ١٩٨٣) تحت عنوان: جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر.

فن تحقيق النصوص عند بلّا:

من خلال قراءة عدد من النصوص الجاحظية التي تولى بلّا نشرها وتحقيقها، نحاول إيجاز طريقته في التحقيق بما يلي:

١ ـــ يسير بلّا على طريقة أساطين الاستشراق في تحقيق النصوص، والتي تعتمد على :

أ ـــ إخراج النص، صحيحاً خالياً من الأخطاء

ب ـــ التقليل من الهوامش إلى أقصى حد ممكن.

ت ـــ صنع فهارس علمية للنص.

٢ ـــ يعمد بلّا إلى تقسيم النص إلى فقرات، وهذا يتطلب فهماً دقيقاً للنصوص، وحبذا لو يتبع جميع المحققين هذه الطريقة العلمية، العملية!.

٣ ـــ اعتمد بلّا في الغالب ، على نسخة مخطوطة واحدة، في تحقيق معظم النصوص التي نشرها .. وهو أمر متعب، مرهق.

٤ ـــ يتميز بالعلمية والموضوعية، ففي حالة عدم عثوره على بيت شعري، مثلا، يقول: لم نجد هذا البيت في مراجعنا.

٥ ـــ في حالة الشك يوضح في الهامش: لعل الصواب.

أما الملاحظات «السلبية» على أعمال الأستاذ بلّا فيمكن حصرها فيما يلي :

١ ـــ قلة استعانته بالمعجمات اللغوية كاللسان أو التاج.

٢ ـــ استخدامه بعض الكتب الحديثة في تخريج بعض الأبيات

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعرية: (مجاني الأدب) ــ مثلا!

٣ ــ قلة عنايته بكتابة دراسات توضع كمقدمات للنصوص التي نشرها باللغة العربية.

وبعد :

لعلي وفقت في تقديم الأستاذ بلّا إلى القراء، وأعترف أن الاحاطة بكل أعماله ومآثره تتطلب كتاباً برأسه، وآمل أن ينهض أحد طلبته ، وهم كثر، والحمد لله، بهذه المهمة الشاقة!.

وختاماً آمل أن يكون هذا المقال بداية تكريم وإنصاف لعالم جليل، منصف، وليكن أيضاً شمعة أوقدها على صفحات «عالم الكتب» تحية لميلاده السبعين!.

بلويـــــات

○ يثير اسم «شارل بلّا» «إشكالية» فهو: بيلا، وبللا، وبيللا، وبلات ..

والطريف أن الهنود رسموا اسمه : تشارل بلاطْ!

الأستاذ بلّا يفضل كتابة اسمه بالحروف اللاتينية.

○ من عاداته النهوض المبكر، فهو ينهض في الخامسة والنصف صباحاً.

○ لا يزال يواظب على الحضور إلى جامعة السوربون أسبوعياً، على الرغم من إحالته إلى التقاعد، وهدف الحضور لقاء الأصدقاء والطلبة وتسلم البريد.

○ يجيد معظم اللهجات العربية، عدا المصرية (التي لم يوفق في إتقانها!)

○ ينصح العرب بدراسة الطب بلغتهم، لأن اللغة العربية، حية، لا تختلف عن أرقى اللغات العالمية.

○ يعتبر كتابه «الحلم عند العرب» (المطبوع في بيروت) من الكتب النادرة والهامة في هذا الموضوع، وقد قاده الجاحظ إلى الأحنف بن قيس ــ الحليم والحكيم المعروف ــ وقاده هذا إلى تأليف هذا الكتاب!.

○ زار الأستاذ بلا المملكة عدة مرات وألقى محاضرات في جامعتي الرياض والملك عبدالعزيز بجدة، وهو يعتز بصداقة عدد من علماء المملكة وفي مقدمتهم مؤرخها الشيخ حمد الجاسر.

○ يعتقد أنه تم نشر جميع النصوص الجاحظية، ولا يتوقع ظهور مخطوطات جديدة، أما دراسة الفكر الجاحظي فتستمر فترة طويلة!.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملاحظات على مادتي الأندلس والبربر في دائرة المعارف الإسلامية

عبد الحليم عويس
أستاذ مشارك بكلية العلوم الاجتماعية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

لقد كتب اليهود دائرة معارف خاصة بهم .. ويقرأها الجميع على أنها ترجمة للفكر اليهودي بأقلام يهودية.

ولقد كتب النصارى دوائر معارف .. وليست دائرة واحدة .. بأقلامهم .. بل إن كل شعب من شعوب أوربا له دائرة معارفه المكتوبة بأقلام أبنائه، فهناك دائرة المعارف البريطانية، ودائرة المعارف الألمانية، وهكذا.

بيد أننا نحن المسلمين — وحدنا — الذين كتب لنا دائرة معارفنا غيرنا .. وهذه قضية خطيرة تعكس — بجلاء — تخلفنا الحضاري الخطير، وتصور مدى إهمالنا لكثير من القضايا الأساسية التي تتعلق بحاضرنا ومستقبلنا.

ومن هنا فليس لنا أن نلوم محرري دائرة المعارف الاسلامية إلا بالقدر الذي وقعوا فيه من أخطاء .. أما الملومون بالدرجة الأولى، فهم نحن ..آخر جيل من أجيال الحضارة الاسلامية، جيل القرن الرابع عشر للهجرة .. وما سيتلوه من أجيال ما لم نتدارك هذا التقصير الخطير.

مادة الأندلس في دائرة المعارف : الملاحظات والأخطاء

لم تكن كلمة (الأندلس) سعيدة الحظ في دائرة المعارف الاسلامية، بل كان شأنها شأن كثير من المواد الاسلامية التي تعرضت للتشويه والخطأ المتعمد.

ومع أن أحد محرري المادة، وهو الأستاذ ليفي بروفنسال مشهور بتعمقه في فهم التاريخ الأندلسي والمغربي، إلا أن وجود أمثال تسيبولد وتوريس بالباس، وج س كولان، في تحرير هذه المادة، قد أحدث نوعاً من المزج بين الخطأ والصواب.

ومنذ البداية تتوالى بعض الأخطاء المصحوبة بالعمد في هذه المادة، ولهذا نجد محرري المادة يعيبون على العرب أخذهم بما جاء في مصور بطليموس حول حدود الأندلس، ويعلقون بأنه لم يكن من السهل على العرب التحقق من الحدود الخارجية لاعتمادهم — الكامل — على مصور بطليموس المضطرب البعيد عن الدقة.

ولم يحاول محررو المادة أن يبينوا لنا في أية مصادر جغرافية أو تاريخية ظهر هذا الخلط، علماً بأن العرب عرفوا الأندلس معرفة جيدة وقسموها تقسيماً جغرافياً وإدارياً ممتازاً، كما أن الجغرافيين الذين زاروا الأندلس وعلى رأسهم ابن حوقل صاحب (صورة الأرض) قد وصفوا الأندلس من واقع معايشتهم، ومن المعروف أن الجغرافيين المسلمين قد صوبوا كثيراً من أخطاء (بطليموس) وكانت لهم خرائطهم الخاصة.

وفي صدر حديثها — أيضاً — ترمي (دائرة المعارف الاسلامية) فتح العرب للأندلس — هذا الفتح الحضاري الكريم — بأنه (احتلال) مزج بكثير من (الأساطير).

وكنا نأمل لو حددت لنا دائرة المعارف الاسلامية معنى (مصطلح الاحتلال) — وهي دائرة علمية — وليست كتاباً سياسياً — ولا سيما وأن كلمة «الاحتلال» — بظلالها الأوربية الحديثة — ذات أبعاد مأساوية مظلمة ... فهل كان فتح المسلمين للأندلس من نوع احتلال فرنسا للجزائر — ذات المليون ونصف مليون شهيد — مثلا؟ أو كان كاحتلال إيطاليا لليبيا؟.

وما هي الأساطير التي لحقت بهذا الفتح؟

— إن قصة (إحراق السفن) هي الأسطورة الوحيدة التي التصقت بهذا الفتح، وهي لم ترد — أبداً — في المصادر التاريخية الأولى التي كتبها العرب والمسلمون خلال القرون الأربعة التالية لفتح الأندلس، وكان أول من أشار إليها إشارة واضحة (ابن الكرديوس) وهو من مؤرخي القرن السادس الهجري؟.

ونحن في كل ما درسناه لطلابنا في كلية العلوم الاجتماعية، بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، نفند هذه الأسطورة،

ونبرىء طارق بن زياد من ارتكابها، ونرد عليها — كما يذكر طلابنا منذ ست سنوات وحتى اليوم، بنحو عشرين رداً؟

وفيما سوى ذلك فأية أساطير في هذا الفتح؟ علما بأننا نعزو أسطورة إحراق طارق للسفن إلى رواية أسبانية مستمدة من التاريخ الأسباني، بل مستمدة من الأمثلة الشعبية السائدة في المجتمع الأسباني والفرنسي، والتي يقول واحد منها (لقد أحرقت كل سفني) وهو مثل يضرب ويقصد به ما يقصد من المثل العربي الذي يقول (لقد رميت آخر سهم في جعبتي).

○ ومن أخطاء دائرة المعارف الاسلامية في (مادة الأندلس) كذلك وصفها للمنصور الحاجب (وهي تقصد به المنصور بن أبي عامر) بأنه أعظم ساسة الأندلس وقوادها.

وأين عبد الرحمن الداخل؟ وأين عبدالرحمن الناصر؟ وأين الحكم المستنصر الذي كان خطأه الوحيد أنه أفسح المجال لسيطرة المنصور بن أبي عامر (الحاجب)؟.

وإن الحاجب المنصور — هذا هو الرجل الذي قام حكمه على إسقاط هيبة البيت الأموي، وعلى مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) وعلى (الدكتاتورية) المطلقة .. وهو يتحمل كبر إسقاط بني أمية في الأندلس وظهور عصر الطوائف البغيض.. فهل لهذه الأسباب استحق من محرري مادة (الأندلس) بدائرة المعارف لقب أعظم ساسة الأندلس؟.

○ وفي الاتجاه المعوج نفسه ، والذي يخضع لمقاييس غير موضوعية، ترمي (دائرة المعارف) المرابطين (أصحاب موقعة الزلاقة الخالدة) ومنقذي الأندلس — ترميهم بوصف (القوة الغاشمة) بينما تمدح (ملوك الطوائف) المنحرفين، بأن أغلبهم كان على جانب عظيم من الثقافة؟

ولعله — لهذه الحفيظة الحاقدة على كل ما كان في اتجاه مصلحة الإسلام في الأندلس — ذهبت الدائرة، أو ذهب محررو مادة الأندلس فيها ، إلى ذكر دول ملوك الطوائف بتفصيل كبير (مع أخطاء في الترتيب) مع إهمال في الوقت نفسه لدولتي المرابطين والموحدين اللتين قامتا بدور إنقاذي عظيم في تاريخ أسبانيا الاسلامية!!.

○ وتذهب الدائرة إلى أن (لزريق) وهو الامبراطور القوطي الذي واجه الفتح الاسلامي، واشتبك معه في موقعة (وادي لكة، أو وادي البرباط) وانتصر عليه طارق بن زياد ... يذهب محررو مادة الأندلس في الدائرة — إلى أن لزريق هذا (منَ المحتمل أنه فر عقب الموقعة وقاتل في الشمال الغربي حتى عام ٧١٣هـ) — وهذا الاحتمال قد أبطله الفكر التاريخي الحديث؛ لأن اسم (الساقية) الذي نسب إلى مكانه وفاة لزريق، والذي قيل إنه ليس موجوداً في مكان موقعة (وادي لكة — البحيرة) قد اكتشف حديثاً في الموقع المعروف للبحيرة نفسه، وبالتالي ترجمت — بشكل شبه حاسم — الرواية القائلة بأنه مات تحت سنابك الخيل في الموقعة نفسها، ويؤكد هذا أنه لم يظهر له أثر بعد الموقعة، مع أن فتح الأندلس حتى جبال البرتات قد استغرق عامين بجهود عدد من الجيوش، أحدها بقيادة طارق، وآخر قاده موسى بن نصير، وثالث قاده مغيث الرومي، ورابع قاده عبد العزيز بن موسى بن نصير.. فلم لم يظهر لزريق في أي اشتباك بعد ذلك؟!!.

○ وفي حدة لا تليق بدائرة معارف يتحدث محررو مادة الأندلس عن العرب الفاتحين للأندلس فيقولون : «إن من المسلم به أن العرب كانوا يمثلون عنصراً عدوانياً مشاغباً في القرون الأولى من تاريخ الأندلس».

○ ونحب — في نهاية المطاف — ونحن نختم ملاحظاتنا على مادة الأندلس بدائرة المعارف الاسلامية — (مع وجود ملاحظات أخرى متفرقة)... نحب أن نكشف خطأ وقعت فيه دائرة المعارف، كما يقع فيه كثير من المؤرخين البسطاء..

هذا الخطأ هو ما ذكرته الدائرة من أن (موسى بن نصير) (لم يستقر عزمه على احتلال (!!) أراض جديدة على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق إلا نتيجة للوعود التي تلقاها من نائب الإمبراطور في مدينة سبتة) ، ويقصدون به جوليان!!.

فهذا (الوهم) لا يتفق مع الحقائق التاريخية، ومنطق الأحداث، فلم يكن موسى بن نصير نفسه (وهو مجرد وال) بقادر على اتخاذ خطوة مثل فتح الأندلس دون ورود إذن من الخليفة في دمشق. كما أنه من المعروف تاريخياً أن الخليفة الوليد بن عبد الملك لم يأذن بالفتح إلا بعد مؤتمرات عقدها ومشاورات طويلة، ومراسلات تمت بينه وبين موسى بن نصير، وخلالها برهن له موسى على سهولة الفتح، وعلى وجود ضرورات استراتيجية توجبه، على رأسها متابعة الروم الذين كانوا سبباً من أسباب تأخير فتح المسلمين للمغرب مدة طويلة، فضلاً عن قتلهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أكثر من قائد من قواد الفتح كعقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوي!!.

مادة البربر : الملاحظات والأخطاء

في يقيني أن كل المواد التي تضمها دائرة المعارف الإسلامية ــ أو معظمها على الأقل ــ مواد تتضمن التشويه العمد، وهي تحتاج منا نحن المسلمين إلى (دائرة معارف إسلامية) نكتبها نحن بأقلام إسلامية رصينة موثوق في موضوعيتها.

وكما كشفنا بعض صور التشويه الواردة في مصطلح (الأندلس) نتابع كشف الخطأ العمد الذي ورد في كلمة (البربر) مكتفين بهما، في هذا المقام، نظراً لارتباط هذين المصطلحين ببعضهما.

وفيما يتعلق بمصطلح البربر وموقف محرري الدائرة منها نجد كثيراً من الأخطاء فقد أدّعى محرر مادة البربر بدائرة المعارف الإسلامية عدم معرفته التفصيلات الخاصة حول البربر في الإسلام، وذكر أنه يعلم فقط ارتدادهم عن الإسلام اثنتي عشرة مرة (وقد نقل ذلك عن ابن خلدون ــ المقدمة ٢/٤٤٧ ــ والعبر جـ ٦ ص ٢٠٥، ٢٢٠) ثم أفصح أكثر عن رأيه، فزعم أن البربر لم يضمروا في قلوبهم الاهتمام الحقيقي بعقائد الدين (راجع الدائرة جـ ٣ ص ٥١٤ ــ ٥١٥ مادة بربر) ولقد قام محرر المادة ــ للأسف ــ ببتر النص الذي نقله عن ابن خلدون وفيه: «ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام ابن نصير» فبدا كلام (محرري الدائرة) وكأنه حكم عام على إسلام البربر إلى اليوم . والحق إن نشر الإسلام في المغرب قد مشى جنباً إلى جنب مع حركة الفتوحات، فقد أخذ عقبة معه معلمين وفقهاء، ونشر حسان الإسلام بين البربر، وخلط البربر بالمسلمين، كما ترك موسى بن نصير سبعة عشر فقيهاً بالمغرب، وأرسل عمر بن عبد العزيز بعثة إلى المغرب تضم عشرة من فقهاء التابعين. ومن الجدير بالذكر أن (السير توماس أرنولد) قد أوضح دخول البربر في الإسلام على نحو يكاد يكون محايداً (الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٩ وما بعدها وص ٤٣٩ وما بعدها ــ الطبعة الثانية نهضة مصر). على أن جهود البربر في فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد البربري دليل قوي على وجود مد إسلامي قوي بينهم .. وليس من طبيعة الأمور أن يعرف تاريخ محدد لاعتناق الإسلام، إلا إذا كان هذا الإسلام قد فرض إجبارياً، وهو الشيء الذي يتنافى مع طبيعة الإسلام نفسه. والجدير بالملاحظة إن ابن خلدون مدح تدين البربر وحرصهم على الشريعة (العبر ٦/٢٠٨) .. كما مدح تحمسهم للإسلام وتدينهم كثير من المؤرخين المنصفين، وما وقوف الجزائريين في المعركة الضارية ضد فرنسا بعد احتلال مائة وثلاثين سنة إلا صورة من صور تدين المغاربة الأصيل، وتمسكهم الشديد بالإسلام.

○ وحول فتح المسلمين للمغرب، وأسباب تأخر هذا الفتح شاعت دائرة المعارف الاسلامية أن تقع في أخطاء أهمها ما زعمته من أن هذا التأخر راجع لبغضهم للإسلام.

ــ ومن المعروف أن هناك أسباباً كثيرة قد أسهمت في تأخير فتح المسلمين للمغرب على هذا النحو، لعل من أبرزها ظروف الدولة الإسلامية نفسها، كالفتن الطويلة التي كانت تحول بين أولى الأمر من العرب، وبين إرسال الحملات والبعوث إلى إفريقية، ولبعد المغرب، واتساعه، وتعدد ممالكه واستقلال نواحيه وكراهية البربر للأجانب، وعدم معرفة العرب بجغرافيته وبيئاته، وعداوة الروم للعرب، ولأن فتح المغرب لم يأخذ هيئة الفتح المنظم، وللاضطراب الذي كان يسود تكوين المغرب السياسي والاجتماعي والطبيعي، ولغير ذلك من الأسباب.

لكن مع وجود كل هذه الأسباب يعتبر فتح المغرب العربي من أكثر الفتوحات الإسلامية مشقة، ومن أطولها زمناً. فما الأسباب الكامنة وراء هذه الحقيقة؟.

إن من أهم الأسباب المفسرة لذلك هي خصائص البربر التي عرفوا بها في تاريخهم كله، قديمه وحديثه، وواجهوا بها كل غزو جديد، سواء كان هذا الغزو بيزنطياً، أو إسلامياً، أو أوربياً حديثاً..

إننا نستطيع أن نرجع كثيراً من طبائع البربري إلى حبه للحرية، وإن البربري ليبالغ في حبه هذا حتى ليخيل لكثيرين أن تاريخ البربر هو تاريخ القسوة والدم والخيانة.

على أن هناك مظهرا هاما من مظاهر علاقة العرب الفاتحين بالبربر لا شك في أنه لعب دوراً كبيراً في تحديد العلاقة بينهما على نحو خاص، وأدى إلى احتكاك بين الجنسين لم يتوفر للفاتحين للمغرب قبل العرب، فإن الفاتحين العرب لم يكونوا كالرومان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يعيشون في المدن ويؤثرون الساحل على الداخل، بل كان من بين هؤلاء الفاتحين من ترك الساحل، وفضل الآفاق الفسيحة بداخل بلاد البربر، ومن ثم أخلى كثير من البربر مكانهم للعرب، واندفعوا للجنوب.

إن حب البربر للحرية هو التفسير الذى نرجحه لكل ما حدث من ثوراتهم في ظل العرب. فقد كان دائماً في ميسور أيمّا داعية يتوجه في دعوته إلى مشاعر البربر القومية ويحملهم على مناهضة السلطة القائمة أن يعتمد على تأييدهم البعيد ونصرتهم البالغة .. ومن هنا فلا بغض بربري للاسلام وإنما هى ظروف الفتح من جانب، سواء ظروف الدولة الاسلامية، أو سياسة بعض الولاة السيئة، ذلك لأن البربر لا يحكمون إلا بأسلوبين أولهما أسلوب الشدة القاسية، وأما الأسلوب الثاني فهو التسامح والعدل .. وبهذا ساسهم العرب بعد الفتح، وفي ظل سنوات الفتح نفسها، وكان عدل العرب وتسامحهم من عوامل دخول البربر في الاسلام، فلا شك أن سياسة التسوية بين العرب والبربر في الفيء، واستمالة البربر، وإشراكهم في القيادة، والعمل على نشر الاسلام بين ذويهم... تلك السياسة التى نشرها أبو المهاجر دينار، ورعاها حتى آتت ثمارها، ثم سهر عليها حسان الى أن إنتهت مدة ولايته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن العلاقات الطيبة التي صنعتها السياسة العربية على امتداد القرن الأول الهجري لم تدم طويلاً بين العرب والبربر، فقد شكا البربر مع مطلع القرن الثاني الهجري من أنهم لم يكافؤا على حسن بلائهم، ومع أنهم دخلوا في الإسلام ــ الذي هو دين العدل والمساواة ــ إلا أنه لم يسو بينهم وبين العرب.

فمن الواضح أن سياسة العمال السيئة المخالفة تماماً لتعاليم الإسلام التي اعتنقها وآمن بها هؤلاء البربر .. هذه السياسة التي جعلت هؤلاء العمال يفرضون الجزية على البربر، ويسوونهم بالكفار تماماً، بل إن يزيداً بن أبي مسلم ــ وهو الوالي الظلوم الغشوم الذي يحمل كبر تمرد البربر، والذي يشبه الحجاج في سياسته ــ كان قد اختط سياسة مالية مجحفة، وأثار نزعات عنصرية، حين أراد تمييز حراسه البتر بكتابة أسمائهم وأوصافهم ــ كحراس ــ على أيديهم، وأخذ مسلمي البربر بالخراج، ورد من منَّ الله عليهم بالإسلام إلى بلادهم، وسامهم ما لا يرضى به الله والمسلمون. كما أن استخفاف الخليفة هشام بالأمر، وعدم مبادرته إلى معالجته، هو الذي فتح باب الفتنة في المغرب العربي.

على أن هناك سبباً آخر ينضم إلى هذا السبب، هو أن البربر قد تم إسلامهم في وقت كانت الحياة الإسلامية قد بدأت تمور فيه بالصراعات المذهبية والسياسية، وكان البربر ــ لحداثة إسلامهم وصدق سريرتهم ــ يصدقون كل ناعق وافد من المشرق. وسرعان ما يستسلمون للمتكلمين والسياسيين الذين بلغوا في هذا العهد حداً كبيراً من التمكن في فنونهم. فلم يكن دور هؤلاء البربر إلا دور التطبيق والأرض الفراغ لكل ما يعج به الشرق الإسلامي من صراعات.

وحق الحق أن يقال إن كثيراً من هذه الثورات كانت تجري في ظلال الإسلام والعروبة ونطاقها، كما أن كثيراً من العرب كانوا يندمجون مع البربر في ثوراتهم، مثلما كان البربر يندمجون مع العرب في جميع ما يقومون به من مثل ذلك، وفي ظل هذا العرض يبدو تطور العلاقة بين البربر والدولة الإسلامية على أنه تطور له ما يبرره، حتى وإن كانت نتائجه تخطت حدود أسبابه.

وساعدت ظروف كثيرة على أن يتّسم البربر بكثير من الجفاء والقسوة والخبث والغدر. وإن كنا لن نعدم صوراً من هذه القسوة في كثير من تاريخ معظم الشعوب.

ــ فهو تطور طبيعي بالنسبة لعلاقة تقوم بين جيوش فاتحة، وأصحاب الأرض المفتوحة، بل لعلها علاقة متميزة عن غيرها، فلما أدرك البربر عظمة الإسلام بعد استقرار الفتح أيام حسَّان وموسى، أصبحوا من خيرة جند الإسلام وأتباع الإسلام.

وهذا العرض يدحض الأسلوب المجحف الذي عرضيت به دائرة المعارف الإسلامية علاقة البربر بالإسلام، وكثيراً مما يتعلق بهذا الجنس الإسلامي العظيم «البربر».

مكتبة الشرق الأوسط بجامعة يوتا

رجائي مقار
مدير مكتبة الشرق الأوسط / بجامعة يوتا

إن مجموعة كتب الشرق الأوسط بمكتبة ماريوت بجامعة يوتا تعتبر مركزا مشهورا للبحث في دراسات الشرق الأوسط. وتحتوي هذه المجموعة على كتب ودوريات متعلقة بالعلوم الانسانية والاجتماعية تصدر بلغات الشرق الأوسط واللغات الغربية المختصة بالشرق الأوسط. وبالاضافة إلى هذه المجموعة هناك مجموعات متخصصة مثل ورق البردى الاسلامي والمخطوطات العربية (وخاصة المحفوظة على الميكروفيلم).

وأهم قسم في هذه المجموعة «مجموعة الشرق الأوسط»، وهو القسم الذي تشتهر به المكتبة، هو المختص باللغة العربية. والمجموعة العربية تعتبر من أهم المجموعات العربية في أمريكا، لأنها تحتوي على كتب نادرة وقديمة منذ أيام المطبعة الحجرية في مصر. أما مجموعة الدوريات فهي متنوعة ومتعددة اللغات.

وتحتوي المكتبة على مجموعة وثائقية من الورق البردى الاسلامي، ووثائق على الرق والورق، ومجموعة نادرة من المخطوطات. وهناك مجموعة عربية من الكتب المخطوطة القيمة، وخاصة من المصاحف الكريمة، ولكن المكتبة غنية على وجه الخصوص بالمخطوطات العربية على الميكروفيلم. فهناك مجموعة مختارة من المخطوطات حصلت عليها المكتبة من معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية (قبل نقله إلى دولة الكويت بسنوات) وهناك مجموعة مارتن ليفي وهو أحد المتخصصين في تاريخ العالم الاسلامي في جامعة نيويورك (مدينة البنى) وقد توفي عام ١٩٧٠. وهناك أيضاً مجموعة جبل سيناء العربية والاغريقية وكذلك مجموعة من المكتبة البطريركية بالاسكندرية. وبالاضافة الى كل هذه المجموعات هناك المجموعة السريانية والعربية من المركز الكاثوليكي للميكروفيلم بمدينة بيركلي بكاليفورنيا.

وتعتبر مجموعة الشرق الأوسط بجامعة يوتا ثالث مجموعة من نوعها في أمريكا من حيث الحجم. فهي تحتوي على ٨٠٠٠ مجلد من الدوريات، و٨١٠٠٠ مجلد من الكتب المتخصصة. بالاضافة إلى هذا هناك المجموعات الخاصة الآتية :

١ ــ أوراق بردى عربي تزيد على ٨٠٠ قطعة.

٢ ــ مخطوطات : فرمانات، ووثائق رسمية، من العصور الوسطى في مصر وعددها ٩٠٠ قطعة على أنواع مختلفة من الورق.

٣ ــ مواد قرآنية قديمة :

أ ــ ورقتان من البردى تحتويان على ست سور من القرآن الكريم من القرن الثامن الميلادي (نادرة).

ب ــ مصحفان على الورق من العصر الكوفي استخدم فيهما أسلوب مبكر للحركات في اللغة العربية من القرن التاسع الميلادي.

جـ ــ ورق من المصحف على الرق، بالخط الكوفي من القرن التاسع الميلادي.

د ــ ستة مصاحف مخطوطة كاملة، واحد مزين وآخر يحتوي على تعليقات وهوامش وعلامات قراءة (نادر)، وثالث مجلد بطريقة (قزونية) ومصاحف أخرى مكتوبة بجوار الكعبة الشريفة بمكة المكرمة وممضاة ومؤرخة في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر.

هـ ــ أوراق مفردة مخطوطة عددها (الفان). وهي مستخرجة من مخطوطات عربية أدبية من مصادر مختلفة كتبت ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر.

و ــ ٢٤٠ مخطوطا عربيا غير مفهرسة من البلاد العربية.

٤ ــ ٣٢٠ (ميكروفيلم) تحتوي على ألف مخطوط عربي عن العلوم الاسلامية والفلك والرياضيات والطب والزراعة.

(مجموعة مارتن ليفي).

٥ ــ ١٤٤٠ ــ كتابا نادرا مفهرسة وكلها عن الدراسات والتاريخ الاسلامي وأدبيات وتاريخ العربية والعبرية والفارسية والتركية. وهذه الكتب في هذه اللغات واللغات الأوربية.

٦ ــ ٩٧٤ (ميكروفيلم) تحتوي على عدة آلاف من المخطوطات العربية والسريانية من الأديرة والمراكز العلمية الأخرى في سوريا ولبنان.

٧ ــ ٤٧٣ (ميكروفيلم) تحتوي على ما يقرب من ١٠٠٠ (ألف) مخطوط من مجموعة معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية.

٨ ــ أكثر من ٥٠٠ مخطوط عربي من مجموعة جبل سيناء بالعربية والقبطية واليونانية.

٩ ــ الفان من الكتب العربية والعثمانية (كلها غير مفهرسة) ومعظمها صدر في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

١٠ ــ الأوراق الخاصة للدكتور عزيز عطيه (مؤسس معهد دراسات الشرق الأوسط ومكتبته) والأوراق الخاصة بمارتن ليفي، وأحمد زكي أبو شادي، وبشر فارس.

وتضم المكتبة أيضا مجموعات (الميكروفيلم) و(الميكروفيش الآتية:)

١ ــ جريدة الأهرام، القاهرة، مصر ١٩٤٠ إلى اليوم.

٢ ــ جريدة إطلاعات ــ إيرانية ، طهران، ايران ١٩٢٦ ــ ١٩٨٠.

٣ ــ جروزليم بوست (انجليزية)، القدس، ١٩٢٠ ــ اليوم.

٤ ــ كايرو برس ريفيو، القاهرة، (انجليزية) ، ١٩٦٧ ــ اليوم .

٥ ــ ٩٧ جريدة عبرية على الميكروفيش (وهي جرائد أوروبية واسرائيلية من القرنين ١٩ و٢٠).

٦ ــ وزارة الخارجية الأمريكية ــ سجلات الوزارة المتعلقة بالشئون الداخلية لتركيا ١٩١٠ ــ ١٩٢٩ (١٢٠ ميكروفيلم).

٧ ــ المصادر المتعلقة بتاريخ بريطانيا في الشرق الأوسط ١٨٠٠ ــ ١٩٧٨. وتشمل هذه المجموعة الأوراق الشخصية والرسمية لمائتي شخص إما خدموا في الشرق الأوسط كرؤساء البعثات الدبلوماسية وأعضاء القوات المسلحة.. الخ أو أشخاص مهتمون بالشرق الأوسط بحكم عملهم (مثل رجال البنوك والأعمال والمبشرين والرحالة).

٨ ــ سلسلة دراسات وتقارير عن الشرق الأوسط تشمل الآتي:

أ ــ تقارير أبحاث وكالة المخابرات الأمريكية المسماة الشرق الأوسط ١٩٤٦ ــ ١٩٧٦.

ب ــ الشرق الأوسط : دراسات خاصة، ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠. وتشمل هذه المجموعة ١٥٤ عنوانا على ١٨ ميكروفيلم. وتشمل هذه الدراسات ، الدراسات التي قام بها علماء مؤسسة راند كربوريشن. وكلية الحرب التابعة للجيش الأمريكي ومعهد الدراسات الاستراتيجية وجامعة الدفاع الوطني الأمريكية.

ج ــ سلسلة دراسات الشرق الأوسط ١٩٤٦ ــ ١٩٥٣ وهي تشمل ١٩٩ عنوانا على الميكروفيلم.

د ــ سجلات الأمن القومي ــ إسرائيل ١٩٦٣ ــ ١٩٦٩ على ثلاثة ميكروفيلم.

هـ ــ الشرق الأوسط ١٩٤١ ــ ٩٤٩ . تقارير مكتب الخدمات الاستراتيجية ومخابرات وزارة الخارجية الأمريكية. الجزء الثامن ويشمل ١١٥ عنوانا.

و ــ الشرق الأوسط ١٩٥٠ ــ ١٩٦١. تقارير مكتب الخدمات الاستراتيجية ومخابرات وزارة الخارجية الأمريكية القسم السابع ويشمل ١٣٥ عنوانا.

والمكتبة مشهورة على المستوى المحلي ومستوى الولايات الأمريكية والعالم بأسره. ولدى المكتبة علاقات تبادل وهدايا مع جامعة كولمبيا وعديد من المكتبات الجامعية الأجنبية وخاصة في الشرق الأوسط*،ويستعمل المكتبة باحثون من أماكن متعددة في الولايات المتحدة وكندا وأوربا والشرق الأوسط وشمال افريقيا. وبعض هؤلاء الباحثين أشخاص مقيمون أو محاضرون زائرون أو باحثون من كلية الدراسات العليا. وفي العام الماضي أمضى مدير مكتبة جامعة البصرة بالعراق إجازته الدراسية، وكانت عاما كاملا في هذه المكتبة، بغرض البحث. كما أمضى استاذ الرياضيات بجامعة سيمون بكندا أياما للبحث في مجموعة ليفي عن الرياضيات عند العرب. كما أقام استاذ آخر من جامعة كولومبيا أياما للبحث في نفس المجموعة عن علم الفلك عند العرب بل إنه قام بزيارتين لا واحدة. ويقوم الطلبة والأساتذة من الجامعات الغربية المجاورة باستعمال هذه المكتبة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقوم أمين مكتبة الشرق الأوسط حاليا باعداد الجزء الرابع من فهرس مكتبة الشرق الأوسط العربي ــ مكتبة عزيز عطية بجامعة يوتا. وقد سبق نشر المجلدات الثلاثة الأولى بواسطة مطبعة جامعة يوتا في ١٩٦٨، ١٩٧١، ١٩٧٩. وهذه المجلدات الثلاثة تبلغ صفحاتها ٢٥٠٠ صفحة.

كما يعمل أمين المكتبة حاليا على الحصول على منح مالية لترجمة وعمل فهرس لمجموعة أوراق البردى ومجموعة المخطوطات العربية على الميكروفيلم.

---

* على وجه أخص السعودية والعراق وشمال أفريقيا. كما تشترك المكتبة في مشروع مكتبة الكونجرس الأمريكية لشراء جميع الكتب العربية.

صدر حديثاً من منشورات

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١ ــ **تاريخ التراث العربي** لفؤاد سزكين

ــ مجموعات المخطوطات العربية في مكتبات العالم ترجمة محمود فهمي حجازي

ــ المجلد الأول ترجمة محمود فهمي حجازي

ــ المجلد الثاني ترجمة عرفه مصطفى

٢ ــ بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في مجلدين

٣ ــ **الشباب دوره ومشكلاته** لصالح الفوزان وشاكر سالم الدولة

٤ ــ **معالم رئيسية في مسيرة الجامعات الاسلامية في العهد الحديث.** لعزز الدين إبراهيم

٥ ــ **مجلة مركز البحوث** العدد الثاني المحرم ١٤٠٤ هـ

٦ ــ **الاستقامة** لابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم في مجلدين.

العرض والتحليل

استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية لبرنارد لويس

مسعد سويلم الشامان
أستاذ مساعد - بكلية الآداب/ جامعة الملك سعود

لويس، برنارد/ استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية ترجمة سيد رضوان علي. — ط ٢. — جدة: الدار السعودية، ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢م.

إنه من الأمور التي تبعث على السرور ظهور اتجاه نحو دراسة الفترة العثمانية وحضارتها بشكل جدي وخاصة باللغة العربية. فبالرغم من أن الدولة العثمانية أطول الدول الاسلامية عمراً وأوسعها أرضاً وأكثرها تأثيراً على العالم الاسلامي في الوقت الحاضر إلا انها لم تجد من المؤرخين العرب كبير عناية. وإن كانت قد ظهرت دراسات عنها بلغات أوربية وشرقية أكثر جدية. وفي السنوات الأخيرة نقلت إلى العربية مجموعة من هذه الدراسات ساهمت في إثراء المكتبة العربية في هذا الشأن.

ولقد قام الدكتور سيد رضوان علي بجهد مشكور في ترجمة كتاب ألفه المستشرق المعروف برنارد لويس عن استانبول وحضارة الدولة العثمانية وبذلك ساهم في سدّ فراغ كبير تعاني منه المكتبة العربية .

وفي البدء أودّ أن أقدّم شكري للدكتور سيّد رضوان علي على قيامه بهذه الترجمة الموفقة .

والكتاب غنيّ عن التعريف وهو لمؤلف اشتهر باطلاعه الواسع على الفترة العثمانية على وجه الخصوص. وهو أيضاً كتاب يتناول باختصار شديد حضارة الدولة العثمانية التي نحن في أمس الحاجة للاطلاع على تفاصيلها.

والان نتناول ترجمة هذا الكتاب بالتعليق :

لقد أوضح المترجم في مقدمته للكتاب خطته في الترجمة وإضافته إلى الكتاب تعليقات على أنواع ثلاثة (ص ٩) :

١ — شرح بعض النقاط والحوادث التاريخية وإثبات اختلاف الروايات في بعضها وترجيح غير ما ذكره المؤلف.

٢ — تفسير المصطلحات والأسماء التركية ... وتراجم قصيرة لبعض الشخصيات .. وتحديد بعض الأماكن...

٣ — الردّ على هجمات المؤلف على الاسلام أو بعض مؤسساته..

ونبدأ بالنوع الثالث من هذه التعليقات ونقرّر أن المترجم قد وفّق بحمد الله في ذلك وجزاه الله عن الاسلام كل خير.

ولكن النوع الأول والثاني من التعليقات لم يوفق في الكثير منها. ولم أفهم سبب قوله في النوع الأول :« وترجيح غير ما ذكره المؤلف» فإذا كان ما ذكره المؤلف لويس هو الصحيح فلماذا يرجح المترجم غيره؟ وعلى أي أساس يتم الترجيح؟

إن عدم معرفة المترجم للغة التركية — لغة العثمانيين — جعله يقع في كثير من الأخطاء ولو لم يتطرّق لبعض النقاط بالتعليق لكان أفضل.

إذا كانت الدولة العثمانية قد سمّيت بالرجل المريض فيجب ألا يكون تاريخها كذلك. ونتمنى ألا نتعلم تاريخها من الذين أسموها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالرجل المريض ثم نعيب جهدهم وعملهم. فإذا كنّا صادقين في دراسة التاريخ العثماني فلا مناص لنا من تعلّم اللغة التركية والاطلاع على وثائق تلك الدولة وما كتبه مؤرخوها عنها.

والان إلى النقاط التي أردت تصحيحها في هذه الترجمة أو بالأصحّ على التعليقات التي وضعها المترجم للنص الأصلي والتي إن شاء الله لن تنقص من قيمة هذا الجهد الطيب للمترجم.

١ ــ بدون سبب واضح غيّر المترجم اسم الكتاب من «استانبول وحضارة الامبراطورية العثمانية» إلى «استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية». والمسألة هذه مثار جدل، فهل كل ما كان في الدولة العثمانية من مؤسسات هي ذات أصول إسلامية حقا؟ هذا موضوع له تعليق آخر ليس محله هنا ولكن انظر كتاب (أو مقالة) فؤاد كوبريلي.

Koprulu, M. Fuat: Bizans muesseselerinin Osmanli muesseselerine tesiri- Istanbul 1981 veya Turk Hukuk ve Iktisad Tarihi Mec., I, 1931.

٢ ــ حذف المترجم قائمة بالمصادر أوردها المؤلف برنارد لويس في نهاية كتابه ص ١٧٧ ــ ١٨٠ وبذلك حرم القارىء العربي من فرصة الاطلاع عليها وبذل فيما ليس له الحق في تغييره.

٣ ــ كان يمكن أن يجعل المصطلحات التي وردت بالخط المائل في الأصل ذات شكل مميز كأن تكون بالحرف الغليظ ذي اللون الأسود.

٤ ــ حذف خريطة هامة لمدينة استانبول موجودة في الأصل الانجليزي ص ٩٩.

٥ ــ أغفل سنة طبع الكتاب الأصل وهي سنة ١٩٦٣م. وهناك طبعات أخرى في عام ١٩٦٨م، ١٩٧٢م للكتاب. فهو لم يشر إلى ايها رجع رغم عدم وجود فارق كبير بينها.

٦ ــ لم يهتم بوضع التاريخ الهجري لبعض الأحداث الهامة كزيادة من عنده، وهذا هو الأصل ــ وعلى الأقل في تعليقاته ــ حيث أن استانبول مثلا لم تفتح في يوم الثلاثاء ٢٩ مايو ١٤٥٣م ولكن يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ. وكذلك تواريخ وفيات بعض الذوات مثل صولاق زاده (ص ١٤٦ الهامش ١٤٠) توفي عام ١٠٦٨ هـ وليس عام ١٦٥٧م وشيخ الاسلام سعد الدين خوجه في ربيع الأول ١٠٠٨ هـ وليس ١٥٩٩م (انظر ص ٢٦ الهامش ١٩) ويعدّل اسم كتابه إلى : تاج التواريخ وطبع في استانبول في مجلدين عام ١٢٧٩ هـ وعام ١٢٧٠ هـ وليس عام ١٨٧٩ م.

٧ ــ في ص ٢٣ السطر ٧ : حذف كلمة (تركي) تعمّدا، وصحة الجملة : «وهكذا أصبحت الكاتدرائية اليونانية مسجداتركيا». انظر النص الانجليزي ص ٦.

٨ ــ لعدم اطلاع المترجم على الأصول التي استقى منها المؤلف معلوماته أخطأ في الترجمة : في ص ٢٣ السطر ١٧ : «ورفعوا اصواتهم بتلاوة آية : هذه جنات عدن ادخلوها بسلام آمين، بحيث تصل إلى آذان الناس الفانية» هذه الجملة تصبح (ورفعوا أصواتهم بشطر البيت: «هذه جنات عدن فادخلوها خالدين» بحيث تصل إلى أسماع العالمين).

تاريخ أبو الفتح ــ لطرسون بيك. الورقة ٤٩ ب ويجب أن يحذف الهامش رقم (١٥).

Tursun Bey - The History of Mehmed The Conqueror - Halil Inalcik and Rhoad Murphey - Chicage, 1978. Tarih-i Ebu'l-Feth-Tursun Beg-Ist. 1977.

٩ ــ ص ٢٤ الهامش (١٦) : أصل البيت الفارسي كما ورد في (تاريخ أبو الفتح) الورقة (٥١) :

برده داري ميكند در طارق كسرى عنكبوت.
بوم نوبت ميزند در قلعة أفرا سياب

وهذا هو النص الذي يوافق ترجمة برنارد لويس.

١٠ ــ ص ٢٥ الهامش ١٧ : تاريخ تأليف : تواريخ آل عثان لعاشق باشا زاده هو ٩٠٨ هـ وليس بالميلادي ١٤٨٤

١١ ــ ص ٣١ السطر ٢٠ : تحذف كلمة (غازيان) فهي غير موجودة في الأصل الانجليزي وهي جمع على الطريقة الفارسية لا يفهمها القارىء العربي.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٢ ــ ص ٣٥ الهامش (٣٣) : يقول المترجم : (لا ندري لماذا يستعمل المؤلف مثل هذه الصيغة المبهمة عن حكم الأمير عثمان مع أن حكمه معروف بالتأكيد..) وهذا اعتراض من المترجم لا وجه له، فحكم عثمان وحياته وحروبه وزوجاته وأولاده اختلفت فيه روايات المؤرخين الأتراك من القدماء والمحدثين / قبل الأوربيين. والمترجم يرجع هنا إلحدى الروايات ويعيب على المؤلف ذلك. فقد أغفلت المصادر التركية أي ذكر لعثمان الأول بعد عام ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م ويقال أنه أوكل أمور الادارة إلى ابنه أورخان لاصابته بمرض النقرس. ولكن هناك وثيقة تدل على أن ابنه أورخان كان حاكما عام ٧٢٤ هـ وذلك لوجود عملة سكت باسمه في ربيع الأول ٧٢٤ هـ بل هناك رواية تذكر أن أورخان كان حاكما في عام ٧٢٠ هـ. انظر تفاصيل تلك الروايات في هامر: دولت عثمانية تاريخي ١/١١٤ استانبول ١٣٢٩

Ismail H. Uzuncarsili - Osmanli Tarihi - I/106-125

دائرة المعارف الاسلامية ــ الطبعة التركية

Islam Ansiklopedisi IX / 431-443.

ثم نسأل المترجم لماذا ترد على لويس بكلام كيبونز Gibbons أليس هو مستشرقاً مثله ويعلم رأيه في ذلك.

١٣ ــ ص ٣٦ الهامش (٣٤) لم تجمع المصادر التركية والغربية على رأي واحد في هذا الموضوع، وما ذكره المؤلف هو رأي البروفسور المرحوم محمد طيب كوك بلكين في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة التركية انظر هنا

Islam Ansiklopedisi, IX/339-408.

Uzuncarsili- Osmanli Tarihi - I/159.

ولا يجب أن يرد على لويس براي بابنجر لأن لويس ليس جاهلا عن معرفة رأي بابنجر في هذا الشأن. فاذا كان للمترجم من رأي في هذا الشأن فليقدمه للقارىء.

١٤ ــ ص ٣٦ : الهامش (٣٥) : أية تلك المصادر التركية والعربية التي اتفقت على أن مدينة بورصة سقطت وعثمان على فراش الموت. فهذه رواية واحدة من عدة روايات مختلفة. انظر دائرة المعارف الاسلامية ــ الطبعة التركية

Isam Ansiklopedisi IX/401.

١٥ ــ ص ٤٨ : الهامش الموجود أسفل الصفحة يجب أن يكون الحقيقة أن عمره حينذاك ما بين ١٩ و٢١ سنة.

١٦ ــ ص ٥٧ السطر ٣ : فكتب الباقي : تصبح فكتب باقي بدون (الـ التعريف) ونقله صحيحا ص ١٩٨ السطر ١٧.

١٧ ــ ص ٥٩ السطر ١٠ : أوج بيك تصبح أوج بيكي أمير الغازين : أمير الغزاة

١٨ ــ ص ٦١ السطر ١ : يَلدَرم : تصبح يِلدِرِم.

١٩ ــ ص ٦٢ السطر ١٥ : «التقليد الاسلامي » يجب أن تكون «الحديث الشريف» وذلك حسب النص التركي.

Tarih-i Ebu'l-Feth-Tursun Beg-Istanbul 1977, s.13.

٢٠ ــ ص ٦٥ السطر ١٧ : كو جو بيك تصبح قوجي بيك

٢١ ــ ص ٦٩ الهامش ٦٩ : يقول المترجم : «فلم تكن حملة سليم موجهة ضد العرب بل ضد السلاطين المماليك من الجنس التركي في مصر والشام». أوليس في هذا الرد ما يعتبر إيقاعا بين المسلمين بعضهم البعض، فالمؤلف لم يذكر العرب بالاسم ولكن ذكر المسلمين وقصد بهم العرب والفرس الذين غزا ديارهم سليم الأول والسلاطين المماليك الذين هم من الجنس التركي في مصر والشام هم أيضا مسلمون. فلم يقصد المؤلف بعبارته أية محاولة للايقاع بين المسلمين، فقد غزا سليم العرب والصفويين والمماليك وكلهم مسلمون!!! أوليس ذلك حقيقة تاريخية؟.

٢٢ ــ ص ٧١ الهامش (٧١) : نقول لتصحيح التعليق : إن نقوش أورخون تعود إلى القرن الثامن الميلادي بالتحديد سنوات ٧٢٥م، ٧٣٢م، ٧٣٥م وتتناول احداثا وقعت في القرن السابع الميلادي (سنوات ٦٣٠ ــ ٦٧٠) وقد اكتشفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (٢) انظر M.Ergin-Orhun Abideleri-Ist. 1970 s.11.

٢٣ ــ ص ٧٢ الهامش (٧٣) يجب أن تتطلع على تاريخ العثمانيين في مصادره الأولى لتصل إلى مسألة تواطؤ شيوخ الاسلام في الدولة العثمانية مع السلاطين، والنماذج على

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك متعددة. وهذا ليس عيبا في الاسلام ولكن في تلك الذوات.

٢٤ ــ ص ٨٣ : الهامش ٨٨ : الوزير جندرلي قره خليل خير الدين لم يأت من الشام كما ذكر زيني دحلان ولا غيره فهو من أسرة تركية عريقة موطنها الأصلي قرية جندره بولاية أنقرة. ساهمت هذه الأسرة في تأسيس الكثير من المؤسسات العلمية والعسكرية والادارية في بداية العهد العثماني وتوفي في عام ٧٨٩ هـ. انظر بشأن هذا الوزير ونسب أسرته في دائرة المعارف الاسلامية.

Islam Ansiklopedisi III/351-357.

Ismail H. Uzuncarsili - Osmanli Tarihi I/555-556.

٢٥ ــ ص ٨٧ الهامش ٩٣ وكذلك ص ٤٧ الهامش ٥٠ : بالنسبة لنظام (ديوشيرمة) فقد أسس عام ١٣٦١ أو عام ١٣٦٣ م في عهد مراد الأول ــ فيما يرى المرحوم الدكتور اسماعيل حقي اوزون جارشيلي في دائرة المعارف الاسلامية ــ وهذا الذي أخذ به لويس هنا ــ وطبق هذا النظام على نطاق ضيق ولكن توسعوا في تطبيقه في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. وقصد كوبريلي التطبيق الشامل لهذا النظام وليس نشأته.

ولم يكن هذا النظام يسير على وتيرة واحدة بل كان تابعا لاحتياج الدولة للأشخاص المناسبين انظر :

Islam Ansiklopedisi III/563-565.

٢٦ ــ ص ١٠٠ الهامش (١٠٤) : ما ذكره لويس في هذا الشأن منقول من كتاب

Ismail H. Uzuncarsili-Osmanli Devletinin Saray Teskilati-Ankara 1945, 375-387.

وأما الأمين الخامس الذي ذكره جب Gibb باسم (مصرف شهرياري كاتبي) فهو ليس من طبقة الـ(أمناء) ولا يطلق عليه لقب (أمين) وهو تابع لأمين المطبخ ويشرف على مصروفاته. فالأمناء أربعة كما اورد لويس.

Saray Teskilati, 379.

٢٧ ــ ص ١٠٨ الهامش ١١١: ما قيل في الملاحظة السابقة ينطبق هنا : ليس جب Gibb هو أحسن وأوسع من كتب في موضوع نظم الدولة العثمانية كما يرى المترجم. ربما باللغة الانجليزية نعم. فتلك الفئات عددها ست كما نقل لويس حرفيا عن أوزون جارشيلي في كتابه .

Uzuncarsili - Saray Teskilati,s. 308-311.

وحجرة مدربي الصقور كانت موجودة (انظر ص ٣١١ من الكتاب المذكور اعلاه) وتسمى (خانه بازيان) وهي جماعة مكونة من اربعين شخصا. ولأن السلطان محمد الرابع (١٠٥٨ هـ /١٦٤٨) قد ألغاها فهي لم تعد تذكر كحجرة مستقلة في كتب التواريخ ورئيسهم يعرف بـ : دوغانجي باشي ويكون في معيته جاقرجي باشي وشاهينجي باشي وآتمه جه جي باشي (انظر نفس المصدر السابق).

Saray Teskilati, 420-421.

٢٨ ــ ص ١١٨: الهامش ذو النجمة والذي يقول المترجم عنه إنه من هوامش المؤلف ذكر أن مدينة ديميتوقة لا تزال في الجمهورية التركية. وهذا خطأ سواء كان من المؤلف أو المترجم الذي لم ينتبه له. فهذه المدينة اعطيت لليونان بموجب معاهدة Neuiilly في نوفمبر ١٩١٩م. انظر دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الثانية EI[2] ; 11/291-292

ويرسم اسم هذه المدينة في بعض الأطالس Dhidhimotikhon

٢٩ ــ ص ١٢٧ الهامش ١١٩: كل ما أورده برنارد لويس صحيح، فالمؤرخ التركي الذي ذكر تلك القصة هو مصطفى نعيما المتوفى سنة ١١٢٨ هـ في المجلد السادس ص ٣٩٧. والسفير العثماني هو معن زاده حسين آغا والذي أوفده السلطان محمد الرابع إلى امبراطور المغول في الهند شاه جهان برفقة السفير الهندي قائم بيك في ذي القعدة سنة ١٠٦٦ هـ/ أغسطس ١٦٥٦م. وقد عاد معن زاده إلى استانبول في عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٩ م حاملا رسائل وهدايا من ابن امبراطور المغول المسمى مراد بخش.

ولم يقصد برنارد لويس بحديثه السفير ذو الفقار آغا.

راجع تاريخ نعيما ١٩٩/٦، ٣٩٧، وسلاحدار تاريخي ١٦٤/١.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

Uzuncarsili-Osmanli Tarihi-111-Ikinci bolum/226-267.

أما بخصوص سفارة ذي الفقار آغا إلى الهند مرافقا للسفير الهندي سيد حاجي محمد فيراجع نعيما ٣٦٦/٥ — ٣٣٧ وهو الذي سيأتي ذكره في الهامش ٢٠٥ ص ٢٠٣.

٣٠ — ص ١٣٢ الهامش (١٢٢) وص ١٣٦ الهامش رقم (١٢٦): اعترض المترجم دون وجه حق على المؤلف عندما أورد اصطلاح (صحن ثمان) ص ١٣٦ السطر ٩ الذي كان يطلق على المدارس الثمانية التي أسسها الفاتح. والحقيقة أن تعبير (صحن ثمان) هو اصطلاح تاريخي متعارف عليه ويمثل إحدى مراحل التعليم العثماني. وأما قوله أنها كانت تسمى (مدارس الصحن الثمان أو مدارس الصحن) مستندا في ذلك إلى كتاب علي همت الآقسكي. فهذه التسمية ما هي الا ترجمة حرفية لكلمة (صحن ثمان مدرسه لرى). ولم يكن العثمانيون يتحدثون العربية حتى نستطيع أن نقول بأنهم كانوا يطلقون على تلك المدارس هذه التسمية. وهذا الاعتراض من جانب المترجم يدل على عدم وقوفه على جوانب الحضارة العثمانية ويكفي أن يرجع إلى

Uzuncarsili-Osmanli Devletinin Ilmiye Teskilati-Ankara 1965, s.1-10.

M.Z. Pakalin: Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sozlugu-III/93-95, II. baski-Ist. 1972.

٣١ — ص ١٣٣ (السطر ٥، ٦) ١٥٣٥ أسرة مسلمة: صحتها ٥٣٥ أسرة مسلمة (خمسمائة وخمس وثلاثون).

(٢٣٢) افرنجية: صحتها (٣٣٢) افرنجية (ثلاثمائة واثنتان وثلاثون) ١٦٢، أسرة أرمنية: صحتها ٦٢ أسرة أرمنية (اثنتان وستون) وهذه ليست أخطاء مطبعية حيث أن المترجم قد جمعها في الهامش، فيجب أن يكون المجموع (١٦٣٢٦) أسرة. كما أن المترجم قد أخطأ الجمع أيضا حيث يجب أن يكون المجموع (١٧٣٢٤) أسرة. ثم علق المترجم على ذلك واعترض على هذه الأرقام مع أنها مأخوذة من وثيقة تركية محفوظة بمتحف طوبقبو سراي ونشرت في مجلة Istanbul Enstitusu Dergisi-III/33-34, Ist. 1957. وفي دائرة المعارف الاسلامية — الطبعة التركية IA, V/1207

وأما التقدير الذي أعتمده برنارد لويس فهو مستند على تقدير «شنيدر» انظر في ذلك Schneider, Alfons Maria:XV. yuzyilda Istanbul'un nufusu-Belleten, XVI/sayi 61, s. 35-48, T.T.K., Ankara 1952.

٣٢ — ص ١٣٧: أخطأ المترجم في ترجمة كلمة Court على أنها صحن، فالفناء في العربية غير الصحن وهو وسط الدار. فصحن المسجد ذلك الجزء غير المسقوف في وسط المسجد. وبذلك أصبح سليمان القانوني مدفونا في داخل مسجده. كما ورد ذلك أيضا في ص ٥٧ السطر ١٦ والحقيقة هي كما أوردها برنارد لويس أن السلطان سليمان القانوني دفن في فناء مسجده (في الناحية الجنوبية منه). وليس في صحن المسجد. واستمر المترجم في استخدام كلمة صحن هذه مكان كلمة فناء بدون وجه صحيح مثلا ص ١٤٠ السطر ١٢ والسطر ٢٠.

٣٣ — ص ١٤٠ السطر ١٧، ١٨ والهامش ١٢٩: نقل المترجم كلمة أوق ميدان OK - Meydan (ميدان السهم) على أنها آق ميدان (الميدان الأبيض) رغم وضوح حروف الهجاء الانجليزي (انظر النص الانجليزي ص ١٠٩ السطر ٢٦) وبما انه لا يوجد ميدان في استانبول باسم آق ميدان راح المترجم يعلل بأنه اسم الميدان ربما يكون (آت ميدان) وأن الأتراك ينطقون القاف قريبة من التاء. كل هذا خلط وتشويش للقارىء. ونريد أن نسأل المترجم من أي المصادر استقى معلوماته بأن القاف في التركية تنطق قريبة من التاء؟ ولا يُقصد من النص الذي أورده لويس بأوق ميدان (الهيبودروم) المواجه لآيا صوفيا والذي يسمى (آت ميداني) حالياً. أوق ميداني يقع على مرتفع ما بين قاسم باشا ودار العجزة في استانبول. نفس الخطأ تكرّر ص ١٥٧ السطر ٤ والهامش ١٦٨ (الأصل ص ١٢٢ السطر ٩). وأما في ص ١٦٢ السطر ١٣ فقد زاد المترجم كلمة آق ميدان بجانب لفظ الهيبودروم مع أنه يجب أن يكون (آت ميداني) (الأصل الانجليزي ص ١٢٧ السطر الأخير).

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

٣٤ ـــ ص ١٤٣ السطر ٦ : كلمة قَوْنق يجب أن تكون قوناق.

٣٥ ـــ ص ١٤٣ الهامش (١٣٢) متى ترجمت إلى العربية اجزاء من كتاب سياحت نامه لأوليا جلبي ؟ ومن المترجم؟.

٣٦ ـــ ص ١٤٤ الهامش (١٣٧) ما ذكره لويس بشأن مصطلح الباب العالي صحيح وكذلك ما ذكره هامر لا يتعارض معه، ولا داعي لتخطئة المؤلف، ولقد نشأ مصطلح الباب العالي قبل تاريخ ١٦٥٤م، ولكن عمم استعماله وأصبح رسمياً واشتهر عند الأوربيين في القرن التاسع عشر وخاصة بعد صدور التنظيمات الخيرية. ولك أن تراجع مادة الباب العالي في دائرة المعارف الاسلامية ـــ الترجمة العربية ٢٤٢/٢ والانجليزية ,EI2 IA, 11/174-177. والتركية 836(Bab-1Ali)./

وكتاب Uzuncarsili - Osmanli Devletinin Merkez ve Bahriye Teskilati S - 249

M.Z. Pakalin - Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri-I/136-140-ist. 1971.

٣٧ ـــ ص ١٤٦السطر٣: الكتاب اسمه : (اوصاف قسطنطينية) وليس (وصف القسطنطينية) كما ترجم. انظر اوليا جلبي «سياحت نامه ٥٠٩/١».

٣٨ ـــ ص ١٥٢ السطر الأخير والهامش (١٥٥) : بلده: بيك بازار: صحتها بيك بازاري وهي بلدة بجوار انقره على الطريق إلى استانبول. ولا صحة لما ذكره المترجم. انظر ممالك عثمانية نك تاريخ وجغرافيا لغتي ـــ علي جواد ـــ استانبول ١٣١٣ ص ١٨٩ .

٣٩ ـــ ص ١٥٦ : السطر ١ والهامش (١٦٤) كاسيم: تكتب قاسم كلمة عربية تستخدم اليوم بمعنى شهر نوفمبر وكان (روز قاسم) الموافق ليوم ٨ نوفمبر دلالة على بداية الشتاء ـــ وكان ذا أهمية لدى البحارة وغيرهم. ويقابله يوم (خضر الياس) أو (روز خضر) والذي يوافق يوم ٦ مايو وهو عيد للمسيحيين ويعتبر بداية الصيف أو النصف الثاني من العام انظر M.Z. Pakalin- Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri, II/205

٤٠ ـــ ص ١٥٨ : السطر ١١ : «المظفر دائما» بدلا من «المنتصر دائما» كما هو معروف.

٤١ ـــ ص ١٦٣ الهامش (١٧٣) بيك أوغلو ليس شارعا في استانبول ولكنه اسم احد الأحياء بها.

٤٢ ـــ ص ١٦٥ الهامش (١٧٤) الا تعلم بأن سليم الثاني هذا هو أول من تقاعس عن قيادة الجيوش بنفسه كما اعتاد اسلافه وترك أمور الدولة بيد وزيره صوقللي محمد باشا، فلماذا الاعتراض على اسم أطلقه عليه الأتراك قبل الغربيين.

٤٣ ـــ ص ١٧٠ السطر ٩ : كجك سو: لا بد أن ترسم «كوجوك صو».

٤٤ ـــ ص ١٨١ : السطر ٤ : وضع المترجم تفسيرا لكلمة «علمية» بأنها تعني (العلوم) والحقيقة أن هذا اصطلاح تاريخي عثماني يشير إلى النظام التعليمي والقضائي في الدولة العثمانية.

٤٥ ـــ ص ١٩٠ : السطر ١٧: «أسعدأفندي» يجب أن تكتب بدلا من «اسد افندي»، فلا يوجد مؤرخ بهذا الاسم. أما شيخ الاسلام أسعد أفندي المتوفى ١٢٦٤ هـ فراجع عنه: دائرة المعارف الاسلامية التركية .IA, IV/363

٤٦ ـــ ص ١٩٠ السطر ١٩ : «النمسا» بدلا من «المجر».

٤٧ ـــ ص١٩٢ السطر ١٥ : الشاعر إلى : تصبح «الشاعر إلهي».

٤٨ ـــ ص٢٠٣ الهامش ٢٠٥ : لا علاقة بين هذا الهامش والهامش رقم ١١٩، فالقصة المذكورة هنا أوردها أيضا المؤرخ مصطفى نعيما في تاريخه في المجلد الخامس ص ٣٣٦ ـــ ٣٤٠ وفون هامر ـــ الترجمة التركية ـــ المجلد ٢٢٢/١٠.

Uzuncarsili - Osmanli Traihi - III - ikinci Kisim-s. 266-267.

٤٩ ـــ ص ٢٠٤ : السطر ١٢، ١٣ : مان أوغلو - صحتها (معن أوغلو) وأيضا ص ٢٠٥ السطر ٢٤ جوري جلبي - صحتها جَوْرى جلبي.

وفي السطر ١٤ : «ومن المفكرين» : تصبح من «الظرفاء» طبقا للنص التركي.

٥٠ ـــ ص ٢٠٥ : السطر ١٥ : العبارة كما وردت في النص التركي بالحرف : «سبحان من خلق البقر على صورة البشر» تاريخ نعيما ٣٣٩/٥.

٥١ ـــ ص ٢٠٧ : السطر ١: ص ٢٠٩ السطر٤: كوجو بيك = يجب ان تكتب قوجي بيك.

ص ٢٠٨ : السطر ١٤ : الحريم السلطاني = صحتها الحرم السلطاني (وكذلك ص ١٠٥ السطر ٢١، ص ١٠٧ السطر ١٦).

أخطاء ثانوية ومطبعية

ص ٢٢ السطر ٩ Polis Healo He تصبح Healo he polis

ص ٣١ السطر ١١ الاسم بدلا من الاسلام.

ص ٣٥ السطر ١٦ : قويون حصار بدلا من قوين حصار

ص ٤٥ السطر ٢١ : فراموز بدلا من فرامرز

ص ٤٩ السطر ٢٢ : الجنويين بدلا من الجنوبيين

ص ٥٠ السطر الأول : يجب حذف كلمة (الكبرى) زيادة لا لزوم لها من عند المترجم.

ص ٥٥ السطر ١١ وص ١٨٨ السطر ٨ : كان من الأفضل كتابة كلمة موهاكس بالشكل المتداول في كتب التاريخ العثماني وهو موهاج Mohac

ص ١٠١ السطر ٢ : «شهر اميني» بدلا من «امين شهر» وكذلك السطر ٩ : «ضربخانه اميني» بدلا من «ضربخانه أمين»

ص ١٠٢ السطر الأول : مير علم يلزم كسرة تحت الراء للاضافة مير علم.

ص ١٠٥ السطر ١٤ : Moglans بدلا من Mughlans

وفي نفس السطر أيضا : قابوجي بدلا من قابوجية

وفي السطر ٣ : جاووش باشي بدلا من جاووش باش وجاشنيگير بدلا من جاشنكير

وجاقر باشي بدلا من جاكر باشي

ص ١٣٩ السطر ٢٠ : أعمدة او عمد بدلا من عواميد

ص ١٤٠ السطر ١٥ : استامبول بدلا من استنبول

ص ١٤٤ السطر ١٣، ص ١٤٥ السطر٩، ص ١٤٦ السطر ٧: يجب حذف كلمة «ملايان» .

فهذه صيغة جمع بالفارسية من عند المترجم. وتحل محلها كلمة قضاة.

ص ١٥٧ السطر ٢١ Mingrelia بدلا من Mingeralia

ص ١٥٨ السطر ١ والسطر ٢٢: القصر بدلا من «الكشك»

ص ١٥٨ السطر ١١ : «المنقوشة على تلك النقود» بدلا من «المنقوشة على مؤخر الذكر».

ص ١٥٩ صحة العبارة : «نحن ننظف ما هو غير نظيف، وما هو غير نظيف ننظفه».

ص ١٦٦ السطر ٨ : صحة العبارة : «بينما سعر لحم الغنم في المدينة المحروسة ٣ أقجة للأقة الواحدة (٤٠٠ درهم)» .. (فالأقة تساوي ٤٠٠ درهم).

ص ١٦٦ السطر ٢٠ صحة العبارة : «وادخلت القهوة من البلاد العربية والدخان على ايدي التجار الانجليز...»

ص ١٧٠ السطر ١٠ : Kathane بدلا من Kalthana

ص ١٧٠ السطر ١٨ : أزهار تيولب يجب أن تصبح «ازهار الزنبق او الخزامى أو الأقحوان» كما ترجمها المترجم في ص ١٩٦ السطر ١١ او استخدام الرسم العثماني لها (لاله) ويستحسن استبدال كلمة (موضة) الواردة في السطر ١٩ بكلمة (ولع).

ص ٢٠٨ السطر ١٦ : اللاز بدلا من «اللان».

وفي النهاية نود ان نشير إلى أن هذا الكتاب قد ترجم الى اللغة التركية.

Bernard Lewis-Istanbul ve Osmanli Uygarligi-Nihad Onal cevrisi-Varyik Yayinlari-Istanbul 1975.

الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية

لقاسم السامرائي

السامرائي، قاسم / الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية.ـ الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣ ــ ١٩٨٣م.

وصف عبد العزيز الرفاعي مؤلف هذا الكتاب فقال إنه «أحد الرجال القلائل الذين عنوا بالاستشراق والمستشرقين وتتبع أخبار هذه الظاهرة الخطيرة التي كانت بعيدة الأثر في حياتنا معاشر العرب والمسلمين.. بل هو يعد فيها أحد الخبراء النوادر، فقد قضى في معاقل الاستشراق ردحاً من الزمن غير يسير .. أتاح له أن يطلع على كثير من حقائق الحركة الاستشراقية». (ص ٦). ويؤكد هذه الخبرة اللصيقة للمؤلف بالاستشراق، بجانب مادة كتابه، المعلومات التي صاغها على غلاف هذا السفر حيث يشير الى عمله بقسم الدراسات الشرقية بجامعة ليدن في هولندا، وفي كلية اللاهوت هناك. كما أنه حضر في تلك البلاد الغربية وشارك في عدة مؤتمرات فلسفية واستشراقية. والمتابع لمقدمات قاسم السامرائي الملحقة بالكتب التي حققها مثل «الإنباء في تاريخ الخلفاء» لابن العمراني و«كتاب القصاص والمذكرين» لابن الجوزي، يلمس هذا الاحتكاك المباشر للمؤلف بالمستشرقين ومنجزاتهم.

ولما كانت أجواء البحوث الاستشراقية في الحيز الأكاديمي مشجعة للأبحاث المنوعة التي تتخذ أشكالاً متعددة في المطامح ومتقاربة في بعض مواضيعها، فقد توفرت للكاتب عدة مواد يحويها حيز مفرد هو الاستشراق. وهذه المواد تكون الفصول الثلاثة الأساسية في هذا المؤلَف. وقد لا يصدق على كتاب السامرائي الملاحظة السابقة، وعندئذ لا يملك المتمعن في تراكيب فصوله الثلاثة إلا الاستسلام لما فيها من تبعد نسبي وسنحاول في الصفحات التالية أن نعرض لبعض النقاط التي أوردها المؤلف مع التعليق عليها بشكل مختصر يقدم صورة للقارىء عن هذا العمل العلمي الذي بذل فيه المؤلف جهداً طيباً.

أ ــ الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية :

القسم الذي يحمل هذا العنوان من كتاب السامرائي هو أطول مواضيعه وأكثرها طموحاً وتشعباً. تناول فيه مجموعة من المواضيع ذات العلاقة بقضية الاستشراق من خلال نقاش لآراء بعض المستشرقين وممن كتب عن الاستشراق، فتحت العنوان الرئيسي هذا جمع الكاتب تسعة عشر موضوعاً فرعياً. الموضوع الأول (صفحتان) نقد لاستشراق كارلايل، والثاني (أربع صفحات) ينقد فيه عرقية ارنست ريناني وإتباع نجيب العقيقي وغيره من أوهامهم بشأن ريموند لول له. والموضوعان الثالث والرابع يغوصان ثانية في أوهام كارلايل ورينان ومحمد حسنين هيكل (كمقابل لأوهام نجيب العقيقي). ويستعرض السامرائي في ست صفحات ما يقال عن منطلقات الاستشراق فيذكر هنا مسببات معينة مثل التعارك الاسلامي المسيحي بالأندلس، والصراع الفكري بينهما، والدافع الاستعماري، والخلفيات التجارية والاقتصادية. ثم يرى السامرائي أن كل هذه الأقاويل فيها شيء من الصحة.

الموضوع الخامس عن ظهور لوثر يفتح المجال للنظر في أثر الرشدية على اوربا المسيحية وما ساقت اليه من خروج على البابوية. وهذا هو الموضوع المتكرر باطراد في كتاب السامرائي ولكن بصورة متقطعة. فالموضوع السادس تتركب عليه المواضيع من السابع الى الخامس عشر. وتهديد الانفتاح العقلي (الذي تدعو اليه الرشدية) للسلطة البابوية والتسلط الكنسي ظهر كما يقول السامرائي في الحركات التي قادت الى الاصلاح الديني بأوربا، وفي نفس الوقت جاء رد الفعل المؤسساتي الكنسي على هذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التهديد واضحاً في دمويات الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وطرد بقايا المسلمين من الأندلس والعداء الإجمالي للإسلام وبالتالي محاولات النيل منه بشتى السبل. ورغم أهمية هذا التأريخ لخلفيات العداء المسيحي للإسلام فإن جذور نشأة الاستشراق الطالع حتماً من هذه الخلفيات لم تنل من الكاتب الاهتمام الذي تستحقه. وقد يلاحظ القارىء أن المواضيع الواقعة بين السابع عشر والعشرين من هذا القسم كانت تلمس علاقة التغيير بالاستشراق والمفاهيم الخاطئة للغرب عن المسلمين وتشويه الترجمات المبكرة لمعاني القرآن. لكن هذه المسائل لم تجعل للشرق من حصيلة الاحتكاك الغربي ـــ الشرقي بياناً وافياً بردود الفعل. فما هو حجم الرد المسيحي على الرشدية، بعيداً عن موضوع العداء؟ وإلى أي حد سار الاستشراق الحديث والمعاصر على آثار الرؤيات الاستشراقية المبكرة في الغرب المسيحي، تلك التي عبر عنها بدقة نورمان دانيال في كتابه (الإسلام والغرب)؟ فلربما كانت الإجابة على ما يشبه هذين السؤالين هو الذي ينقذ معالجة السامرائي للخلفيات المسيحية الغربية عن الاستشراق من التوقف عند أذيال القرون الوسطى حيث تنشأ جذور التنافر الغربي ـــ الشرقي.

ب ـــ تأثر علماء الغرب بالعلوم العربية والاستفادة منها :

يمكن اعتبار المواضيع الخمسة المكونة لهذا القسم تطويراً لموضوعين مهيمنين على القسم السابق وهما أثر الرشدية على الغرب المسيحي وظهور الاستشراق في ثنايا الدعوة إلى تنصير الشرق. والكاتب لم يحاول أن يجعل لهذا الاستمرار الملاحظ بين القسمين جسوره الجدلية الواضحة. فالانتقال بالقارىء من قسم إلى آخر، ومن موضوع إلى غيره، يأتي بصورة غير استطرادية وتفتقر إلى التمهيد والتلميح أو التصريح بنشوء هذا من ذاك. وبذلك فإن الموضوع الأول في الفصل الثاني هذا يتكلم عن «تسرب التحرر الفكري» من العالم الاسلامي كله إلى أوربا في القرون الوسطى إجمالاً كي يبرز دور الأندلس كمعبر ثقافي مثير للجمود الكنسي الأوربي. وتبدو محاورة السامرائي في هذا الحيز أشبه ما تكون بالدفاع عما يشغل كثيراً أذهاننا في المشرق وهو القول بأن:«لكل أمة دور تقوم به في إغناء التراث الفكري الإنساني في حقبة من التاريخ» (ص ٧٧). وذلك أمر لا جدال حوله وبالتالي لا يجوز-لنا أن نضيع العمر نكدس الدلائل على ما أعطينا لأوربا وحضارتها في مجلد يتبع مجلدا.

ويعود الموضوع الثاني من هذا الفصل إلى «أثر ابن رشد وفلسفته في الفكر الأوربي». لقد تمت إبانة خطر العقلانية الرشدية على ممارسات الكنيسة المسيحية وعقائدها بشكل مؤثر في هذه الفقرة وصاحبتها «الصراع بين الفسلفة الرشدية والكنيسة» و«ابن رشد في نظر خصومه». وهنالك إنارة رائعة لتصوير العقلانية الاسلامية عامة في أوربا كمذهب شيطاني ومدى ما بذل كبار المفكرين الغربيين مثل بترارك وتوما الأكويني وروجر بيكون لأجل إضعاف أثر هذا الخطر على العقائد المسيحية. ويُحمد للسامرائي ربطه هذه المجهودات الغربية بنشأة المزيج الأول من التبشير والاستشراق خاصة في محاولات ريموند أوف بينافورت والراهب ريموند مارتيني وريموند لول الميورقي غزو الإسلام بتعلم لغته والسعي لتنصيره. لكن التعجل كان محبطاً لمطامح المؤلف ها هنا. فهو يكتفي بالتوقف بين القرن الثالث عشر والخامس عشر الميلادي كما يقول «ومن هذا يظهر أن الاستشراق الأوربي الفعلي بدأ تبشيرياً محضاً واستمر يحمل هذه السمات عند الكثير من المستشرقين ومن تبعهم من المبشرين حتى اليوم» (ص ٩٧).

لعل مما يلاحظ في هذا المجال أن المؤلف لم يذهب أبعد مما ذهب اليه نورمان دانيال في تصويره لجذور التحامل المسيحي الغربي على الإسلام. هذا جانب. والجانب الآخر هو أن السامرائي بهذه العبارة قد وقع في شيء من التناقض، فهو يصرح، كما أسلفنا، في القسم الأول من دراسته هذي بأن المسببات الاقتصادية والاستعمارية للاستشراق فيها وجهة حق (ص ٢٤). ولعل الكاتب يعني دور الرحالين والفنانين بدوافعهم الشاذة في ذهابهم إلى الشرق والكتابة عنه، ونعني الرسامين وكتاب القصة والشعراء مثل نرفال وفلوبير وشاتوبريان وغيرهم ممن صاغ دورهم الاستشراقي إدوارد سعيد ببراعة في كتابه الشهير. فإذا كان كتاب السامرائي أساساً عن بدايات «الاستشراق الأوربي الفعلي» كما يسميه فإن عنوانه يضع مؤلفه في موقف صعب وهو اكتفاؤه بالبحث عن الجذور بدلاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من التقدم بموضوعه خارج دائرتي العداء العقائدي بين الشرق والغرب وأدوات الاستعمار والتبشير الفكرية في غزو الشرق.

ج ـ الفصل الثالث :

يستهل هذا القسم بموضوع عن «الاستشراق في هولندا» وما كتب حوله. وينتج عن استعراض الكاتب لأعلام المستشرقين الهولنديين تباينهم بين المهاويس تبشيرياً والمتفانين في نشر النصوص العربية سليمة ما أمكن ذلك (ص ١٠٤). ثم يؤكد السامرائي استمرارية الكثير من التحيز ضد الاسلام في الاستشراق المعاصر بهولندا. ويمثل الموضوع الثاني في هذا القسم تكملة لما سبقه إذ يجيء عن «التيارات الاستشراقية في هولندا». هنا يصل المؤلف إلى الاعتقاد بأن تلك التيارات تجمعها شعبتان: «تيار يحمل مفاهيم القرون الوسطى بكل سماجتها وتعصبها الجاهل البغيض، وتيار اتخذ صبغة العلمية الأكاديمية التي تمردت على بعض مفاهيم القرون الوسطى حول الاسلام وتراثه» (ص ١٠٦). وخاتمة هذا الموضوع القصير (صفحتان) تأتي في مجموعة تعليقات عن نبرة الاستعلاء الغربي في الفكر الذي تربى تحته الاستشراق.

يلي هذين الفصلين موضوعان صغيران متماثلان هما «مصطلح الاستشراق» و«دوافع الاستشراق». أما الموضوع الأول فلعله تنوير يكمل موضوع «ما هو الاستشراق؟» الذي يجيء في القسم الأول من الكتاب. ويمكن النظر إلى الموضوع الثاني الخاص بالدوافع كتنوير للموضوع التالي، للعنوان الاستفساري السابق في القسم الأول، وهو «نشأة الاستشراق». فقد يلاحظ التماثل بين هذه الفصول الأربعة في وحدة مادتها ودورانها حول قضايا مشتركة وبصورة ملفتة. ثم نبدأ بالموضوع الرابع من هذا القسم النقاش حول زيف كرستيان سنوك هورخرونيه، وهو أمر يأخذ المؤلف خلال فصلين صغيرين يكملان وينهيان كتاب (الاستشراق) للسامرائي. وهذا القسم من الفصل الثالث هو أكثر المواضيع إثارة في كتاب السامرائي بعد موضوعة الرشدية ودورها في تكسير اللاعقلانية الكنسية في الغرب. ثم إن موضوع سنوك هورخرونيه يدخل في صلب النقاش الدائر حالياً عن دور الاستشراق في مساندة الاستعمار الغربي حتى يفتت المقاومة المعنوية للأمم التي تقع تحت سيطرتها. وهنالك دين كبير يحمله القارىء لإيراد السامرائي الوثائق الدالة على أن الاستغفال الذي يلعبه المستشرقون على الأمم الشرقية بادعائهم الانتماء للإسلام والتزيؤ بلبوسهم والتشدق بالمعارف المحلية، دينية وثقافية، كل هذه تساعد المستشرقين كثيراً في تمهيد السبل الاستشارية لوكلائهم من المستعمرين. ولذلك فإن هذه الغفلة المحلية تنال أهمية كبرى خاصة إذا ما قارنا بين هذا الجانب والإشارتين الواردتين عند إدوارد سعيد عن هذه الغفلة. فهنالك في رأي إدوارد سعيد جماعة من تلامذة المستشرقين لا هم لهم إلا نيل الدرجات الأكاديمية من أساتذتهم بالغرب ثم تسويق تلك الآراء نفسها في المشرق حيث يتظاهر هؤلاء بخدمة أوطانهم وثقافاتهم. وهنالك التيار الآخر الذي يبدأ إدوارد سعيد عرضه بقوله «غير أن هذا كله، في اعتقادي، ضئيل بالمقارنة مع العامل الثاني الذي يسهم في انتصار الاستشراق: وهو حقيقة طغيان الإستهلاكية في الشرق. فالعالم العربي أو الاسلامي بأسره عالق في صنارة نظام السوق الغربي» (ص/٣٢ من ترجمة كمال أبو ديب لكتاب **الاستشراق** ـ مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، ١٩٨١). وبهذا الحمد لأنجاز الكتاب تنتهي هذه الملاحظات الأولية وهي دون شك لا تقلل من قيمة الكتاب الذي وضعه المؤلف من واقع تجربة وخبرة طويلة استخلصها من البحث والدراسة إضافة إلى معايشة الاستشراق في معاقله بأوربا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاستشراق لإدوارد سعيد

نعمان عبد الرزاق السامرائي
أستاذ الثقافة الإسلامية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض

سعيد ، إدوارد / الاستشراق المعرفة ، السلطة ، الانشاء . ترجمة كمال أبو ديب ــ بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨١ م ، ٣٣٣ ص .

المؤلف : إدوارد و . سعيد . فلسطيني ، أستاذ الأدب الانكليزي في جامعة كولومبيا في نيويورك .

المترجم : كمال أبو ديب . سوري ، شاعر وناقد .

الكتاب : وضع بالانكليزية عام ١٩٧٨ وترجم إلى العربي، عام ١٩٨١ م . ويقع في (٣٣٣) صفحة من القطع الكبير صادر عن مؤسسة الأبحاث العربية .

ترجمات الكتاب : ترجم إلى الفرنسية والألمانية والاسبانية والايطالية والتركية والفارسية واليابانية والماليزية .

محتويات الكتاب :

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة مختصرة ولكن المترجم كتب مقدمة أخرى ، تحدث فيها عن الكتاب ، وعن منهجه في الترجمة ، وسوف أتوقف عند بعض النقاط الهامة قبل استعراض الكتاب .

وقد جاء الكتاب في ثلاثة فصول : الأول في مجال الاستشراق ، والثاني في البنى الاستشراقية ، وإعادة خلق البنى ، والثالث في الاستشراق الآن .

مع المترجم في مقدمته :

يقول المترجم إن كتاب الاستشراق « صعب للقراءة والترجمة » وقد ذهب المترجم إلى نحت الكثير من الألفاظ مثل (الاجتصادي ، والاجتاسي) كما اخترع ألفاظاً مثل « إيراثي » نسبة إلى الوراثة و« الرمسنة » بمعنى الميل إلى القصص المثيرة و« الزي ــ علمي » بمعنى زائف غير علمي .

وكل هذه وأمثالها هي ترجمة لألفاظ إنكليزية ، تبدو غير دقيقة ، بل إن التعمل بيّن عليها .

ويعزو المترجم صعوبة الترجمة للغة العربية[1] « من حيث هي لغة تعبير عن مشكلات الفكر المعاصر والحضارة المعاصرة » وما أدري هل الصعوبة في اللغة أم في لغة المترجم ؟ ومن هنا يرد سؤال هام : كيف استطاعت لغة « كالعبرية » أن تصبح « أو تعود » لغة علم وصناعة ودولة ، بينما تعاني اللغة العربية صعوبة الأداء في الترجمة والبحث العلمي ؟؟!!

وكأن المترجم ألح عليه سؤال : كيف ترجمت علوم اليونان فلسفته ومنطقه ، وآداب الهند والفرس إلى العربية ، بينما نجد صعوبة في الترجمة اليوم ؟ فأجاب عن ذلك (فقد كان المترجم العربي في تعامله مع اللغة أكثر جرأة على بنيتها ونظامها[2]...) فهل خرج المترجمون إلى العربية ــ قديماً ــ على أصول اللغة ونظامها ؟ وما الدليل على ذلك ؟؟.

وسؤال آخر : كيف استطاع المسلمون وضع علوم جديدة مثل : أصول الفقه ومصطلح الحديث .. إذا كانت اللغة العربية غير مطاوعة ؟؟

مهمة المترجم :

« ما أحاوله في هذا الكتاب يتعدى نقل النص في معانيه إلى أشياء أخرى ، فهو يطمح إلى تجسيد بنية الفكر المنشيء ... »[3] .

فهل وفق المترجم في مهمته ؟؟.

والذي يظهر لي أن الترجمة جعلت فهم الكاتب عويصاً ، وشَحَنَتْه بمصطلحات كثيرة ، بعضها غير مألوف ، مما يجعل فهم النص متعذراً في كثير من الأحيان .

ولنقرأ عبارة الرجل « لقد استخدمت عدداً من الصيغ والألفاظ والتراكيب ، بعضها يحمل دلالة واضحة للقارىء العربي ، وبعضها ذو دلالة تختلف عن دلالته في الاستخدام اللغوي المألوف ، وبعضها لا دلالة له محددة في السياق اللغوي العربي ... »[4]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والظاهر أن المترجم مأخوذ العقل بما أخذه من سعيد عقل وسلبه من الفعلية «السعقلية» المأفونة. فهو مولع ولعاً شديداً بالعصرنة والتعصرن والمعربن والتعربن والرمنسة والعسكرانية وما إلى ذلك من الاشتقاقات الباردة .

ولعل أنصع دليل على فشل مثل هذا الأسلوب في الترجمة أن المترجم أراد أو قل حاول وفشل فشلاً قاتلاً أن ينقل أفكار إدوارد سعيد أستاذ الأدب الانكليزي والأدب المقارن المصبوبة بلغة مشحونة بالدلالات التي اختصت بها اللغة الأمريكية الانكليزية وأفردتها عن إنكليزية أكسفورد وكمبردج والتي قصد بها إدوارد سعيد مخاطبة العقلية الأمريكية أولاً وناطقي الانكليزية ثانياً . إضافة إلى الدافع الأدبي الذي قصده إدوارد سعيد لإظهار سعة علمه وسيطرته على لغة قوم ناصبوا قومه العداء . فتحداهم بلغتهم وكأنه يقول : « إن أغلبية المستشرقين الذين ناصبوا الإسلام العداء لم يكونوا يحسنون التكلم بلغة الإسلام ، ناهيك عن فهمها » .

طريقة عرض الكتاب :

لقد درستُ الكتاب بعناية ، وقرأت الكثير منه أكثر من مرة ، فوجدت الرجل يعرض للموضوع مرة ، ثم يعود إليه ثانية وثالثة ، لذلك فقد درست الكتاب على أساس « الموضوع » وتابعته حيث يرد ، وأسارع للقول بأن المؤلف لا يكرر ما كتب ، ولكن ليلحظ موضوعه كل مرة من زاوية مختلفة عن الأولى ، ولأقرب الموضوع بمثال أو أكثر ، فهو يتحدث عن الهدف من الكتاب في الصفحات (٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥) . أما تعريف الاستشراق فنجده في الصفحات (٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٧١ ، ٧٣ ، ١٠١ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥) وهكذا يفعل في كثير من الموضوعات ، فاخترت طريقة متابعة الموضوع ، ليتضح بشكل جيد متكامل .

كذلك أبادر إلى القول بأن الكتاب ليس بتاريخ للاستشراق ، وإنما انتخب الرجل نماذج وناقشها فيما كتبت وتوصلت ، وقد غاص إلى الأعماق ، وحاول كشف ذلك « الجمود » الذي أحاط الاستشراق به نفسه ، بحيث لم يتطور على مدى قرون ، بل هو يعيد « وَيلَمّع » ما سبق أن كتب ، وكأنه ينفض عنه الغبار لا أكثر ، وما أصدق ملاحظاته حين يقول عن مستشرق معاصر إنه يستقي من كتابات القرون الوسطى ، وما أجمل نقده لأولئك الذين يصدرون أحكاماً عامة على العرب ، كل العرب ، وفي كل العصور . فيتساءل : أي عرب هؤلاء وفي أي زمن أو مكان ؟ وبالرغم من أن الرجل نصراني فلم يغب عن ذهنه موقف الاستشراق المتحيز ، حتى اتهمه بعض المستشرقين بأنه « مسلم »[٥] ولو كان اسمه « إدوارد » والذي أدعو الله له من كل قلبي أن يهديه للاسلام كما هدى « موريس بوكاي » وروجيه جارودي وأمثالهما .

بين يدي الكتاب :

قبل الدخول في عرض الكتاب أود ذكر بعض قضايا منها :

١ ــ هناك أعداء ألداء للموضوعية يمكن أن أعد منهم : الحب والكره والسياسة . فالحب كما قيل يعمي ويصم ، والكره يجعل المحاسن تنقلب إلى سيئات ، والسياسة تجعل الكاتب ينحرف يميناً أو شمالاً أو يذكر نصف الحقيقة أو ربعها أو لا يذكرها . وقد أجاد الدكتور « إدوارد » في بحثه قضية السياسة وأثرها على الموضوعية حين قال[٦] : « **إن المعرفة الحقيقية هي جوهرياً لا سياسية ، وبالمقابل فإن السياسة صراحة ليست معرفة حقيقية** ». هـ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ ــ أما القضية الثانية فهي « الادعاء » بين الاثبات والنفي ، فالاثبات سهل ، أما النفي فصعب جداً ولأوضح الأمر بمثال ، فإذا قلت هناك أطباء في الرياض يستعملون أشعة « اللايزر » في العلاج مثلا ، فإذا سئلت عن الدليل أقول : فلان في مكان كذا ، ولكني لو أردت النفي فقلت : لا يوجد في الرياض من يستعمل أشعة « اللايزر » في العلاج ، فهذا يتطلب مني زيارة كافة المستشفيات العامة والخاصة والعيادات ، حتى أستطيع أن أصرح بهذا النفي . وفي كتابات المستشرقين نجد الكثير من النفي وبخاصة فيما يتعلق بالصفات الحميدة أو المساهمة في الحضارة للعرب والمسلمين ، وهذه قضية خطيرة جداً .

٣ ــ التعميم بشكل عام عدو لدود للموضوعية ، فكلما عمم الانسان في أحكامه طاشت سهامه ، وجانب الموضوعية ، ومع ذلك فإن المستشرق حين يتكلم عن العرب أو المسلمين فكأنما يصاب بمس كهربائي فيأخذ في التعميم وحتى أكون موضوعياً أعرض بعض النماذج[٧] ... يخبرنا المؤلف أن العرب يؤكدون على التلاؤم مع الجماعة والامتثال لها ، وأن العرب يعيشون في ثقافة للعار[٨] ، يعني (نظام الامتيازات فيها) ...

وأن العرب لا يستطيعون الأداء الفعلي إلا في مواقع النزاع ... أ. هـ .

فأي عرب يقصد ؟ عرب الأمس أم عرب اليوم ؟ عرب أفريقيا أم عرب آسيا ؟ المتكلمون منهم أم الأميون ؟؟ .

ومثال آخر ، يدرس مستشرق شاعراً بعينه ، ثم يحكم من خلال ذلك على قطر أو عصر من العصور ، أو يدرس آية واحدة مقطوعة عن كل الآيات ، ثم يجعل منها حكماً كلياً على الإسلام[٩] .

بل هناك من يعتمد على كتاب واحد أو عدد واحد من جريدة يحكم بها على قطر بأكمله[١٠] . فهل هذا من الموضوعية في شيء ؟؟ .

٤ ـــ يحاول الاستشراق عن عمد وسبق إصرار اثبات قضية لها حساسيتها في الغرب ، وهي أن الإسلام ثابت لم يقبل تبدلاً ولا تطوراً ، ولا بشكل من الأشكال ، والكل يعلم أن الإنسان يتطور ، وفهمه يتطور أيضاً ، والأحكام في الإسلام بعضها يمكن أن يتطور خصوصاً ما كان مستنداً إلى العرف ، ففي المعاملات حدث تطور كبير ، ولكن العقيدة والعبادات لا تقبل ذلك ، فلِمَ كل هذا التشديد على هذه النقطة ؟؟ يقول مستشرق مثل (رينان) إذا أريد فهم الإسلام جيداً فلابد من قصره على الخيمة والقبيلة . أي أنه دين للبدو وغير قابل للحضارة .

٥ ـــ من المعروف أن المستشرق ابتدأ رائداً للاستعمار[١١] ودليلاً للمبشرين وخير مثال لذلك المستشرق الهولندي (سنوك هورخرونيه) الذي أعلن إسلامه في جده نفاقاً ومكث في مكة بضعة شهور وبعدها انتدبته الحكومة الهولندية للسفر إلى مستعمرتها آنذاك أندونيسيا ليعمل مستشاراً لها وتزوج امرأة أندونيسية ولديه اليوم أولاد في أندونيسيا ، ولكنه لم يعترف بهم وحرمهم من الإرث وحتى الاسم[١٢] . ولما كانت الحكومة الهولندية تواجه بثورات المسلمين وخاصة في أقليم آشيه ، فقد أشار على حكومة بلاده بوجوب ايجاد تيار قومي وآخر يساري ثم ترك التيارين يتصارعان ، وإلى اليوم وأندونيسيا تعاني من هذه « النصيحة الغالية » ولم تزل أندونيسيا على النظام الذي وضعه لها سنوك هور خرونيه في السياسة والإدارة والتعليم ، وقد قدرت الحكومة الهولندية له هذه الجهود فنصبته أستاذاً للدراسة الإسلامية في جامعة لايدن ، ومع علم الكثير من مسلمي أندونيسيا بحقيقة هذا الرجل ورياءه فقد بقي بعض العرب المسلمين يكاتبه ويراسله حتى مات .

٦ ـــ المستشرق ـــ في تصوري ـــ كخياط « الجملة » لا يخيط لشخص معين ، وهكذا يتكلم عن الشرق أحياناً دون تحديد وحسب هواه وتصوراته وليس حسب الواقع والفعل .

وإلا فالشرق يموج بأمم لا حصر لها ، وثقافات متعددة مختلفة وفي الهند وحدها أكثر من ثلاثمائة ديانة ، وإله الخير في شمالها هو إله الشر في الجنوب . فأي حكم عام يمكن أن يصدق على الشرق ؟ اللهم إلا كذاك القياس المشهور « البقرة تتنفس وفلان يتنفس ، ففلان بقرة » !!!

٧ ـــ لقد كال المستشرق للشرق وشعوبه مئات الصفات السلبية ، بل القدح المشين ، والسؤال : إذا كان الشرق كذلك فلماذا هذا الاهتمام ؟ وعلى مدى قرون طويلة ؟؟ .

لماذا كل هذا الاهتمام والمعاداة في الوقت نفسه ؟؟

والآن وبعد هذه النقاط سوف ندخل في موضوعات الكتاب التفصيلية :

١ ـــ تعريف الاستشراق :

عرفه الكاتب[١٣] (أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق ، وفي معظم الأحيان الغرب) .

ويوضح هذا بعد صفحات فيقول[١٤] (... توزيع للوعي الجغرافي السياسي إلى نصوص جمالية ، وبحثية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وتاريخية ، وفقه لغوية ، وهي أحكام لا تميز جغرافي أساسي وحسب ، بل كذلك لسلسلة كاملة من المصالح التي لا يقوم الاستشراق بخلقها فقط بل بالمحافظة عليها أيضاً ...) وهذا أشبه بنوعية اهتمامات الاستشراق منه بالتعريف .

ويعود مرة أخرى للاستشراق ليقول[١٥] (فالاستشراق إذن هو معرفة بالشرق تضع الشرقي في قاعة التدريس في محكمة ، في سجن ، أو في دليل موجز لأغراض التحليل المدقق والدراسة والمحاكمة ، والتأديب أو الحكم) . ويصدق هذا بالدرجة الأولى على الاستشراق الجامعي الأكاديمي .

لذا عاد بعد صفحة ليقول[١٦] : (فإنه يحسن أن يفهم الاستشراق باعتباره طقماً من الضوابط المقيدة والمحدوديات المفروضة على الفكر ، بدلاً من كونه ، ببساطة ، مذهباً

إيجابياً) .

ويمكن ملاحظة التعاريف الباقية في الصفحات (١٠١ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦) ويبدو أن المستشرق صار من الألقاب غير المقبولة ، لذلك فقد لاحظ المؤلف أن تسمية جديدة طرحت كبديل وهي « الخبير أو المستشار »[١٧] .

٢ ــ الاستشراق عمل سياسي :

يثبت الكاتب بأن الاستشراق انطلق من السياسة ولكن الثقافة هي التي كونت هذا الاهتمام ، وجعلت له حيويته مع المصالح السياسية والعسكرية والاقتصادية[١٨] وهكذا تشابكت العوامل مكونة الاستشراق .

([١٩] إن منظومتي الحقيقية هي أن الاستشراق لا يمثل ببساطة بعداً هاماً من أبعاد الثقافة السياسية ــ الفكرية الحديثة ، بل إنه هو هذا البعد ...) ([٢٠] وكثيراً ما يفترض أن الأدب والثقافة بريئان سياسياً ، بل حتى تاريخياً ولكن الأمر بدا لي بصورة مطردة مغايراً لذلك) .

وأخيراً فإن الاستشراق مجرد رؤيا سياسية للواقع كما يرى الكاتب[٢١] .

٣ ــ المستشرق عنده حكم يبحث له عن دليل :

من المعروف أن الإنسان يبتديء في بحثه خالي الذهن ، ونتيجة لبحثه يتكون له رأي فيما يبحث ، ولكن المستشرق على العكس يبدأ بالنتيجة لينتهي بالمقدمة ، فالحكم موجود في ذهنه وهو يبحث عن دليل له يقول الكاتب[٢٢] : (إذ أن الاستشراق كان في نهاية المطاف رؤيا سياسية للواقع ، رؤيا روجت بنيتها للفرق بين المألوف « أوربا ، الغرب ، وبين الغريب ، الشرق ، المشرق ، هم » وبمعنى ما فقد خلقت هذه الرؤيا أولاً ثم خدمت ...) أ . هـ .

ثم يكشف منهج الاستشراق المعكوس فيقول : ([٢٣]...وندر أن كان المستشرقون على اهتمام بشيء سوى البرهان على سلامة هذه « الحقائق » البالية التي كانوا يفتقدونها مسبقاً) .

يتحدث الكاتب بعد ذلك عن دأب الاستشراق للبحث عن الأحوال الشاذة ، ثم يجعل من هذا الشذوذ القاعدة التي يحكم بموجبها ([٢٤] ويصبح الشرق هكذا معرضة حية للشذوذ ثم تصبح هذه المعرضة ، بشكل منطقي تماماً موضوعاً خاصاً للنصوص ، وهكذا تكتمل الدائرة ...) .

٤ ــ مهمة الاستشراق :

يقول الكاتب[٢٥] : (فإن الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقديرات حوله ، وإجازة الآراء فيه وإقرارها ، بوصفه ، وتدريسه ، والاستقرار فيه ، وحكمه ...) .

كما كان الاستشراق مكتبة أو « أرشيف لمجموعة من المعلومات عن الشرق[٢٦] لكل من يريد التعامل معه أو الاطلاع . كما أن الاستشراق كان وسيلة لدعم السلطة المركزية في الغرب والمصالح الاستعمارية ، وللبرهنة على أمرين هامين قوة الغرب من جهة وضعف الشرق[٢٧] ، وترسيخ ذلك بكل قوة » .

والاستشراق بعد كل هذا مدرسة للتفسير مادتها الشرق بشعوبه وحضاراته وأقاليمه وكل ما لديه[٢٨] .

وأختم هذا بقول المؤلف[٢٩] (والحقيقة أن الاستشراق قد استوعب بنجاح من قبل الامبريالية الجديدة ، حيث لا تفند منطلقاته السائدة ، بل إنها لتثبت وتؤكد المخطط الامبريالي المستمر للسيطرة على آسيا) .

فالاستشراق رغم المسوح العلمية التي مازال يلبسها هو خادم للدول التي ترعاه وتموله ، والتي مازالت تفسح له في قاعات التدريس ، وحقول البحث وفي وزارات الخارجية والحربية والمؤسسات المتعاونة والمتحالفة مع أجهزة الاستخبارات والتجسس .

يبقى سؤال أجد من النافع طرحه . وكان بالامكان تأخيره وهو : هل الاستشراق أمين فيما يكتب ؟!.

٥ ــ أمانة الاستشراق :

يرى الكاتب أن الاستشراق ليس بأمين حين يكتب ، ولذلك أسباب عدد منها ثلاثة[٣٠] ١ ــ التحيز الشعبي ضد العرب والاسلام ، الذي ينعكس مباشرة في تاريخ الاستشراق ٢ ــ الصراع العربي الصهيوني . ٣ ــ الغياب شبه الكلي لأي موقع ثقافي . يضاف لكل هذا علاقات الشرق بسياسات القوى العظمى ، ووجود النفط ، وعرض اسرائيل القائم على أنها دولة محبة للحرية والديمقراطية ، على حين أن العرب أشرار وإرهابيون وغير ديمقراطيين ... إلخ .. ثم يقول في نهاية بحثه[٣١] (فإن الاستشراق المعاصر يعلمنا الكثير الكثير عن عدم الأمانة

الفكرية ، الناتج من المراءات بهذا الخصوص ، والذي تكون نتيجته زيادة الانقسامات حدة وتوتراً ، وجعلها أثيمة ودائمة في آن واحد) .

٦ ــ ما هو هدف الكتاب ؟

يحدد الكاتب أكثر من هدف لكتابه فيقول : « (٣٢)إن تحليلي يحاول أن يجلو شكل هذا الحقل ، الاستشراق ، وتنظيمه الداخلي ، ورواده ، وشيوخ ثقاته ، ونصوصه الشرائعية ، وأفكاره التسبيحية ، وشخصياته النموذجية ، وأتباعه ، ومحكمي صنعته ، وسلطاته المرجعية الجديدة ، وأحاول أيضاً أن أشرح : كيف استعار الاستشراق أفكاراً « قوية ، ومعتقدات مذهبية ، واتجاهات تحكم الثقافة وتشكل بها غالباً ... » ثم يقول بعد هذا بقليل :(٣٣)(كتبت وفي ذهني عرضان :

أولاً : أن أقدم للمستشرقين نسبهم الفكري بطريقة لم يقدم بها من قبل .

ثانياً : أن أنقد ــ على أمل إثارة النقاش ــ الافتراضات التي كثيراً ما تظل غير معرضة للتساؤل ، والتي يعتمد عليها معظم عملهم ...

وأخيراً : فللقاريء فيما يسمى بالعالم الثالث ، تطرح هذه الدراسة نفسها بوصفها خطوة ، لا نحو فهم السياسة الغربية ، والعالم غير الغربي في هذه الدراسة ، بل نحو فهم الإنشاء الثقافي الغربي ...) .

يعود الكاتب في نهاية مؤلفه ليتحدث عن كتابه وما عساه قدم فيقول :(٣٤) (لقد كان مشروعي وصف نظام معين من الأفكار ، لا إزاحة نظام وإحلال نظام جديد محله ، بأي شكل ، وإضافة فقد حاولت أن أثير طقماً كاملاً من الأسئلة العلائقية في مناقشة مشكلات التجربة الانسانية : كيف يمثل المرء ثقافة أخرى ؟ ما هي الثقافة الأخرى ؟.....) .

كما يأمل الكاتب أن يكون كتابه نوع تَحَدٍّ للاستشراق كمؤسسة وأن يحذرهم مما انزلقت إليه من اختلافات في العقائد ، وأنظمة فكرية تتسم بالجمود والتصلب ، وهذه وتلك كما يقول « (٣٥)أصفاد من سبك العقل وصياغته يمكن أن تصنع وتطبق وتحرس بسهولة مفرطة ، وفوق كل شيء فإنني لآمل أن أكون قد أظهرت لقارئ أن الجواب على الاستشراق ليس الاستغراب ... » .

هذه جملة أهداف وضعها المؤلف نصب عينيه والسؤال : هل حققها الكاتب في كتابه ؟ .

إذا تلمسنا الإجابة في ردة فعل بعض المستشرقين الغاضبين والمنصفين فيمكن القول بنعم إذ تباينت ردودهم فيما كتبوه عن هذا الكتاب فكان برنارد لويس اليهودي الصهيوني أعنف من هاجمه وكان عبد اللطيف الطيباوي ــ رحمه الله ــ أنصف من كتب عنه وبينهما المسرف والمتعسف .

وهذا مستشرق يقول عن « إدوارد » بأنه مسلم ولو كان اسمه إدوارد وآخر يقول « لقد عرَّانا تماماً وكشف حقيقتنا »(٣٦) .

٧ ــ سبب تحيز الاستشراق :

عدّد المؤلف أسباباً للتحيز(٣٧) تصدق على المستشرقين حالياً ولكن الاستشراق منذ وجد والتحيز تجاه الاسلام كعقيدة والمسلمين كأمة هو القاعدة ، وعدمه هو الشاذ ، والسؤال ما السبب في ذلك ؟ . الحروب ؟ لقد خاض الغرب حروباً مع كل الأمم وفي كل البقاع ، ومختلف الأزمنة لكنه نسي أو تناسى ذلك ما عدا الإسلام وأهله ؟ هل هو الخوف أو التخويف ؟؟ أو هو ضغط الكنائس المستمر ؟ أو كيد اليهود ؟ أو هذه الأمور مجتمعة ومتشابكة ؟؟ .

٨ ــ الاستشراق مُفَلسِفُ الاستعمار :

كان من بين المهمات الأساسية للاستشراق تبرير الاستعمار وإضفاء صفة عقلية عليه(٣٨) ، كما كان ولاء المستشرق أبداً ودائماً مع المستعمر(٣٩) ضد الشرق الذي يدعي الدفاع عنه ، وهكذا راح الاستشراق يتحول من مؤسسة للبحث والكتابة إلى مؤسسة تخدم الاستعمار وأهدافه(٤٠) .

بل تحول الكثير إلى مستشارين لدولهم الاستعمارية أمثال سنوك هور خرونيه ولورانس وماسينيون وكيوم ، وبالمر وهوغارت وبل ... كما عمل ولايزال الكثير في أجهزة التجسس والمخابرات ، وما أدري كيف يثق إنسان برجل نشأ وترعرع ما بين السياسة والمخابرات ؟ وكيف ينظر لما يكتب ويقدم من بحث؟

٩ ــ الاستشراق قيد على حرية البحث :

يبدو أن الاستشراق وضع لنفسه منهجاً صارماً وظل أميناً لهذا المنهج إلى درجة كبيرة ، حتى لقد حرم نقد ونقاش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المستشرقين الكبار، وقد حاول بعض الطلبة الشرقيين أن يفعل ذلك، فأفهم بكل وضوح أن ذلك غير ممكن. وعلى سبيل المثال فقد قام منذ سنوات مستشرق شاب في «ليدن» بدراسة «سنوك هورخرونيه ومحاولة اثبات «البهلوانية» التي قام بها كأعلانه الاسلام والزواج من امرأتين اندونيسيتين ثم دخول مكة بعد إسلامه العلني الكاذب وبعد العودة إلى هولندا «لحس» كل ذلك وأخرج لسانه، فلما قام هذا الشاب بكشف بعض ذلك ثارت أكبر معركة ولا تزال تدور رحاها في المجلات والصحف لأن «سنوك هورخرونيه» مستشرق كبير لا يجوز لأحد أن «ينبزه» بشيء ولو كان معه ألف دليل ودليل[٤١] نعود للكاتب وهو يثبت بعض ذلك فيقول :[٤٢] (لأن الاستشراق في شكل ثالث من أشكال وجوده فرض حدوداً على الفكر المتعلق بالشرق وقد خضع حتى أكثر الكتاب روعة خيالٍ مثال فلوبير ونرفال وسكوت، لضوابط مقيدة فيما يمكن أن يجربوه أو يقولوه عن الشرق، إذ أن الاستشراق كان في نهاية المطاف رؤيا سياسية للواقع...)

١٠ ــ جمود الاستشراق :

يرى الكاتب أن الاستشراق اضافة لكونه قيداً على حرية البحث، فهو جامد غير متطور ويتساءل[٤٣]«فأي نظام من الأفكار قادر بعد كل حساب على أن يبقى دون تغيير كحكمة قابلة للتدريس، في المجامع والكتب والمؤتمرات والجامعات ومعاهد السلك الخارجي ــ من زمن أرنست رينان في أواخر ١٨٤٠م إلى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة، لابد أن يكون شيئاً أكثر صلابة ومتانة من مجرد مجموعة من الأكاذيب...».

ثم يقول في نهاية كتابه[٤٤] (إن الاستشراق بنفسه وفي نفسه كطقم من المعتقدات، وكمنهج للتحليل لعاجز عن التطور، بل إنه بحق النقيض المذهبي للتطور).

ولذا فإني لا أسلّم بقول المترجم [٤٥] (إن الاستشبراق الغربي تحديداً سيمتص معطيات الوعي النقدي الضدي الموجه له من داخل ثقافته ــ الغربية ــ ويغتني به وتتم به التكيفات التي تمنحه القدرة على الحياة والاستمرارية...) ولا يوجد دليل على ما ذهب إليه المترجم، بل الأدلة مع الكاتب، في جمود الاستشراق، وسير المتأخر على أثر المتقدم، ونقله لما كتب دون كبير تمحيص أو محاكمة.

١١ ــ بداية الاستشراق :

متى ابتدأ الاستشراق الرسمي؟ يقول الكاتب (الاستشراق بتحديد دقيق ميدان من ميادين الدراسة المتفقهة، وفي الغرب المسيحي يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع «فيينا» الكنسي عام (١٣٢١)م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلامانكا») . ومع الأيام أصبح لكل جامعة كبيرة في أوربا مجموعة من المستشرقين، مع منهج متكامل في أحد فروع الدراسات الشرقية، فهذه الجامعة تعنى بالأدب، وتلك في فقه اللغة، وثالثة بالنظم والعادات الشرقية، ورابعة بالدين وهكذا، فصار لكل استشراق في جامعة طابع مميز وخاص.

وقد عقد المؤتمر الأول للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣م[٤٦] وبعد ذلك استمرت المؤتمرات تتوالى، والملاحظ أنها في الفترة الأخيرة صارت مغلقة ومختصرة،لا يحضرها إلا قلة. ولعل ذلك بناء على طلب أجهزة المخابرات التي يخدمونها، ولتفويت الفرصة على بعض الشرقيين الذين كانوا يحضرونها، ويناقشون ويشاكسون، وقد يفضحون، لذلك أقصوا جميعا، وقد كان ذلك بمشورة من بعض المستشرقين اليهود وبخاصة برنارد لويس الذي اقترح في مؤتمر المستشرقين الأخير في باريس اقتصار المؤتمرات الاستشراقية على المستشرقين الأوربيين فنال اقتراحه الاجماع. وكان ذلك عام (١٣٩٣) . وقد كانوا يريدون بذلك أن يخلو لهم الجو حتى يقولوا ما يريدون ومايرون بحرية تامة وفي غياب تام عن أصحاب العلاقة.

١٢ ــ ما أنتجه الاستشراق :

نتيجة لما قيد الاستشراق به نفسه من قيود، وللأفكار التي راح «يجترها» على الدوام، وللأحكام المسبقة التي تفتش عن أدلة وللبرهنة على سلامة بعض «الحقائق البالية» كما يقول المؤلف، ونظرا لسعة الرقعة وتنوع الموضوع، لذا فقد أنتج الاستشراق[٤٧] (نوعا من المعرفة من الدرجة الثانية).

بل إن المستشرق نفسه، كما يلاحظ الكاتب [٤٨] راح لا يستسيغ أن يسمي نفسه مستشرقاً، بينما كان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية لا يرى بأساً في ذلك. لكنه كما يبدو وجد في مثل

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخبير والمستشار غطاءً جيداً وصفة أفضل من مستشرق.

١٣ ــ عرض الاسلام :

تفنن المستشرقون في عرض الإسلام كما يرغبون ويشتهون وليس كما هو واقع ومعروف، وهنا يكشف الاستشراق عن سوأته، ليتعرى حتى من ورقة التوت وليس ثمة شيء في البحث يسمى «الموضوعية» وأن هناك احتمالا أن يقرأ بحوثهم بشر لهم عقل ومعرفة بالاسلام.

يقول الكاتب (٤٩) (... بينما سيكون مستشرق باحث، ومختص المعي ذلق في القرن العشرين، هو من يشير إلى أن الاسلام ليس في الحقيقة إلا هرطقة آرية من الدرجة الثانية...)

هذا في القرن العشرين، ولباحث مختص ألمعي. إذن فماذا كان يقال قبل قرون عن الاسلام وأهله؟؟.

يقول الكاتب(٥٠) (إن حماسة (وستن) للاسلام أدت إلى طرده من كمبرج عام (١٧٠٩م) هذا في جامعة مثل «كمبرج» إذن فماذا كان يحدث خارجها؟؟ ومع ذلك يوصف المسلم دوماً وأبداً بأنه متعصب بل متعصب أعمى؟؟!!).

ينقل الكاتب عن «كارل بيكر» قوله (٥١) (رغم أن الإسلام ورث التراث الهيليني، فإنه لم يكن قادراً على أن يفهم أو يستخدم التراث اليوناني الانساني وعلاوة من أجل أن يفهم المرء الإسلام كان عليه قبل كل شيء أن يعاينه لا بوصفه ديناً أصيلا، بل بوصفه شيئا من محاولة شرقية فاشلة لاستخدام الفلسفة اليونانية، في غياب للالهام الخلاق الذي نجده في أوربا عصر النهضة) اهـ.

هكذا وخبطة واحدة وبهذا الحجم من التعميم «الإسلام» والكل يعلم أن في الإسلام العقائد والعبادات والمعاملات والنظم والأخلاق.. إلخ فكل هذه أخذت عن اليونان، دون أن يكلف الكاتب نفسه الاستشهاد ولو بمثال واحد، ألا يُشْبِه هذا المستشرق معلمة الأطفال التي تسكتهم «بحدوتة» لتلهيهم عن الشغب والصراخ؟؟

أما (ماسينيون) فقد درس الإسلام سنوات طوالاً فخرج بما كان في نظره كشفاً خطيراً وهو أن «الحلاج» هو قديس الإسلام الأول، وقد صلبه المسلمون السنيون لجرأته(٥٢) واسهم فلوبير بنصيب كبير في اختلاق صورة شرقية ذات خلاعة ومجون. فهو يحكي عن مشاهد يزعم أنه رآها في القاهرة على أيام (محمد علي)(٥٣) لا يصدق مثلها عن بلاد المسلمين إلا خادع لنفسه أو مخدوع.

هذه الصور ترسم عن المسلمين، فيصبح الشرق معرضاً للشذوذ، ثم يحكم على الشرق عموماً وعلى المسلمين بالأحكام المستقاة من هذا الكذب، النابع من خيال أفسده الحقد، فصغر كأحلام اليقظة.

ينقل الكاتب عن برنارد لويس (٥٤) تعليله لمقاومة الفلسطينيين للاستيطان اليهودي بأنه لا يمثل إلا عودة الاسلام، أو على لسان آخر هي مقاومة إسلامية لشعوب لا إسلامية. وأعظم بها عودة ، وبارك الله هذه المقاومة، اللهم زد وبارك.

وينقل الكاتب عن محاضرة عام ١٩٢٤ م في جامعة شيكاغو يقول صاحبها(٥٥) (أن المحمدية هي إحدى القوى العالمية العظيمة المسؤولة عن أعمق خطوط الانقسام في العالم) أما أطماع الاستعمار الغربي وهجومه على الدول وانتهاب خيراتها، واستعمار القارات، فقد عمي عنه المحاضر، ومن يدري فلعل مستشرقاً جديداً يقول لنا إن الحرب العالمية الثانية قد أشعل نارها الإسلام، وإن الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا أيضا من عمل الإسلام، والتوتر بين الشرق والغرب أيضا لمن عمل الإسلام وحتى النزاع بين الصين وفيتنام كان وما يزال من عمل الإسلام. وبالإمس قال الألمان أكذب أكذب حتى يصدقك الناس، واختم هذه الفقرة بهذه المقتطفات من شواهد قبور «الموضوعية».

(٥٦) (بدأ الدين الاسلامي المسمى الاسلام ــ انتبه لهذا التعظيم ــ في القرن السابع، وقد بدأه رجل أعمال ثري من شبه الجزيرة العربية يدعى محمد، وقد ادعى النبوة، ووجد أتباعاً بين العرب الآخرين، وأخبرهم بأنهم اختيروا ليحكموا العالم...).

بهذا القدر من الموضوعية والاحترام يتحدثون، ويريدون من الناس أن يحترموهم ويقبلوا كتاباتهم.

١٤ ــ ما سبب كل هذا التحامل؟.

يقول الكاتب (٥٧) (... إلا أن الشرق العربي والاسلامي، بشكل عام كانا الوحيدين اللذين واجها أوروبا بتحد لم تجد له حلاً على الأصعدة السياسية والفكرية، ولزمن قصير الاقتصادية أيضاً. فقد حمل الاستشراق في داخله إذن لمعظم تاريخه سمة

موقف أوروبي إشكالي بإزاء الاسلام..

لقد كان الإسلام دون شك استفزازاً حقيقيا بطرق عديدة، فقد كان قريباً من المسيحية قرباً مقلقاً جغرافياً وثقافياً .. ومنذ نهاية القرن السابع حتى معركة ليبانتو عام (١٥٧١) كان الاسلام في شكله العربي والعثماني .. أو شمال الأفريقي والأسباني، قد طغى على المسيحية الأوروبية أو هددها تهديداً فعالاً، ولم يكن ممكناً أن يغيب عن ذهن أي أوروبي، ماضياً أو حاضراً، كون الإسلام قد فاق روما إشعاعاً وسما عليها...).

ويثبت الكاتب حقيقة أخرى وهي أن الاستشراق الاسلامي ظل إلى اليوم أسيراً لخلفيته الدينية، كما ظل متخلفاً عن الفروع الأخرى في الإستشراق[٥٨] كما ظل إلى اليوم يصور الإسلام والمسلمين كأعداء للغرب وحضارته ولكل ما جاء به من أجل أن يهيج الانسان في الغرب ضد الإسلام كعقيدة والمسلمين كأمة.

١٥ ــ الرسول والقرآن :

وإذا كان نصيب الإسلام كل هذا الإفتراء، فإن نصيب الرسول عليه السلام أكبر من ذلك وأعظم لدرجة أنه يصعب على الانسان نقل عباراتهم لما فيها من شناعة وقباحة تدل على ما يشتعل في النفوس من حقد أسود. فمن شاء فليراجع الصفحات (٩١ ، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٦٨، ١٦٩، ٢٤٤، ٢٨٨). من مثل اقوال ديربيلو الذي تهجم فيها على الرسول ﷺ واتهمه با يف والهرطقة وبأنه انتحل المسيحية بعد تجريدها من ألوهيتها.[٥٩]

وإذا كان رسولنا عليه السلام هرطقياً ومزيفاً ومدعياً نبوة، فلماذا يحرم نفسه من ادعاء الألوهية؟؟ أليس في ذلك ما يوجب التفكر؟؟.

وهذه صورة أخرى يتطاير منها العفن[٦٠] (إن سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرية والحقيقة الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً.)

وبالمثل فإن الاستعمار الأوربي أكثر أنواع الاستعمار رقة وعذوبة ، وإن قنابله الذرية وغيرها التي أسقطت على اليابان وألمانيا، كانت كلها من العطور الراقية، كما جلبت أعظم السرور للشعبين الألماني والياباني أليس كذلك؟؟.

أما كارلايل فيصف القرآن بأنه (خليط مهلهل مشوش ممل خام مستغلق، تكرار لا نهاية له، وإسهاب وإطناب ومعاضلة، خام إلى أقصى الدرجات ومستغلق، وبإيجاز: غباء فارغ لا يطاق...)

وإذا كان القرآن مجرد غباء فارغ فلم الخوف منه، ولم هذه الحرب؟؟.

وصورة أخرى يرسمها «شاتوبريان»[٦١] (لقد كان القرآن كتاب محمد وهو لم يحتو على أي مبدأ للحضارة، أي تعليم يسمو بالشخصية)، إذن كيف أقام المسلمون حضارتهم؟؟.

ويحاول الكاتب نفسه عقد مقارنة بين الإسلام والنصرانية، كما يحاول فلسفة الحروب الصليبية فيقول :[٦٢] (لم تدر الحروب الصليبية حول انقاذ كنيسة القيامة وحسب، بل دارت حول معرفة من الذي سينتصر على هذه الأرض: مذهب تعبدي هو عدو الحضارة، محبذ باطراد للجهل ــ يعني الإسلام ــ وللطغيان والعبودية، أو مذهب تعبدي أدى آلى أن يوقظ في البشر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم وألغى العبودية الوثنية).

يبدو أن الإسلام في نظر شاتوبريان هو الذي أنشأ محاكم التفتيش، وهو الذي أثار الحروب بين البروتستانت والكاثوليك، وهو الذي أفنى سكان مدن بكاملهم مع حيواناتهم مثل تور وتولوز أليس كذلك؟.

أما «سمث» فيصف الرسول عليه السلام بأنه كان يسوعياً زائفاً محضاً أما الإسلام فإنه نوع من النفاق المنظم[٦٣] في اعتقاده.

ومثل هذه الصفات وهذا التحامل يشكل القدر المشترك للمستشرقين. حتى الذين ينجون من السقوط في حفرة، لا يلبثون أن يسقطوا في حفرة غيرها. وهذا مصداق لقول الله عز وجل «لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً....»[٦٤] إن الحملة التي تعرض لها الإسلام ورسوله وكتابه فاقت في عنفها وقسوتها وامتدادها أية حملة مماثلة في التاريخ.

بقي أن نزيد على كل ما تقدم بعض الصفات التي منحها الاستشراق للعرب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٦ ــ وصف العرب :

إن ذنب العرب أنهم حملوا الإسلام، إذن فمن البديهي أن يصب الاستشراق فوق رأسهم جل حقده وما يحويه جام غضبه. يقول الكاتب[٦٥] (تطغى هذه الآراء المعاصرة للمتسشرقين على الصحافة والعقل الشعبي، فالعرب مثلاً يصورون راكبي جمال، ارهابيين، معقوفي الأنوف، شهوانيين شرهين تمثل ثروتهم غير المستحقة إهانة للحضارة الحقيقية...)

أما لورنس ذلك «الحاوي» الذي كان يضحك على العرب، ويحرضهم ضد الأتراك، فقد وصف العرب بأقبح الصفات[٦٦] فوصفهم بأنهم لا عقيدة لهم وأنه يمكن أرجحتهم على فكرة كما لو كانوا على حبل، وهم دون عقيدة يمكن قيادتهم إلى زوايا العالم الأربع، ولكنهم إذا قابلوا في الطريق دجالا أو نبياً لا يلبثون أن يصدقوا وحيه ويتبعوه، إنهم كالماء في عدم الاستقرار..

ويصور الكاتب العربي بقوله[٦٧] (في الأفلام والتلفاز يرتبط العربي اما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم ويظهر منحلًا، ذا طاقة جنسية مفرطة، قديراً دون شك على المكيدة البارعة المراوغة، لكنه ــ جوهرياً ــ سادي، عدواني خؤون منحط، تاجر رقيق، راكب جمل، صرّاف وغد.. وخلف هذه الصور جميعاً يتربص خطر الجهاد المهدد. والعاقبة: الخوف من أن المسلمين ــ أو العرب ــ سوف يحتلون العالم)، وجاء في مقال في مجلة[٦٨] (إن العرب أساساً قتلة، وإن العنف والخديعة محمولان في الموروثات العربية.) ومثل هذا المدح والاطراء للعرب لا مثيل له، ولم يوجه لشعب ولا لأمة ولا لجماعة دينية، كما لاحظ ذلك الكاتب والسبب كما أسلفنا معروف وهو الإسلام، وزاد النزاع العربي الاسرائيلي النار اشتعالاً، وجاء النفط ليزيد في الطنبور نغماً كما يقال.

وحتى تكتمل الصور فلنقرأ ما يلي: [٦٩] (يفترض بداهة أن العرب عاجزون عن التفكير الحقيقي، إذ أن اللغة العربية ميالة بطبعها إلى الخطابة) ويعلق الكاتب على هذه الأفكار بقوله: بوسع المرء أن يسمى تأكيدات كهذه أساطير في وظيفتها وبنيتها.

وبالرغم من مثل هذه الأساطير، فإن الاستشراق يتهم المسلمين والعرب دوماً بعدم الموضوعية، وقديما قال العرب: لو ذات سوار لطمتني. فلو تحدث عن الموضوعية بشر من خارج الاستشراق لهان الأمر، وقُبِلَت التهمة، ولكنها من الاستشراق مردودة مرفوضة.

١٧ ــ الاستشراق والمثقفون العرب

يرى الكاتب أن الاستشراق أثر ويؤثر على المثقفين العرب وعلى جامعاتهم إلى درجة كبيرة جداً[٧٠] (... يمكن اعتبار التلاؤم المتبادل بين الطبقة المفكرة والأمبريالية الجديدة، أحد الانتصارات الخاصة للاستشراق فالعالم العربي اليوم كوكب تابع فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة .. خذ بعين الاعتبار أولًا أن الجامعات في العالم العربي تدار بشكل عام تبعاً لنسق موروث أو مفروض مباشرة من قبل قوة مستعمرة سابقة، وتجعل الظروف الجديدة واقعيات المنهج الدراسي قبيحة حتى الرعب تقريباً، صفوف يحشد فيها مئات الطلبة، جهاز تدريس مدرب تدريباً سيئاً، ومرهق بالعمل، ويتلقى رواتب سيئة وتعيينات سياسية، غياب شبه مطلق للأبحاث المتقدمة، ولوسائل البحث العلمي وأهم من ذلك الافتقار إلى مكتبة واحدة لائقة في المنطقة بأسرها وفيما كانت بريطانيا وفرنسا قد سيطرتا على الآفاق الفكرية في الشرق بفضل أهميتهما وثرائهما، فإن الولايات المتحدة هي التي تحتل تلك المكانة الآن بصورة تؤدي إلى النتيجة التالية: وهي أن القلة من الطلاب الذين يبشرون بخير، والذين ينجحون في الارتقاء عبر النظام التعليمي يتلقون تشجيعاً للحضور إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساتهم العليا .... وإلى جانب ذلك فإن نظام الرعاية في عالم الدراسة والأعمال والبحث العلمي يضع الولايات المتحدة في موضع الآمرة ذات السلطة الكلية على الأمور..

والنتيجة المتوقعة لهذا كله هي أن الطلاب الشرقيين والأساتذة الشرقيين ما يزالون يريدون الحضور إلى الولايات المتحدة، والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين ثم العودة فيما بعد لتكرار الشعيرات اللغوية التي ما فتئت أصفها بأنها مذهبيات جامدة استشراقية، على مسامع جمهورهم المحلي...).

فما قول مثقفينا وجامعاتنا بهذا الكلام الذي نقلت أقله، وتركت الكثير الكثير منه، والرجل يكتب في أمريكا ولها، يتحدث من هناك بكل وضوح بل بمنتهى الصراحة..؟

وأملي أن يكون من يعنيهم «الأمر» قد اطلعوا على الكتاب ولم تشغلهم «المؤسسات» عن قراءته ونقده.

إن الكتاب يوجه للكثير من مثقفينا «لمزاً» فهل من مجيب؟؟؟.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هوامـــش

٥١ ــ ص ٩٠
٥٢ ــ ص ١٠
٥٣ ــ ص ١٤.
٥٤ ــ ص ١٥.
٥٥ ــ اتهمه المتمصّر الهولندي القسيس سلومب SLOMP في حديثه في إحدى الجرائد الهولندية ، عن كتاب «الاسلام» لجب حين ترجم الكتاب للهولندية.
٦ ــ الاستشراق ص ٤٥
٧ ــ الاستشراق ص ٧٨.
٨ ــ الترجمة غير موفقة فالكاتب يتحدث عن الحياء لا عن العار.
٩ ــ الاستشراق ص ١٢٠ وأنظر أيضا ص ٢٧٩، ٣٠٨
١٠ ــ الاستشراق ص ١٢٠
١١ ــ الاستشراق ص ٢٣٢
١٢ ــ انظر جريدة Trouw, Zaterdeg, 5 Feb, 1983 «De Dubbelrol› var de Hollandse hoeji» p. 19 للدكتور شوردفان كونكز فيلد.
١٣ ــ الاستشراق ص ٣٨
١٤ ــ ص ٤٦
١٥ ــ ص ٧٢
١٦ ــ الاستشراق ص ٧٣.
١٧ ــ ص ١٣٠ ــ ٢٢١ ــ ٢٣٢.
١٨ ــ الاستشراق ص ٤٦.
١٩ ــ الاستشراق ص ٤٧.
٢٠ ــ الاستشراق ص ٦٠.
٢١ ــ ص ٧٤.
٢٢ ــ الاستشراق ص ٧٤.
٢٣ ــ ص ٨٢.
٢٤ ــ ص ١٢٧.
٢٥ ــ الاستشراق ص ٣٩.
٢٦ ــ الاستشراق ص ٧٢.
٢٧ ــ ص ٧٦.
٢٨ ــ ص ٢١٤.
٢٩ ــ ص ٣١٩.
٣٠ ــ ص ٥٨.
٣١ ــ ص ٣٢٤
٣٢ ــ ص ٥٥
٣٣ ــ ص ٥٧
٣٤ ــ ص ٣٢٢
٣٥ ــ ص ٣٢٥
٣٦ ــ قالها أحد المستشرقين الهولنديين كما نقلها الدكتور قاسم السامرائي.
٣٧ ــ الاستشراق ص ٥٩.
٣٨ ــ ص ٧٠.
٣٩ ــ ص ١٠٧
٤٠ ــ ص ١٢٠.
٤١ ــ هو المستشرق الهولندي الدكتور بيتر شورد فان كونكزفيلد
٤٢ ــ ص ٧٤.
٤٣ ــ ص ٤١.
٤٤ ــ ص ٣٠٥
٤٥ ــ ص ٨٠
٤٦ ــ ص ٢٦٥
٤٧ ــ ص ٨٢
٤٨ ــ ص ٨٢
٤٩ ــ ص ٩٢
٥٠ ــ ص ١٠٣
٥١ ــ ص ١٢٧
٥٢ ــ ص ١٢٧
٥٣ ــ ص ١٢٧
٥٤ ــ ص ١٣٠
٥٥ ــ ص ٢٥٨
٥٦ ــ ص ٢٨٨
٥٧ ــ ص ١٠١، ١٠٣
٥٨ ــ ص ٢٦٥
٥٩ ــ ص ٩٤
٦٠ ــ ١٦٨
٦١ ــ ص ١٦٨
٦٢ ــ ص ١٨٦
٦٣ ــ ص ٢٤٤
٦٤ ــ سورة آل عمران ١٨٦
٦٥ ــ ص ١٣١
٦٦ ــ ص ٢٤٨
٦٧ ــ ص ٢٨٧
٦٨ ــ ص ٢٨٧
٦٩ ــ ص ٣٠٨
٧٠ ــ ص ٣١٩

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاستشراق في ثلاثة كتب

أمين سليمان سيدو
أمين مكتبة المركز الثقافي
بالجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون

أعرض هنا ثلاثة كتب تدور حول موضوع الاستشراق بوصفه موضوعاً يستحق إلقاء الضوء عليه، كي يكون القارىء العربي المسلم على بينة بأهمية هذا الموضوع وخطورته.

والاستشراق هو الخيط الرفيع الذي يربط بين موضوعات الكتب الثلاثة التي نقدمها من خلال عرض سريع يتناول أبرز ما فيها، مركزاً على ظاهرة الاستشراق بكل ما تثيره من أفكار وقضايا ومشكلات.

○ ○ ○

بارت، رودي / الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية : المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه. ترجمة مصطفى ماهر — القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (د.ت)، ١١٠ ص.

مهد المترجم لهذا الكتاب، بمقدمة مشيراً إلى أعمال المؤلف في مجال الدراسات الإسلامية، والعربية، وأهمية الكتاب بالنسبة للقارىء العربي، بالإضافة إلى أهمية أعمال المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية . ثم مقدمة مؤلف الكتاب، التي تحدث فيها عن إهتمامه بالدراسات الشرقية. وزيارته لتيودور نولدكه أستاذ الاستشراق الجليل الذي حظى بتقدير عالمي في مادته، فكانت بداية رحلة لعالم الاستشراق، ساعياً إلى البحث عن الحقيقة الخالصة، هذا العلم — كما يراه المؤلف — هو نتيجة نشاط أجيال عديدة من العلماء. وينتقل المؤلف معرفاً الاستشراق — والاستغراب ، مبيناً أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، وكلمة استشراق مشتقة من كلمة (شرق) وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي. أما الاستغراب، أو علم الغرب فقد بيّن المؤلف بأن الدكتور محمد رحباد دعا في المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في لاهور في ديسمبر ١٩٥٧/ يناير ١٩٥٨، بحماس إلى هدف من هذا القبيل، ولكنه لقى معارضة شديدة، ثم يذهب المؤلف بالحديث عن عصر التنوير وعصر الرومانتيكية، وتطور الدراسات العربية، مما يدل على مدى الأهمية التي ما زالت تتسم بها، والاعتراف لعالم الشرق بكيانه الخاص الذي تحكمه نظمه الخاصة، ويرى المؤلف بالنسبة للدراسات الإسلامية كعلم تاريخي ظاهرة تلقى أسبقية في ميدان البحوث الاستشراقية، ولكن العالم الواسع المترامي الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالإسلام إلى عامل من عوامل القوة السياسية ويصبحون بذلك ذوي أهمية ولو لم يتلقف الناس القصائد العربية القديمة متأخراً لتكون شواهد على لغة القرآن المقدسة، لانتقلت هذه القصائد بالراوية إلى أنحاء البادية ثم تهوت إلى هوة النسيان ولما أصابت الشهرة التي أصابتها اليوم.

كما ذهب المؤلف إلى عرض آراء وتأملات كل من، الفريد فون كريمر، وتيودور نولدكه، ويوليوس فيلهاوزن، في الإسلام والشرق، موضحاً استقلال الدراسات الإسلامية، كعلم على يد هارتمن وكارل هاينرش بيكر..

وقد تناول المؤلف تطور الدراسات الإسلامية، ومراحل تطورها حتى العقد الرابع من القرن الحالي، فاستعرض تاريخ الأدب العربي لبروكلمن، ودائرة المعارف الإسلامية، كما أشار إلى البحوث التي تناولت (محمد ﷺ)، والقرآن الكريم في المنطقة الألمانية في المائة عام الماضية، والبحوث التي تناولت التاريخ الثقافي والتاريخ السياسي، وأصول الدين، وتاريخ العقيدة، وتاريخ الفرق، تدينا وتصوفا والشريعة الإسلامية، والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية والرياضة، وعلم الآثار، وتاريخ الفن.

وانتقل المؤلف إلى نقطة أخرى وهي العناية بالدراسات العربية وتطورها إلى العقد الرابع من القرن الحالي: من نحو، ومعاجم، وفهارس الكتب العربية، ومجموعات المخطوطات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقوائمها، والشعر ، والنثر العربي. مشيراً إلى البحوث والدراسات التي تناولت كل مجال من المجالات المذكورة..

أما عن الاستشراق الألماني منذ عام ١٩٣٣م، فيرى المؤلف أن الحرب العالمية الأولى، واستيلاء النازي على السلطة في ألمانيا أثرا على الاستشراق الألماني، وأصيب أولئك العلماء الذين كانوا يقومون بعملهم حتى ذلك الوقت، بالرعب المعنوي المتزايد، واضطر منهم من اضطر إلى الهجرة وكانت النتيجة نقصاً واضحاً في عدد المستشرقين..

وينتقل المؤلف إلى محطة أخرى وهي الدراسات الإسلامية، فيتحدث عن اتساع ميدان العلم، ودليل الاستشراق، وطبعات كتاب السير، ودراسات المخطوطات وقوائم المخطوطات، فبلاد العرب قديماً، ومحمد ﷺ والقرآن، والتاريخ السياسي والثقافي، والعصور الأولى، ثم تاريخ مصر، وتاريخ فاس، والتاريخ العثماني، والتاريخ الثقافي، فأصول الدين الإسلامي وتاريخ العقائد والفرق، ثم التنسك والتصوف والطوائف، والعادات والثقافة المادية، والشريعة الإسلامية، والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية والرياضيات، فعلم الآثار وتاريخ الفن، والوضع الراهن في العالم الإسلامي .. مشيراً إلى البحوث التي تناولت المجالات التي ناقشها المؤلف في كتابه.

أما الدراسات العربية منذ عام ١٩٣٣م، فقد حصرها المؤلف في النقاط الآتية :

- تاريخ اللغة والنحو.
- المعاجم.
- شعراء عرب .
- النثر العربي.

واستعرض البحوث التي تناولت النقاط الآنفة ذكرها.

وقد عرض المؤلف أيضاً أسماء مؤسسات ومنظمات الإستشراق ، بالإضافة إلى المجلات والسلاسل التي تتناول موضوع الإستشراق ، فنظرة إلى الوراء ونظرة إلى الأمام، مع الإشارة إلى أن هناك آمالا في أمر توسيع وتطوير الإستشراق الألماني.

وختم المؤلف كتابه بعرض لأسماء المستشرقين الذين ورد ذكرهم في الكتاب.

○ ○ ○

أحمد، إبراهيم خليل / المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي ــ القاهرة: مكتبة الوعي العربي، ١٩٦٤م، ١١٠ ص.

بدأ المؤلف بافتتاحية موجزة لكتابه، ثم عرض تقرير الإدارة العامة للدعوة بوزارة المعارف ، فتمهيد، فمقدمة للكتاب. تناول من خلالها، نشأته، وتهذيبه، وممارسته للحياة العملية، ونقطة حول هدايته للإسلام، ونقطة حول اعتناقه الإسلام ديناً ودخوله إلى الإسلام مع أبنائه الأربعة في ١٩٥٩/١٢/٢٥م.

«يقول المؤلف : (لقد أراد الله لي خيراً، فهداني إلى الإسلام بينما أنا في جهالتي وحماقتي أردت للإسلام تقويضاً وللمسلمين أن يدخلوا في رحاب النصرانية، فعفا الله عما سلف..).

ثم يعرض القرار الذي اتخذه لإشهار إسلامه ، مشيراً إلى أن ميزة هذا القرار أنه من واقع الحياة التي عاشها في العهد السابق.

ويبيّن أن التبشير والاستشراق يقويان بمقدار تخلف الشعوب، وبمقدار سيطرة المستعمر على البلاد وأنهما من وسائل تمكين الاستعمار ترسيخ أقدامه في البلاد، وأنهما وسيلة للتفرقة العنصرية، وأنهما وسيلة لإضعاف اللغة العربية في ربوع العالم العربي، ولهذا كان من الضروري إعداد ما استطعنا من قوة وفكر ومن إيمان خالص لوقف تيار التبشير في العالم العربي عملاً بقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم تحدث المؤلف عن الجهاز الكنيسي البروتستانتي لسنة ١٩٦٠م والمتمثلة في المحفل العام، والسياسة الإستعمارية، واتحاد الكنائس، والبورد، والإرسالية الأمريكية، والسنودس، والمؤتمر العام، والمجمع الأمريكي، والإرسالية الأمريكية بشوتس بالإسكندرية، ومجمع الخدام، ومجلس الكنيسة .. ثم بيّن اختصاصات المجمع الأمريكي، والمؤسسات التي يديرها هذا المجمع، من كنائس، وجمعيات، ومدارس، وكليات ومستشفيات، وملاجىء.

وقد عرض المؤلف بيانات إحصائية عن عدد الكنائس، وأماكن وجودها في مصر، ثم يرى بأن الاستشراق والتبشير صنوانٌ لا يختلفان في الهدف، وكلاهما دعامة الاستعمار في الشرق الإسلامي، وكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية، والغض من اللغة العربية الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب الإسلامية والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضر،

والإزدراء بها في المجالات الدولية العالمية.

وقد ذهب المؤلف إلى ذكر أسماء أشهر المؤسسات التعليمية ذات الصلة بالتبشير في الشرق العربي وهي ـ كما ذكرها المؤلف ـ : جامعة القديس يوسف في لبنان، والجامعة الأمريكية ببيروت، والجامعة الأمريكية بالقاهرة، والجامعة الأمريكية بإستانبول، والكلية الفرنسية في لاهور. ثم أشار إلى المنشور الذي أصدرته الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٠٩م، الذي كان رداً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة.

وعن تدفق التبشير والاستشراق على مصر ونشأة الكنيسة البروتستانتية ـ يرى المؤلف ـ أن الأمريكيين استطاعوا تحت لواء الامتيازات الممنوحة للأجانب وباسم الصداقة للشعوب الآسيوية الإفريقية أن يغزوا آسيا وإفريقية بوفود المبشرين والمستشرقين .. واستطاعوا بأموالهم أن يؤسسوا لهم مراكز تبشيرية وعلمية .. واستطاعوا بفضل نفوذهم السياسي وتحت ضعف أقباط مصر أن ينتزعوا نفراً من بين أبناء الكنيسة القبطية لتأسيس الكنيسة البروتستانتية، واستطاعوا أيضاً بمعونة الإنكليز أن ينتزعوا من الباب العالي من خديوي مصر حق حماية الأقلية بمصر والسودان مما ثبت أقدامهم في البلاد ومكنهم من استغلال مواردها. وقد وضح المؤلف مدى نشاط هذا العمل التبشيري، بحيث يسير في أي قطر متأثرا بالناحية السياسية تأثرا كبيرا.. ففي البلاد المتمتعة بحريتها واستقلالها يسير العمل التبشيري في أسلوب الدهاء باستخدام تلاميذ المبشرين والمستشرقين من الوطنيين، حتى لا يصدموا بقوانين البلاد، فيكرهوا على الرحيل الفوري .. ثم قارن المؤلف بين مستشفى قصر العيني، ومستشفى هرمل، فبيّن خطورة المبشرين ، وحقيقة العمل التبشيري، ونطاقه ووسيلته..

وتناول المؤلف العمل التبشيري في المستشفيات ، والمدارس .. ثم تابع حديثه عن رواسب التبشير والاستشراق ، من أنها توجيه سافر من الإستعمار الذي يهدف إلى شل القيم الدينية والإسلامية، وإلى الإزدراء باللغة العربية بصورة إيجابية، وذلك بتقديم العلم الأوربي، وتمجيد الحضارة الأوربية، والتمسك بأهداب المد : الغربية..

ثم برهن بأن الإسلام قوة لا تقهر، مستشهداً بالآيات القرآنية الكريمة، وأقوال الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وأمثلة من أمجاد الإسلام.

وقد عرض المؤلف السياسة العامة للتبشير والاستشراق ، وأعمال هؤلاء المبشرين والمستشرقين، فحصرها في النقاط التالية:

١ ـ الإشتراك في المجالات العلمية الرسمية كالمجمع اللغوي بمصر، والمجمع اللغوي بدمشق، وعرض أسمائهم ، وأعمالهم.

٢ ـ مقاصدهم من التمثيل في المجالات الرسمية.

٣ ـ مؤلفاتهم .

٤ ـ تلاميذ المستشرقين والمبشرين (عملاء الإستعمار)، وممن ذكر المؤلف أسماءهم : فيليب حتي ـ بطرس عبد الملك.

٥ ـ تمويلهم.

ولخص السياسة التوجيهية العامة في صورتين اثنتين :

الصورة الأولى : قيام بعض المفكرين ادعياء الاسلام بأعمال تؤدي إلى إقرار سياسة الاستعمار وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية.

الصورة الثانية : تكون بقيام بعض العلماء الغربيين بإبراز الخلافات المذهبية، وتأكيد الفجوات والثغرات بين الطوائف والشعوب الإسلامية.

ثم تناول المؤلف موضوع التشريع الإسلامي، والشريعة الإسلام، مؤكداً أن الإسلام وحده يرعى مصالح العباد، ولكن الاستعمار لا يزال يتربص بالعرب والمسلمين وذلك بتمجيد القيم الغربية المسيحية ومقارنتها بالقيم الإسلامية، والحط من التضامن والتكتل الإسلامي، ليصل بذلك إلى تفتيت وحدة المسلمين إلى الأبد.

○ ○ ○

الهراوي، حسين / المستشرقون والإسلام . [القاهرة؟]: (مطبعة المنار)، ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦م، ١٠٧ ص.

عرض المؤلف في بداية هذا الكتاب الفصول التي تناولها (فهرس الكتاب)، ثم قصيدة شعرية بعنوان : من أحمد نسيم الشاعر إلى الدكتور حسين الهراوي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد تحدث في الفصل الأول من الكتاب عن ظهور الإسلام من وسط قبائل مفككة، فتكونت أمة تشعر بوجودها الأدبي وتقوم برسالتها بين الأمم المتجاورة، فتكتسح المعتقدات البالية، وتقضي على ملك الفرس والرومان وترثه..

ويرى المؤلف أن الإسلام هو أول مطلع للتفكير الحر، والتحلل من قيود التقاليد، وهو في تعاليمه ينافي الإستعمار ، وينافي الخضوع لكائن من كان إلا للواحد الديان. وفضلاً عن ذلك فإن الإسلام عطف على الأديان الأخرى .. إضافة إلى أن الإسلام طبع الشعوب التي انتشر فيها بطابع آخر هو الطابع العربي ..

ثم بيَّن المؤلف نشأة الاستشراق في بلاد الغرب، واعتكاف جماعة من الغربيين على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة واستذكاراً وحفظاً وتحقيقاً وتغلغلاً في البحث، فقام هؤلاء المستشرقون بدورهم بنشر مؤلفات يصفون الشرق فيها بصورة مشوهة، ويصمون الإسلام بكل المخازي التي هو منها براء، وقد تأثر الشرق نفسه بتلك الدعاية، فاعتقد الشرقيون أن عاداتهم وأخلاقهم وشعوبهم في مستوى أدبي وعقلي أقل من المستوى الأوربي، فأخذوا يقلدون الغربيين في كل شيء في المعنويات وفي الماديات..

وقد كشف المؤلف الغطاء عمَّا يقوم به المستشرقون من مفاسد، منهياً حديثه في هذا الفصل بأسباب وضع الكتاب قائلاً: (.. إننا نريد تنبيه الناس إلى طلائع الإستعمار، ومصدر تغذية المبشرين، ولا ندعي أننا ندافع عن الإسلام بهذا الكتيب. فنحن أهون من أن تكون لنا هذه المنزلة الرفيعة، ولكننا نريد أن نهتك سترهم ونظهر حقيقتهم..).

أما في الفصل الثاني فتناول الحديث عن سيدنا محمد ﷺ قبل البعث، وقيامه بهذه الدعوة الناجحة .. ثم ناقش رأي دورمنجهام وإفتراءاته على رسول الله ﷺ .. ودفع شبهة اختلاط النبي بالرهبان، وفند خرافة أن النبي ﷺ استفاد القرآن من رحلته للشام حيث يقول المؤلف : (.. ولو طاوعنا هؤلاء فيما زعموا، وبحثنا عن كل حكم من أحكام القرآن ومصدره ورأينا حكماً منها من السند والآخر من الهند والآخر من فارس ومن مصر وأثينا وروما لكان لهذا النبي آلاف الأسفار والإشتغال بالجامعات عدة قرون قبل أن يأتي بكتاب لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً..).

وفي الفصل الثالث تحدث عن التحليل النفسي لحياة محمد ﷺ قبل البعث ، والتحنث في الغار والطواف بالكعبة، كما تحدث أيضاً عن العقل، والغرائز والظواهر العقلية، فيرى بأن النبي كان وحدة مستقلة، وورث عن آبائه شرف النفس. ثم تناول طفولة النبي ﷺ، وهو يتيم، وحاجة هذا اليتيم إلى الحنان، وحياته وهو غلام؛ فتاجر، ثم دين محمد ﷺ قبيل الوحي، وإحترامه للكعبة في ذلك الوقت، موضحاً أن دين محمد ﷺ وتصرفاته قبل البعث كانت كلها من منبع ألغرائز والإلهامات العالية. وذهب المؤلف في الفصل الرابع بالحديث عن تحطيم الأصنام، وفساد العالم قبيل البعثة، والرد على مفتريات المستشرقين، بأن العظماء ليسوا بحاجة إلى التعليم، ثم يكشف عن افساد اليهود لحياة العرب.

وقد تناول المؤلف في الفصل الخامس موضوع التوحيد، مبيِّناً أن التوحيد هو روح الحرية، وتحدث عن انقسامات الفلاسفة وفرقهم، ثم مناقشة الفلاسفة، فإعجاز القرآن، وحكمة الإسلام في الحرية الشخصية، ومبادىء الإسلام التي تكمن في الحرية والإخاء والمساواة، ثم قارن المؤلف بين الحرية الإسلامية والفرنسية، مؤكداً بأن العالم مدين للإسلام بتحرير الفكر، ويرى بأن المستشرقين والمستعمرين يفهمون ذلك حق الفهم ولذلك هم يعملون على مقاومة الإسلام.

وفي الفصل السادس بحث المؤلف أثر التوحيد الإجتماعي، موضحاً بأن الإسلام لا يجعل سلطاناً على النفوس والعقول إلا لله وحده ، وما دون ذلك فالجميع سواء وآراء الناس كلهم قابلة للشورى والفحص ولو كان الرأي لرسول الله ﷺ نفسه، وليس بعد ذلك وضوح لتقدمي حرية الفكر التي هي دعامة من الدعامات الأصلية في الإنسان وهذا هو أظهر معنى من معاني الإسلام.

وفي الفصل السابع تناول المؤلف تعليقات المستشرقين على التوحيد، وحياة محمد وقد عرض أسماء هؤلاء المستشرقين وهم: رينان، وبرينو، ومرجوليث.

وناقش المؤلف آراءهم الفاسدة عن الإسلام، ومحمد والقرآن، وردَّ على إفتراءاتهم واتهاماتهم الباطلة.

وفي الفصل الثامن ناقش المؤلف حكاية فنسنك والمجمع

اللغوي الملكي، مبيّناً أن عصابة فنسنك في تحرير دائرة المعارف الإسلامية تكتب على أسلوب القرون المتوسطة، وتفرض على الناس فرضاً أن تعلمهم كل شيء ضد الإسلام.

وقسم المؤلف المستشرقين إلى ثلاثة فرق :

ــ قسم يختص بمباحث القرآن.

ــ قسم يختص بمباحث سيدنا محمد ﷺ.

ــ قسم يختص بالتاريخ العربي الإسلامي.

أما في الفصل التاسع فتحدث عن فنسنك، موضحاً أن المستشرقين أساس الفساد، وأن لهم جمعية دولية.

وفي الفصل العاشر تحدث المؤلف عن موضوع تعدد الأزواج والحجاب والطلاق، ومعالجة الإسلام لها بأدق ميزان الحكمة والعقل، فكانت خاتمة هذا الكتاب.

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (لمحمود زقزوق)

إبراهيم صغيرون
أستاذ مساعد بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

زقزوق، محمود حمدي / الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري .. الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٤ هـ، ١٥٦ ص (كتاب الأمة ــ ٥).

http://Archivebeta.Sakhrit.com

تمهيد : هذا كتاب جم الفائدة قام بتأليفه الدكتور محمود حمدي زقزوق استاذ الفلسفة الإسلامية في جامعتي الأزهر وقطر ووكيل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، وله عدد من المؤلفات والأبحاث في مجالات الفلسفة الإسلامية والفلسفة العامة والأخلاق والدراسات الإستشراقية.

وهذا الكتاب هو الخامس في سلسلة «كتاب الأمة» التي تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر إسهاماً منها في تحقيق الوعي والحصانة الفكرية في أوساط المسلمين. وقد تم نشر الكتاب حديثاً في صفر ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣م ويقع في حوالي ١٥٦ صفحة من القطع الصغير. وقد قدم للكتاب الاستاذ عمر عبيد حسنة الذي أشاد بالموضوع والمنهج العلمي الذي اتبعه المؤلف في العرض والتحليل، كما نوه بحاجة المكتبة الاسلامية لهذا النوع من الكتب التي تعرض للقضايا الفكرية التي يعاني منها عالم المسلمين.

عرض الكتاب :

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول وفهرس.

تناول المؤلف في المقدمة الأبعاد والمفاهيم العامة المتعلقة بموضوع الاستشراق وأهمية التصدي لهذه المسألة الفكرية التي أصبحت في حقيقة الأمر جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الاسلامي والعالم الغربي. وقد حدد المؤلف منذ البداية منهجه الرامي لتوخي الموضوعية والبعد عن المواقف الجدلية الانفعالية ومن أجل ذلك أراد أن يخاطب القارىء واضعاً أمامه القضية بايجابياتها وسلبياتها واشراكه في البحث عن الحلول الجادة.

١ ــ الفصل الأول (ويقع في ٤٢ صفحة) ويشتمل على مدخل تاريخي حول نشأة الاستشراق وتطوره وقد قصد المؤلف منه القاء نظرة عامة تبرز بعض المعالم الرئيسية والخطوط العريضة في هذا الصدد. وقد بدأ بتسليط الضوء على البدايات الأولى للاستشراق في القرون الوسطى خاصة عندما لفت الانتشار السريع للاسلام في الشرق والغرب أنظار رجالات اللاهوت النصراني الى هذا الدين كما بين الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق والذي كان يتمثل في ذلك الصراع الذي دار بين العالمين الاسلامي والنصراني في الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى

الاشتغال بتعاليم الاسلام وعاداته. ثم واصل المؤلف موضحاً بأنه قد كان هناك في هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام. اتجاه لاهوتي متطرف في جدله العقيم وهمه نشر الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم، ناظراً إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية. أما الاتجاه الثاني الذي تعرض له المؤلف بالشرح والتحليل فقد كان نسبياً — بالمقارنة إلى الاتجاه الأول — أقرب إلى الموضوعية والعلمية، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة. وفي هذا الإطار استعرض المؤلف بالتفصيل وعالج بالشرح الموضوعات التالية :

أ — الثقافة العربية في قصر الأمبراطور فردريك الثاني الذي أصبح إمبراطوراً لألمانيا عام ١٢١٥م.

ب — الاستشراق والتنصير.

جـ — محاولات جادة نحو فهم الإسلام.

د — عصر ازدهار الاستشراق.

هـ — من مظاهر النشاط الاستشراقي.

و — الاستشراق والاستعمار.

ز — اليهود والاستشراق.

حـ — مستقبل الاستشراق.

وقد ناقش المؤلف في هذه الموضوعات الارتباط الوثيق بين مصالح الغرب واهتماماته ودعمه للحركة الاستشراقية.

٢ — أما الفصل الثاني (ويقع في ٦٤ صفحة) والذي وصفه المؤلف في مقدمته بأنه الفصل الرئيسي في هذا الكتاب لأنه يتناول بالبحث مواقف المستشرقين بإيجابياتها وسلبياتها، فقد خصصه للتعرف على الآراء والمواقف الاستشراقية المتصلة بالدراسات الإسلامية. وفي هذا المجال فقد تعرض المؤلف لأعمال المستشرقين وجهودهم والتي تتمثل على مدى تاريخهم الطويل في أعمال مختلفة تشكل في مجموعها كلاً واحداً وقد لخصها في عدة أمور هي:

١ — التدريس الجامعي

٢ — جمع المخطوطات وفهرستها.

٣ — التحقيق والنشر.

٤ — الترجمة من العربية إلى اللغات الأوربية.

٥ — التأليف في مجالات الدراسات العربية والإسلامية.

ومن ثم تناول المؤلف هذه الأعمال بالتفصيل وتعرض لمراكزها ومؤسساتها الرئيسية في أوربا والولايات المتحدة وانتاجها في مجال البحث العلمي والدوافع التي أملت تأسيسها وأهدافها. ومن هنا تأتي أهمية ما يحمله المستشرقون من أيديولوجية بالنسبة لما يخلفونه من آثار في الدراسين على أيديهم وما ينطبع منهم على غيرهم. وفي هذا الإطار أشار المؤلف إلى جهودهم في مجال ترجمة المئات من كتب التراث العربي والإسلامي إلى اللغات الأوربية كافة هذا فضلاً عما أولوه من اهتمام كبير باعداد العديد من ترجمات القرآن إلى اللغات الأوربية وقد مهدوا لترجماتهم بمقدمات وضعوا فيها تصوراتهم عن الإسلام والتي لا تتفق في معظم الأحيان مع الحقائق الإسلامية بل تصطدم مع هذه الحقائق اصطداماً جوهرياً. أما في مجال التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين فقد أفادنا باحصائية ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف فقط (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) حوالى ستين ألف كتاب. (أنظر الصفحات ٥٨ — ٦٥ من الكتاب).

وقد أورد المؤلف في الفصل الثاني أيضاً بأن بعض مؤلفات المستشرقين ذات قيمة علمية واكتفى بالإشارة إلى تاريخ الأدب العربي من تأليف المستشرق الألماني كارل بروكلمان الذي اعتبره كتاباً أساسياً في الدراسات العربية والإسلامية لا يستغنى عنه باحث في هذا المجال. كما أشار إلى دائرة المعارف الإسلامية على الرغم مما لنا معشر المسلمين على هذه الدائرة من مآخذ كثيرة فانها في نظر المؤلف تعد ثمرة من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين. ومن المؤلفات ذات القيمة التي أشار إليها المؤلف جهود المستشرقين في مجال المعاجم والقواميس اللغوية وخص بالذكر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذي يشمل كتب الحديث الستة المشهورة. (أنظر الصفحات ٦٦ — ٧٠ من الكتاب).

ويمضي المؤلف في الفصل الثاني ليعالج أهداف المستشرقين والدوافع التي دعتهم لبذل كل هذا الجهد والعمر والمال في مجال البحث وقد أسهب في شرح الدافع الديني كعنصر أساسي وقوة محركة ومن ثم تعرض للأهداف الأخرى التي تدور في فلكه كالأهداف العلمية والتجارية والسياسية. (أنظر الصفحات ٧٠ —

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٧٥ من الكتاب). ومن خلال العرض لأهداف المستشرقين المختلفة تمكن المؤلف من تصنيفهم إلى فئات مختلفة تتراوح بين التعصب والأنصاف ومن لهم ميول تنصيرية إلى مستشرقين علمانيين ومنهم من التزم في دراسته للإسلام بالموضوعية والنزاهة العلمية ومنهم فريق من المرتزقة الذين جندوا دراساتهم وبحوثهم في خدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعمارية. (الصفحات ٧٥ ــ ٧٦).

وفي ختام الفصل الثاني تناول المؤلف منهج المستشرقين من خلال كتاباتهم والذي يبدو في الظاهر توخي العلم والموضوعية والاهتمام بتقديم أدلة وأسانيد لآرائهم ونظرياتهم يستمدونها من المراجع الإسلامية نفسها. ولكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه مصنوع والدافع إليه الرغبة في التجريح وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية. وقد أورد المؤلف أمثلة من آراء هذه الفئة مثل المستشرق (جاستون فييت) في كتابه «مجد الإسلام» والذي اختار فيه فقط النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي ينضح بالكراهية والعداء للإسلام والمسلمين. وقد قام المؤلف بشرح الاختلاف في الرأي مع المسلمين حول الإسلام والمنطلق الذي يستمد منه المستشرقون فكرهم الديني وهذا ولا شك هو محور القضية الرئيسي كما أشار إلى ألوان التحامل القديم على الإسلام والذي أصبح سمة في التراث الغربي تتوارثه الأجيال إلى يومنا هذا. وليس من الظواهر الثقافية المألوفة في أوربا أوضح وأكثر شمولاً من اهمالهم لمبادىء أولية للمنهج العلمي في معالجة المسائل التاريخية ولعل من أخطر القضايا التي أشار إليها المؤلف بأنهم «... يؤكدون مثلاً أن القرآن من إنشاء محمد. ثم يذهبون مذهباً بعيداً في تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد، وسرعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبة الحقائق» (أنظر ص ٨٠).

وعليه فقد خصص المؤلف حيزاً طيباً في نهاية الفصل الثاني استعرض فيه نماذج من آراء المستشرقين حول الإسلام اعتمد فيها المنهج العلمي الوثائقي وناقش هذه الآراء نقاشاً هادئاً موضوعياً بعيداً عن الانفعال وقد شملت النماذج الموضوعات والقضايا الآتية :

(أ) القرآن.

(١) مصدر القرآن (٢) صحة النص القرآني (٣) خطورة القرآن.

ب ــ السنة النبوية.

جـ ــ الشريعة الإسلامية والقانون الروماني.

د ــ الفلسفة الإسلامية.

هـ ــ ملاحظات على آراء المستشرقين.

(أنظر الصفحات ٨٢ ــ ١٢١).

(٣) الفصل الثالث (ويقع في ٣١ صفحة) في هذا الفصل وهو الأخير من كتابه والذي أختار له عنوان: «موقفنا من الاستشراق» وبعد أن تعرض في الفصلين السابقين لأبعاد المواقف الاستشراقية بإيجابياتها وسلبياتها لم يقتصر المؤلف على تشخيص العله ورصد آثارها فقط وإنما على حد تعبير الأستاذ عمر عبيد حسنة «يتجاوز ذلك إلى تحديد الأسباب التي أوجدتها ومن ثم يصف العلاج ويبين الخطة التي لا مناص من التزامها في معركتنا الفكرية التي تستهدف وجودنا حيث نكون أو لا نكون..»

(ص ١٠)

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب ولذلك فقد طرح المؤلف منذ البداية وفي مستهل الفصل الثالث السؤال الكبير:

«ماذا فعلنا نحن؟.

ما موقفنا من الحركة الاستشراقية؟

إنها حركة فكرية هائلة، وما تنتجه يخصنا ويخص عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا وذاتيتنا. هل نكتفي بموقف المتفرج في المسرح تعجبه بعض المشاهد فتهلل أساريره، ولا يعجبه بعض المشاهد الأخرى فيقطب جبينه ويمط شفتيه؟» (ص ١٢٣).

وما دام الأمر خطيراً لأنه يتعلق بأعمق أعماق المسلمين عقدياً وفكرياً وحضارياً فليس أمامهم من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات وهذا يقتضي التسلح بأدوات المعركة الفكرية وقبول التحدي والاستجابة له بانطلاقة إسلامية حضارية جديدة. وقد حاول المؤلف عرض بعض الأساليب التي يمكن أن تساعد المسلمين على الوصول إلى الأهداف المرجوة ويمكن تلخيصها في الآتي:ــ

(١) موسوعة الرد على المستشرقين : وقد كان هذا المشروع قد دعت له المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة في نهاية عام ١٩٧٩م وقد أورد المؤلف ــ الذي كان مقرراً لندوة إعداد المشروع ــ نص التقرير الختامي عن المنهج

العلمي الواجب اتباعه في أعداد هذه الموسوعة. (صفحات ١٣٠ — ١٣٧).

(٢) مؤسسة إسلامية علمية عالية : تستقطب الكفاءات العلمية الإسلامية في شتى أنحاء العالم وتقف نداً للحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع وتنشر بحوثها بلغات مختلفة وتعمل على استعادة اصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الثقافة والفكر. لأن هذا الفراغ الهائل في حقل الثقافة العربية والإسلامية هو الذي يدفع الباحثين العرب والمسلمين عامة إلى الاهتمام والاعتماد على المجلات البحثية والمعاهد والجامعات في أوربا والولايات المتحدة. (صفحات ١٣٧ — ١٤٢).

(٣) دائرة معارف إسلامية جديدة: وذلك لكي لا نظل نقتات فكرياً من دائرة المعارف الإسلامية التي قام باعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية فهي تختلف عن «موسوعة الرد على المستشرقين» الموضحة أعلاه والمحدودة في إطار الرد على شبهات معينة آثارها المستشرقون فدائرة المعارف الإسلامية المطلوبة ستكون عامة وشاملة لكل جوانب الإسلام والفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية بوجه عام مع التنسيق بين المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي حتى لا تتوزع الجهود وتتكرر الأعمال. (صفحات ١٤٢ — ١٤٣).

(٤) جهاز عالمي للدعوة الإسلامية : ومن الأمور الملحة التي أشار إليها المؤلف ضرورة إنشاء مؤسسة إسلامية تبشيرية عالمية لتتولى أمر الدعوة الإسلامية في الخارج ويكون من مهامها إصدار سلسلة كتب إسلامية وتعرض الإسلام بأسلوب علمي يتناسب مع العقلية المعاصرة كما تقدم الحلول لمشكلات المسلمين العصرية. ويرى المؤلف أنه من الممكن في هذا الصدد الاستفادة بأفكار وخبرات الشخصيات الغربية الواعية التي اعتنقت الإسلام ومن أمثال المفكر الفرنسي «جارودي» — الذي أسلم حديثاً — وذلك لوضع خطة لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية في الغرب وكشف أساليب التضليل الصهيوني السائدة في أوربا والولايات المتحدة.

(صفحات ١٤٣ — ١٤٦)

(٥) ترجمة إسلامية لمعاني القرآن الكريم: في الوقت الذي يهتم النصارى والهيئات التبشيرية النصرانية بترجمة كتابهم المقدس إلى كل لغات البشر يترك المسلمون القرآن الكريم نهباً لجهات غير مسئولة أو الجهات النصرانية التي همها التحريف والكيد والنيل من الإسلام. ان ترجمة معاني القرآن الكريم بإشراف إسلامي سيلبي حاجة الغالبية المسلمة في شتى أنحاء العالم من غير الناطقين بالعربية ويحميهم من الترجمات الفاسدة التي قام بها بعض المستشرقين والمنصرين. (صفحات ١٤٧ — ١٤٨).

(٦) تنقية التراث الإسلامي : يرى المؤلف بأن التراث العربي الإسلامي والذي يعد أغنى تراث في العالم جدير بالاهتمام به وذلك بالاستفادة من كل الوسائل والأساليب الحديثة التي تفيد في تنميته وتطويره بما لا يتعارض مع مقوماته الأساسية. والواجب الإسلامي يقتضي أن نعمل على تنقية هذا التراث من الجوانب الغثة والسلبية لكي لا نعطي الفرصة للبعض في تغليب الجانب السلبي على الجانب الإيجابي في بعض الأحوال. ويشير المؤلف في هذا الصدد لبعض الخرافات والأوهام والاسرائيليات التي تضمنتها بعض كتب التراث. (صفحات ١٤٨ — ١٥٠).

(٧) الحضور الإسلامي في الغرب: علق المؤلف على ضعف الحضور الإسلامي في المؤسسات العلمية مثل الجامعات في الغرب واقترح إدخال العلوم العربية والإسلامية فيها وذلك عن طريق الاتفاقات الثقافية وتبادل الأساتذة للتدريس في معاقل الاستشراق وبذلك يمكن تصحيح التصورات الغربية عن الإسلام بالعمل العلمي. (صفحات ١٥٠ — ١٥٢).

(٨) الحوار مع المستشرقين المعتدلين: ومن الأساليب التي أشار إليها المؤلف فتح قنوات الاتصال المستمر مع المستشرقين المعتدلين في شكل لقاءات وندوات تجمع بينهم وبين العلماء المسلمين وسيكون لهذا الاتجاه أثره الإيجابي دعماً لمواقف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هؤلاء المستشرقين وتشجيعاً لاتجاهاتهم حتى تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة تياراً عاماً في الغرب من ناحية وترشيدا للمثقفين المسلمين المتأثرين بالأفكار الاستشراقية من ناحية أخرى (ص ١٥٢).

(٩) وفي ختام هذا الفصل وفي عرضه لبعض الأساليب التي يمكن أن تساعد المسلمين على الوصول إلى أهدافهم في مجابهة التيارات الفكرية المناوئة للإسلام والمسلمين يقترح المؤلف إنشاء دار نشر إسلامية عالمية لتقوم بنشر المطبوعات الإسلامية بكافة اللغات حتى لا تظل المؤلفات الإسلامية باللغات الأجنبية تحت رحمة الناشرين الغربيين. كما تقوم هذه الدار أيضاً باصدار صحف ومجلات إسلامية بلغات مختلفة تكون وسيلة للربط بين المسلمين في كل مكان جمعاً وتوحيداً لصفوفهم والعمل على تعريفهم بقضايا الإسلام وترتبط بهذه الدار وكالة أنباء عالمية تكون هي المصدر الذي يستقى منه الغرب معلوماته عن العالم الإسلامي وليس العكس. (ص ١٥٣).

والتنصير وإن لم يكن هناك تماثل بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الأنجيلي ولكن يمكن القول بأن التحالف بين الجانبين لا يزال مستمراً بشكل من الأشكال حتى العصر الحاضر (صفحات ٢٧ ــ ٣١) والمتأمل لبعض الدراسات الاستشراقية الحديثة الخاصة بالإسلام ودوره التاريخي في أفريقية مثلاً يكتشف أن بعض المستشرقين مثل سبنسر تريمنجهام قد جمع بين الأكاديمية والصليبية. ففي الوقت الذي تبشر فيه الدول الاستعمارية بالعلمانية تركت للكنيسة الغربية في أغلب أقطار أفريقية الدور الأكبر لتوجيه التعليم والثقافة. ومن هذا المنطلق أصبح القس تريمنجهام العضو العامل النشط في جمعية الكنيسة التبشيرية (C.M.S.) التي كان سكرتيراً عاماً لها في السودان في مطلع الثلاثينات من هذا القرن ــ يشغل في الستينات كرسي الأستاذية للدراسات العربية والإسلامية في الجامعة الأمريكية ببيروت كما أصبح مرجعاً أساسياً لدراسة الإسلام في أفريقية في المؤسسات الأكاديمية التي انتهجت التقليد الغربي[٦].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الملاحظات والتعليقات :

(١) مما لا شك فيه أن هذا الكتاب يتضمن آراء طيبة . فقد تناول المؤلف بصورة علمية دقيقة موضوعاً على درجة كبيرة من الأهمية يتعلق بالتحدي الفكري الذي يواجه العالم الإسلامي من قبل الدراسات الاستشراقية. وقد احتوى على معلومات قيمة ومفيدة مبثوثة في ثنايا الكتاب واعتمد مؤلفه المنهج العلمي الوثائقي تحليلاً ودراسة ووصولاً إلى النتائج ومن ثم أحسن وأجاد في تشخيص الداء وقدم السبل والأساليب الفكرية التي ينبغي على المسلمين انتهاجها لاثبات ذاتيتهم وحماية معتقداتهم وفكرهم وحضارتهم. هذا الجهد العلمي سيكون إضافة رائعة إلى الدراسات الجادة والقيمة التي وضعها نفر من العلماء الغيورين من أمثال عبد اللطيف الطيباوي[١] ومحمد البهي[٢] وأدوار سعيد[٣] وقاسم السامرائي[٤] وسامي الصقار[٥] وغيرهم.

(٢) يلقي الكتاب الضوء على التجاوب المتبادل بين الاستشراق

(٣) يفيدنا الكتاب في تناوله لنشأة الاستشراق وتطوره بأن هناك اتجاهين مختلفين أولهما الاتجاه اللاهوتي النصراني الذي نشط في وقت مبكر ضد الإسلام وراح ينشر الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم. وتعرض أيضاً بالتفصيل والشرح للاتجاه الآخر الذي اتسم بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة التعاليم الإسلامية بطريقة «موضوعية موجهة» (صفحات ٢٢ ــ ٢٧). وقد أحسن المؤلف في عرض هذه المواقف الاستشراقية مع تباينها الطفيف في ذلك الوقت المبكر لحركة الاستشراق في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد. وفي دراسة تحليلية لهذه الظاهرة فقد قام الدكتور قاسم السامرائي بالقاء الضوء على الموقف الاستعلائي للمستشرقين ونظرة الاحتقار التي جاءت من تأثير البابوية ووعاظ الكنائس والقسس والرهبان مما خلق فيهم حالة نفسية استعلائية صبغت العقلية الغربية والفكر

الغربي في القرون الوسطى. هذه المشاعر انعكست عملياً على علاقة أوربا بالإسلام والمسلمين وأبرزت بوضوح البطش الكنسي والرمي بالزندقة وتحريم تداول الكتاب وعملية الإجهاض الفكري الذي مارسته الكنيسة والبابوية في أوربا والتي أدت لطرد الأمبراطور فردريك الثاني حاكم صقلية من الكنيسة عام ١٢٣٩ لما أبداه من تعلق وشغف بالثقافة العربية ومن مظاهر الود تجاه الإسلام كما أفادنا مؤلف هذا الكتاب الذي أشار في موضع آخر من كتابه للتشريد والاضطهاد الكنسي الذي تعرض له المستشرق الألماني يوهان رايسكه في القرن الثامن عشر (صفحات ٢٧ و٣٥) الذي أوجد مكاناً بارزاً للدراسات العربية في المانيا. وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى ما ذكره العلامة المسلم أبو الحسن على الندوى عن شقاء أوربا وجناية رجال الدين على الكتب الدينية واضطهاد الكنيسة للعلم والآثار الخطيرة التي ترتبت عليه من بعد عن الدين والارتماء في أحضان المادية(٨).

(٤) ومن القضايا الرئيسية التي عالجها هذا الكتاب علاقة الاستشراق بالاستعمار. وفي تناوله لهذا الموضوع تعرض المؤلف للدور الذي لعبه المستشرق الألماني كارل هينريش بيكر مؤسس (مجلة الإسلام) الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في أفريقية (صفحة ٤٤) ويحضرني وأنا اطلع على هذه المعلومة المفيدة البحث الذي كتبه بيكر عن الإسلام في أفريقية الشرقية في الفترة التي هيمن فيها الاستعمار الألماني على منطقة تانجانيقا سابقاً والمعروفة بتنزانيا حالياً. إذ كان من ضمن همومه واهتماماته وهو يعمل في المعهد الاستعماري (Kolonoalinstitut) الذي أصبح فيما بعد جامعة هامبورج — مشاكل وشؤون الاستعمار الألماني آنذاك. وقد أعتبر كثير من المستشرقين المعاصرين والباحثين في تاريخ الإسلام في أفريقية في التقليد الأكاديمي الغربي أن اسهام بيكر في هذا المجال من الأعمال الرائدة، إذ احتوى هذا البحث على كثير من مصادر تاريخ الإسلام في تلك المنطقة. وقد أوضح بيكر نفسه بأن اهتمامه بهذه الدراسة نابع من ظاهرة انتشار الإسلام بصورة مطردة في المستعمرات الألمانية ومفهوم الخلافة والجامعة الإسلامية السائد في ظل السلطان العثماني مما يشكل تهديداً مستمراً للرايخ الألماني(٩).

(٥) تعرض المؤلف في كتابه أيضاً لدور المستشرق الهولندي (سنوك هورخرونية) في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولندية في الهند الشرقية (صفحات ٤٥ — ٤٦).

كما أشار إلى دائرة المعارف الإسلامية من ضمن المؤلفات ذات القيمة العلمية من أعمال المستشرقين على الرغم من المآخذ الكثيرة عليها (صفحة ٦٨) ولعله من المفيد في هذا الإطار الربط بين جهود هؤلاء المستشرقين واسهامهم في دائرة المعارف الإسلامية التي هي بحق مدونة الاستشراق الكبرى. وما دام الشيء بالشيء يذكر، فإن «سنوك هورخرونية» انبرى ليسخر دراساته الاستشراقية في الذود عن مصالح الاستعمار الهولندي وقد أفادنا الدكتور قاسم السامرائي بأنه قد أبدى الوجه الاستعماري سافراً في قولته المشهورة: «إن الاستعمار الهولندي هو قضاء وقدر ويجب التسليم به». ومضى الدكتور السامرائي معلقاً على اتجاهات وأهداف «سنوك هورخرونية» الاستشراقية في الآتي :

«.. وليس عبثاً أن يعد كريستان سنوك هورخرونية رائد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوربا لأنه لم يترك أية مناسبة في كتاباته دون أن يؤكد على أن الشريعة الإسلامية المستندة على القرآن والسنة موجودة في الكتب النظرية أما عملياً فإنها لا تصلح لإقامة نظام سياسي يقوم عليهما فأنكر ولج في انكار الدور السياسي للقرآن والسنة لأن خطته الكبرى كانت تدور على ربط المستعمرات الهولندية في أندونيسيا بروابط ثقافية (أوربية) بهولندا فتسلب هذه الوحدة «كل خلاف ديني من أهميته السياسية والاجتماعية» وقصد «سنوك هورخرونية» إبدال الإسلام بثقافة أوربية وعندها تسهل التبعية السياسية والدينية.»(١٠)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولعل حديث الأستاذين الدكتور محمود حمدي زقزوق والدكتور السامرائي عن هذا المستشرق الهولندي يدفعني أن أشير إلى الأخطاء وسوء الفهم للفقه والشريعة الإسلامية الذي برز في بعض المسائل التي تنسب إليه في دائرة المعارف الإسلامية. وهذا دليل آخر لأخطائه الفاضحة والمتعمدة في إنكار دور الشريعة ومفهوم الوصاية الذي بلغ به حداً بأنه مؤهل لأن يرى المسلم كيف ينبغي أن يكون مسلماً وليس أدل على ذلك من ادعائه بأن تحريم أكل لحم الخنزير والختان مسائل شكلية أستحوذت على اهتمام العامة من المسلمين وغير المسلمين وهي لا تجد سنداً شرعياً في كتب الفقه وهما في نظره في مرتبة واحدة من الأهمية(١١). والمعروف بأن الختان هو سنة رسول الله أما تحريم أكل لحم الخنزير على المسلمين فقد ورد في محكم التنزيل الكريم. قال تعالى .

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به...»(١٢)

(٦) قد أحسن المؤلف وأجاد في الإشارة إلى التأثير الاستشراقي على العالم الإسلامي في الأخذ بالأنموذج الغربي في الإصلاح في جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف إلزامية ويتم بذلك ابعاد الدين كلية عن التدخل في الشؤون الحياتية وقد قام الاستعمار بالتخطيط المدروس لاضعاف العالم الإسلامي ومنع أي محاولة لجمع شمل المسلمين مرة أخرى. (الصفحات ٩٧ ــ ٩٩) وفي اعتقادي إن من الموضوعات الملحة التي ينبغي تصحيحها وتنقيتها من آثار الهجمة الصليبية والاستعمارية التي انعكست في مناهج دراسة التاريخ تلك الحملة المسعورة والتشكيك في الخلافة العثمانية والجامعة الإسلامية وبخاصة ضد السلطان عبد الحميد الثاني. ان وجود هذه المناهج والكتابات الأخرى التي تتعلق بدراسة الإسلام في أ ريقية مثلاً وبخاصة تلك المفاهيم والتصورات والمناهج والمتمثلة في فروع علمية ثلاثة: هي الاستشراق والأفريقية (Africanisan) والانثروبولوجيا (Anthropology) والتي نشأت والمد الاستعماري الثقافي والحضاري قد اشتد وبلغت نصوصها عندما وصل المد الاستعماري أوجه مع اتمام احتلال أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي(١٣) أن الابقاء على هذه المناهج توفر على المستشرقين والمنصرين بذل الجهد في هذا السبيل وبذلك يمكن تحقيق الأهداف التي عاشوا قروناً طويلة يعملون من أجلها. ولعل أخطر الأهداف التي أولتها حركة التنصير أهمية قصوى هو عزل الأمة عن ثقافتها وذاتيتها ومزاجها النفسي فصموئيل زويمر كبير المنصرين في العالم العربي منذ فترة تربو على ستين عاماً أوضح ذلك بجلاء ووضوح حين قال:

«إن أهم عمل لاخضاع العرب والمسلمين لا يتم عن طريق الجيوش والاحتلال وإنما يتم عن طريق الثقافة والدين بإخضاع المسلمين للثقافة الغربية وذلك ينتزع منهم أبرز ما في الإسلام من علامات القوة والجهاد والمقاومة والوحدة لذلك فإن علينا أن نضمن مناهج التعليم والثقافة ما يؤدي إلى هذا الاتجاه...»(١٤)

(٧) في دراسته نماذج من آراء المستشرقين حول الإسلام تناول المؤلف موضوع الفلسفة الإسلامية وميل بعض من المستشرقين إلى تجريد العقلية الإسلامية من كل لون من ألوان الابداع الفكري والأصالة وتعرض في هذا الصدد لرينان وكارل هينريش بيكر وجوتيية ودعواهم التي تقوم على أساس عنصري وقد أحسن في دحض هذه المفتريات بطريقة منهجية وموضوعية تنبع من الرّوح والفكر الإسلامي. (صفحات ١١١ ــ ١١٤) إلا أن المتأمل للفكر الفلسفي في أوربا والغرب اللاتيني يجد أنه من الثابت تاريخياً بأن فلسفة ابن رشد قد انتشرت انتشاراً عجيباً وأثرت على علماء النصرانية وتلاميذهم إلى حد لم يصل إليه مؤلف غيره. وفي حديثه عن تسرب التحرر الفكري وأثر فلسفة ابن رشد في الفكر الأوربي يذكر الدكتور السامرائي:

«ظلت فلسفته المذهب السائدة على الرغم من ردود الفعل العنيفة أربعة قرون، ولقد بقيت فلسفته بكل حسناتها وبكل ما أضيف إليها من أخطاء عاملاً حياً في الفكر الأوربي حتى ولادة العلم التجريبي الحديث. بل إن فلسفة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابن رشد العقلية أصبحت جزءاً لا ينفصل من الفكر الأوربي اليوم». ويضيف دكتور السامرائي في مكان آخر من كتابه: «لقد تعلمت أوربا نهجاً جديدا من المسلمين وهو «وضع العقل فوق الحكم» فرفض العلماء كل «المسلمات» التي لم يجز النقاش فيها، وهم بذلك قد اتخذوا الاستقلالية في الأحكام المبنية على الشك طريقاً إلى التسليم أو الرفض».(١٥)

(٨) في استعراضه لما يتطلبه العمل الإسلامي من أساليب لمواجهة التيارات الفكرية الغربية المعادية للإسلام أشار المؤلف في كتابه إلى ضرورة إنشاء جهاز عالمي للدعوة الإسلامية من أهدافه الدعوة للإسلام من ناحية ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية ويحمي المسلمين بالوراثة من ناحية ثالثة. (صفحات ١٤٣ — ١٤٦) والمعروف أن هنالك مؤسسات إسلامية كبيرة قائمة تعمل الآن في حقل تأهيل الدعاة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي وفي طليعتها المملكة العربية السعودية. فقد تم إنشاء معاهد متخصصة في الجامعات الإسلامية تستقبل الدارسين من شتى الأقطار الإسلامية والأوربية. وعلى سبيل المثال لا الحصر المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض ألذي انشىء في عام ١٣٩٦ هـ كما تم إنشاء فرع له بالمدينة المنورة في عام ١٣٩٨ هـ وهما من المعاهد التابعة لجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية وقد جاء في أهداف التأسيس ما يلي:

١ — خدمة الدعوة الإسلامية والعمل على إيجاد جيل من الدعاة الإسلاميين على درجة عالية من الكفاية والوعي ليحملوا رسالة الإسلام ويسهموا في نشرها في جميع أنحاء العالم.

٢ — القيام بالبحوث والدراسات المتخصصة التي تقتضيها أهداف الدعوة.

٣ — دراسة قضايا العالم الإسلامي دراسة مستفيضة.

ولما كانت الدعوة الإسلامية يضطلع بها القادرون عليها، مهما كانت ثقافتهم الأساسية فان المعهد يقبل المتخرجين من الجامعات أياً كانت طبيعة دراستهم الجامعية نظرية أم عملية والدراسة بالمعهد أربع سنوات : السنتان الأولتان منها دراسة تأهيلية تعد الدارس للالتحاق بعدها بالدراسات العليا (مرحلة الماجستير) لمدة سنتين أيضاً وأقسام المعهد هي :

١ — قسم الحسبة.

٢ — قسم الإعلام(١٦)

٣ — قسم الاستشراق (بالمعهد العالي للدعوة الاسلامية بالمدينة)

وبدعم من الدول الإسلامية يقوم المركز الإسلامي الأفريقي في الخرطوم أيضاً بدور واعد في نشر الثقافة الإسلامية والعربية في أفريقية. وبالتالي قد كنت أتوقع من المؤلف الكريم أن يضمن كتابه الدور الكبير الذي تلعبه تلك المؤسسات الإسلامية في خدمة متطلبات العمل الإسلامي المنوطة بها وتقويم هذا الدور بإلقاء الضوء على الجوانب الإيجابية والسلبية على حد سواء حتى نتمكن من الاسهام في ترشيدها ودعمها بدلاً من تبديد الجهد والمال في قيام مؤسسات مكررة خاصة والمؤلف نفسه قد ذكر:

«... ومن الخير للإسلام والمسلمين أن تتوحد الجهود وتتوفر الامكانات على إنجاز أعمال غير مكررة»(ص١٤٣).

(٩) أن الاستشراق ليس كله شر محض. إن الروح الإسلامية التي تؤكد على النزاهة والحياد تقتضي الإشارة والتنويه بالجوانب الإيجابية والانتفاع بالأعمال الجيدة.. فقد أفادنا المؤلف في الفصل الثاني من كتابه بأن بعض مؤلفات المستشرقين ذات قيمة علمية واكتفى بالإشارة إلى تاريخ الأدب العربي بروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية وجهودهم في مجال المعاجم والقواميس اللغوية وأشاد بصفة خاصة بالمعجم المفهرس لالفاظ الحديث الشريف الذي يشمل كتب الحديث الستة (صفحات ٦٦ — ٧٠) .

ولعله من المفيد أن أشير في هذا الصدد إلى البحث القيم الذي أسهم به الدكتور سامي الصقار الأستاذ بكلية الآداب جامعة الملك سعود عن الجوانب الإيجابية لنشاط المستشرقين البريطانيين والذي تناول فيه الجهود التي بذلوها في إنشاء الكراسي لتعليم اللغة العربية واللغات الشرقية في الجامعات البريطانية، وجهودهم في جمع كتب التراث العربي والإسلامي وفهرستها وصيانتها من التلف في عدد من المكتبات الكبيرة، فضلاً عن تحقيقها ونشرها، ووضع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسس مناهج التحقيق وقواعدها الدقيقة، وكذلك جهودهم في ترجمة الكثير من الكتب العربية والإسلامية وتقديمها إلى العالم الغربي. علاوة على التأليف في الموضوعات ذات العلاقة بالإسلام والتاريخ الإسلامي واللغة العربية وآدابها. وقد دعم الدكتور الصقار بحثه بنماذج لهذه الجهود وباستقصاء لمنشوراتهم التي تناولت تحقيق التراث الإسلامي والترجمات وجهودهم في ميادين التصنيف عن تراث الشرق وجمع الآثار وإنشاء المتاحف.[١٧]

(١٠) وقعت في الكتاب بعض الأخطاء المطبعية الضئيلة والتي لا تكاد تذكر وهو أمر يهنأ عليه القائمون بأمر الطباعة وفيما يلي الأخطاء التي عثرت عليها وتصويبها:

الصفحة: ١٠ السطر ٥. الخطأ: يصف العلاجوين. الصواب: يصف العلاج ويبين الخطة. الصفحة ٧٠ السطر ٤. الخطأ: الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٦. الصواب: الفترة من علم ١٩٣٦ حتى عام ١٩٦٩[١٨]. الصفحة ١١٥ : الحاشية (٧٢). الخطأ: انضر. الصواب: انظر.

(١١) هذه الملاحظات والتعليقات التي ابديتها بالطبع لا تقلل من الجهد الكبير والإسهام المقدر في هذا الكتاب وإنما تؤكد وتدلل على أهمية الموضوع الذي تناوله المؤلف بالبحث خاصة في هذه الفترة التي يتربص فيها بالأمة الإسلامية الدوائر.

الحواشــي

(١) المستشرقون الناطقون بالانجليزية وكان الكتاب قد صدر بالانجليزية تحت عنوان **English Speaking Orientalists, (Islamic Centre - Geneve 1385 - 1965)** وقد نقله الدكتور محمد فتحي عثمان إلى العربية. ونظراً لأهمية البحث الحقه الدكتور محمد البهي بكتابه **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.**

(٢) **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار** (بيروت ــ ١٩٧٣).

(٣) **الاستشراق** وقد صدر هذا الكتاب بالانجليزية تحت عنوان **Orientalism (London 1978)** وقد نقله كمال أبو ديب إلى العربية ــ مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ١٩٨١.

(٤) **الاستشراق بين الموضوعية والإفتعالية**. منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع. الرياض ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣م.

(٥) **الجوانب الإيجابية لنشاط المستشرقين البريطانيين** ، مجلة كلية الآداب ــ جامعة الملك سعود ــ المجلد التاسع، (١٩٨٢).

(٦) أنظر إسهام البروفسير تريمنجهام في حقل التأليف التاريخي الإسلامي في أفريقية والذي شمل جميع أنحاء القارة تقريباً والذي استهدف فيه باسم البحث العلمي نقاط الضعف والثغرات في المجتمعات الإسلامية في أفريقية خدمة لأهداف العمل التنصيري. ومن كتبه في هذا المجال:

Trimingham, J.S., The Christian Approach to Islam in the Sudan, (London 1948).

Trimingham, Islam In West Africa, (Oxford, 1975)

Trimingham, A History of Islam In West Africa, (Oxford, 1970).

Trimingham, Islam In East Africa, (Oxford, 1964).

Trimingham, The Influence Of Islam Upon Afirca (London, 1968).

وقد قام كاتب هذه السطور بمحاولة لمعالجة التحديات التي تواجه الباحث في هذا المضمار والذي يتعلق بغلبة المصادر النصرانية والاستشراقية في دراسة تاريخ الإسلام في شرق أفريقية وإلقاء الضوء على المصادر المتاحة، وذلك ببحث كان قد نشرته عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض أنظر: صغيرون: (مصادر تاريخ الإسلام في أوغندا «دراسة نقدية وتحليلية») ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة الرياض. المجلد السادس (١٩٧٩).

(٧) أنظر السامرائي: **الاستشراق بين الموضوعية والافتعال**. صفحات ٦ ــ ٣٠ و٣٣ ــ ٣٨.

(٨) أبو الحسن علي الحسني الندوي : **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** دار القلم بالكويت ١٤٠٢ ــ ١٩٨٢م ــ صفحات ١٩٠ ـ ١٩٤.

(٩) قد نشر هذا البحث في صورته الأصلية أول مرة في الدورية الألمانية (مجلة الإسلام ــ **Der Islam**) في عام ١٩١١، الجزء الثاني، صفحات ١ ــ ٤٨ تحت عنوان :

Materialen Zur Kenntnis des Islam in Deutsch - Ostafrika»

وقد قام بترجمته إلى اللغة الانجليزية الدكتور ب.ج. مارتن الذي نشره بدوره في مجلة (تنزانيا في مدونات ورسائل) التي تصدر في دار السلام، المجلد رقم ٦٨، عام ١٩٦٨م، الصفحات ٣١ ــ ٦١ تحت العنوان الآتي:

Materials for The Understanding of Islam in German East Africa, Tanzania Notes and Records, No. 68, (1968), by H. Becker. (Edited and translated by B. G. Martin).

(١٠) أفرد الدكتور السامرائي فصلًا كاملاً اتبع فيه منهجاً وثائقيا رائعاً للحديث عن الاستشراق في هولندا في كتابه: **الاستشراق بين الموضوعية والإفتعالية**، أنظر الدراسة التحليلية الوافية عن المستشرق الهولندي «سنوك هورخرونية» في الصفحات ١٠٨ ــ ١٣٧.

(١١) جاء هذا الحديث على لسان «سنوك هورخرونية» في دائرة المعارف الإسلامية في النص الآتي :

«To The Uneducated mass of Muslims» Says Smouk Hurgronje: «as well as to the great mass of non - Muslums, both of whom Pay the greatest attention to formalities, abstention from pork together with Circumcision, have even become to a certain extent the Critererion of Islam. The exaggerated estimation of the two precepts find no support in the law, for here they are on the same level with numerous other precepts, to which the mass attaches less importance.» (Houtsma , M.T., and Wensinck edit., Encylopaedia of Islam Vol 11, E—K, (Leyden and London, 1927), pp. 956 - 960.

(١٢) سورة المائدة : الآية ٣٠ والأنعام : الآية ١٤٥ والنحل: الآية ١١٥.

(١٣) تناول الدكتور عز الدين عمر موسى الأستاذ بجامعة أحمد بيلو ــ زاريا ــ نيجيريا. هذه الدراسة الظاهرة بالدراسة.

وتعرض للنتائج المنطقية المترتبة على الفرضيات النابعة من هذه المفاهيم على المجتمعات الإسلامية في مناطق في أفريقية. وعلى الزغم من أن جهود هؤلاء العلماء الذين اهتموا بهذه الفروع الثلاثة من المعرفة قد أدت خدمة جليلة للشعوب المستعمرة لا تنكر، وذلك بما أحيت ما درس من تراثها المكتوب، وبما جمعت ودونت من تراثها المتناقل شفاهة إلا أن الدكتور عز الدين يبدي هذه الملاحظات على المنهج الغربي الاستشراق وأهدافه:

«ولكن من الخطأ العظيم والوهم الكبير أن تعمى هذه الانجازات، على عظمها، أبصار الدارسين من أفريقية عما حققته دراسات الاستشراق وعلماء الأفريقيات والانثروبلوجيا من مسخ لحضارة الانسان المستعمر المستغل في أفريقية، وتشويه معالم تلك الحضارة وخصائصها الأصلية، بغية الابقاء على حالة الاستعمار بعد رحيل جيوش الاستعمار. وذلك باستخلاف خلف يرعون النبت ويتعهدونه بالري والنماء. ولقد تم التشويه والمسخ باستخدام مفاهيم معينة، واختيار ظواهر تاريخية بعينها ، واثارة أسئلة موحية تفضي إلى إجابات متوقعة. وكل ذلك في إطار منهج معالمه تؤدي إلى نتائج مسبقة وتصورات موضوعة سلفاً.

وهذه الخصائص التي صبغت تلك الفروع من المعرفة الأوربية سادت، ولا تزال تسود، دراسات علماء تلك الفروع الدراسية، مستترة أحيانا وسافرة في بعض الأحيان، محلاة بوشى الموضوعية ومتشحة بثوب المنهجية والعلمية، ولكن لا تختلف عن سابقاتها من دراسات إلا في رفض بعض التفاصيل والخروج بحقائق جديدة لا تنفي النتائج القديمة وإنما تؤكدها».

أنظر عز الدين عمر موسى: «الإسلام وأفريقية» في ندوة «العرب وأفريقية» ٢٥ ــ ٢٩ نيسان / أبريل ١٩٨٣ ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ منتدى الفكر الأدبي ــ عمان ــ الأردن. صفحات ١٢ ــ ١٣.

(١٤) من كتاب صموئيل زويمر وعنوانه «الاسلام ماضيه وحاضره ومستقبله» (١٩٢٣) وقد علق عليه الأمير شكيب أرسلان في مقالة عنوانها «المبشر زويمر ومفترياته» في **حاضر العالم الإسلامي**، المجلد الأول، صفحات ٢٧٨ ــ ٢٨٢، (القاهرة ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٣).

(١٥) أنظر السامرائي: صفحات ٢٥ ــ ٢٧، ٣٨ ــ ٣٩، ٤٦ ــ ٤٩، ٧٣ ــ ٧٩، ٨٠ ــ ٨٣، ٨٣ ــ ٩٢.

(١٦) أنظر دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ــ ١٤٠١ هـ.

(١٧) سامي الصقار: الجوانب الإيجابية لنشاط المستشرقين البريطانيين، مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، المجلد التاسع (١٩٨٢) ص ص ١٥٩ ــ ٢٢٨.

(١٨) قد تم نشر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف في سبعة مجلدات وتواريخها كالآتي :ــ

المجلد الأول ١٩٣٦، الثاني ١٩٤٣، الثالث ١٩٥٥، الرابع ١٩٦٢، الخامس ١٩٦٥، السادس ١٩٦٧، السابع ١٩٦٩ «الناشر مطبعة برل ــ مدينة ليدن هولندا».

الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر

لعدنان وزان

وزان، عدنان محمد/ الاستشراق والمستشرقون : وجهة نظر. ــ مكة المكرمة : رابطة العالم الاسلامي، ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤م ، ٢١١ ص (دعوة الحق ــ ٢٤).

يشخص المؤلف كتابه هذا بعنوان فرعي هو «وجهة نظر». وفي «تقديم» الكتاب يجلي هذا الموقف بقوله : «ولست أزعم أن هذا البحث هو دراسة متخصصة عن الاستشراق والمستشرقين، ولكن بعض المواضيع والمباحث تدفع المتخصص وغير المتخصص للبحث فيها». ثم يعلن عدنان الوزان على ربط عمله هذا بواجب الجهاد في سبيل دعوة الحق. وفي فقرة أخرى يقول الوزان: «والحقيقة إن الذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع هو رغبتي في المشاركة ببعض ما مرّ بي من مواقف وأحداث فترة دراستي في بلاد الغرب وبالذات مع المستشرقين». ويسرد المؤلف واقعة تعرّض فيها المستشرق القس مونتجمري وات للاسلام بوصفه بما ليس فيه، وكيف يرضى الطلبة المسلمون الضعفاء بمثل ذلك التجريح لكن لا يرضى الغيورون على إسلامهم إلا بالمعارضة المفحمة للمستشرقين.

يستوعب الكتاب بجانب المقدمة والخاتمة القصيرتين سبعة فصول. وقد جاءت هذه على التوالي: الاستشراق تعريفه وتاريخه، الاستشراق أهدافه وأغراضه، غاية خطيرة للإستشراق ، طبقات المستشرقين وأنواعهم، لا موضوعية عند المستشرقين، حاضر الدراسات الاستشراقية، وأخيراً، الإسلام في الآداب العربية. وألحق الوزان بكتابه قائمة تضم أعلام المستشرقين الغربيين وقد رتّبوا أبجدياً حسب بلدانهم. لكن قائمته لم تضم سوى هؤلاء الذين انتموا إلى فرنسا، المانيا، ايطاليا، اسبانيا، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي. ويختم الكتاب بقائمة مراجع بالعربية والإنجليزية.

كان من الطبيعي ، طالما جند الكاتب نفسه للجهاد في سبيل دعوة الحق، وهو أمر يجب على كل مسلم، كان من الطبيعي عندئذ أن يطّلع الوزان على مؤلفات علماء المسلمين الذين نافحوا المستشرقين وآراءهم طوال القرن الماضي، إن لم يتعد ذلك. وقد ضمت قائمة هؤلاء العلماء رجالا مثل ابراهيم خليل أحمد، محمد أسد (مستشرق مسلم)، محمد البهي، أنور الجندي، علي جريشه، محمد محمد حسين، نذير حمدان، عبد الجليل شلبي، مصطفى السباعي، محمد عبدالفتاح عليان، عبد الحليم عويس، محمد الغزالي، عمر فروخ، سيد قطب، عبدالحليم محمود، وأبو الأعلى المودودي وعلى مؤلفات هؤلاء العلماء، في ردهم العنيف على المزاعم الباطلة والخاطئة للمستشرقين، بنى الوزان معظم نقاشه في الكم الأكبر من فصوله وفقراته. ورغم أن ردود غير الفقهاء من مثقفي المسلمين والعرب على الاستشراق الخاطىء قد وجد حيزاً في مراجع الوزان، إلا أنه لم يرض لحواره أن يتقعّر على أساس غير المنافحة الطالعة من حماس ديني مغضب. فالكاتب قد أطلع على عمل إدوارد سعيد، محمد غنيمي هلال، طيباوي، نجيب العقيقي، هشام شرابي ، عبدالله العروى، رودي بارت وطه حسين. لكن الوزان يجعل استعانته بآراء إدوارد سعيد ورودي بارت وطيباوي ونجيب العقيقي وغنيمي هلال محصورة في استخراج العصبية الغربية المعادية للإسلام. أما عبدالله العروي وطه حسين ومعهما «مستغربين»، إن صح التعبير، أمثال فيليب حتي، عطيه سوريال، جورج والبرت حوراني، نجيب العقيقي، جرجي زيدان، نجيب محفوظ، نبيه فارس، فتحي غانم، جورج نقاش، الطيب صالح وغيرهم وغيرهم، فكلهم ذيول للاستشراق وأدوات هدم ضد الإسلام. وهذا موقف لا شك ينبع من ذلك الجهاد الذي يضعه الوزان نصب عينيه في المبتدأ ثم يخلص له. وبالطبع فإن هذا الموقف لا يجد من المسلم إلا التأييد،

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن هذا التضييق، وعلى المستوى الثقافي العريض، يحطم الجسور التي كان يمكن إقامتها في الوسط لإجراء نقاش هادف وهادىء يوضح إلى أي حد، وفيم، وكيف تجرأ كل فرد من المستشرقين وأذيالهم على طعن الإسلام والمسلمين والنيل منهم.

الشاهد على المنهج الضيق في كتاب الوزان هو قوله في الفصل الأول، «والمستشرقون جميعاً متفقون في عدائهم للاسلام مع تجاهلهم لحقيقته وعدم اتقانهم للغة العربية ومن يعرف اللغة العربية منهم قلة». وحينما يحصر الكاتب صفات المستشرقين كما يجملهم، حسب ايراده، مصطفى السباعي، يضيف إلى سوء ظنهم عملهم المقتصر على: «تصوير الحضارة الاسلامية تصويراً دون الواقع وتهوين شأنها واحتقار آثارها ومسناهماتها». هذه التعميمات المطلقة هي ما أسميناها «افتقاد النقاش الهادىء الذي يضع كل شيء في نصابه». إذا كان المستشرق مسلماً فهل هو مستشرق أم شرقي؟ أين جارودي مثلاً من هذين الموضعين؟ أو قل موريس بكاي؟ أو حتى عبد الكريم جرمانوس؟ ليس في عمل هؤلاء عداء للإسلام، وقد تكون هنالك أخطاء كما في كتب المسلمين، متصوفة وفلاسفة وشيعة وخوارج وغيرهم. يكتب رضوان السيد نقداً طريفاً للإزدواجية في تقدير الأزهريين لزيارات ومحاضرات جويدي ونلينو وجارودي ورودنسون في الجامعات المصرية، وتقديرهم شفوياً والاستعانة بكتاباتهم التي وافقت الرؤيا الاسلامية للأشياء، ثم مهاجمتهم دوماً على أساس نظرية التآمر ضد الإسلام، وبصورة عمومية.[1] أما عن الحضارة الاسلامية فمن الذي ينكر كتاباً مثل مؤلف زيغريد هونكه الذي جرّ عليها في الغرب كله تهمة التعصب للمسلمين العرب؟ ومن يستطيع أن ينكر فضل نورمان دانيل في كتبه الثلاثة حيث كشف مآخذ التعصب الغربي ضد الإسلام والمسلمين منذ ظهور الاسلام حتى الحرب العالمية الأولى؟.

ذلك التعميم عن سوء نوايا الغربيين «ككلهم» تجاه المسلمين والعرب قد يقود أي كاتب كان إلى شيء من المبالغة. وإحدى هذه المبالغات هي نظرة الوزان للعلوم الآتية من الغرب عامة. في الفصل الثاني يشير الوزان إلى سعي المستشرقين للتقليل من مواهب اللغة العربية، كما يرى، ثم يكتب :«فذهب المستشرقون إلى إحياء لغات قديمة وميتة من ذلك مثلاً ما فعله شمبليون الذي بحث في حجر رشيد وعمل على إحياء اللغة الهيروغلوفية في مصر وكذا ما فعله بعض المستشرقين في إحياء حضارات ولغات الأمم الأخرى وذلك بقصد قطع الصلة التي تجمع المسلمين والأمة الإسلامية بلغة القرآن الكريم .. فباسم البحث الجيولوجي تستر شمبليون في الدعوة إلى الهيروغلوفية وأنها لغة مصر الأولى وبهذا يسعى المستشرقون إلى تحقيق هدف القومية والشعوبية وربط الأمة الإسلامية بالأرض وبالآثار الجاهلية التي قضى عليها الإسلام بدلا من أن يكون ارتباط الأمة الإسلامية بالعقيدة والشريعة الإسلامية. وبالنظر إلى مثل هذه الأمور والبحث عن الآثار ومعرفة التركيب الطبقي للأرض والتحليل الجيولوجي والتربة والصخور كل ذلك وسيلة توصل إلى هدف من أهم أهداف المستشرقين وهو إحياء الجاهلية، والماضي الذي كان وبالاً على الأمم والشعوب».

لابد أن العقل لا يدعو إلى مثل هذه النظرة للجهود العلمية التي تأتي من كل بقاع العالم وتصل إلى كل الربوع. هنالك التخليط بين الجيلولوجيا والآركيولوجيا في المقتبس السابق. وهنالك التفرع العلمي الذي يجعل الدراسات المصرية والعراقية والفينيقية والنوبية والحميرية والنبطية القديمة في معزل تام عن الاستشراق وكذلك عن الدعوات العنصرية الحديثة التي تهدف إلى عزل الشخصية الإقليمية في لبنان أو مصر أو العراق عن التيار الإسلامي العربي الموحد. وثالثاً، فان المسمارية والمسند والهيروغليفية لغات غير حية ولا تحيا وحضاراتها بائدة واقعياً وباقية فقط كمعارف تاريخية. والتاريخ وعلم طبقات الأرض وما سواهما هي زاد للحاضر لا غنى عنها في بناء حضارة اليوم. هذه الرؤية وما شاكلها كانت نقمة على الفصول الوسطى من كتاب الوزان. وبقدر ما يعجب المرء بالحماس الاسلامي الذي يدفع بالكاتب قدماً من صفحة إلى أخرى، بقدر ما يتأسف على طمس الحماس الدفاق لمعقولية النقاش.

مثلاً مقطع كهذا: «فمن تعلم في فرنسا يرى القدوة كل القدوة في النظام الفرنسي، ومن درس في بريطانيا فالنظام البريطاني بالنسبة له هو المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى. وكذا الحال لمن تعلم في الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا. وهؤلاء الأشخاص كل منهم يحاول جاهداً في أن تطبق أنظمة تلك البلاد بخيرها وشرها في بلاد المسلمين ولو كان ذلك على حساب الاسلام وتعاليمه». هذا تعميم لا يجوز. فالمؤلف نفسه، وشيخ

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأزهر السابق عبد الحليم محمود وآلاف من المسلمين الحادبين على دينهم تعلموا في الغرب. والقلة لا تتخذ كقاعدة. وحتى نقفل هذا الباب نستعين برأي لحمد الجاسر سجله في مقدمة الترجمة لكتاب جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب. قرظ الجاسر هناك مجهودات مستشرقين من صنف فردنند وستنفيلد، دفيد هنري ملر ودي خويه ثم قال: «إن القارىء العربي كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، فالحق يجب قبوله، أياً كان مصدره، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره، وأولئك — بحكم بعدهم عنا، وجهلهم لأحوالنا في الماضي — تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما يكتب، عن بلادنا وتاريخنا، لنقبل الحق وننتفع به، وننفي الزيف ونأباه».(٢) هكذا يجب أن نوسع الآفاق.

أبدع الوزان في توجيه نقد صائب لمحاولات أقسام الاستشراق في الغرب احتضان بعض الطلاب المسلمين العرب وصبغهم بقدر هائل من النزق والشطط في نظرتهم للإسلام وحضارته. يرد هذا في الفصل السادس. هذا النقد يتماشى مع ما يوجهه إدوارد سعيد من نقد للتبعية السياسية والإقتصادية التي يتبعها الشرق حالياً تجاه الغرب. ويربط الوزان بين نقده هذا وبين لوم كثير يوجهه إلى الدول الاسلامية التي قدمت العون المادي لمعاهد الاستشراق في بريطانيا وأمريكا. ويظل أجمل فصول كتاب عدنان الوزان هو الفصل السابع حيث تابع بدأب شديد الأعمال الأدبية الغربية التي اعتمدت على رؤيا خيالية للمسلمين العرب. وكان الوزان مخلصاً لمنهجه الأول فعزا كل الرؤيات المشتطة للإسلام في هذه الأعمال إلى العداء التقليدي الغربي تجاه هذا الدين. ولربما صدق أيضاً أن الظلال الثقافية تلون المبدعات الخيالية رغم أنفها. فغير الوزان من كتب عن صيغة الاعجاب بشخصية صلاح الدين الأيوبي مثلاً، وفرسان العرب عامة، في الأدب الغربي. وفي الوقت الذي ينظر فيه الوزان إلى كتب الرحلات إلى الشرق كوسائل لمعرفة الأوضاع السياسية والعسكرية والجغرافية والتجارية والاستراتيجية لبلاد المسلمين يرى حمد الجاسر، وربما غيره أيضاً، فضل هؤلاء المغامرين في كشف الوقائع العلمية الجغرافية والتاريخية لتلك البلاد وهو أمر عجيب(٣). وعندئذ فلا مانع أن يكون للجهد البشري طرف مفيد وآخر مضر. وبهذا نصل إلى إدراك الطابع العام لاسهام هذا الكتاب في الحديث الطويل الباقي حول دور المستشرقين في عالم الإسلام.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هوامش

(١) رضوان السيد (١٩٨٣)، «ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق بالغرب» في مجلة الفكر العربي، الهيئة القومية للبحث العلمي، بيروت، ع ٣١ ج ٥ يناير — مارس ١٩٨٣، ص ص ٤ — ٢٣.

(٢) و(٣) حمد الجاسر (ب ت) تقديم ترجمة قدري قلعجي لكتاب جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب، بيروت، دار الكتاب العربي.

أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية

(لبرنارد لويس)

جعفر هادي حسن
لندن

لويس، برنارد/ أصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية ترجمة حكمت تلحوق. ــ بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٠.

The Origins of Ismailism. A Study of the historeical background of the Fatimid Caliphate.

هذا الكتاب هو من تأليف المستشرق الانجليزي برنارد لويس وهو يعد من المصادر المهمة الحديثة التي يرجع إليها في دراسة أصول العقيدة الاسماعيلية وتطورها. وقد صدر الكتاب لأول مرة بتاريخ ١٩٤٠م، وقد ترجم ــ على ما أعلم ــ إلى اللغة العربية مرتين: المرة الأولى قام بها باحثان عراقيان وهما: خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب وقد طبعت هذه الترجمة في بغداد وصدرت عن مكتبة المثنى عام ١٩٤٧. أما الترجمة الثانية فقد قام بها حكمت تلحوق وصدرت عن دار الحداثة في بيروت بتاريخ ١٩٨٠. والغرض من إعادة ترجمة الكتاب كما يقول مقدم الترجمة خليل أحمد خليل هو تصحيح الهفوات من تواريخ ولغة ومداخلات غير أمينة (التي وقعت في الترجمة الأولى).

ولكن مع الأسف فإن هذا الهدف الذي ذكر يتحقق بل على العكس فإن هذه الترجمة قد وقعت في أخطاء كثيرة واحتوت على مداخلات غير أمينة، ولقد أضافت أخطاء أخرى على الأخطاء التي وقعت فيها الترجمة الأولى وقبل أن استعرض بعضاً من هذه الأخطاء أو أن أذكر بأن الترجمة الثانية ما هي إلا تكرار سيء للترجمة الأولى ونسخ غير أمين لها وذلك واضح من خلال المقارنة بين الترجمتين وكذلك من الأخطاء الفنية التي ارتكبها المترجم. وأود أيضاً أن أذكر بأن ترجمة حكمت تلحوق قد صدرت بشكل غريب، ووجه الغرابة في ذلك هو أن بعضاً من نسخ الترجمة صدرت بغلاف ورقي أزرق وورقها جيد وكتب عليها حكمت تلحوق بينما البعض الآخر من النسخ صدر بغلاف أصفر ورقه غير جيد ولم يكتب عليها اسم حكمت تلحوق وقد كتب على مجموعتي النسخ «دار الحداثة» الطبعة الأولى، كانون الثاني.

إن الترجمة الثانية تحتوي على بعض التغييرات التي أجريت على الترجمة الأولى ولكن قسماً من هذه التغييرات كانت غير موفقة. وكمثال واضح على ذلك هو ترجمة العنوان. فالعنوان باللغة الانجليزية المذكور آنفاً ترجم في الأولى هكذا: (أصول الاسماعيلية : بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية). وهي ترجمة صحيحة. أما في الترجمة الثانية فقد ترجم العنوان بالآتي : (أصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية) وهي لا شك ترجمة غير أمينة. أضف إلى ذلك فإن مؤلف الكتاب برنارد لويس كان قد كتب مقدمة للترجمة العربية الأولى وفي نهاية المقدمة يذكر المترجمين ويمدحهما بينما في طبعة لبنان نرى أن المقدمة أبقيت إلا أن الجزء الذي ذكر فيه المترجمان قد حذف . وفي الواقع إن أخطاء الترجمة الثانية كثيرة وهي لم تتخذ طابعاً واحداً، وإنما هي ذات أشكال مختلفة، وأوجه متعددة ولذلك فقد ارتأيت أن أبدأ بصفحات الكتاب على ترتيبها من غير اعتبار لطبيعة الأخطاء على أني سوف أقتصر على المهم منها وبالله التوفيق:

ص ٣٠ وضع الرقم ٢ بجانب كلمة توطئة مع أننا لم نسبق برقم ١ وكلمة توطئة هي لعنوانين منفصلين في الأصل الانجليزي وهما :

Introduction وكذلك لـ Survey of Sources

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ص ٣٤ وفاة أبي طاهر ٣٢٢ هـ بينما هي كما في الأصل ٣٣٢ وهو الخطأ الذي وقعت فيه الترجمة الأولى. وكذلك في الصفحة نفسها هناك رقم بجنب كلمة ابن رزام لهامش تحت ولكنه محذوف من الترجمة. وكذلك في الأصل الانجليزي في الصفحة نفسها North Africa ولكن في الترجمة أفريقيا فقط.

ص ٣٥ في الأصل الانجليزي Hilâl al-Sâbi بينما في الترجمة الصابي فقط كما في الترجمة الأولى وكذلك ذكرت وفاة مسكويه ٤٤٨ هـ بينما هي كما في الأصل ٤٢١ هـ.

وفي الصفحة نفسها لم تترجم العبارة الانجليزية التالية :

I Shall reserve a more detailed discussion of the manuscript for an edition of the text which I hope to publish Shortly.

وكذلك التاريخ ١١٨١ كتب في الترجمة خطأ ١٨٨١.

ص ٣٩ «وكان ممن دخل في مذهبهما (يعني مذهب علي بن فضل ومنصور اليمني) أيام الصليحي وحقق أصل مذهبهما». هذه ترجمة غير صحيحة للأصل الانجليزي :

He was one of the persons who joined the Carmathian Sect in the days of Sulaihi and he acquired a through Knowledge of its Character

اضف إلى ذلك أن تاريخ الولادة الموجود في الهامش رقم ٢ هو ٤٢٠ هـ بينما الصحيح هو ٤٢٩ هـ كما هو في الأصل الانجليزي. وهو أيضاً خطأ وقعت فيه الترجمة الأولى.

ص ٤٥ Abu Amr ترجمت خطأ «أبي عمر» (يجب أن تكون عمرو).

ص ٤٩ العبارة الانجليزية.

It is Still manuscript, but I have a copy in my personal possession, and am preparing an edicion of it.

كلها لم تترجم.

ص ٥١ العبارة The most notablo of these is the Rasail ikhwan as safa, a store of information containing a few hints of historical value.

ترجمت هكذا وأشهر هذه المجاميع رسائل إخوان الصفا وفيها بعض لمحات ذات قيمة تاريخية. وهي ترجمة غير كاملة.

ص ٥٨ عبارة «الفصل الأول» محذوفة من الترجمة العربية وكذلك خمسة سطور من الأصل الانجليزي وضعت في الهامش بلا سبب واضح وهذا أحد الأدلة على استعمال الترجمة الأولى حيث أن التغيير نفسه موجود فيها.

ص ٥٩ هامش رقم ١ المصدر وضع خطأ أمام غير مؤلفه وهذا كما في الترجمة الأولى .

ص ٦٠ هامش رقم «٣» رقم الصفحة هو ١٥٣ وليس ١٦٢ وهو الخطأ نفسه الذي وقعت فيه الترجمة الأولى .

ص ٦٣ The revolutionary Shika, the Ghulât ترجمت فقط الى الشيعة الغلاة كما في الترجمة الأولى. وهي ترجمة غير كاملة.

ص ٦٤ الهامش رقم ٥ غير كامل كما هو في الترجمة الأولى.

ص ٧٠ وضع بدلاً من Abu al-Khattâb العنوان الجانبي «صلة الخطابية والاسماعيلية».

ص ٧١ هامش رقم ٤ كتبت IX بدلاً من LX.

ص ٧٤ رقم الصفحة للمصدر كتبت ١٤٣٧ كما في الترجمة الأولى والصحيح ٤٣٧ كما في الأصل الانجليزي بالإضافة إلى أن الهامش رقم ٥ غير كامل.

ص ٧٨ الامام الحسن كتب الإمام الحسين. وفي الهامش رقم ١ لم يذكر Morgolioth (E.I. Art. Khattapiyya) وهو أيضاً من أخطاء الترجمة الأولى.

وكذلك نرى عنواناً جديداً قد أضيف إلى الترجمة وهو «استقرار الإمامة في ذرية إسماعيل». والذي موجود في الأصل الانجليزي هو «Ismail» فقط.

ص ٨٠ في هذه الصفحة هامشان كل واحد منهما وضع في غير مكانه الصحيح والخطأ نفسه وقعت فيه الترجمة الأولى أيضاً.

ص ٨١ في هامش رقم ١ رقم الصفحة كتب ٢٣٧ بدلاً من ١٣٧.

ص ٨٣ كان يجب أن يكون هناك رقم في الهامش عند كلمة «رأينا» كما في الأصل الانجليزي ولكنه محذوف وكذلك رقم الجزء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محذوف من الهامش رقم ٢.

ص ٨٥ وضع عنوان جديد وهو «استنباط أصول الاسماعيلية» الذي هو غير موجود في الأصل الانجليزي.

ص ٨٦ عنوان الفصل هو The Hidden Imams and their Helpers

التي ترجمتها «الأئمة المستورون وأعوانهم» بينما نراها ترجمت إلى الائمة المستقرون والمستودعون وفي الصفحة نفسها وضع عنوان جانبي ليس له مقابل في الأصل الانجليزي وهو «الأبوة الروحانية والنبوة الإمامية» ولم أتبين المقصود من الجزء الثاني من هذه العبارة.

ص ٨٧ الهامش رقم ٢ مكرر ثلاث مرات بينما يجب أن يكون كما في الأصل ٢، ٣، ٤.

ص ٨٨ الهامش رقم ٢ مكرر ثلاث مرات وبينها كتب الهامش رقم ١ وهي يجب أن تكون كما في الأصل ١، ٢، ٣، ٤، وفي الصفحة نفسها أيضاً يجب أن يكون رقم للهامش في نهاية العبارة التالية «كل نسب ينقطع إلا نسبي» وهو الخطأ نفسه في الترجمة الأولى. وكذلك رقم الصفحة في الهامش رقم ٧ كتب ٦٦ بدلاً من ١٦ وهو الخطأ نفسه الذي وقعت فيه الترجمة الأولى.

ص ٨٩ عبارة «بأن للمسيح أب» (كذا) كان يجب أن تكون بالنفي أي «بأن ليس للمسيح أب». وكذلك الهامش رقم ٢ كتب بجانبه نص ليس له ما يقابله في الأصل الانجليزي وهذا النص أيضاً موجود في الترجمة الأولى . وهذا أيضاً دليل آخر لا يقبل الشك على أن الترجمة الثانية ما هي إلا استنساخ للترجمة الأولى وسطو عليها.

ص ٩١ الهامش رقم ٥ مكرر بدلاً من ٤و٥ وكذلك عندنا في الهامش العبارة «كما أن آدم والأنبياء الآخرين» وهي غير موجودة في الأصل الإنجليزي.

ص ٩٢ الهامش رقم ٢ كتب رقم المخطوط خطأ ١٤١٠ بينما هو في الأصل ١٤١٥ وكذلك رقم الصفحة كتبت ٥٧٠ بدلا من ٥٧٨ وهو الخطأ الذي وقعت فيه الترجمة الأولى.

ص ٩٣ العنوان «المستقرون والمستودعون» ليس لها مقابل في الأصل الانجليزي

ص ٩٤ كلمة «المستقرون» في عبارة « في قائمة المستقرون» يجب أن تكون «في قائمة المستقرين».

ص ٩٥ في الهامش رقم ٣ لا يوجد رقم الصفحة كما في الترجمة الأولى.

ص ٩٦ كان يجب أن يكون رقم عند عبارة «بموضعها وموطنها» ولكنه محذوف في الترجمتين.

ص ١٠٠ عبارة «فذهب هناك ساباط» يجب أن تكون «فذهب هناك إلى ساباط».

ص ١٠٤ في الهامش رقم ٤ ٧٥ بدلاً من الرقم الصحيح ٥٧.

ص ١١٠ المصدر في الهامش رقم ٢ لا يطابق ما في الأصل الانجليزي وهو أيضاً خطأ وقعت فيه الترجمة الأولى.

ص ١١١ الحلي كتبت الحلبي كما في الترجمة الأولى. وكذلك عند الهامش رقم ١ كتب رقم الصفحة خطأ كما في الترجمة الأولى ٣٣ بدلاً من ٣١٣. وكذلك رقم الصفحة في الهامش رقم ٢، ٢٣٧ بدلاً من ٢٤٧. وقد اضيفت العبارة «ولعلها تشير إلى الزيدية» وهي ليس لها مقابل في الأصل الانجليزي وهذه العبارة أيضاً موجودة في الترجمة الأولى.

ص ١١٢ عبارة «إن أباه راوية» يجب أن تكون «إن أباه ميمونا كان راوية» كما في الأصل الانجليزي. والخطأ نفسه وقعت فيه الترجمة الأولى.

ص ١١٤ في الهامش رقم ١ اسم المصدر كتب خطأ كما في الترجمة الأولى.

ص ١١٥ في الهامش رقم ١ رقم الصفحة كتب خطأ.

ص ١١٧ في الهامش رقم ٢ ٤٤٤/٢ بدلاً من٢/٤٤ وكذلك الهامش رقم ٥ Studies بدلاً من الألماني Studen وهو نفس الخطأ في الترجمة الأولى.

ص ١١٨ في الهامش رقم ١ المصدر والمؤلف كتبا خطأ كما في الترجمة الأولى.

ص ١٢٠ في الهامش رقم ٥ رقم الصفحة للمصدر كتب خطأ.

ص ١٢٧ العبارة الانجليزية The history of the dawa in Yaman and North Africa is yet to be written.

ترجمت إلى «ما زال تاريخ الدعوة في أفريقيا في حاجة إلى التسجيل» بينما يجب أن تكون شمال افريقيا بدلاً من «أفريقيا» فقط وقد ترجمت العبارة بالطريقة نفسها في الترجمة الأولى.

ص ١٢٨ في هامش رقم ١ لا يوجد رقم للصفحة في المصدر وكذلك في الترجمة الأولى وكذلك عبارة «الذي أحضر لطبعه» غير موجودة في الترجمة.

ص ١٢٩ لم توضع عبارة الفصل الثالث كما في الأصل وفي الهامش رقم ١ لا يوجد رقم لصفحة المصدر.

ص ١٣٧ الاسم Shatnil b. Danil ترجم إلى شاتنيل بن دانيل وفي الترجمة الأولى كتب شاتنيل مع أنه يجب أن يكون شطنيل.

ص ١٣٩ The mystreious Hārith b. Tirmah ترجمت إلى أما الحارث بن ترماح وهي ترجمة غير كاملة. وفي نهاية هذه العبارة هناك رقم يشير إلى الهامش في الأصل الانجليزي ولكنه لم يوضع في كلتا الترجمتين.

ص ١٤١ في الهامش رقم ١ لا يوجد رقم للصفحة وفي الهامش رقم ٣ لم يذكر المصدر أصلًا.

ص ١٤٧ لم يذكر رقم الفصل كما هو مرقم في الأصل الانجليزي.

ص ١٤٩ في الهامش رقم ١ يجب أن تكون العبارة «وتهمة ثابت بن سنان الصابي للقرامطة ليست بأقل شدة من تهمة السنة المعاصرين له». وكذلك الهامش رقم ٢ حذف منه أحد المصادر. أضف إلى ذلك فإن أبيات الشعر الموجودة في الترجمة تختلف عن تلك الموجودة في الأصل الانجليزي. والأبيات الموجودة في الترجمة هي نفسها الموجودة في الترجمة الأولى.

ص ١٥٢ الهامش رقم ٤ يجب أن يكون رقمه ١.

ص ١٥٥ رقم الصفحة في الهامش رقم ٣ خطأ وهو الخطأ نفسه الموجود في الأولى.

ص ١٦٠ الهامش رقم ٣ ليس فيه ذكر لعنوان المصدر.

ص ١٦١ في الهامش رقم ١ وردت العبارة التالية «وردت في سياسة نامه (الشائره) ، المترجمان «وهذه العبارة نفسها منقولة عن الترجمة الأولى وذلك واضح من عدم وجود مقابل لها في الأصل الانجليزي لأن المترجمين هما اللذان اضافاها لترجمتهما. أضف إلى ذلك فإن كلمة «المترجمان» صحيحة للترجمة الأولى ولكنها غير صحيحة بالنسبة الى الترجمة التي نحن بصددها لأنه يفترض أن هذه الترجمة قد قام بها شخص واحد وليس اثنان فالعبارة نقل عشوائي عن الترجمة الأولى.

واخيرا فإن هناك نصاً تاريخيا باللغة العربية الحقه برنارد لويس بكتابه ولكنه غير موجود في الترجمة لا في الأولى ولا في الثانية. أضف إلى ذلك فإن قائمة الاعلام وقائمة المصطلحات الموجودة في الأصل الانجليزي لا توجدان أيضاً في كلتا الترجمتين. بقي أن أذكر بأن هناك اخطاء قد يكون كثير منها طباعية — خصوصاً في كتابة أسماء الأشخاص والكتب غير العربية أعرضت عن ذكرها فقد لا يتحمل الأخ حكمت تلحوق مسؤولية ذلك وحده والله من وراء القصد.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ألا تسمع صوت الرعد؟ لفان درمولن

قاسم السامرائي
أستاذ في مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

D. VAN DER MEULEN, Don't You Hear the Thunder ? A Dutchman's Life Story. E.J. Brill-Leiden 1981, pp. 199.

ألا تسمع صوت الرعد؟ قصة حياة هولندي. كتاب في السيرة الذاتية كتبه فان درمولن ونشرته مؤسسة برل المعروفة في ليدن بهولندا سنة ١٩٨١م. والعنوان اقتباس من التوارة التي درسها المؤلف مع الأنجيل أول ما درس في لايدن ومارس ما في الثاني منها من دعوة الى تنصير العالم التي تبناها زميله في الدراسة هندرك كريمر ـــ المعروف بحماسته النصرانية وعدائه لغيرها من الأديان وبخاصة الاسلام[1] ومحبته لأهله إن صاروا نصارى!.

جمعتني ومؤلف الكتاب حلقات جمعية الصداقة العربية الهولندية في لاهاي منذ أن ارتحلت إلى هولندا في بداية سنة ١٩٧٠ وكان إذ ذاك قد أحيل إلى التقاعد. ولم أره تخلف عن الاجتماع الشهري الذي كانت عائلة فولتشر تدعو إليه للاستماع إلى المحاضرات التي يلقيها العارفون بشئون الشرق الأوسط. وقد سعدت مرارا بلقياه في أثناء تلك اللقاءات والتحدث معه إذ أحسست فيه ميلا عنيفا وشوقا جارفا للحديث حول تجاربه في الجزيرة العربية حين كان قنصلا لحكومته فيها مرتين. ورأيت فيه اندفاعا شديدا في الدفاع عن حق العرب في فلسطين، إلا أنني وجدت فيه نسخة أخرى من صديقه هندريك كريمر ومن أستاذه كرستيان سنوك هورخرونيه ومن آرائهما في الإسلام وشريعته أيضا. وقد تأكدت هذه كلها في المحاضرة[2] التي ألقاها زميلي في كلية اللاهوت إذ ذاك الدكتور شوردفان كونكزفيلد، حين وصف فان در مولن أستاذه سنوك هورخرونيه ـــ في تعليق له على المحاضرة ـــ بـ «أنه البطل المكافح» وأنه «قدم نفسه فداء للمسيح»[3] مُعبّراً عن سخطه على المحاضر الذي كشف جوانب خفية من سلوكيات سنوك هورخرونيه اعتماداً على الوثائق غير المعروفة.[4].

وُلد فان درمولن في سنة ١٨٩٤ في عائلة فلاحية تدين بالمذهب الكالفني في قرية لارن الواقعة على الحدود الألمانية ومنها انتقلت العائلة إلى زتفن ومنها إلى آرنم وبعد إكماله الدراسة التحق بجامعة لايدن لدراسة اللاهوت حيث تعرف على هندرك كريمر وعلى المنصر الهولندي المشهور أدرياني الذي كان يعمل بالتنصير في أندونيسيا إذ ذاك.

يقع الكتاب في سبعة فصول، تناول في الفصل الأول سيرة حياته الأولى ودراسته وهو أمتع فصل في الكتاب وأصدقه إذ يحس القارىء بحنين الكاتب الجارف وهو في الخامسة والثمانين إلى معاهد صباه ومرابع طفولته بعد أن أثقلته الدنيا بهمومها وناءت عليه بسنينها المفعمة بالتجارب التي عاناها.

أما في الفصل الثاني فقد تحدث فيه عن حياته موظفاً مدنياً في مستعمرة الهند الشرقية الهولندية (وهو الاسم الهولندي لأندونيسيا) والتي بدأت في سنة ١٩١٥ فأتحف القارىء بمعلومات جمة عن دخائل السياسة الإستعمارية الهولندية في أندونيسيا إذ ذاك حيث لعب المؤلف نفسه دوراً بارزاً فيها وذكر في ما ذكر الثورات التي قام بها المسلمون «المتعصبون» ضد الحكم الهولندي في جامبي مثلاً والتنافس الخفي والعدائي بين مختلف الجمعيات العاملة في تنصير أهل البلاد من جهة والسلطة السياسية الاستعمارية التي تحاول السيطرة على هذه الإرساليات من جهة أخرى وبخاصة إرسالية الراين الألمانية، بيد أن مصلحة الاثنين كانت تتفق دائماً إذا ما بدا لهما إبدال قوانين البتاك المحلية «العادات» بقوانين أوربية جديدة تستند في أسسها على الديانة

النصرانية.

ولعل أعجب ما في هذا الفصل يكمن في مشاعر الكاتب الإنسانية التي أدركها قبل غيره من موظفي الإدارة الإستعمارية التي لم تكن ميالة إلى إنصاف أهل البلاد ومعاملتهم بإنسانية واحترام من حاكميهم لأن هؤلاء «كانوا يرون أنفسهم أرفع جنساً وأنقى عرقاً وأذكى عقلاً وأصدق ديناً من أهل البلاد».

ولم يسلم من هذه النظرة العرقية حتى أولئك الذين أرادوا من أهل البلاد تبني نصرانيتهم التي رأوها «بركة أوربية منحت لأندونيسيا المتخلفة». والأعجب أن الكاتب فان درمولن رأى في هذا الإستعلاء «دفاعا عن النفس» ، لأننا نعيش — حسب قوله — «في عالم مريض، وأن الغرب لم يعد المثل الأعلى الذي يجتذبه الشرق».

ثم إن إنسانية فان درمولن — الموظف في الإدارة الإستعمارية الهولندية — تهاوت حين سمع بالقضاء على الوثبة الإسلامية في جامبي فقال «إن المتمردين قد قضي عليهم ونالوا جزاءهم وقد تعلموا درسهم .. وعلى الإدارة الحاكمة أن تكون أكثر يقظة وحذرا وأن تكون على علم مسبق بأمثال هذه الحركات التمردية التي تحدث دائما في المناطق البعيدة وبين البدائيين فقط».

لقد كان فان درمولن أميناً في نقل الحوادث بيد أن أمانته كانت تتلون بميوله الإستعلائية دون وعي وهو يحدثنا عن ثورة قامت بها امرأة ادعت النبوة في قومها ووعدتهم بأن «سفينة كبيرة محملة بالجنود تحملها الغيوم سوف تأتي من اليابان لطرد الأجانب الهولنديين»، وعن فرقة من «البدائيين» في جبال أندونيسيا الذين ادعوا أن قوة روحية سماوية هبطت عليهم ووعدتهم النصر والغلبة على «الجنس الأبيض» وطردهم بعيدا من أرض الآباء ، بيد أن فان درمولن لم ير في هذه الحركات إرهاصاً وتطلعاً من أهل البلاد إلى الحرية والاستقلال من الحكم الأجنبي في لونه وقوانينه ودينه بل والغريب في كل هذا أن الكاتب ترأس المحكمة التي حكمت على هؤلاء ونبيتهم بالموت بالرغم من «توسلاته بالرأفة» . ولم ينس وهو يرأس المحكمة أن يسأل المتهمين إن كان لديهم شكوى ضد الحكم الهولندي (صفحة ٥٤) والسؤال غريب في مثل هذه الحال ولعل الجواب كان أعجب لو نقله لنا فان درمولن بأمانة ... وهو مع هذا أمين في نقل آراء رؤسائه في أهل البلاد الذين رأوا أن على أهل البلاد «الطاعة والخضوع حتى يقودهم الأوربيون من بدائيتهم وتخلفهم إلى رفاهية وحضارة لم يحلموا بها». والكاتب يذكّر القارىء دائماً بأنه كان يحس بأن عصر الإستعمار قد آن له أن ينتهي وأن بوادر هذا الإنتهاء لم يرها القائمون على الإدارة الإستعمارية «لأنك لا تحس بالبركان إلا حين ينفجر». ورغم تأكيد الكاتب أنه لم يلق عداء ضد الحكم الهولندي (صفحة ٥٣) عند سكان المقاطعة التي كان يحكمها، فإنه أكد أيضاً أنه كان هناك شعور عام بالإضطراب سببه المسلمون أهل جنوب سومطرة وكان له تأثير عميق على القبائل البدائية الساكنة في الغابات بينما لم يؤثر على أولئك الذين كانوا تحت التأثير الأوربي المباشر.

ليس من أمة ترضى بتسلط أمة أخرى عليها تسومها سوء العذاب ثم تسألها إن كانت مسرورة. والكاتب يعرف أن أمته حاربت الإمبراطورية الإسبانية سنين طويلة تزيد على عمره حين كتب هذا الكتاب ومع هذا فهو يتبجح بقوله : «إن سنتي الأولى في جزيرة ساموسير كانت موفقة حيث تبدل الجو السياسي إلى المعتاد وصار الحكم الهولندي مرة أخرى يعد نوعا من البركة والرأفة فكانت الجماعة النصرانية القليلة في الجزيرة تشكر الله عليها، أما الآخرون من الناس فقد شكروا آلهة آبائهم» (صفحة ٥٧).. وهو كأي منصر مدرب أمثال نومنسن Nommensen وآيخه برود Eigenbrod وكريمر وزويمر وغيرهم ممن كانوا يرون أن كل دين — عدا النصرانية — هو دين بدائي بشري يجب أن يختفي ليحل دين المسيح «الظافر» محله، يتوضح هذا من القصة الطريفة حول موت أحد راجات البتاك Batak حين مر الموكب بالكاتب — وهو حاكم الجزيرة — فقال: «ولما وصل الموكب إلينا وضع الراجا يده في يدي ولم يستطع الكلام بيد أنه نظر إليّ بينما كانت أصابعه تشد على أصابعي: إن هذا الحاكم المحلي الفخور بنفسه (الأبي) والذي لم يتقبلني أبداً، قد أعلن الآن أمام شبحه الإستسلام لروح الرجل الأبيض — روح إله النصارى التي كانت له الملجأ الأخير» (صفحة ٦٠).

هذا المثال من أمثلة كثيرة ملأ بها فان درمولن كتابه الذي يمكن أن نسميه «نشاطات فان درمولن» يخرج القارىء

باحساس غريب لا يكاد يتبين كنه أعماقه بوضوح ذلك أن الرجل يكتب لمن يصدق ما يكتب أو كان مستعداً أن يصدق هذه الحكايات والمغامرات التي يبدو فيها «إرضاء الغرور الروحي والعرقي» مسيطراً تماماً على أحاسيس الكاتب وقلمه.

أما الفصل الثالث وهو أهم فصول الكتاب فقد عنونه بـ «الإنعطاف غير المتوقع إلى الجزيرة العربية» وقد قسمه إلى خمسة فصول تحدث فيها عن مقابلته الأولى مع سنوك هورخرونيه — أستاذ كرسي العربية والإسلام — في لايدن إذ ذاك.

فهو يحدثنا عن تجربة جديدة عليه لم يتوقعها قط، فقد كانت العادة أن يُرسل نخبة من موظفي الإدارة الإستعمارية من أندونيسيا سنوياً إلى هولندا وبخاصة إلى لايدن للتدريب والدراسة لغرض تأهليهم حتى يتسنموا مناصب أرفع في الإدارة هناك. وقد كانت لايدن إذ ذاك مهوى أفئدة هؤلاء لتمتعها بسمعة تبعث — الدارس فيها، أمثال فان درمولن — على الفخر الجم والتيه على طلبة أمستردام أو أوترخت. وحدث لفان درمولن أن اختاره أستاذ كرسي الإسلام واللغة العربية إذ ذاك: كرستيان سنوك هورخرونيه ذو «المجد» العريض والسمعة «الواسعة» في الهند الهولندية .. ليكون تلميذه، إلا أن وزارة المستعمرات ارتأت أن تبعث هذا «الشاب» ممثلاً لحكومته في جدة بتوصية من هورخرونيه الذي تعهد: «إذا لم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام أو عن المسلمين، فإنه من واجبي تدريبه وتعليمه» (صفحة ٧٠). ومع اعتراض القنصل الهولندي على: «بساطة خلفية الشاب وضيق أفق عائلته التي تدين بالمذهب الكالفني، وأنه شخصياً مؤمن إيماناً عميقاً بهذا المذهب، فكيف يمكن أن يمثل بلده في أرض الإسلام المقدسة؟ فإن سنوك هورخرونيه لم يعر هذا الإعتراض إهتماماً..» وهنا يبرز فان درمولن المنصّر بوضوح لأنه رأى في كل هذا «إرشاداً إلهياً»، فبدأ الطالب فان درمولن والموظف في الإدارة الإستعمارية سابقاً يهيىء نفسه للولوج إلى حصن الإسلام في جدة فدرس العربية ومبادىء الإسلام على يد سنوك هورخرونيه وكان يدرس الفصحى من بعض تفاسير القرآن الكريم وبعض الكتب الحديثة التي لم يذكر لنا أسماءها. وفي الوقت نفسه لم ينس دوره موظفاً في الإدارة الإستعمارية فتعاون مع هذه الإدارة في لاهاي للتسلل إلى صفوف الطلبة الأندونيسيين في لايدن لإحباط أو تحويل أنشطة الطلبة في الدعوة إلى القومية الأندونيسية وانتقاد الإستعمار الهولندي في بلدهم إلى الدعوة إلى الوفاق عبر منظمة طلابية أوعزت الإدارة الاستعمارية لبعض الطلبة الهولنديين بإنشائها وإغراء الطلبة الأندونيسيين للإنضمام إليها، إلّا أن الوجه السافر لهذه المنظمة لم يخف على الطلبة الأندونيسيين فاختفت دون أثر .. ولم ييأس فان درمولن الكالفني والإدارة الإستعمارية، فأوعزوا إلى جماعة أخرى بإنشاء منظمة تتخذ النصرانية شعاراً لاجتذاب الطلبة أيضاً غير أن فان درمولن لم يحدثنا عن مصير هذه المنظمة.

لقد هيأت دراسة الكاتب مع سنوك هورخرونيه فرصة جيدة للتعرف على آرائه في الإسلام ديناً وفي شريعته نظاماً دينياً ودنيوياً بيد أنه لم ينقل لنا ما عرفه عنه أو سمعه منه من معلومات تختلف عما يعرفه أو يسمع به كل قادم جديد لجامعة لايدن، فهو ينقل لنا أن أستاذه كان ينتقد أساليب الحكم الهولندي في أندونيسيا علناً إلّا أنه لم يحدثنا عن أنشطة سنوك هورخرونيه البشعة خلال عمله في أندونيسيا ثلاثاً وعشرين سنة مستشاراً للادارة الاستعمارية دون أن يتمتع بأية إجازة، وهو لم يحدثنا عن دور سنوك هورخرونيه الشائن مع الجنرال فان هوتس في حروب أجيه كما يظهره تقريره الدموي إلى وزارة المستعمرات الهولندية[*] الذي أورد فيه «أنه من الواجب الإنساني أن تُحضَّر هذه المجموعة من البشر التي لا تختلف إلّا قليلاً عن الحيوانات»، ولذلك حث الحكومة الهولندية على تدمير العلماء المسلمين في آجيه إذ رأى فيهم عصابة لصوص وأن تدميرهم يساعد على استعباد هذا الإقليم الإسلامي الذي حارب هولندا أربعين عاماً، لأن احتلاله — على رأي سنوك — «سوف يزيل من الوسط الإسلامي كراهية كل شيء غير إسلامي ومن ثمّ فإن سكانه سوف يقبلون ما يُملى عليهم من القيم الأوربية التي ترفع من شأنهم، لأن العقيدة الإسلامية تحث على كراهة الكافر لتعصبها»[٦].

إن من حق فان درمولن أن يكن إحتراماً وإجلالاً زائدين لأستاذه، وإن من حقه أيضاً أن يخفي ما يشاء من معلومات قد يكون إستقاها من أستاذه إلّا أن فان درمولن لا يملك الحق أن يستغفل القارىء فيحرّف الحقائق التاريخية الثابتة بالوثائق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الموجودة حالياً في مكتبة جامعة لايدن والتي تثبت أن سنوك لم يك قادراً على كتابة كتاب عن مكة المكرمة لو لم يزوده رادن أبو بكر بأكثر المعلومات الموجودة فيه وهذه المعلومات موجودة بخط يد هذا الرجل ولا أن يحملنا على الاعتقاد بأن سنوك لم يكن مهتماً بالنقوش أمثال نقش تيماء الذي وجده هوبر، ولولا عبد الغفار الطبيب بمكة المكرمة لما استطاع سنوك أن يحصل على الصور الكثيرة التي نشرها باسمه في Bilder aus Mekka وحاول أن يخفي اسم الرجل من الصور، وقد فصّل الحديث في كلّ هذا المستشرق الهولندي شورد فان كونكز فيلد في كتابه الجيد: Snouck Hurgronje alias Abdoel Ghaffar (Leiden 1982).

لا يستطيع فان درمولن بعد كل هذا أن يحملنا على الإعتقاد معه أن سنوك هورخرونيه نجح حين عيّنته وزارة المستعمرات مستشاراً للإدارة الهولندية الحاكمة في «الهند الهولندية» في إيجاد دواء ناجع لوضع الحرب المتردي في إقليم أجي بحكم معرفته السابقة ببعض الزعماء الإجيين في مكة المكرمة، إذ استطاع أن يناقش هذه المسألة معهم بثقة متبادلة «as a brother Muslim» لأنهم «عدّوه أخاً لهم في الإسلام» (صفحة ٧٣) لأن دور سنوك التجسسي لحساب مخابرات الجنرال فان هوتس واستغلاله لثقة المسلمين في إقليم آجي للحصول على معلومات حربية، قد كشفته لنا مقالات علمية واضحة ظهرت حديثاً في بعض الصحف والمجلات الهولندية[٧]، ولا أظن فان درمولن ينكر صحة المعلومات التي أوردها فان كوننكزفيلد وفارتهايم[٨] في هذه الدراسات التي اعتمدت على كثير من الوثائق غير المنشورة ومنها مراسلات سنوك نفسه مع وزارة المستعمرات الهولندية. وكما لم يستطع قدامى موظفي الإدارة الهولندية أمثال دي خراف إنكارها، في مقالاتهم التي أساءوا فيها لفان كوننكزفيلد، لم يسع المستشرق الشاب فرانك شرورد ــ في مقالة نشرت حديثاً[٩] إلّا الإعتراف بصحة بعض نتائج بحوث فان كوننكزفيلد دون الإشارة إلى هذه البحوث مع أنه كان يصرّ دائماً على خطل آرائه.

ويحدثنا في هذا الفصل الثالث: (صفحة ٧٦) عن مشاهداته وتجاربه في القاهرة قبل سفره إلى جدة لاستلام مهام منصب القنصل الهولندي لدى بلاط الملك عبد العزيز بن سعود، ويذكر فيما يذكر من هذه المشاهدات، زيارته للأزهر الشريف وللجامعة الأمريكية التبشيرية حيث التقى بالمبشر صموئيل زويمر ــ الهولندي الأصل ــ فتستهويه الجامعة الأمريكية ويعجب باختلاط الأولاد بالبنات على حين يأخذ على الأزهر تدريسه باللغة الفصحى واستغرب من سمعة الأزهر بين المسلمين في «الهند الهولندية» بينما هو «لا يكاد يستحق اسم المعهد العلمي، وكان مخيباً لآمال أولئك المسلمين الذين جاءوا إليه من البلدان التي كانت تقع تحت النفوذ الأوربي»، ورأى أن اللغة كانت «عقبة كؤدا للأندونيسيين تسببت في عهوف كثير من الأندونيسيين عن الدراسة في الأزهر» ولعل فان درمولن كان يردد آراء صاحبه زويمر في الأزهر وأسلوب تدريسه فإن الأزهر كان شغل زويمر الشاغل في كثير من كتبه ومقالاته.

ويؤكد فان درمولن أن دور الجامعة الأمريكية لا يعدو إعداد مبشرين نصارى للعمل في الأقطار الإسلامية وبخاصة في مدرسة اللغات الشرقية التي أنشأها زويمر نفسه والملحقة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وذلك لأن زويمر كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن المعرفة العميقة للإسلام وللعربية كانت ضرورية جداً لأي منصر يعنى بنشر النصرانية بين المسلمين. (صفحة ٧٧). وقد أثمرت زيارة فان درمولن للجامعة الأمريكية عن صداقة متينة بينه وبين جورج رينتز George Rentz الذي أصبح فيما بعد أستاذاً في جامعة ستاندفورد الأمريكية التبشيرية ومن ثمّ توطدت هذه الصداقة بينهما حين جاء هذا لتنظيم «قسم البحث» في شركة أرامكو في السعودية.

ويحدثنا فان درمولن عن أول لقاء له مع الملك عبد العزيز، فيقول: «كان ابن سعود في جدة عند وصولنا إليها مشغولاً باستقبال الممثلين الأجانب وكان إذ ذاك يسمى: سلطان نجد والحجاز وتوابعها. فاتصلنا فور وصولنا بوزير الخارجية عبد الله الدملوجي وهو من أصل عراقي فرحب بنا وقادنا إلى الطابق العلوي من أحد بيوت نبلاء جدة حيث كان السلطان مشغولاً بضيوفه ويحيط به الموظفون والمترجمون والخدم. وحين أعلن الدملوجي وصولنا، سأل السلطان إذا كان الأمر صحيحاً أن القنصل الهولندي وزميله يتكلمان اللغة العربية؟ ولما كان الجواب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالإيجاب قال: الحمد لله، إذن، أصرفوا الحاضرين .. أريد أن أكون وحيداً معهما. فجلس أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فالتفت إلينا واضعاً يديه على ركبتينا وقال: أهلاً وسهلاً بكما، نستطيع الآن أن نتكلم بحرية فإنه لا يوجد أخطر من المترجمين. وكان له صوت عميق عذب في الأذن ثم إنه كان طويل القامة مؤثر الملامح. وقال لنا: إنه يعرف أن بعض الناس في الغرب يصفونه بالقسوة وأن هذا قد نقل حتما إلى ملكتنا إلّا أنه ليس كما وصفوه وكل ما في الأمر أنه إذا ضرب فإنه يضرب بعنف حتى يتردد الصدى وينتشر في أرجاء البلاد كلها حتى لا يلجأ — بعون الله تعالى — لأن يعيد هذا الضرب كرة أخرى. وقد سألنا إن كان في بلادنا سجون وهل إن هذه السجون كثيرة ومليئة! فإذا كانت كذلك فإن هذا ما يسميه القسوة. إنه يريد لشعبه أن يتقوا الله ويؤمنوا صادقين بالله ويطيعوا شريعته التي جاءت عن نبي الله — صلى الله عليه وسلم — . إن هذه البلاد كانت غارقة في الذنوب فقد ترك أهلوها الصراط القويم فكان عليه أن يعيدهم إلى الطريق المستقيم. إنه يعرف جيداً أن أعداءه كثيرون ولكنه في الوقت نفسه يعرف أن الله سبحانه تعالى سوف يحميه من أي اعتداء عليه ما دام قائماً بالشرع وملتزماً بأحكامه.. وقد شعرنا بالفخر والارتياح حين أتيحت لنا فرصة مقابلة هذا الرجل ذي الصفات الكريمة .. فقد كان رجلاً قوياً، صلب العود ويفيض بالحيوية والنشاط، إضافة إلى كونه مؤمناً إيماناً عميقاً بدينه .. الأمر الذي دفعني في إحدى المقابلات أن أقول له : إنني معجب أشد الأعجاب بإيمانك العميق، فبدا عليه الاستغراب ! ولم يرد».

وفي مرة أخرى سأل الملك عبد العزيز إن كان يسمح له بالذهاب إلى مكة المكرمة لأن «النبي منع دخول الكفار إليها ولكن ليس أمثالي الذين يؤمنون باله واحد» وبالطبع لم يسمح له بذلك، ولعل الغرابة هنا — لو صدقنا رواية فان درمولن هذه — تكمن في معرفة هذا التلميذ النجيب لسنوك هورخرونيه السطحية للإسلام وعزوه منع دخول الكفار لمكة المكرمة للنبي عليه الصلاة والسلام، بينما المنع كان إستجابة لأمر إلهي، ومن ثم قوله «إنه يؤمن بإله واحد»!! وفوق كلّ ذلك يظهر أن فان درمولن اختلق هذا السؤال وإلّا فمن غير المقبول عقلاً أن يغفل الملك عبد العزيز الذي وصفه الكاتب بالمعرفة والإيمان، عن تصحيح معلومات هذا القنصل، فهل أراد فان درمولن أن يلج إلى مكة في الخيال، في الأقل مثلما فعل استاذه في الاحتيال؟.

لعل الطريف في هذا الكتاب أن كاتبه أسهب في وصف مواسم الحج وما يقتضيها اجتماع أجناس متعددة وألوان مختلفة وثقافات متباينة يجمعها الإيمان المشترك، فذكر فيما ذكر بعض هذه المفارقات ووصف لنا ثقل المشقة التي كان يتحملها الحاج بصبر عميق وجلد مطمئن دون أن يكلّف نفسه عناء تفهم الدافع الذي يدفع هذه الجموع والشوق العارم الذي يسيطر على الحاج للنظر إلى بيت ربه فنظر إلى الحاج نظرة السائح الغريب إلى احتفال «كرنفال» جنوب هولندا وبافاريا فأخذته روعة الجموع وبدأ يسأل نفسه: «إنه لمستحيل أن لا يتأثر الإنسان بمثل هذه العبادة ثم يعجب فيما إذا كان هؤلاء جميعاً بشراً مخدوعين وعلى الطريق الخطأ؟؟» (صفحة ٨٨) وهنا يظهر فان درمولن بوجهه الذي استعاره من زويمر حين حدّثه عن مشاعره هذه بعد ذلك في القاهرة فأردف قائلاً:

« بالتأكيد ، إن الله سوف يرحم هؤلاء الحجاج لأنهم — بجهالتهم — يؤمنون بأنهم على الطريق المستقيم»، ولا ندري كيف استطاع أن يعرف حكم الله مقدماً؟ إلّا أن هذا هو شأن المبشرين الذين يرون أنفسهم وكلاء الله سبحانه على خلقه ...

ومع هذا فقد حدثنا الكاتب أن أحد الأفارقة قال له وهو يشير إلى ولده الذى يسير بجانبه : أنظر إلى هذا فإنه كان طفلا صغيراً حين تركت قريتي وقد حملته على كتفى عبر إفريقيا وهاهو معى قد سار ذهابا وايابا إلى المدينة المنورة .

وفى مرة أخرى نقل لنا فان درمولن حادثة غريبة جرت له مع أحد الأولاد الصغار وكان عائداً مع إحدى القوافل من مكة المكرمة إلى جدة حين لقيه خارج جدة. ولما تكلم معه بالعربية بدت الدهشة على وجه الغلام فسأله: أنت مسلم؟ «لا ! أنا لست مسلماً. أنا نصراني!! فتوقف الغلام ونظر إلى وجهي وقال: أسلم!! فإنك إذا أسلمت سوف أعطيك أختي .. لا .. لا أستطيع، لأنني نصراني! وفجأة تبدلت أسارير وجه الغلام وأمتلأت عيناه بالغضب، فأمسك بخناقي بينا كانت يده الأخرى تبحث عن خنجره ..» (صفحة ٨٧ — ٨٨) فإن فان درمولن أراد أن يثبت صورة القرون الوسطى عن المسلم فاخترع هذه

القصة التي تصرخ بالزيف والتحامل. فصنع من نفسه بطلاً نصرانياً يتنصر في النهاية على الإسلام الطفل (الفكرة المعروفة في دوائر المنصرين) .. ومن هنا فقد ملأ الكاتب صفحات كتابه عن نشاطات الإرساليات التنصيرية السرية والعلنية في عدن واليمن وحضرموت، وعمان، فهو بحكم تعاطفه العميق معهم مطلع على أوجه هذه الأنشطة مما نعرفه الآن من كتابات المنصرين أنفسهم، وهو بعد ذلك لم يخف إشمئزازه من أولئك الأوربيين الذين أسلموا أمثال فلبي ومحمد أسد (ليوبولد فايس) (صفحة ٩٣ — ٩٥) وينقل لنا معلومات فريدة عن أمين الريحاني وجورج أنطونيوس وعن محاولات جارلس كرين المليونير الأمريكي الذي أراد بكل إخلاص مساعدة العرب إقتصادياً ودعائياً وذكر أن كرين قدّم له في سفرة من سفراته إلى جدة صندوقاً من التمر قال عنه أنه من فسائل نخل للنبي محمد (ﷺ) نفسه. اجتلبت من المدينة المنورة إلى كاليفورنيا (صفحة ٩٢) فهل كانت هذه الفسائل تحمل الختم النبوي؟!!.

أما في الفصل الرابع والخامس فقد تناول الكاتب الحديث فيها عن تجاربه في الهند الهولندية بعد أن نقل إليها من جدة سنة ١٩٣١م فروى جملة من الحوادث السياسية والإضطرابات التي كانت البوادر الأولى للثورة الأندونيسية بقيادة سوكارنو ضد الإحتلال الهولندي فيما بعد. وبالرغم من جهود الكاتب المضنية في إضفاء الروح الإنسانية على الإدارة الهولندية وحرصها الدائب على العمل لمصلحة أهل البلاد، فإن المعاملة السيئة التي كان يلقاها القائمون على أو المنفذون لهذه الحركات — برواية الكاتب نفسه — تفضح الأساليب القاسية التي عوملوا بها. فقد كانوا ينفون هؤلاء بالجملة إلى أعماق الأدغال ويعتقلونهم في معسكرات جماعية (صفحة ١٠٢) وكم كنا نود لو أن الكاتب غلّف ضميره ساعة من الزمن وحدثنا عن هذه المعسكرات وظروفها حتى نستطيع أن نقارنها بالمعسكرات الجماعية إبان الحكم النازي الذي لم يزل يوصم بالبربرية من جرائها.

إلا أنه كان أميناً — كما قلت — فقد نقل لنا قصة الصحفي عثمان سوتان كعاديلان الذي أُرسل أكثر من مرة إلى معسكرات الإعتقال لانتقاده الاستعمار الهولندي. وحدث مرة أنه استطاع مع خمسة من رفاقه الهروب من المعسكر والوصول إلى القسم الواقع تحت الحكم الاسترالي من غينيا الجديدة بعد رحلة شاقة خطرة فقبض الاستراليون عليه وعلى رفاقه وأودعوهم السجن في أستراليا ثم سلموهم إلى الإدارة الهولندية في أندونيسيا فأعيدوا مرة أخرى إلى المعسكر. فكتب قصة اعتقاله ومعاناته في المعسكر وهروبه فكانت — كما يقول فان درمولن — «قصة الشجاعة والإحتمال والجوع» (صفحة ١٠٣) ولما أراد هذا الصحفي نشر هذه القصة بادرت الشرطة فاستولت على جميع النسخ المطبوعة مع أن الإدارة الهولندية كانت قد أخضعت القصة للرقيب الذي أسقط منها فصولاً كثيرة قبل نشرها. وفي الوقت الذي كانت الصحافة في هولندا نفسها تنتقد الحكم الإستعماري بحرية وعنف، كانت الإدارة الهولندية تكتم أنفاس الأندونيسيين في بلدهم وهذا هو شأن المستعمرين وأذنابهم في كل زمان ومكان.

وفي الفصل السادس يحدثنا الكاتب عن رجوعه الثاني إلى جدة أثناء الحرب العالمية الثانية فيكشف فيه مدى التعاون الوثيق الذي كان بين الدول الأوربية في التجسس ونقل المعلومات والخبرات إلى بعضها البعض لغرض الاستفادة منها في تثبيت قبضة هذه الدول على الشعوب المستضعفة، وينقل لنا حوادث الصراع بين الإيطاليين والألمان الذين كانوا في إرتيريا والصومال من جهة وبين الانجليز الذين كانوا يسيطرون على عدن ومنها على باب المندب من جهة أخرى ونجاح هؤلاء في طرد الإيطاليين والألمان واغراق سفنهم في البحر الأحمر .. ونعلم منه أيضاً أن الانجليز والأمريكان قد جندوا أعداداً كبيرة من الطلبة الأندونوسيين والملاويين الذين كانوا يدرسون في مكة والقاهرة للعمل معهم وراء خطوط الجيش الياباني في جنوب شرق آسيا .. ومن هذا الإتجاه للكاتب وتعاطفه مع بريطانيا فإنه وصف قواد ثورة مايس العراقية التي قام بها الضباط العراقيون ضد الإحتلال الإنجليزي، بأنهم عملاء لألمانيا : إشترتهم ألمانيا بذهبها ليهاجموا البريطانيين، ومن هذا التعاطف مع المستعمرين فإنه بادر إلى مساعدة الإنجليز وذلك بالإتصال بإمام اليمن إذ ذاك وإقناعه بالوقوف على الحياد، لأن الإنجليز كانوا يخشون مناصرته لألمانيا الهتلرية فيسبب لهم متاعب في عدن.

والكتاب بعد كل هذا ملىء بالقصص الصغيرة واللمحات الحادة التي لم يتركها الكاتب تمرُّ دون أن يلونها باعتقاده، فكأنه

يريد من القارىء أن يفهم منه جيداً أن كلّ حركاته وسكناته إنما هي إملاء رباني، بل أنه لا يخفي في أكثر الأحايين مشاعره النصرانية، وهذا عيب كبير إذ جعل كتابه يحتوي على قصص هي أشبه بأساطير المبشرين الذين يمّنون على الله أنهم نصارى..

والكتاب ملىء أيضا بمعلومات وفيرة عن سياسات الدول في تلك الفترة التي تناولها وهو أيضا ملىء بالمعلومات الجمة النافعة للمؤرخ عن بعض الشخصيات العربية والأجنبية الذين عرفهم أو تعرف عليهم فنقل لنا جملة من آرائهم غير المعلنة أمثال موشي شاريت في القضية الفلسطينية. وحدثنا الكاتب عن موقف بريطانيا المشين من العرب ووصفها بذات الوجهين وهي لذلك فقدت كل أخلاقياتها (صفحة ١٢٠) وكرر الكاتب أكثر من مرة قوله : «إن نسبة عالية جدا من اليهود الذين نزحوا من بلدانهم إلى فلسطين لم ينزحوا بدافع ديني وإنما هربا من الإضطهاد الأوربي النصراني».

إن الأسلوب السردي غير الموثق هو الغالب على الكتاب ولهذا لا يستطيع المؤرخ مثلا مقارنة المعلومات في مسألة ما بالوثائق، ثم أن كثيرا من الحوادث التي رواها فان درمولن يغلب عليها الخيال ولا نستطيع أن نقبلها وهي تقرب قليلا من الحكايات التي رواها ماركو بولو عن الشرق وأهله فلا يشعر القارىء بالجدية المطلقة والثقة التامة مع الكاتب.

يقع الكتاب في ١٨٤ صفحة + ١٥ صفحة للفهرس العام،وقد ألحقت بالكتاب ثماني صور : إحداها لقافلة حجاج والثانية لجدة في الثلاثينات والثالثة لكرستيان سنوك هورخرونيه في أواخر أيامه.

الهوامش

(١) انظر كتابي الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ١٠٤، ١٣١.

(٢) «سنوك هورخرونيه كما كان»، باللغة الهولندية.

(٣) الاستشراق ١١٣.

(٤) كتب الدكتور فان كونكزفيلد عدّة مقالات رائعة اثارت كثيراً من الجدل في الصحافة الهولندية. وعساني أستطيع ترجمتها كاملة إلى العربية إن سمح لي بذلك.

(٥) أنظر الاستشراق ١١١، ١١٣

(٦) الاستشراق ١١١.

7) NRC. Handelsblad, 8 Dec. (1979), p. Z.2.

8) CF. De Gids, nr 9/10, 1980, pp. 763-784, en art. van F. Schroder, pp. 785-806, en die van L.I. Graf, pp. 807-813, De Gids, nr 4/5 (Amsterdam 1981).

9) NRC Handelsblad, 10 Maart 1984, p.z.3

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يصــــدر قريبـــاً

عن دار ثقيـف للنشـر والتأليـف

كتـــاب (الإسلام وعدالـة التوزيـع)

تأليـف الدكتور محمد شوقي الفنجري

افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي (لعبد الكريم الباز)

عبد العزيز محمد اللميلم
أستاذ مساعد بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

احتوى البحث على ١٧٤ صفحة من الحجم المتوسط.

وقد تطرق فيه الباحث إلى عدد من الموضوعات حيث قسم بحثه إلى :

مقدمة وتمهيد وثلاثة أقسام وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها في بحثه، وأخيراً أعد فهرساً للموضوعات في نهاية البحث.

المقدمة :

تحدث فيها عن البواعث لاختيار الموضوع حيث أشار فيه إلى أنه قد قصر هذا البحث على الرد على اثنين ممن تعرضوا لتاريخ الاسلام وهما : فيليب حتي، وكارل بروكلمان، وذلك بتقديم دراسة نقدية لبعض الآراء الموجودة في كتابيهما «تاريخ العرب مطول/ فيليب حتي» ، «تاريخ الشعوب الاسلامية/ كارل بروكلمان» لفترة تمتد ما بين البعثة النبوية الشريفة ونهاية العصر العباسي الأول.

التمهيد :

تطرق فيه إلى بداية حركة الاستشراق ودوافعها سواء ما كان منها الديني أو الاستعماري أو الاقتصادي ، كما تحدث عن بعض أهداف الاستشراق حيث قصرها على اتجاهين اثنين أولهما:

أ ــ التشكيك في الاسلام من جميع جوانبه سواء بالنسبة لصحة رسالة النبي ﷺ أو الحديث الشريف أو الفقه الاسلامي أو قدرة اللغة العربية أو فيما يتعلق بالتراث الحضاري أو في إضعاف روح الإخاء الاسلامي بين المسلمين.

ب ــ أهداف علمية خالصة بغية الاستفادة من الجوانب المشرقة في الاسلام.

كما تحدث في التمهيد عن وسائل المستشرقين في الوصول إلى أهدافهم.

هذا بالاضافة إلى حديثه عن مقاييس البحث عند المستشرقين وكيف يزنونها بموازين تناسب أهواءهم بعيدة عن الموضوعية والتجرد، كما تطرق أيضا إلى الخدمات التي قدمها الاستشراق للبحث العلمي.

ثم تناول بشكل سريع مدارس الاستشراق وذكر عدداً منها والأماكن التي توجد فيها تلك المدارس.

وفي نهاية التمهيد قدم تعريفاً بكل من : فيليب حتي، كارل بروكلمان.

القسم الأول :ـــ

تحدث فيه عن بعض آراء فيليب حتي في التاريخ الاسلامي في كتابه «تاريخ العرب مطول» والرد عليها، وقد تضمنت تلك الآراء ثلاثة فصول :

أ ــ بعض الآراء في عصر النبوة والرد عليها.

ب ــ بعض الآراء في عصر الخلفاء الراشدين والرد عليها.

جـ ــ بعض الآراء في عصر بني أمية وبني العباس والرد عليها.

القسم الثاني :ـــ

اشتمل هذا القسم على بعض آراء كارل بروكلمان في التاريخ الاسلامي في كتابه «تاريخ الشعوب الاسلامية» والرد عليها. وهو مقسم بدوره إلى ثلاثة فصول أيضاً:

أ ــ بعض آراء كارل بروكلمان في عصر الرسول ﷺ والرد عليها.

ب ــ بعض آراء بروكلمان في عصر الخلفاء الراشدين والرد عليها.

جـ ــ بعض آراء بروكلمان في عصر بني أمية وبني العباس والرد عليها.

القسم الثالث :ـــ

وقد قسمه أيضاً إلى ثلاثة أجزاء.

الجزء الأول :ـــ

أفرد فيه مقارنة بين طريقة كل من المؤلفين في تصوير هذه الآراء والافتراءات وتبريرها حيث ذكر:

أ ـــ القضايا التي اتفق الاثنان على ذكرها.

ب ـــ القضايا التي انفرد بها فيليب حتي.

جـ ـــ القضايا التي انفرد بها كارل بروكلمان.

الجزء الثاني :ـــ تحدث فيه عن واجب رجال التاريخ إزاء هذه الآراء.

الجزء الثالث :ـــ تحدث فيه أيضاً عن بعض الكتاب التي تأثرت بآراء كل من فيليب حتي وبروكلمان، كما عقد فصلاً آخر عرف فيه بعض المراجع التي استفاد منها في بحثه.

الخاتمة :ـــ

أعد خاتمة في نهاية البحث تضمنت النتائج التي توصل إليها الباحث.

المصادر والمراجع :

أعد قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها في كتابة بحثه.

فهرس الموضوعات :ـــ

أعد في نهاية البحث فهرساً للموضوعات الرئيسية في بحثه.

ملاحظات

والواقع أن هذا البحث ذو قيمة علمية كبيرة لا من حيث التعريف بصاحبي الترجمة، حتي، وبروكلمان وإنما بالنسبة للآراء والمفتريات التي قال بها هذان المؤرخان ضد العروبة والاسلام حيث استطاع تفنيد مزاعمهما ودحضها، فلقد توخى الحقيقة في كثير من الموضوعات التي تطرق إليها وفند فيها الكثير من آرائهما المشبوهة، كما أنار السبيل للبعض ممن يجهلون أهداف ومرامي أمثال هؤلاء من المستغربين أو المستعربين على حد سواء خاصة من يسيرون في ركاب المستشرقين ويوافقونهم على ما يريدون، والسبب في ذلك معروف وهو أنه عندما يسيِّر الاستشراق هؤلاء لمصالحه ويستعين بالبعض من المأجورين من عرب ومسلمين أو من يتسمون بالعروبة والاسلام، إنما يريدون من وراء ذلك أن تكون آراؤهم وأفكارهم حجة يقيمون عليها دعواهم الزائفة في نظرتهم للاسلام وأهله فيما بعد، وليكون هؤلاء المأجورون شهود سوء على الاسلام والعروبة حتى تقوم الحجة على المسلمين بأن هناك من يوافق هؤلاء المستشرقين على دعاواهم الباطلة ضد الاسلام من أبناء العروبة أو أبناء الاسلام بشكل أوسع.

ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً عندما فند الباحث بعضا من آراء بروكلمان، ويتمثل ذلك في دحض الآراء التي أدلى بها عن الحجر الأسود وأنه في نظر بروكلمان هو «أقدم وثن معبود هناك في مكة».

والواقع أن الباحث قد وفق في تفنيده لتلك الآراء التي قال بها بروكلمان وأصاب كبد الحقيقة ذلك أن الاسلام والوثنية ضدان لا يجتمعان، فالاسلام حارب الوثنية منذ نشأته وحطم أصنام قريش في الكعبة نفسها، ولو كان الحجر الأسود وثناً كما يدعي بروكلمان لما أبقى عليه الرسول ﷺ عندما دخل مكة فاتحاً ولحطمه كما حطم الأصنام الموجودة داخل الكعبة عندما قرأ قوله تعالى «وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً». كما أن الحجر الأسود موجود مع وجود الكعبة المشرفة، ولم يعرف عن أحد من المسلمين أنه توجه بالعبادة إلى الحجر الأسود، ولم يكن الحجر الأسود أيضاً ضمن معبودات العرب قبل الإسلام.

ولهذا فإن الباحث قد أجاد في دحضه لتلك الشبه والافتراءات بمعلومات قيمة لا تقبل الجدل.

ونحن لا ننكر ما للمستشرقين من فضل في مجال تحقيق التراث العربي والاسلامي إلا أن غالبيتهم وللأسف الشديد إنما يعملون ذلك خدمة لأغراضهم ومراميهم التي من شأنها الحط من قدر وجلال الاسلام.

ولهذا فإن غالبية المستشرقين عندما يكتبون أو يحققون فإنما يسيئون إلى الإسلام والحضارة الاسلامية أكثر مما يخدمونها.

ولهذا يجب علينا كباحثين أو قراء أن نفند مزاعمهم الباطلة، ولا مانع من الاستفادة مما كتبوه ولكن يجب أن نأخذ منهم ونحن على حذر مما يكتبون لأن غالبيتهم كانوا يدسون السم في الدسم، لأننا عندما نطالع بعض كتاباتهم نجد الصفحات الكثيرة التي كتبوها عن الاسلام « في موضوع ما » لا غبار عليها ولكنهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يضعون جملة أو عبارة لا تتجاوز الأسطر، هذه العبارة قد تفسد ماء البحر. ولهذا يجب أن ينبري شبابنا ومؤرخونا للوقوف في وجه هؤلاء المستشرقين خاصة منهم من لا يريد بالاسلام خيراً، وأن يفندوا مزاعمهم ويرفضوا جميع الإدعاءات الباطلة التي يروجونها.

وآمل أن يأتي اليوم الذي يتحمل فيه أبناء الاسلام من مؤرخين وباحثين مسئولية تصحيح المعلومات الخاطئة التي دست على الاسلام بقصد أو بدون قصد.

وعموماً فإن الكتاب «في نظري» بحق قد عالج موضوعات نحن بأمس الحاجة إلى الكشف عنها واظهار زيفها للباحثين والقراء إحقاقاً للحق بالرغم من أن الباحث لم يتطرق إلى كل ما قاله كل من هذين المؤرخين عن العرب والمسلمين في كتبهما التي ألفوها عن الاسلام والعروبة. إلا أن ما ناقشه وحلله يعطينا صورة واضحة عن أهداف الحاقدين على الاسلام من أمثال هذين. كما أن الباحث لم يكتف بتفنيد المزاعم التي قال بها هذان المؤرخان بل إنه أشار إلى عدد من المؤرخين العرب الذين تأثروا بآراء وافتراءات بعض المستشرقين وضمنوا كتبهم بعضاً من هذه المفتريات بحسن نية بالنسبة للبعض أو بسوء نية بالنسبة للبعض الآخر.

وهذا ولا شك يكشف لنا عن كثير من الأمور التي يجب أن نناقشها أثناء قراءة بعض كتابات المؤرخين العرب ممن لهم وجهات نظر تطابق وجهات نظر بعض المستشرقين في نظرتهم للتاريخ الاسلامي، وتكشف لنا أيضا عن كثير من الهفوات التي يقع فيها هؤلاء المؤرخون، وهذا يدفعنا بالتالي إلى التحرز والتأكد مما يكتب عن التاريخ الاسلامي بعامة سواء بالنسبة للمستشرقين أو الشعوبيين أو بالنسبة للبعض ممن ينقلون عن هؤلاء من العرب والمسلمين دون تمحيص أو تدقيق. ولم يكتف الباحث بهذا أيضا بل إنه قدم تعريفاً بأهم المصادر والمراجع التي استفاد منها في بحثه في الرد على آراء بروكلمان، وحتي، من أمثال الطبري وابن الأثير وابن خلدون، هذا فيما يتعلق بمؤرخي الاسلام القدامى أو بالنسبة لمؤرخين غربيين هم من بني جلدتهم من أمثال غوستاف لوبون، توماس أرنولد. وهذه المراجع لا شك أفادته كثيراً في دحض آراء هؤلاء سواء بالنسبة للمؤرخين المسلمين القدامى أو بالنسبة للبعض من مؤرخي الغرب المنصفين. وبالرغم مما بذله الباحث من جهد مشكور في اظهار كثير من الحقائق ،إلا أن هناك بعض الملاحظات التي أود إيرادها للعمل بها مستقبلاً ومنها:

١ — في صفحة ٢٩ أشار المؤلف إلى فيليب حتي بأنه مستشرق.

فهل كان مستشرقاً؟ المعروف أنه لبناني الأصل وتخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت.

٢ — في ص ٣٠ أشار المؤلف إلى اسم كتاب الطبري هكذا «أخبار الرسل والملوك» والمعروف أن اسم كتاب الطبري هو «تاريخ الرسل والملوك» أو «تاريخ الأمم والملوك».

٣ — في ص ٧٤ : يدافع الباحث عن معاوية رضي الله عنه عندما عمل على تولية يزيد العهد.

لا شك أن التبريرات التي أشار إليها الباحث لا تبعد عن الحقيقة، إلا أن مما يؤخذ على معاوية أنه قرب ابنه يزيد وولاه عهده بالرغم من وجود العديد من أبناء الصحابة ممن هم يفضلون يزيد بن معاوية، وربما كان للعاطفة دور في هذا. أما مبدأ ولاية العهد ونظرة الخليفة معاوية لها فلا شك بأنها نظرة فاحصة ذلك أن تولية العهد فيها قضاء على كثير من الفتن المتوقع حدوثها ومنع الإحداث القلاقل، ولكن أسلوب الخليفة في هذا الاختيار هو محل تساؤل.

٤ — ص ٨٦. يحمل الباحث فيليب حتي وزر نشر قصة العباسة، والواقع أن حتي لم يكن أول من أثار تلك الفرية بل سُبق، إلى ذلك بعدد من المستشرقين الذين ناقشوها ونشروها، بل إن هناك وللأسف الشديد من أشار إليها من مؤرخي الاسلام القدامى. وبهذا فإن فيليب حتي ليس هو أول من روَّج لهذه المقولة الكاذبة والمفتراة على العباسة أخت الرشيد.

ويبدو أنها قيلت لتبرير الايقاع بالبرامكة من قبل الرشيد،وأن ما فعله الرشيد تجاههم ما هو إلا انتقام لما فعله جعفر البرمكي، وهو الاختلاء بالعباسة بالرغم من شرط الرشيد بعدم الاختلاء بها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى أية حال فالواقع يستبعد هذا ويرفضه جملة وتفصيلاً.

٥ ــ ص ١٤٩ . هل كتب الطبري تاريخه من أول الخلق إلى سنة ٣٠٩ هـ؟. المعروف أن الطبري توفي سنة ٣١٠ هـ وألف كتابه منذ بدء الخليقة حتى سنة ٣٠٢ هـ وألحق عريب بن سعد القرطبي الباقي وهو ما يسمى بـ «صلة تاريخ الطبري» حيث أبتدأ عريب كتابه هذا المسمى كتاب الصلة منذ سنة ٢٩١ هـ واستمر فيه إلى سنة ٣٦٧ هـ ولهذا يجب على الباحث أن يوثق معلوماته وأن يكون دقيقاً فيما يكتبه.

٦ ــ ص ١٥١ ــ هل استمر ابن الأثير في كتابه المعروف بـ «الكامل في التاريخ» إلى سنة ٦٢٩ هـ. المعروف أيضاً أن ابن الأثير نهج نفس النهج الذي سلكه الطبري في كتابة مؤلفه أي منذ بدء الخليقة إلى سنة ٦٢٨ هـ بينما لم نر حادثة واحدة أشار إليها ابن الأثير في كتابه الموسوم بالنسبة لسنة ٦٢٩ هـ. ولهذا فإن آخر سنة وقفت عندها كتابة ابن الأثير هي نهاية سنة ٦٢٨ هـ وليست سنة ٦٢٩ هـ بالرغم من أن ابن الأثير قد توفي في سنة ٦٣٠ هـ.

وأخيرا كنت أود لو أن الباحث ركز على واحد من هذين المؤرخين وفند آراءه ومزاعمه لكان أفضل «في نظري» فلو فعل ذلك لكفى ولاستطاع أن يدحض جميع المزاعم والافتراءات التي قالها أحدهما عن العرب والاسلام. أما نقده لبعض آرائهما مجتمعة فبالرغم من العديد من الموضوعات التي ناقشها الباحث وحللها وفند فيها مزاعمهما إلا أنه لو ركز على واحد منهما كما أسلفت لاستطاع أن يخرج بنتيجة أفضل مما كانت عليه الآن لأنه سيخصص بحثه لنقد رأي واحد فقط.

فلو فرضنا جدلاً بأنه ركز على الآراء التي أشار إليها كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الاسلامية» وقالها عن الاسلام والعروبة، وفند تلك الآراء وناقشها بشكل موضوعي ففي رأيي أنه سيتوصل إلى نتائج تبرز كثيراً من الحقائق التي أغفلها بروكلمان أو تحامل بها على العروبة والاسلام أو تعامى عنها أو ناقشها بما يتناسب وذوقه ونظرته الحاقدة ضد الاسلام وأهله. وبالرغم من ذلك كله فإن الباحث ولا شك قد بذل مجهوداً كبيراً في تفنيد الكثير من المزاعم التي خرج بها على الناس كل من فيليب حتي وكارل بروكلمان.

هذه في الواقع هي أهم الملاحظات التي أشرت إليها وهي في مجموعها لا تمس الجوهر بقدر ما تمس الشكل ولكن أردت أن يعمل بها مستقبلاً، وأسأل الله وأن يوفق الله الباحثين المخلصين في التصدي لأمثال هؤلاء المستشرقين الحاقدين ومن سار على ركابهم ممن ينتمون إلى العروبة والاسلام حتى تظهر الحقائق دون زيف أو تشويه.

تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي (لعبد الجبار ناجي)

سعيد عدنان

ناجي، عبد الجبار / تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي. — بغداد . دار الجاحظ، ١٩٨٠ (سلسلة المكتبة الصغيرة ٨٥).

بدأ الاستشراق منذ أن اتجه الغرب نحو الشرق ابتغاء المعرفة وما يتبع المعرفة أو ما يسبقها من رغبة في السيطرة والاستثمار، ولعل أول من بحث في شؤون الشرق، لم يكن يريد أن يقف عند البحث والاطلاع، وإنما يريد أن يتخذ من البحث التاريخي تمهيداً لرجال آخرين من قومه يهبطون الشرق مستعمرين، ولعل أمثال هذا المستشرق الممهد للاستعمار ما يزالون يبحثون ويؤلفون ؛ غير أنه من غير الصواب أن نحكم على أولئك المستشرقين بأنهم طلائع الاستعمار، لأن منهم من كان حب المعرفة يدفعه ليبحث في تاريخ الشرق، ولأن منهم من كان يجد في الشرق ملاذاً لأزمة ذاتية شخصية، أي أنه هارب من الغرب وحضارته إلى الشرق.

ولا ريب أن الغربي الذي يبحث في الشرق ينطلق من رؤيا الحضارة الغربية، وهي رؤيا تختلف عن رؤيا الحضارة العربية الإسلامية فلا غرو أن تختلف النتائج التي ينتهي إليها المستشرق عما هو مألوف لدى العرب المسلمين.

إن قضية الاستشراق هي أولاً قضية الحضارة الغربية، لا تفهم حق الفهم إلا إذا وضعت في سياق تلك الحضارة؛ حيث أن الجذور هناك؛ والنسغ الذي يغذيها مستمد من تلك الأرض.

ولعل الدراسات الاستشراقية تكشف الشخصية الغربية ونوازعها وثقافتها، أكثر مما تكشف الشخصية الشرقية، أي أن المستشرقين جعلوا من الشرق مرآة عكسوا فيها صورهم.

وقد كتب كثير من الباحثين عن الاستشراق، من الغربيين والعرب، ولعل من أواخر ما كتب كتاب «تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي» للدكتور عبد الجبار ناجي.

جاء الكتاب على أربعة عنوانات؛ لم يشأ المؤلف أن يسميها فصولاً:

الأول : الاستشراق والتاريخ العربي الإسلامي.

الثاني : المجالات التي ركز عليها الاستشراق في دراسة التاريخ العربي الوسيط.

الثالث : المستشرقون والمراحل التاريخية التي مرّ بها الاستشراق.

الرابع : تطور الدراسات الاستشراقية عن الرسول القائد.

ابتدأ المؤلف بذكر من سبقه من دارسين تناولوا الاستشراق، عرباً وأجانب، لكي يعرض من خلال ما أشار به إليهم، المذاهب في تفسير حركة الاستشراق، ولكي يدعو الباحثين العرب إلى درس إتجاهات المستشرقين وتبيّن ما فيها من خطل وزلل شوه الحقيقة العربية الإسلامية في الغرب، لأن كثيراً من المستشرقين كان مدفوعاً بدافع تبشيري نصراني يريد أن يثير الشكوك في الإسلام لكي يمهد الطريق للنصرانية، أو مدفوعاً بدافع سياسي يريد أن يضعف الشرق لكي يستعمره.

قلنا إن الاستشراق قضية الحضارة الغربية؛ والمستشرق إذ يدرس تراث الشرق فإنما ينطلق من رؤيا حضارته؛ ويبحث عما يريد، ولعله يقف عند مسألة لا تستوقف الشرقي، ولعله يعني بدرس قضايا لا يعنى الشرقي بها. ولقد عني المستشرقون بالكتابة عن «المبادىء الإسلامية أو الفقه أو الفرق والمذاهب الإسلامية أو المسائل الدينية أو الدعوة الإسلامية أو حياة الرسول الكريم أو القرآن المجيد؛ فلقد شغلت مثل هذه الموضوعات اهتمامات المستشرقين في كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأمريكا لا سيما منذ نهاية القرن الثامن عشر فصاعداً لما لها من علاقة سياسية وثيقة بحركة التوسع والاستعمار الأوربي» [ص ٩ — ١٠].

إن المستشرق ذا الهدف السياسي، يدرس الماضي العربي الإسلامي ليهتدي إلى مواطن الضعف والقوة، لكي يهيء الأرض لرجال السياسة في بلده، فلما اتجه البرتغاليون لاستعمار المنطقة العربية، والسيطرة عليها، وعلى طرق التجارة سبق هذا المشروع حركة الاستكشافات الجغرافية [ص ١٣].

ولقد كان من وسائل اتصال الغرب بالشرق البعثات التنقيبية يرسلها الأوربيون لكي تنقب عن آثار بلدان الشرق؛ وما قام فيها من حضارة قديمة، وكان من نتيجة ذلك أن استحوذ الأوربيون على كثير من آثار هذه البلدان، فلا عجب أن تجد المتاحف الأوربية

تغص بآثار شرقية لا تجدها في بلدها.

ومن اتصال الغرب بالشرق، الارساليات التبشيرية، إذ وجد جماعة من المستشرقين تعلموا العربية وبحثوا في التاريخ الإسلامي، سموهم أصلاً «مبشرون»، أمثال الأب جوسين والأب جاك جوسييه والأب لويس كارديه من فرنسا، والأب صموئيل زويمر الأمريكي رئيس المبشرين في الشرق الأوسط [ص ١٦].

وكذلك اتصل الغرب بالشرق عن طريق شركات النفط، وقد اجرت هذه الشركات دراسات حقلية، جغرافية وطوبوغرافية واقتصادية للمناطق الغنية بالنفط.

ثم إنه أسست في الغرب مراكز تعنى بدراسة الشرق وخُصصت له أقسام في الجامعات.

كل ذلك لكي يعرف الغرب الشرق ويصوره في ماضيه وحاضره على صورة يسهل عليه بها استعماره.

تلك من سلبيات الاستشراق، أما إيجابياته فانها عند المؤلف: «ما تثيره فينا ــ نحن العرب ــ من اندفاع قوي للاستجابة العلمية المنظمة المعتمدة على أساليب بحث علمية ... لاعادة دراسة تاريخنا العربي» [ص ٢٠ ــ ٢١]. والعناية بما لم يعن به المستشرقون لأنهم عنوا بما يحتاجون إليه وبما يرون به أنفسهم.

ينبغي للعرب الخروج من الرؤية الاستشراقية لأنها رؤية غربية لا يستطيعون أن يكتشفوا تاريخهم بها، إنها رؤية مثقلة بحضارة الغرب ومشاكله.

ولقد مرّ الاستشراق بأطوار، إذ اختلط أول أمره بالتبشير فوجد من المبشرين من تعلم العربية ودرس التراث العربي، غير أنه ليس كل مبشر مستشرقاً، وهنا يبرز الدافع الديني إلى الاستشراق لأن غاية المبشر إثارة الشكوك في الإسلام عقيدةً، ونبياً، وشرائع، لكي يمهد الطريق للنصرانية.

وهناك دافع آخر سياسي، لعل أصوله ترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وطبيعي أن يستمر هذا الدافع ما دام من أهداف الغرب السيطرة على الشرق، وما فيه من ثروات وخيرات غير أننا لا نعدم مستشرقين مدفوعين بحب الاستطلاع لا يتنوون بالعرب والمسلمين شراً، غير أن هؤلاء أيضاً لا يستطيعون أن ينسلخوا من الرؤيا الغربية فهم محكومون بالمنظار الغربي.

وكانت حركة الاستشراق محكومة بتطور مصالح الغرب في الشرق ويمكن أن توضع في ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى :

«تمثل هذه المرحلة الاتجاهات الاستشراقية وكتابات المستشرقين التي ظهرت في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر ... وقد أسس أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرانس في سنة ١٥٣٩ ، وأسس الكرسي الآخر للغة العربية في جامعة ليذن بهولندا في سنة ١٦١٣» [ص ٣٠].

وهذا يدل على أن المدرسة الفرنسية في الاستشراق والمدرسة الهولندية قد سبقتا غيرهما من مدارس الاستشراق كالمدرسة البريطانية والمدرسة الألمانية، وذلك لأن مصالح فرنسا وهولندا قديمة في الشرق.

وقد اتصفت هاتان المدرستان (الهولندية والفرنسية) بأن مستشرقيها الأوائل اهتموا باللغة العربية والأدب العربي، وكان مما نشر في مطبعة ليدن المشهورة كتاب «العوامل المائة في النحو» لعبد القاهر الجرجاني. وقد استمر الاستشراق الهولندي والفرنسي معنياً بالدراسات اللغوية والأدبية، ولك أن تضيف إليهما الاستشراق البريطاني والألماني والروسي منذ القرن التاسع عشر. فقد عنيت المدرسة الروسية باللغة العربية والأدب العربي، ولعل عناية الاستشراق أولاً باللغة والأدب أمر طبيعي، لأن اللغة والأدب مفتاح الفكر لا يتهيأ الدخول إليه قبل اتقانهما.

وبما اتصفت به مدارس الاستشراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التوجه نحو المخطوطات العربية تحقيقاً ونشراً فقد نشر المستشرق الهولندي دي يونغ صحيح البخاري والأنساب لأبي فضل المقدسي والأنساب المتفقة لابن القيسراني وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي، وقد نشر المستشرق المشهور دوزي «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي، و«البيان المغرب» لابن عذارى و«نزهة المشتاق» للادريسي.

وممن يذكر من المستشرقين؛ المستشرق الفرنسي دي ساسي فقد نشر جملة من مخطوطات مكتبة باريس الوطنية، وكتب عن تاريخ العرب وأصل آدابهم، كما حقق أشعار المعري ومقامات الهمذاني.

وقد اتصف الاستشراق الروسي أنه اتجه نحو تحقيق ودراسة ما يتعلق بآسيا الوسطى والشرق، فقد كتب المستشرق خاينكوف عن مملكه بخارى، وآسيا الوسطى، والمصادر العربية والفارسية والتركية عن بحر قزوين.

وبما اتصف به الاستشراق الألماني أولاً ثم الاستشراق الفرنسي،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في هذه المرحلة الأولى، العناية بالمواضيع العلمية في الحضارة العربية الإسلامية، فقد عني كاراديفو بالرياضيات فترجم فصلاً من كتاب التذكرة للطوسي وعني المستشرق الألماني فويكه بالجبر فنشر «براهين الجبر والمقابلة» للخيام وكتاب «الفخري في الجبر والمقابلة» للكرخي و«خلاصة الحساب» لبهاء الدين العاملي.

كما كان من خصائص هذه المرحلة الأولى من الاستشراق ، أن بعضاً من المستشرقين كانوا سياسيين، أي أنهم كانوا يمثلون بلادهم سياسياً في بلدان الشرق، فقد كان «كالفرلي» الأمريكي مستشارا للشؤون العربية في شركة الزيت العربية الأمريكية، وقد كان كلود لوني جيمس ممثلا لشركة الهند الشرقية البريطانية، ثم أصبح المقيم البريطاني في بغداد، وكان برنارد قنصلاً بريطانياً في تونس.

المرحلة الثانية :

شهد العالم الأوربي تغيراً في السياسة والاقتصاد، منذ منتصف القرن التاسع عشر، حتى بلغ أوجه في السنوات الأربعين الأولى من القرن العشرين، فقد شرعت الدول الأوربية تتنافس على المواد الأولية التي تحتاج إليها في صناعتها، كما تتنافس على الأسواق التي تبيع فيها مصنوعاتها؛ وقد شهدت السنوات الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، أفول قوى سياسية استعمارية كالبرتغاليين والهولنديين، وظهور قوى سياسية أخرى كالبريطانيين والفرنسيين والألمان، كما شهدت هذه السنوات ضعف الأمبراطورية العثمانية ثم سقوطها، وقد أسرعت الدول الأوربية للاستيلاء على تركة «الرجل المريض» والاستئثار بها قبل غيرها.

تلك أسباب زادت من اهتمام الغرب بالشرق، وقد اتصفت حركة الاستشراق في هذه المرحلة الثانية بصفات منها: أن العناية باللغة والأدب دراسة وتحقيقاً ونشراً قد ضعفت عدا الاستشراق الألماني، إذ واصل نولدكه عنايته باللغة العربية، والتأليف في قواعدها كما كتب آدم متز عن الشعر العربي، أما التوجيه نحو المخطوطات العربية عامة، فقد نشطت حركة التحقيق والنشر لشتى المخطوطات في مختلف ميدان المعرفة، ولا سيما كتب التاريخ، فقد حقق المستشرق أمدروز تجارب الأمم لمسكويه، وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي كما كتب المستشرق لي سترنج كتابين تاريخيين الأول عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية والآخر عن بلدان الخلافة الشرقية

ومما اتصفت به هذه المرحلة، العناية الفائقة بالعقائد الإسلامية والدين الإسلامي، وحياة الرسول الكريم، وهي «مسألة تحمل أهمية خاصة إذا ما التفتنا إلى الظروف السياسية التي سبقت الحرب العالمية الأولى والتي تلتها ومحاولات الدول الأجنبية تثبيت سيطرتها على المناطق العربية» [ص ٥٢]. فقد كتب فان فلوتن الهولندي عن الفتح العربي، والسيادة العربية، والشيعة، والاسرائيليات في عهد بني أمية، وكتب فنسنك عن الصوفية؛ وكتب فلهاوزن عن الدولة العربية وسقوطها منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية الدولة الأموية وكتب بول كراوس عن الصوفية والاسماعيلية.

وقد عني الاستشراق بقضية الخلافة، ولا سيما الاستشراق البريطاني، فقد كتب وليم مبور «الخلافة، ظهورها وانحطاطها وأفولها» ثم كتب السير توماس «الخلافة» ولم يقف الاستشراق عن درس تاريخ الإسلام وإنما اتجه يؤلف في الإسلام المعاصر، فقد كتب السير توماس ارنولد عن الهندوكية والإسلام في الهند، وألف السير هملتون جب عن الاتجاهات الحديثة في الإسلام، والديانة المحمدية والتفكير الديني.

ومن مميزات المرحلة الثانية هذه؛ أن الاستشراق الألماني بقي معنياً بتاريخ العلوم عند العرب، دراسة وتحقيقاً ونشراً فقد نشر المستشرق هيرشبرغ رسالة طب العيون لابن سينا.

أما الهدف التبشيري فإنه مستمر أيضاً في هذه المرحلة، وعرف هنري لامانس، من كبار المستشرقين المبشرين الذين اتقنوا العربية وحازوا علماً كثيراً في التراث العربي الإسلامي، غير أن دافعهم كان الحقد على الإسلام والمسلمين.

وقد وجد مستشرقون سياسيون كالمستشرق لويس مرسيه الذي كان ضابطاً فرنسياً ثم أصبح وزيراً مفوضاً، وقد كتب عن تطوان والرباط والمستشرق، أرنولد ولسون.

المرحلة الثالثة :

بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد قيام الثورات في منطقة الشرق الأوسط ، اتجه الاستشراق إلى دراسة التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية، ووجد في الولايات المتحدة، من يدعو إلى قيام علم اجتماع لمنطقة الشرق الأوسط، وكان لابد ان تتصف حركة الاستشراق في هذه المرحلة بصفات خاصة بها، ومن تلك الصفات: قلة عناية المدارس الاستشراقية بالدراسات اللغوية عدا ما كان يجري في الاستشراق الألماني، إذ واصل المستشرق كارل بروكلمان بحوثه في النحو والصرف في العربية والآرامية، وقواعد اللغة

العربية، ووضع تاريخ الأدب العربي.

ومن خصائص هذه المرحلة زيادة البحوث في التاريخ المعاصر، وفي الاسلام المعاصر، غير أنك لا تعدم أن تجد مستشرقين بقوا معنيين بالدراسات التراثية، في ميادين اللغة والأدب والتاريخ والفلسفة، والعقائد، ولا تعدم أن تجد آخرين توفروا على تحقيق المخطوطات ونشرها.

والحق أن ميدان التحقيق والنشر مما يسجل للمستشرقين في سجل فضائلهم، فلقد أفرغوا الوسع في سبيل إخراج المخطوطات العربية في شتى الميادين أخراجاً علمياً سليماً، ولا ريب أن نشر المخطوطات نشراً علمياً، الخطوة الأولى ــ التي لا مندوحة منها ــ لمن يريد أن يدرس التراث العربي الإسلامي.

ولم يأفل الاتجاه التبشيري في هذه المرحلة، بل هو مستمر، كما كان فقد كتب الأب جاك جوميه حول الاتجاه الحديث في تفسير القرآن في مصر، كما كتب المستشرق الأمريكي زويمر ــ وهو مبشر متعصب ــ عن العلاقة بين المسيحية والاسلام.

بعد أن فرغ المؤلف الدكتور عبد الجبار ناجي من مراحل الاستشراق وأطواره انتقل إلى موضوع عني به المستشرقون كثيراً واختلفوا فيه كثيراً، وكان المحك الذي يكشف عن نواياهم، ذلك هو شخصية النبي محمد بن عبد الله ﷺ فوجد أن موقف الاستشراق من شخصية النبي الكريم يتطور عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة ترجع أصولها إلى العصور الوسطى، إذ احتك الغرب بالشرق، وأخذ يكوّن له صورة عن الإسلام، وعن نبيه الكريم صورة لا تتوخى الحقيقة ولا تنبع من الصدق، وإنما هي نسج من الأوهام التي ترضي الذات الغربية وتحلها المكان الأرفع عند نفسها، وقد لا يصح أن نسمي ما قيل في هذه الحقبة من آراء، استشراقاً ولكنه الأساس الذي قام عليه فيما بعد الاتجاه التبشيري في الاستشراق حيث اصطنع الشكل العلمي، وقد اتصفت هذه المرحلة بـ :

١ ــ التطرف الشديد في عرض الآراء والأفكار والتفسيرات المعادية للرسول الكريم ﷺ والقرآن المجيد.

٢ ــ الجهل البين بالكثير من المصادر العربية الإسلامية، ولا سيما كتب السيرة والحديث والحوليات التاريخية.

٣ ــ غلبة الطابع الأسطوري والقصص الخيالي على ما قيل من آراء [ص ٨٦].

وقد انصبت جل جهود المستشرقين على التشكيك في صدق نبوة النبي الكريم ﷺ، وفي صدق القرآن. ويعد دانوكونا من أوائل المنادين بهذه الآراء التعصبية في كتابه «أسطورة محمد في الشرق» وقد صور دانتي صاحب الكوميديا الآلهية الرسول الكريم ﷺ تصويراً يدل على حقده وتعصبه، ولم تنته هذه الآراء عند العصور الوسطى بل تعدتها إلى عصر النهضة، فقد وجد من فسر الدعوة الإسلامية على أنها انتقام الرب مما شهدته الكنيسة الشرقية من انقسامات فالرب هو الذي أرسل السراسين (أي العرب) ليكونوا أدوات غضبه [ص ٨٨].

المرحلة الثانية :

إذ أقبل القرن الثامن عشر، أخذت النزعة العقلية تنمو وتشتد، وأخذت الفلسفة تجعل من مبدأ النقد والتحليل أساساً لها،وقد بنى ديكارت فلسفته على الشك المؤدي إلى اليقين، ولم يعد التاريخ سرد الأحداث ممزوجةً بالخيال والأوهام، وإنما هو يطمح إلى أن يكون علماً أو شيئاً كالعلم يستعين بالنقد والتحليل وقد انعكس كل ذلك على حركة الاستشراق فعدلت من آرائها المتعصبة في شخصية النبي ﷺ ووجد منهم من يعد النبي الكريم «مصلحاً علمانياً غير مسيحي قاد صحبه ومؤيديه من أجل التحرر من التعاليم اللاهوتية الغامضة» [ص ٩٢]. وقد نشر المستشرق الفرنسي كونت هنري دي بولينفيه كتاباً بعنوان «حياة محمد» فنّد به ما كان سائداً في العصور الوسطى، مما يتعلق بشخصية النبي الكريم.

وقد تحدث كارليل في كتابه «الأبطال» عن الرسول ﷺ فصوره تصويراً بطولياً ممتدحاً أخلاقه وأمانته وصدق دعوته ووصفه بأنه الموقظ الملهم لشعبه.

المرحلة الثالثة :

وقد وجد من المستشرقين من عني بالجوانب الاجتماعية التي قام بها الرسول ﷺ مثل المستشرق هيوبرت جريم. لكن لا نعدم مستشرقاً مبشراً متعصباً كهنري لامانس يولي الحياة الاقتصادية والمدنية أهمية كبيرة ويعد الدعوة الإسلامية نتاج المجتمع الحضري، وقد ردّ عليه أقواله هذه من المستشرقين، مونتغمري وات.

جملة الأمر في قضية الاستشراق أنها قضية غربية، تمثل نظرة الرجل الغربي إلى الشرق، فإذا أراد الشرقي أن يجد ذاته ويكتشف تاريخه، فعليه أن يهتدي إلى رؤياه الخاصة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حركات التجديد في موسيقا الشعر العربي الحديث (لموريه)

محمد عبد الحميد الطويل
أستاذ مساعد / بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / أبها

تتألف هذه الدراسة من مبحثين، الأول عنوانه: الشعر المرسل في الأدب العربي الحديث، والثاني : الشعر الحر في الأدب الحديث: أبو شادي ومدرسته ١٩٢٦ ـــ ١٩٤٦.

وقد نُشر البحثان في مجلة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ومؤلف البحثين مستشرق يهودي محاضر في الجامعة العبرية، وقد ترجم البحثين ونشرهما في كتابه الدكتور سعد مصلوح الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة. والكتاب كما هو واضح يبحث مشكلة التجديد في الموسيقى الشعرية، وهي قضية ثار حولها كثير من الجدل، إما حول الشعر المرسل وإما حول الشعر الحر.

والمؤلف معنى في البحث الأول بالحديث عن القافية (وأنها عائق ينبغي أن يزال (١) وهو يبحث عن كل ما يدعم به كلامه هذا، ويتكىء على نصوص لبعض الشعراء العرب ذوي الميول الغربية في الثقافة والفكر، فينقل كلامهم في الهجوم على القافية .... فهو مثلا ينقل نصا للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، يدعو فيه إلى هجر القافية كلية، يقول فيه : وأما اختلاف القوافي في القصيدة الواحدة كجعل كل قسم من أقسامها على قافية فيه سهولة للشاعر، ولكن القافية مهما اختلفت فهي تقيد الشاعر، ولا تدعه حرا في إظهار ما يريده من معنى أو شعور، فالسبب الأكبر لتأخر الشعر في العربية عنه في اللغات الغربية هو القافية، ذلك القيد الثقيل الذي ينوء به الشعر في العربية فيرسف مبطئا في سيره كالماشي في الوحل (كذا).(٢)

هذا ما قاله الزهاوي، ونقله عنه مؤلف الكتاب، ولأدع القارىء يتصور فرحة المستشرق اليهودي بهذا النص من شاعر كان من كبار شعراء العربية في ذلك الوقت.

كيف يهاجم الزهاوي القافية بهذه القسوة، ويدعى أنها سبب تأخر الشعر العربي عن أشعار الغربيين، مع أن المؤلف يعترف بأن الزهاوي لم يدرس ولم يكن لديه القدرة على قراءة أية لغة أو أدب أوربي(٣).

ولم يكتف المؤلف بذلك القول عن الزهاوي فعاد يقول: وأيا ما كان الأمر فان الشعر المرسل الذي أنشأه الزهاوي عليه طابع الفجاجة التي تتسم به المحاولة الأولى. وقد أظهرت دعوته. عدم فهمه لطبيعة الشعر المرسل(٤).

وقبل أن نناقش الكاتب في بعض القضايا التي أثارها أحب أن اقول إن معظم من هاجموا القافية في العصر الحديث، ينتمون إلى مذاهب بعيدة عن الأدب العربي والثقافة الاسلامية من المستعربين والمتأثرين بالثقافة الأجنبية.

فعلى سبيل المثال يقول لويس عوض: ومحنة الشعر العربي على وجه التخصيص نظام القافية الموحدة(٥) . هذا ما قاله لويس عوض ولن أعلق عليه بشيء إلا بقوله عن نفسه في الكتاب نفسه: إن فرلين قال: إمسك البلاغة واكسر رقبتها، وانه أي لويس عوض حذا حذوه فكسر رقبة البلاغة، ويعتقد أنه نجح في ذلك إلى أبعد الحدود.. فإذا أضفنا إلى ذلك أن إحساسه باللغة ضعيف بالفطرة، علمنا كيف تأتى له أن كسر عنق البلاغة، وقد اعترف لي(٦) بأنه لم يقرأ حرفاً واحداً بالعربية بين العشرين والثانية والثلاثين فاحساسه باللغة أجنبي على كل حال..

هذا ما يقوله لويس عوض عن نفسه إحساسه باللغة ضعيف، ولا يقرأ بالعربية مع أنه كان يوماً ما يوجه الثقافة في مصر من خلال موقعه كمستشار ثقافي للأهرام(٧).

وتقول السيدة نازك الملائكة عن القافية : إنها ذلك الحجر الذي تلقمه الطريقة القديمة كل بيت .. وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التي أنزلتها القافية الموحدة بالشعر العربي

طيلة العصور الماضية .. القافية تضفي على القصيدة لوناً رتيباً يمله السامع فضلاً عما يثير في نفسه من شعور بتكلف الشاعر، وتصيده للقافية ومن المؤكد أن القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة .. ووأدت معاني لا حصر لها في نفوس شعراء أخلصوا لها(٨).

هذا الكلام الغريب يصدر عن شاعرة تمرست على النظم أكثر من أربعين عاما وإذا سألتها عن هذه الخسائر الفادحة التي لحقت بالشعر العربي بسبب القافية الموحدة فلن تجد إجابة لديها. ومن المؤكد أن الشعر العربي مني بخسارة فادحة حقا، حين أصيب بدعواها هي وغيرها عن الذي يسمونه الشعر الحر..

إن القافية لم تكن يوما ما عثرة في سبيل الشاعر من لدن امرىء القيس إلى الآن وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولم تكن شيئا زائدا على البيت يصح حذفه. إنها ركن أساسي في موسيقا الشعر العربي...

أحسب أن هذه مقدمة لازمة قبل مناقشة المؤلف.

وسوف أورد الآن أسماء بعض الشعراء والنقاد الذين اعتمد عليهم المؤلف، ونقل كلامهم :

— سليمان البستاني
— رزق الله حسون
— ناصيف اليازجي
— بولي شحادة
— جورجي زيدان
— أحمد فارس الشدياق
— جميل صدقي الزهاوي
— عبد الرحمن شكري
— أحمد زكي أبو شادي

هؤلاء ومن على شاكلتهم هاجموا القافية، واعتمد عليهم المؤلف اعتماداً تاماً..

وقد اعترف المؤلف بمنهجهم واتجاههم فقال(٩) : وتحت تأثير الغرب حاول بعض الشعراء العرب أن يقدموا معجما شعريا واستعارات وموضوعات جديدة، وأن يكتشفوا أشكالا وموسيقى جديدة تناسبهم لكي يكونوا قادرين على تجنب ما اعتبروه أسلوبا إستعباديا ونغمة رنانة وخطابية من جانب الشعر التقليدي.

وانظر إليه يصف الجانب الآخر، أصحاب الثقافة العربية الأصيلة الغيورين على القيم العربية يقول: ويرى النقاد الذين عارضوا الشعر المرسل — وقد كان معظمهم من الأزهر أو من أصحاب الثقافة التقليدية(١٠) . هؤلاء تقليديون في مقابل المجددين..

وينقل المؤلف نصاً لرزق الله حسون في ترجمته لأحد أسفار التوراة، يقول فيه : وقد سنح لي أن أنظم الفصل الثامن عشر من سفر أيوب على أسلوب الشعر القديم بلا قافية لأن حد الشعر عندي نظم موزون، وليست القافية تشترط فيه إلا لتحسينه، فقد كان الشعر شعراً قبل أن تعرف القافية كما هو عند سائر الأمم ولم يسمع للعرب بسبعة أبيات على قافية واحدة قبل امرىء القيس .. لأنه أول من أحكم قوافيها(١١).

هذه هي الدعاوى الباطلة التي يستند عليها المؤلف كل الشعراء قبل امرىء القيس لم يكتبوا قصيدة موحدة القافية .. ولا أعلم من أين استقى هذه المعلومات الخاطئة إن لدينا الكثير من الشعراء قبل امرىء القيس ولهم قصائد موحدة القافية ..

— لقيط بن يعمر الذي كان كاتباً في ديوان كسرى، وحين علم أنه ينوي غزو قومه أرسل اليهم قصيدة طويلة يحذرهم فيها ومطلعها :

يا دار عبلة من محتلها الجرعا
هاجت لي الهم والأحزان والوجعا(١٢)

والشنفري والمهلهل بن ربيعة، والحارث بن عباد وعدي بن زيد(٢) وغيرهم وغيرهم الا تزخر كتب الأدب بقصائدهم..؟

والأمر كذلك بالنسبة لمعاصري امرىء القيس: تأبط شرا، أبو دؤاد الايادي، المرقش الأكبر .. طرفة بن العبد .. السموأل ابن عاديا .. الحارث بن حلزة ، ودواوينهم موجودة وشعرهم معروف(١٤). لقد رجعت إلى كتاب مختار الشعر الجاهلي فوجدت فيه قصائد يزيد عدد أبيات الواحدة منها على خمسين بيتا. ولن نذكر أمثلة فليرجع إليه من يشاء.

هذه هي القضية الرئيسية في هذا البحث، كيف يهاجم المؤلف القافية: ؟... وكيف يحرر الشعر العربي منها .. ولما انهارت آماله في ذلك قال: حتى العقاد الذي شجع شكري وعبر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في عام ١٩١٣ عن تفاؤله بمستقبل الشعر العربي المرسل. وأنه سيحتل مكان القافية الموحدة والشعر المقطوعي .. عبر عن خيبة أمله(١٥) في الشعر العربي المرسل عام ١٩٤٣م وقد وجد أنه خلال ثلاثين سنة لم يستطع أن يستمتع بالشعر المرسل أو أن يعود أذنه عليه، بل انه استخدم حجج المعارضين للشعر المرسل في شرح أسباب إفلاسه في العربية..

وقد عجب من استمتاعه بقراءة الشعر الانجليزي المرسل وعدم افتقاده متعة القافية فيه على حين أنه لم يستطع على الاطلاق أن يستمتع بالشعر العربي المرسل.

يقول العقاد: وسواء رجعنا بتعليل ذلك إلى وحدة القصيدة عندنا وعندهم أو إلى أصل الحداء في لغتنا وأصل الغناء في لغتهم، أو إلى غلبة الحسية في فطرة الساميين وغلبة الخيالية والتصور في فطرة الغربيين فالحقيقة الباقية هي أننا نحن الشرقيين نلتذ شعرهم المرسل ولا نفتقد القافية فيه، وأننا ننفر من إلغاء القافية عندنا .. ليس من اللازم أن نتعمد مجاراتهم أو يتعمدوا مجاراتنا في كل إطلاق وتقييد ..(١٦)

هذا ما قاله العقاد وأسف عليه المؤلف، وهذه هي الحقيقة لقد تحطمت كل معاول الهدم التي شنها الاستعمار وأعوانه لهدم الثقافة العربية في جانب من أهم جوانبها وهو القافية في الشعر العربي. والشعر تاريخ العرب، والقافية من أهم أركانه، حافظ عليها العرب أشد محافظة فالتزموها في أبيات القصيدة كلها(١٧)

وفي نهاية البحث يقول الكاتب في مرارة: وقد فشل أتباع حركة الشعر المرسل في تحقيق أهدافهم من كتابة الشعر القصصي والدرامي، وفي إمداد الشعر العربي الحديث بدماء جديدة، وكل ما استطاعوا تحقيقه هو ترجمة بعض مسرحيات شكسبير إلى شعر غير مقفى وكتابة بعض القصائد القصصية، التي كانت قيمتها التاريخية هي العامل الوحيد لبقائها إلى اليوم. هذا عن المبحث الأول. فإذا ما ذهبنا إلى المبحث الآخر، وهو عن الشعر الحر في الأدب العربي الحديث أبو شادي ومدرسته نجد المؤلف ــ وقد عجز عن هدم القافية فيقول: وبالرغم من أن القافية العربية الموحدة قد وصمت بأنها كانت السبب فيما آل إليه الشعر من انحطاط في بداية القرن العشرين، كما أنها حرمت الشعر العربي عبر تاريخه الطويل من العناصر الملحمية والقصصية والدرامية فان الذين ناصروا إلغاء القافية كانوا قلة قليلة(١٨) أي أن العملية عملية كم فحسب، ناصر إلغاء القافية قلة، ولو كانوا كثرة لما حدث ما حدث ولانتهت القافية .. وكما اعترف في المبحث السابق باتجاه أنصاره يعترف هنا أيضا فيقول: يعد بداية القرن العشرين علامة على مرحلة جديدة وثورية في تاريخ الشعر العربي فقد تزايد تأثير الأدب الغربي(١٩)

ويعود مرة أخرى فيقول: وقد حاول أبو شادي أن يبدأ حركة من النقد الموضوعي تقوم أسسها على المناهج الغربية ومعايير النقد الانجليزي(٢٠)

ثم يبدأ هجومه على الوزن مبررا الدعوة لاطراحه أو على الأقل هدم وحدة الوزن في القصيدة والدعوة إلى كتابة القصيدة بأكثر من وزن وهو ما سموه مجمع البحور، فيقول: واستيقن أبو شادي من أن الشكل التقليدي يميل إلى استعباد الشاعر، فالوزن التقليدي(٢١) يجر الشاعر إلى استخدام أسلوب وايقاع وتكتيكات تضرب بجذورها في أعماق عقلة الباطن وتغلبه على إبداعه وشخصيته(٢٢)

وينقل نصا لأبي شادي يقول فيه: ونحن نعد الأسلوب الكلاسيكي من أهون الأساليب وقد جرى به قلمنا مرات لم نفخر بواحدة منها(٢٣) وإن عزها النقاد، وتناقلها أصحاب الصحف(٢٤) وكما اعتمد الرجل على المغالطات في حديثه عن القافية، لجأ إليها هنا أيضا.

فهو ينقل نصا لصالح الجداوي مليئاً بالخلط والزيف، يقول: وقد حاول البعض تأصيل الشعر الحر والقول بوروده في الشعر العربي الكلاسيكي، فقد احتج صالح حسن الجداوي في دفاعه عما يكتبه أبو شادي من هذا الشعر بأن الشعر الحر أو ما سماه هو بتنوع البحور كان مسموحا به في الأدب العربي الكلاسيكي، كما يبدو لنا من كتاب الخصائص لابن جني وأمهات كتب العروض والبيان(٢٥)

أي زيف هذا وأي مغالطة تلك؟.. من قال إن الشعر القديم كان يسمح بهذا الخلط بأن يكتب الشاعر قصيدة بأكثر من وزن؟.. وماذا في الخصائص يجعله يقول هذا؟.. وما هي أمهات كتب العروض هذه؟.. أسئلة لا إجابة عليها لدى المؤلف ولا صديقه الجداوي. ثم تبلغ مغالطة الجداوي ذروتها فيقول كما يمكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن نلمح هذه الحرية في ما سمح به العروض العربي من رخص اصطلح عليها باسم الزحاف والعلة والتي تجعل البحور أقرب إلى بعضها إن لم تتماثل تماثلا كاملا[٢٦].

وهذه آفة الآفات ... من قال إن الزحافات تجعل البحور تتشابه وتتماثل تماثلا كاملاً؟.

فالبحر الكامل مثلا تفعيلته (متفاعلن) حين يدخله الاضمار فيسكن ثانية[٢٧] هل يشتبه بالرمل مثلا وتفعيلته فاعلاتن..

المتقارب وتفعيلته فعولن حيث يدخلها القبض فيحذف خامسها الساكن، هل يشتبه حينئذ بالمتدارك مثلا؟..

ومع ذلك استمر الرجل يقول: ويستنتج من هذه الكتب أيضا أن العرب في العصور القديمة كانت تنشر الشعر في القصيدة الواحدة من أوزان متقاربة.

دعوى كسابقاتها رجم بالغيب واتهام يعوزه الدليل ... أين هذا الشعر الذي كانت تنشده العرب من أوزان متقاربة؟... وأين هي هذه الكتب التي نقلته إلينا ؟.. أم تراها وقعت للجداوي وحده؟..

ثم ينتهي إلى القول بأن: ثمة بحورا عديدة لم تدون، وأنه حتى الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أسس علم العروض لم يجعل متابعة الشعراء لآرائه واستنتاجاته عن الشعر الجاهلي ضرورة حتمية، بل اعترف بجواز المخالفة له.

كلامه هذا يحمل دعويين : الأولى القول بأن هناك بحورا لم تدون، وهي دعوى باطلة أصبحت مستهلكة لكثرة تداولها فقد قال بها كثيرون .. ها هو أحد المجددين المحدثين يقول: لقد كشف البحث المتقصي أن عمل الخليل ذو طبيعة تعميمية يتخذ الاستقراء النسبي مركزا لتطوره وينتفي نتيجة كون عمله حصرا مطلقا لجسر الشعر العربي كله .. والخليل لم يستقرىء الشعر كله من جهة ولم يحصر كل ما فيه بقانون من جهة اخرى .. إذ ظهر أن ثمة قصائد عربية لم يستطع الخليل وصفها وتحديد نظامها الايقاعي، وهذه حقيقة معروفة للباحث الجاد[٢٩].

وهذه الأحكام المتسرعة لا تثبت أمام البحث الجاد، إن هي إلا خيالات وأوهام لا وجود لها إلا في أذهان قائليها وما أشد ضيق هذه الأذهان.

والكاتب يشير بكلامه هذا إلى قصيدة في الشعر الجاهلي لعبيد ابن الأبرص مطلعها:

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

وهي على وزن مخلع البسيط، وببعض أبياتها خلل موسيقي، أشار إليه القدماء والمحدثون.

فابن رشيق يقول عنها: إن زحافها قبيح مردود لا تقبل النفس عليه، كقبح الخلق واختلاف الأعضاء في الناس وسوء التركيب .. وانها كادت تكون كلاما غير موزون، حتى قال بعض الناس إنها خطبة ارتجلها فاتزن له أكثرها[٣٠].

ويقول قدامة بن جعفر عنها : إن فيها أبياتا خرجت عن العروض البتة.

وقبح ذلك جودة الشعر حتى أصاره إلى حد الرديء ومن ذلك قوله :

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

فهذا معنى جيد ولفظ حسن إلا أن وزنه قد شانه وقبح حسنه وأفسد جيده[٣١] ويقول ابن كناسة عن هذه القصيدة: لم أر أحدا ينشرها على إقامة العروض[٣٢] ويقول عنها المعري: وقد يخطىء الرأي امرؤ وهو حازم كما اختل في نظم القريض عبيد

وأشار إلى اضطرابها في الفصول والغايات[٣٣].

هؤلاء يجمعون على اضطراب القصيدة وكسر معظم أبياتها وأبو ديب يقول إنها بحر جديد لم يكتشفه الخليل بن احمد..

وإلى قريب من هذا يقول الدكتور شكري عياد: ثمة أوزان أربعة لم يقل فيها القدماء على الاطلاق، وهي المضارع والمقتضب والمجتث والمتدارك. ويستنتجون من ذلك أن هذه الأوزان الأربعة لم يكن لها وجود حقيقي، فشأنها إذاً شأن البحور المهملة. ونتساءل لماذا لم يعدها العروضيون القدماء اذا بين هذه البحور؟.. ولماذا أثبتوها في حين أسقطوا أوزاناً أخرى ورد فيها شعر للقدماء؟..[٣٤]

هذه تساؤلات الدكتور شكري عياد. ولنا أن نتساءل بدورنا..

ـ من هم هؤلاء القدماء؟ الذين عناهم بقوله: إنهم لم ينظموا على هذه الأوزان؟..

وكيف علم بذلك؟ هل أحصى التراث كله؟.. وهل نشر كل الشعر العربي؟.. وما هذه الأوزان التي أسقطها العروضيون رغم

ورود شعر للقدماء عليها؟.. وأين هذا الشعر؟..

وهكذا تعلم إن هذه القضية مستهلكة ليس فيها الا ترديد دعاوى بلا دليل..

ونعود إلى كاتبنا ، الدعوى الثانية قوله: إن الخليل بن أحمد لم يجعل متابعة الشعراء لآرائه واستنتاجاته عن الشعر العربي ضرورة حتمية بل اعترف بجواز المخالفة له: وهذه كسابقتها .. أين قال الخليل ذلك؟... ومن نقل هذه الاباحة عنه؟..

ومع ذلك فقد قدم المؤلف بعضا من العبث لجماعة من شعرائه كله كلمات متقاطعة كالتي تنشر في الجرائد ليتسلى بها الصبيان من ذلك مثلا (قصيدة) الفنان لأبي شادي، فقد استشهد المؤلف بتسعة أسطر منها تقول:

تفتش في لب الوجود معبرا
عن الفكرة العظمى به لألباء
تترجم أسمى معاني البقاء
وتثبت بالفن سر الحياة
وكل معنى يرف لديك في الكون حي
إذا تأملت شيئا قبست منه الجمال
وصنته كحبيس في فنك المتلألىء
تثبت فينا العبادة
تثبت فينا جلالا لانقضاء له[٣٥]

السطر الأول[٣٦] من البحر الطويل والثاني كذلك.
السطر الثالث والرابع من المتقارب.
والسطر السادس والسابع من البسيط
والسطر الثامن من المجتث
والسطر التاسع من البسيط

أرأيت هذا الهراء؟.. هذا هو الشعر الجديد الذي سيحل مشكلة الوزن التقليدي في الشعر العربي .. هذا هو الشعر الذي يكسر الرتابة والجمود هذا هو التجديد والفتح المبين .. وقد اعترف المؤلف بسخف ما جاء به فقال عن قصيدة أخرى لأبي شادي: وفي هذا النظم استخدم أبو شادي البحر المجتث وبدرجة أقل الطويل والكامل والبسيط والمتقارب ومع ذلك فان تغيير البحور من البيت الحادي عشر إلى العشرين يعد غاية في السرعة، بحيث أفسد الايقاع إفسادا تاما[٣٧].

وهذا مثل آخر إستشهد به المؤلف للشاعر محمد منير رمزي يقول فيه:[٣٨]

إن الليل عميق يا معبودتي
لكن أعماقه ضاقت بآلامي
أحكي له في دمعة أشجاني
وأرسل من آذان الصمت أغنية
لكن اصداءها ترتد في ذل إلى قلبي فيطويها

السطر الأول لا وزن له، لأنه فعلن مستعلن فعلن مستفعلن
والسطر الثاني على البسط
والسطر الثالث من الرجز
والسطر الرابع على : مفاعلتن فعلن مستفعلن فعلن
والسطر الأخير: مستفعلن فاعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن فاعل

ويقول المؤلف عن صاحب هذا الشعر إنه انتحر[٣٩] وإن انتحاره كان ضربة قاصمة لتطور الشعر الحر.[٤٠]

ثم ينقل المؤلف نبوءة لأبي شادي عن هذا (التجديد) الذي استحدثه هو ومتابعوه يقول فيه: ويقيننا أن الشعر الحر سيبلغ منزلته المستحقة في الأدب قبل أن ينقرض هذا الجيل.[٤١] وها قد انقرضت أجيال ولم نسمع له ذكرا..

ولكن .. أما الزبد فيذهب جفاء .. لقد انقلب الحال وعاد المدافعون عن هذا الهراء معارضين له .. فلم يجد المؤلف بدا من الاعتراف بالحقيقة المؤلمة، فينقل نصا لأحد الذين كانوا من فرسانه يقول: إن التعبير المفاجىء في البحر والايقاع يفسد الموسيقى ويصك الأذن. وإن هذا الشعر غير معروف في الشرق كما لم يمارسه أي شاعر عربي ذي شأن[٤٢]. وينقل نصا آخر للدكتور محمد النويهي وهو من أشد الكارهين للشعر العربي بصورته التقليدية وكتابه قضية الشعر الجديد كله غموض ولمز في الوزن والقافية — يقول فيه : إن القصيدة التي تتغير فيها البحور ما هي إلا أصوات تشبه صراخ المجانين في مستشفى الأمراض العقلية. كل منهم يصرخ في نغمة مخالفة تبعا لمرضه العقلي[٤٣]. ولم يجد المؤلف مفرا فقال هو الآخر: والواقع أننا لا نستطيع أن نلوم أيا من الوزن والقافية بالنسبة لما هي عليه حال الشعر العربي فالشاعر الذكي الموهوب يمكن أن يكتب في أي شكل تقوده إليه تجربته الشعرية[٤٤].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) ص ١٢
(٢) ص ١٢
(٣) ص ٣٠
(٤) ص ٢٧
(٥) ص ١٨ بلوتولاند.
(٦) يتحدث عن نفسه.
(٧) راجع ما كتبه عنه أستاذنا الدكتور الطاهر مكي في كتابه الشعر العربي المعاصر: ١٥٣.
(٨) مقدمة ديوانها ١٩/٢.
(٩) ص ١٠
(١٠) ص ٥١
(١١) ص ٢٠
(١٢) راجعها في مختارات ابن الشجري، وراجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٠/١ فقد أورد أبياتا منها.
(١٣) هذا مثلا يقول عنه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١٢٥/١ إن له أربع قصائد غرر وذكر أكثر من عشرين بيتا من كل قصيدة.
(١٤) راجع مثلا ديوان الشعر العربي لأدونيس، وموسوعة الشعر العربي: لايليا حاوي وزميله (العصر الجاهلي).
(١٥) وخيبة أمل المؤلف أيضا.
(١٦) ص ٥٥.
(١٧) النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال ٣٤٦.
(١٨) ص ٧١.
(١٩) ص ٦٩.
(٢٠) ص ٧٦.
(٢١) حتى الوزن وصم بأنه تقليدي وكأن هناك وزنا تجديديا.
(٢٢) ص ٧٨.
(٢٣) لم يفخر لأنه لا مجال للفخر فقد قال المؤلف عن شعره: وأيا ما كان الأمر فان (أبو شادي) الذي كان ناقدا جيدا ولم يكن شاعرا عبقريا لم يوفق إلى كتابة الأمثلة الصحيحة لتجاربه ص ١٣٨.
(٢٤) ص ١٣٨.
(٢٥) ص ١٣٢.
(٢٦) الصفحة نفسها.
(٢٧) حقا قد يشتبه بالرجز في هذه الحالة ولكن يميز بينهما صور كل.
(٢٨) ص ٣٢.
(٢٩) البنية الايقاعية للشعر العربي: ٤٤٧ لكمال أبي ديب.
(٣٠) العمدة : ٤٢/١.
(٣١) نقد الشعر ١٧٩ وللأسف فإن محقق الكتاب لم يعجبه كلام قدامة فقال : القصيدة من مخلع البسيط وليس في وزنها شيء من القبح وما حدث فيها من زحاف فهو مقبول ولا تعليق لي على هذا الخلط من السيد المحقق الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي مع أن البيت الذي استشهد به قدامة ليس من المخلع .
(٣٢) ديوان عبيد تحقيق حسين نصار ١٥٧.
(٣٣) : ١٧٥/١.
(٣٤) موسيقى الشعر العربي ١٥.
(٣٥) ص ٨٨.
(٣٦) أقول السطر ولا أقول الشطر.
(٣٧) ص ٩٢.
(٣٨) ص ١١٩ وما بعدها.
(٣٩) أظنه انتحر بعد كتابة هذه القصيدة.
(٤٠) ص ١١٩ وما بعدها.
(٤١) ص ٩٧.
(٤٢) ص ١٣٤.
(٤٣) ص ١٣٥.
(٤٤) ص ١٣٩.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العالم الاسلامي في العصر المغولي (شبولر)

أحمد السيد الحسيسي
أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
أبها

شبولر، برتولد/ العالم الاسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى. — دمشق : دار حسان للطباعة والنشر، ١٤٠٢ — ١٩٨٢ م.

لا شك أن استيلاء المغول على رقعة فسيحة من العالم ضمت كلا من الصين وايران وما بين النهرين وآسيا الصغرى وشرق أوربا تعد أهم حوادث التاريخ في القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين).

وقد جلبت أحداث استيلاء المغول على هذه المناطق الواسعة أنظار الباحثين والمؤرخين والكتاب وكانت خير دافع لهم على تأريخ تلك الواقعة التي لم يسبق لها مثيل في فظاعتها وقسوتها وخطورتها. ولذلك نجد عدة دراسات عربية اقتصرت على الحديث عن دولة المغول وعن حالة الشرق الاسلامي قبل الهجوم المغولي وعن سقوط الخلافة أو عن شخصية جنكيزخان وغير ذلك من الموضوعات المتعلقة بتاريخ المغول.

وقد فاق الاهتمام بتاريخ دولة المغول، الاهتمام بكل الدول الشرقية في العصور الوسطى، وذلك في البيئات العلمية بغرب أوربا.

ولذلك نجد كثيرا من مؤرخي الغرب كتب عن هذا الموضوع، بعضهم أرخ بالتفصيل للمغول وبعضهم تحدث عن استيلاء المغول لدولة واحدة وبعضهم تحدث عن ما يشبه الخواطر عن تاريخ المغول، والكتاب الذي نستعرضه معا يعتبر من النوع الأخير الذي تحدث بصورة مجملة عن بعض الموضوعات المتعلقة بتاريخ المغول.

والكتاب بعنوان (العالم الاسلامي في العصر المغولي)، والمؤلف هو المستشرق (برتولد شبولر) ونقله الى العربية (الأستاذ/ خالد أسعد عيسى) راجعه وقدم له الدكتور (سهيل زكار) ونظرا لأنني لم أتمكن من الحصول على الأصل فقد اعتمدت في هذا البحث على تلك الترجمة المطبوعة في دمشق عام ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م.

والكتاب على ما يبدو في الأصل ليس له مقدمة إذ أن المترجم لم يشر إلى ذلك وإنما هناك تقديم استغرق من الصفحة الخامسة وحتى الثامنة عشرة بقلم المراجع الدكتور سهيل زكار والذي كان لا بد منها لتقديم واستعراض سريع لتاريخ العرب والاسلام في فترات ما قبل الغزو المغولي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والحق يقال إن الدكتور/ سهيل زكار كان منصفا للحقيقة التاريخية حين قال إن اسقاط الامبراطورية الساسانية جر منافع كبيرة جدا على الفرس، فبصرف النظر عن الجانب العقائدي، وهو أساسي، توحدت الأراضي الساسانية واندمجت في ظل إدارة واحدة وأخذت الفوارق من سياسية وطبقية اجتماعية ولغوية حضارية ودينية وعرقية كلها بالزوال، واتيحت السبل لاقامة أمة جديدة، وهنا بدأ السباق.(١).

ويعود الدكتور / زكار في موضع آخر من المقدمة ويكرر قائلا (ولنعد إلى الذاكرة ما سلف ذكره من أن الفتح العربي الاسلامي لخراسان قدم خدمات جليلة لايران والحضارة والثقافة الايرانية، حيث لم يكتف بتوحيد أراضي الأمبراطورية الساسانية، بل زادها اتساعا بخراسان ما دون النهر ثم خراسان ما وراءه، وتولد عندها نواة أمة ايرانية مندمجة ونواة لغة ايرانية جديدة متأثرة بالعربية ومتبنية للحرف العربي).(٢)

هذه الحقائق التي أشار إليها الدكتور هي بالفعل بعض النتائج المترتبة على فتح العرب لبلاد فارس وانتشار الاسلام هناك ولا مجال هنا لسرد بقية النتائج.

إلا أن الدكتور زكار أشار في مقدمته إلى موضوع جدير بالتنبيه له وها أنذا أنقل نص عبارته ثم أعلق عليها يقول :(عندما سقطت الدولة السامانية ورثتها أسرتان تركيتان: واحدة فيما وراء النهر وهي الدولة القراخانية وأخرى فيما دون النهر في غزنة، وهي دولة محمود بن سبكتكين **(الغزنوية)** ، وعاصر ذلك كله استيلاء الديلم على بغداد، وفي ظل إدارة ال بويه والتسلط الديلمي التركي على بغداد، وفي حواضر الامبراطورية الغزنزية ربحت الايرانية الجولة على العربية، وبات من المتيسر الحديث عن نظام إيراني إداري جديد وتقاليد سياسية ايرانية ورسوم ملكية جديدة مع فلسفة للحكم قائمة بذاتها، وظهر إلى الوجود عدد من المؤلفات في السياسة كتبت كلها بالفارسية نذكر منها:ــ

جهار مقاله للنظامي العروضي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك للامام الغزالي وسياسة نامة المنسوب لنظام الملك الحسن ابن علي الطوسي.(٣)

وتعليقي على هذه العبارة إن الدكتور في حديثه عن وجود نظام إيراني اداري جديد يبدو أنه كان يتحدث عن العصر السلجوقي علاوة على العصر الغزنوي ان لم يكن السلجوقي فقط بدليل أنه ذكر ثلاثة كتب لمؤلفين من العصر السلجوقي هذا بالاضافة إلى أنه يقول ظهر إلى الوجود عدد من المؤلفات في السياسة كتبت كلها بالفارسية نذكر منها:ــ

جهار مقاله .. وهذا الكتاب ليس في السياسة وانما هو كتاب أدبي ألفه النظامي العروضي السمرقندي وهو عبارة عن أربع مقالات كما يدل على ذلك اسمه ... وسقطة ثالثة وقع فيها المراجع وهي أنه يقول، سياست نامه المنسوب لنظام الملك الطوسي، وأنا لم أر أي خلاف بين كتاب التذاكر في نسبة الكتاب للوزير السلجوقي الكبير نظام الملك الطوسي.

ويختتم المراجع تقديمه للكتاب بتقريظ وثناء مسبق على الكتاب، إذ وصفه بأنه أفضل الدراسات في بابه وأحداثها، وأكثرها توازنا.

ولكل باحث رأي في الكتاب وإن شاء الله يتضح رأيي بعد إلقاء نظرة شاملة عليه تبين مدى تغطية الكتاب للموضوع الذي يبحثه ومدى اتساق الموضوعات داخل الكتاب مع عنوانه العام الشامل وهو (العالم الاسلامي في العصر المغولي).

من ص ١٨ يبدأ الكتاب بعنوان الإمبراطورية المغولية وتحت هذا العنوان الكبير الذي يبدأ ببحث موضوع الكتاب دون مقدمات تمهد لتكوين هذه الامبراطورية المغولية التي يتحدث عنها تحت هذا العنوان وبعد بضعة سطور يتحدث فيها الكاتب عن موقع بلاد المغول يقول :ــ

«أصبحت هذه الرقعة حوالي عام ٢٠٠ ق.م. المكان الذي تجمعت به قوى متنافرة قدّر لها أن تكون سببا في تغير الصورة البشرية لسكان أواسط آسيا وتحديد شخصيتها الأساسية حتى هذا اليوم».(١)

وكأن الكاتب بهذه الصورة تحدث لنا عن تكوين الامبراطورية المغولية وكيف نشأت دولتهم، لأنه بعد ذلك أخذ يتحدث عن أحداث تتعلق بوجود المغول ودولتهم وبداية توسعهم، فكانت هذه بمثابة قفزة كبيرة جدا، حقيقة تحدث الكاتب عن قبائل الترك والمغول ولكن باختصار شديد أدى إلى الخلل في بيان الأحداث والعوامل التي ساعدت على تكوين الأمة المغولية والتي سبقت ظهور جنكيز خان فمن المعروف أنه في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كانت تقوم في القارة الآسيوية دول متحضرة شاءت لها الأقدار أن ترتبط فترة من تاريخها بتاريخ المغول.(٢)

وأهم هذه الدول والقبائل: ــ الصين التي كانت مقسمة بين أسرتين حاكمتين هما أسرة كين التي كانت تسيطر على الصين الشمالية وأسرة سونج التي كانت تسيطر على الصين الجنوبية وكذلك وجد الاتراك **الاويغوريون** الذين كانوا أكثر الأقوام التركية تمدنا وكانت دياناتهم مانوية وبوذية ومسيحية، وأيضا الاتراك القراخطائيون الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولي ــ تقع ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق، وكان شاطىء نهر سيحون يكون حدا فاصلا بين ممالك القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية التي كانت تشمل كل منطقة ما وراء النهر وايران تقريبا، وهم من أصل تركي ويدينون بالاسلام وكانوا ذوى ثقافة عربية وفارسية.

وأخيرا كانت بقية بلدان آسيا الاسلامية وتقع هذه المناطق غرب بلاد الدولة الخوارزمية وهي مقسمة بين طائفة الاسماعيلية في ألموت، وكانت ثقافتهم فارسية، وبين الخلفاء العباسيين في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رجال، كيما تحتج عند السلطان على الغدر برجال القافلة، وتطلب إليه تسليم حاكم اوترار فلم يسع خوارزمشاه إلا أن أمر بقتل أحد أفراد هذه السفارة ورفض تسليم ينال خان، فقطع بذلك كل أمل ممكن في التفاهم مع المغول، وأصبحت الحرب بين الطرفين أمرا لا مفر منه، وبهذا جر السلطان على نفسه وعلى الممالك الاسلامية الخراب والدمار.(٣٤)

وعلى هذا نرى أن العلاقات المغولية الخوارزمشاهية كانت واضحة المعالم وليست كما ذكر شبولر غير واضحة المعالم.

وبعد هذا الموضوع نجد شبولر يتطرق لموضوعات خارجة عن موضوع الكتاب وعن أحوال العالم الاسلامي بصفة عامة، والغريب في الأمر أن شبولر يفصل القول فيها بالرغم من أنها موضوعات لا تمت لموضوع الكتاب بصلة إذ نجده يتحدث عن فتوحات المغول في أوربا الشرقية فيستفيض في الحديث عن فتوحاتهم في روسيا واجتياحهم موسكو وموروم وياروسلاف وغيرها من المدن ويذكر لنا قصة حصارهم لكل مدينة ومدى مقاومة كل مدينة لهم، وكذلك نراه يبين لنا وصولهم إلى مدينة كوزلسك ثم حصارهم لمدينة كييف، ومتابعتهم الزحف خلال بودوليا وفولهينيا في اقليم غاليشيا، واخمادهم مقاومة دولة هالزك، ثم هزيمتهم البولنديين في تشملنك واستيلاءهم على كراكوف وتدميرهم براسلاف وهزيمتهم البوق هنري الثاني حاكم سليسيا مع فرقه الالمانية البولندية.

كذلك يتحدث شبولر عن تقسيم جيوش المغول إلى مجموعات وتقدم بعضها عبر ترانسلفانيا إلى هنغاريا وهزيمتهم الملك بيلا الرابع، ثم حديث مطول عن خضوع ملك بلغاريا لهم.

ثم يتحدث شبولر بعد ذلك عن الخلافات والصراعات حول ولاية العرش بعد وفاة جنكيزخان وما نتج عن هذه الخلافات والصراعات، وكذلك حديث حول ديانات المغول وحضارتهم ويعود مرة أخرى للحديث عن حملاتهم في الصين وآسيا الغربية في عهد (منكو).

والغريب أن شبولر يستفيض في ذكره هذه الاحداث(٣٥) الى أن يصل الى عهد هولاكوخان المليء بالأحداث والتي لا تقل أهمية عن تلك الأحداث في عهد جنكيزخان فنجده يذكر هذه الأحداث باختصار شديد في حين أن هذه الاحداث من صميم موضوع الكتاب لانها تتعلق بالعالم الاسلامي في العصر المغولي ومن هذه الأحداث قضاء هولاكو على طائفة الاسماعيلية، نجد شبولر يذكر لنا هذا العمل في حوالى نصف صفحة(٣٦)

وهذا الاختصار جعل شبولر لا يذكر لنا التفصيلات التي تتعلق بأسباب قيام المغول بهذا العمل ولماذا غيروا نظرتهم إلى هذه الجماعة، وقاموا بتحطيم قلاعهم وحصونهم مع أنهم ظللوا مع المغول في صفاء مدة طويلة،وتؤكد لنا الكتب أيضا أن جلال الدين حسن بن محمد زعيم الاسماعيلية كان أول حاكم يرسل رسولا إلى جنكيزخان ليقدم له فروض الخضوع والطاعة عندما جاء على رأس جيشه إلى اقليم ما وراء النهر، وبعد عبوره نهر سيحون، وكذلك اتصل الاسماعيلية بالمغول ودعوهم أكثر من مرة لمهاجمة السلطان جلال الدين منكبرتي، والقضاء نهائيا على الدولة الخوارزمية.(٣٧)

فلم يبين لنا شبولر أسباب تغير المغول على الاسماعيلية والتي لا يتسع المجال هنا لذكرها وإنما كنا نتوقع أن نعرف الكثير عن موضوع قضاء المغول على الاسماعيلية من هذا الكتاب، فنعرف العوامل التي شجعت المغول على مهاجمة الاسماعيلية واقتحام المغول لمعاقلهم وقلاعهم وخاصة قلعة (ألموت) التي كانت تحتوي على ذخائر نفيسة من الكنوز والأموال والأسلحة وأدوات القتال وتلك المكتبة القيمة التي اطلع على محتوياتها المؤرخ عطا ملك الجويني وأبقى منها على مجموعة قيمة من المصاحف والكتب وآلات الرصد.

كذلك لم يبين لنا شبولر آثار القضاء على الاسماعيلية في العالم الاسلامي الذي تنفس الصعداء بعد القضاء عليهم.

ومن الأحداث الهامة أيضا والخاصة بتاريخ العالم الاسلامي في العصر المغولي ذلك الحدث الهام وهو سقوط الخلافة العباسية على يد هولاكو خان، نجد أن شبولر يتعرض لهذا الحدث الهام أيضا في حوالى صفحة(٣٨).

في حين أن ذلك من أكثر الموضوعات خصوبة لالتصاقه بموضوع الكتاب وهو (العالم الاسلامي في العصر المغولي) فكان الأولى أن يذكر لنا شبولر حالة الخلافة والخليفة في ذلك الوقت والسلطات التي كانت موجودة وأحوال السكان في بغداد، وكذلك كنا نود التعرف على سير الحملة والمراسلات

بغداد وبين سلاطين الأيوبيين وهم من أصل كردي وذوو ثقافة عربية، وكان مقرهم في سورية ومصر، وبين سلاجقة الروم وهم من أصل تركي، ومغرمون بالثقافة الفارسية وكان مقرهم آسيا الصغرى.(٣).

أما عن القبائل التركية والمغولية التي كانت تعيش في ذلك الوقت فكان أشهرها ثماني قبائل هي:ــ

١ ــ قبائل التتار: ــ وكانت من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا وجبروتا في أقاليم آسيا الشمالية وهم يتشعبون الى شعب كثيرة، ويذكر رشيد الدين أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعما، وأنهم كانوا أثرياء.(٤)

٢ ــ قوم كرايت: ــ وكانوا يدينون بالمسيحية، وكانت قبائل الكرايت منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) أقوى أقوام المغول لأنهم استطاعوا أن يخضعوا أغلب الطوائف في الأطراف، وأجبروهم على الدخول في دائرة نفوذهم.

٣ ــ قوم مركيت : ــ وكان لهم جيش قوي ذو بأس شديد في الحروب، ويعدون أصلا من جنس المغول ولكنهم قاموا بعدة حروب ضد جنكيز خان واونك خان.

٤ ــ قبائل اويرات: ــ وهم من أصل مغولي، إلا أن لغتهم تفترق قليلا عن لغة القبائل المغولية الأخرى، وكان عددهم كبيرا وقد تشعبوا إلى عدة شعب، وكان لهم ملك يأتمرون بأمره، ولما جاء جنكيزخان خالفوه بعض الشيء إلا أنهم سرعان ما قدموا له الخضوع والطاعة وقد صاهرهم جنكيزخان.

٥ ــ قبيلة نايمان : ــ من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي وكانوا يدينون بالمسيحية، وقد استعاروا مبادىء ثقافتهم من الأويغوريين، وكان لهم ملوك مشهورون أقوياء، ولهم جيوش عديدة، وكانت عاداتهم وتقاليدهم تشبه عادات المغول وفي عهد جنكيزخان كان ملكهم يدعى «تايانك خان» وقد حاربه جنكيزخان عندما علم بسوء نيته وتآمره عليه.(٥)

٦ــ اتراك قرلق: ــ وتقع بلادهم جنوب مملكة الأويغور، وكانت تشمل كل الحوض الأسفل لنهر تاريم.

٧ ــ قبائل القرغيز: ــ وهم من الترك أيضا، ولم يشتهروا من الناحية السياسية إلا حوالى سنة ٢٢٦ هـ ٨٤٠م، حينما انتزعوا أراضي الاويغور في منغوليا، وقد خضعوا للمغول زمن جنكيز خان سنة ٦١٥ هـ ١٢١٨ م.(٦)

٨ ــ المغول : ــ نشأ المغول في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وهي تمتد في أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا، وشرقي التركستان بين جبال آلتاي غربا وجبال خنجان شرقا.

وفي هذه المنطقة كانت تعيش قبائل المغول مستقلا بعضها عن بعض، وكانت تتقاتل فيما بينها، كما كانت تتقاتل مع جيرانها وخاصة مع التتار، وبين هذه القبائل كانت هناك طائفة صغيرة اسمها (قيات) هي التي نشأ فيها جنكيزخان.

أما عن اسم التتار والمغول فيقول شبولر «اجتاح الاتراك الأوائل مناطق نهر الفولجا حتى منطقة ما بين النهرين، وأما المغول فقد بقوا في حالة هدوء وركود في وطنهم خلال تلك الفترة، ولم يشغلوا أي دور على مسرح الأحداث العالمية، وكان يشار إليهم غالبا باسم التتار وكان الاسم يطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر التي عاشت في أقاصي الأصقاع الشرقية، ولكن اسم التتار اكتسب في هذه الأيام معنى آخر.»(٧)

ولم يبين لنا شبولر ما هو المعنى الآخر الذي اكتسبه اسم التتار في تلك الأيام إذ ان المعروف أن اسم التتار أصبح فعلا يطلق على جميع القبائل التركية .. كما ذكر شبولر، ولكن التتار بالرغم من أنهم قبائل مستقلة عن المغول إلا أنه على أثر انتصار جنكيز خان على التتار، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه، وفي بدء هجوم المغول على الممالك الاسلامية كانوا يعرفون بالتتار، كما أطلق عليهم أيضا اسم (المغول) فاشتهروا في التاريخ بهذين الأسمين.(٨)

وعن يسوكاي بهادر والد جنكيز خان يقول شبولر «... ولكن المصادر التاريخية تختلف في تحديد أهميته وسلطته، فالكثيرون يصفونه بكونه كان قائد فئة من عشرة جنود بينما تصفه مصادر أخرى بأنه كان أميرا مستقلا، هذا ولا نجد في حياته عملا بارزا يميزها بل أنه قضاها في قتال مستمر دفاعا عن أملاكه».(٩)

والمعروف أن المصادر الفارسية تذكر لنا أن «يسوكاي بهادر ابن برتان بهادر» «كان رئيسا لقبيلة «قيات» من القبائل المغولية،

فعلا تجاه بغداد يريد مهاجمتها ولكنه باء بالفشل نتيجة لثورة الطبيعة إذ هبت العواصف الثلجية الشديدة التي أهلكت الكثير من جنوده وعتاده ودوابه وتعرض الجنود الباقون لغارات الأكراد والاتراك فلم يرجع منهم إلى خوارزم إلا القليل.(٢٨)

والواقع أن المصادر لم تذكر أن جنكيزخان نفذ رغبة الخليفة في القضاء على خوارزمشاه بل إننا نجد الخليفة يلتمس الحلفاء من بين الشعوب التي تنزل إلى الشرق من املاك خوارزمشاه ولهذا أرسل السفراء إلى الغوريين ثم إلى كوجلك، وكان مجرد طلب العون من جنكيز خان مأخذا من المآخذ التي ذكرها المؤرخون في حق الخليفة فنرى ابن الاثير يقول: «وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم.»(٢٩)

كذلك نجد المقريزي يقول: ـــ «وفي خلافته (أي الناصر) خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا الى همدان، وكان هو السبب في ذلك، فانه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفا من السلطان علاء الدين بن خوارزم شاه، لما هم بالاستيلاء على بغداد، وأن يجعلها دار ملكه كما كانت للسلجوقية»(٣٠)

أما عن السبب الثاني الذي ذكره شبولر لهجوم جنكيز خان على خوارزمشاه وهو السبب الرئيسي للهجوم في نظري، فنرى شبولر يجعل خوارزمشاه ينظر للتجار على أنهم جواسيس وليسوا تجارا ويقوم هو باعدامهم. والحقيقة أن جنكيزخان لم يكن يفكر في الهجوم على ممالك خوارزمشاه في ذلك الوقت وإنما كان يود قيام علاقات تجارية بين البلدين بل واتفق كل من خوارزمشاه وجنكيز خان على قيام هذه العلاقات حتى أن اشتباكا وقع بين الطرفين ولكنه لم يؤثر في الصلات القائمة بين الدولتين ولعل كلا الفريقين قد عد هذا القتال نتيجة خطأ يؤسف له.(٣١)

وسبب هذه المواجهة أن خوارزمشاه كان وقتذاك منصرفا إلى قتال القبجاق بالمنطقة الشمالية من سيحون وحدث في حملة من الحملات أن وقع الصدام مع جيوش جنكيز خان عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ ـــ ١٢١٦م) ذلك أن المركيت الذين طردهم جنكيزخان من منغوليا ظهروا بزعامة قوق تغان في بلاد القبجاق، وعندئذ توجه لقتالهم السلطان محمد خوارزمشاه، فسار إلى جند، غير أنه حينما تبين له أن المغول جاءوا بقيادة جوجي لمطاردة المركيت في بلاد القرغيز لم يسعه إلا أن يعود إلى سمرقند كيما يحشد ما تبقى بها من العساكر، ثم يعود إلى (جند)، فتهيأ له الفرصة للتخلص من عدوين في ضربة واحدة، على أن المغول بددوا شمل المركيت وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة وحرص السلطان محمد على ان يطارد المغول فلحق بهم ولم يكن قادة الجيش المغولي راغبين في القتال نظرا لعدم تلقي أوامر من جنكيز خان إلا أن السلطان محمد أعلن أنه يعتبر كل الكفار خصوما له وأجبر المغول على أن يخوضوا معركة، لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، وكان من المقرر أن يستأنف الجانبان القتال في اليوم التالي، غير أن المغول انسحبوا في جنح الظلام، بعد أن تركوا نيران المعسكر متقدة حتى يخدعوا المسلمين الذين لم يكتشفوا هذا الأمر إلا في صبيحة اليوم التالي (٣٢).

والخلاصة أن جنكيزخان عندما جاور الدولة الخوارزمية لم يشأ أن يجاهر سلطانها بالعداء بل حرص أول الأمر على أن يسالمه ويكون معه على وفاق ووئام وكان يهدف إلى إبرام معاهدة تجارية ويتبادل الرسل والسفراء معه. وتم فعلا تبادل الرسل والسفراء بين الطرفين إلا أن جنكيزخان كان قد أرسل قافلة مكونة من ٤٥٠ رجلا كلهم مسلمون ومن ٥٠٠ جمل تحمل سلعا تجارية من الذهب والفضة والمنسوجات الحريرية، ومنسوجات التورجو، وفراء السمور، والقندس وغيرها من المتاجر ورأس هذه القافلة أربعة تجار، هم عمر خوجا الاوتراري، وجمال المراغي، وفخر الدين الديزكي البخاري، وأمين الدين الهيراتي.(٣٣)

على أن والي اترار من قبل خوارزمشاه وهو (ينال خان) ابن خال السلطان خوارزم شاه احتجز كل رجال القافلة وكاتب السلطان وأدخل في روعه أن هؤلاء الناس ما هم إلا جواسيس في زي التجار، فصدقه السلطان ولم يلبث ينال خان أن أمر بقتلهم جميعا واستولى على امتعتهم، وسواء كان ينال خان هو الذي أمر بقتلهم أو خوارزمشاه فانه لا يمكن أن يعفي السلطان محمد من التبعة خصوصا بعد أن سنحت له الفرصة لاصلاح هذا الخطأ، لان تصرف جنكيزخان في هذا الحادث دل على ما اتصف به من الاتزان والتعقل، إذ أرسل إلى خوارزمشاه سفارة مؤلفة من ثلاثة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان جميع أعمامه وأبناء أعمامه مطيعين وخاضعين له وهم الذين اختاروه رئيسا عليهم وكان متصفا بمزيد من الشجاعة والبسالة، وكثيرا ما حارب أقوام التتار والخطا، وقد ذاعت شهرته في الآفاق، وصار محترما مهابا من الجميع.

ولقد كان أجداد جنكيز خان والطوائف الخاضعين لهم، يدفعون الخراج لأباطرة الصين الشمالية منذ زمن بعيد، أما أبوه يسوكاي بهادر فكان رجلا حازما ونشيطا استطاع أن يخضع بعض القبائل المغولية التي كانت تجاوره ولهذا نرى امبراطور الصين يخشى اتساع نفوذه، فيرسل إليه جماعة لصده والقضاء عليه ولكنه تغلب عليهم، بل أخضعهم لسلطته خضوعا تاما، وبذلك رسم لابنه جنكيزخان الخطة لتشييد دولته على أساس محكم.(١٠)

كذلك نجد شبولر — على عادته في الاختصار — يذكر أن **سوكاي** ترك عند وفاته عدة أبناء وكان أكبرهم تموجين. (١١)

والحقيقة أن هؤلاء الأولاد الذين تركهم يسوكاي كانوا خمسة، أربعة من أم كانت تسمى (اولون فوجين) من قوم (اولقونت) وهم: — تموجين — جوجي قسار — قاجيون — تموانجكين أما الابن الخامس فكان من زوجة اخرى وكان يدعى بلكوتي نويان.(١٢)

ونجد شبولر يختصر اختصارا شديدا في الحديث عن حروب تموجين في سبيل تحصين وتقوية مركزه بعد وفاة والده وحتى تلقيبه بلقب جنكيزخان، وبالاضافة إلى هذا الاختصار نراه يقع في خطأ تاريخي يتعلق بسنة انتخابه امبراطورا للمغول فيقول شبولر: — «استطاع حوالى عام ١١٩٦ أن ينتزع اعلان زعامته المتفوقة على قبيلة المانغول، وبنفس الوقت حصل على لقب جنكيز خان (وهو اللقب الذي لا يزال معناه غير واضح لغويا)».(١٣)

والحقيقة المؤكدة أنه تم انتخاب تموجين امبراطورا للمغول بعد أن تغلب على قبيلة النايمان في عام ٦٠٠ هـ (١٣٠٣ م) فبعد أن ظهرت شجاعة تموجين ومقدرته، اجتمع حشد كبير من القبائل على حدود نهر اونن، واقيم حفل عظيم، وأجمع الحاضرون على انتخاب تموجين امبراطورا عليهم وسموه جنكيزخان ومعناه أعظم الحكام أو امبراطور البشر.

وبالتالي تعتبر سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣م) بدء دولة جنكيزخان، ولو أنه لم يحصل على لقب (خان)، إلا في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م) حين أصدر دستوره الشهير المعروف بالياسا.(١٤)

وجريا على عادة الاختصار التي اتبعها شبولر يشير إشارة سريعة إلى حادثة هامة وقعت لجنكيز خان في بداية حياته كادت أن تقضي عليه فيقول: «حاول خصومه محاولة أخرى يائسة للقضاء عليه، وذلك بحبك مؤامرة اشترك بها (وانغ خان) نفسه، ولكن تيموجين علم بالمؤامرة في الوقت المناسب، وهاجم (وانغ خان) وقضى عليه وعلى قبيلة كرايت».(١٥)

وهذه إشارة مختصرة إلى واقعة كبيرة كان من الممكن أن تودي بجنكيز خان مبكرا ولكنها على العكس من ذلك — بسبب علمه بالمؤامرة — انقلبت لصالحه فزادت من شوكته وأوقعت الرعب في نفوس الجميع، فأسرعت القبائل التي كانت مترددة إلى تقديم فروض الخضوع والطاعة له ومؤدى هذه الحكاية أن قبيلة كرايت كانت قوية ومتفوقة على غيرها من القبائل وكان اونك خان رئيسها صديقا ليسوكاي ثم لابنه تموجين الذي أعجب بمهارته واقدامه فبالغ في تكريمه مما أثار حقد أبناء اونك خان وإخوته وخاصته، فعملوا على الايقاع بتموجين لدى اونك خان ونجحوا في سعاياتهم بحيث تغير موقف اونك خان من تموجين وفكر في القضاء عليه سرا، فاستقر رأيه على مهاجمته في وقت السحر غير أن حظ تموجين كان مواتيا إذ هرب غلامان من اتباع اونك خان وأطلعاه على تفاصيل المؤامرة التي تحاك ضده، فاتخذ تموجين حذره، واستطاع أن ينجو بأهله وأتباعه في الوقت المناسب.

وفي وقت السحر هاجم جنود اونك خان منازل تموجين فوجدوها خالية، فجدوا في طلبه، وعندما التقى الفريقان، دارت بينهما حرب طاحنة أسفرت عن انتصار تموجين وقتل خصمه وغنم غنائم كثيرة، وفي يوم النصر رفع تموجين قدر الغلامين، ومنحهما لقب (ترخان)(١٦) ومنحهما مزايا كثيرة استمرت حتى إحفادهما.(١٧)

ونرى خطأ تاريخيا آخر حيث ذكر شبولر أن كوشلوغ هو قائد قبيلة نيمان فنراه يقول «وأما كوشلوغ قائد قبيلة نيمان

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

الذي إما أنه كان، أو أصبح مسيحيا نسطوريا، فقد هرب باتجاه الغرب إلى قراـــ خطاي حيث استلم السلطة هناك».(١٨)

والحقيقة أن قائد قبيلة نيمان هو تايانك خان الذي استنجد بملك قبيلة الانكون وطلب أن ينضم إليه في حربه ضد تموجين، غير أن هذا الحاكم أرسل الى تموجين رسولا يطلعه على ما عرضه عليه تايانك خان، فاستعد تموجين لمحاربته، ولكن تايانك خان كان قد اتخذ الاهبة للقتال وجمع جيشا جرارا وانضم إليه كثير من رؤساء القبائل الأخرى، ودارت الحرب بين الفريقين سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣م) فتغلب تموجين على خصمه وقتله، وأسرت زوجته، وسيقت إلى تموجين فتزوج منها.(١٩)

أما كوشلوغ (كوجلك) هذا فهو ابن تايانك خان الذي فر مع جمع كبير من اتباعه بعد أن قضى جنكيز خان على ملكهم، وقد تعرض لمتاعب كثيرة إلى أن قضى على الدولة القراخطائية ولم يتسلم السلطة هناك بسهولة كما يتضح من عبارة شبولر الذي لا تشير عبارته إلى أي أمر من الأمور التي حدثت حتى وصل للسلطة.

أما عن ديانة كوجلك والتي يظهر من عبارة شبولر عدم التأكد منها فقد كانت المسيحية إلى أن تزوج من ابنة كور خان الملك الخطائي واستطاعت أن تقنعه بالارتداد عن المسيحية واعتناق البوذية التي كانت تدين بها.(٢)

فقد انتهز كوجلك فرصة العداء الشديد بين الخوارزميين والقراخطائيين، واتفق مع السلطان محمد خوارز مشاه على إزالة هذه الدولة واقتسامها بينهما فصادف ذلك هوى في نفس السلطان محمد، ووافق على التدخل عندما رأى رجحان كفة كوجلك الذي سارع إلى محاربة كورخان، فاستطاع أن ينتصر عليه ويأسره ، ويزج به إلى السجن، حيث توفي بعد عامين وتزوج، كوجلك من ابنته.

ولما رأى السلطان علاء الدين محمد ما لحق بالقراخطائيين، أعمل السيف في رقاب البقية الباقية منهم، وبذلك شارك في تحطيم دولتهم.(٢١)

بعد ذلك يتحدث شبولر عن خضوع الشعب المغولي لجنكيزخان وعن ظاهرة عدم وجود أي معارضة لسياسته ووجود ما يسمى بالتفويض الآلهي.(٢٢)

وقد تحدثت المصادر والمراجع عن الطاعة العمياء لجنكيزخان من رعاياه، ويحضرني هنا ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عما قاله رعايا جنكيزخان له عند تتويجه إذ قالوا «إذا أصبحت حاكما علينا، فاننا سنتقدم الصفوف في كل قتال تشنه على أعداء لا حصر لهم، وإنا سنقدم إليك كل ما نغنمه من نساء جميلات وفتيان وجياد كريمة، وسوف نبز الاقران جميعا في ميدان الصيد ونسلم إليك كل ما نصيده من حيوان»(٢٣)

وهناك نقطة هامة في تاريخ المغول وعلاقاتهم بالعالم الإسلامي، إذ تعتبر بداية العلاقات بين القوتين وبناء عليها تقرر ذلك المصير الذي آلت إليه الأمور فيما بعد، هذه النقطة الهامة لن تتضح عند شبولر إذ يقول: «وكانت العلاقات المغولية الخوارزمشاهية غير واضحة المعالم».(٢٤)

ثم يستطرد شبولر ويذكر سببين لاعلان الحرب على خوارزمشاه نذكرهما ثم نعلق على كل واحد منهما التعليق المناسب.

يقول شبولر: «وقد ذكرت المصادر الشرقية المتأخرة أن خليفة بغداد النشيط(٢٥) الناصر لدين الله (١١٨٠ — ١٢٢٥م) اتصل عندما تأزمت الأمور بينه وبين محمد الثاني، بالحاكم المغولي وحرضه على الهجوم على خوارزمشاه من المؤخرة، وتدل هذه الرواية على أن الخليفة نفسه الذي كان لا يزال — اسميا على الأقل — هو الرئيس الأعلى للمسلمين، هو الذي جلب عليهم أعظم كارثة حلت بهم في التاريخ»(٢٦)

«وهناك رواية معاكسة تقول إن محمد الثاني كان يبدى قلقا بالغا حول جيرانه في الشمال الشرقي وكان دائم الاهتمام للحصول على المعلومات حول قواتهم العسكرية وأحوالهم الداخلية بواسطة الجواسيس، وفي المقابل كان التجار الذين أرسلهم جنكيزخان ليسوا مجرد تجار بل كانوا جواسيس أيضا، وعلى كل حال فقد كان محمد الثاني ينظر إليهم بهذا المنظار وكان يعدمهم بالجملة ما عدا القليل منهم، وبسبب سوء المعاملة التي لقيها ممثلو الحاكم المغولي لجأ رد الفعل المغولي إلى أسلوب وطريق لا مناص عنه وهو الاعلان السريع للحرب».(٢٧)

وتعليقا على السبب الأول أن الخليفة الناصر حقيقة طلب العون من جنكيز خان ضد خوارزمشاه الذي كان قد زحف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمناوشات بين الخليفة والمغول وهكذا ثم تدميرهم لبغداد. كذلك لم يستفض شبولر في بيان آثار سقوط الخلافة العباسية على المسلمين وهكذا نجد شبولر يسير على هذا المنوال في بقية موضوعات كتابه نجده يلمس الموضوعات الخاصة بالعالم الاسلامي لمسا سريعا دون الغوص في التفاصيل والتحليل واستخراج النتائج، وما ذكرناه لا يعدو نماذج على سبيل المثال.

ولا يفوتني في النهاية أن أنوه بجهود المؤرخ الألماني شبولر حين ذيّل كتابه بجداول زمنية هامة وشجرتي نسب واحدة لسلالة جنكيزخان والأخرى لسلة تيمورلنك ثم جدول تاريخي للأسر الحاكمة التي جاء ذكرها خلال كتابه ثم ثبت بالمراجع عظيم الفائدة بلا شك في التعرف على المراجع والمصادر التي تعرضت لتاريخ المغول باللغات العربية والأوروبية كما أنه صنف المراجع والمصادر على حسب الموضوعات والحقيقة أن ذكر المراجع والمصادر بهذه الصورة يكفي لاطلاع أي باحث على مدى الجهد الذي بذله المؤرخ في تجميعها وتنسيقها بهذه الصورة التي لا تتكرر إلا في قليل من الكتب العلمية الحريصة على ايقاف الباحث على كل المراجع والمصادر التي تناولت موضوعا ما.

وقد استغرق ثبت المراجع حوالى ثلاث عشرة صفحة وهي نسبة ليست بالقليلة إذا ما قيست بحجم الكتاب الذي لم يزد عن المائة وخمسين صفحة. ولكن بالرغم من هذه الميزة الكبيرة في الكتاب إلا أن المؤرخ لم يزودنا ولو بخريطة واحدة، ولو فعل لكان لها فائدتها الأكيدة في التعرف على مواقع المدن والبلاد التي ورد ذكرها في الكتاب.

مراجع البحث

- ابن الأثير — الكامل في التاريخ — الجزء التاسع — القاهرة ١٣٤٨/١٣٥٨ هـ.
- السيد الباز العريني (دكتور) — المغول — بيروت ١٩٦٧م
- رشيد الدين فضل الله الهمداني — جامع التواريخ — جلد اول — نشر الدكتور بهمن كريمي — طهران ١٣٢٨ هـ ش/ ١٩٥٩م (فارسي)
- شبولر (برتولد) — العالم الاسلامي في العصر المغولي / ترجمة خالد أسعد عيسى — دار حسان للطباعة والنشر — دمشق ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢م.
- عطا ملك الجويني (علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد) — تاريخ جها نكشاي — نشر محمد بن عبد الوهاب القزويني — ليدن ١٣٢٩ — ١٣٥٥ هـ ١٩١١/ — ١٩٣٧م (فارسي).
- فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور) — المغول في التاريخ — دار النهضة العربية للطباعة والنشر — بيروت ١٩٨٠م.
- المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) — السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٣٥٣ — ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٤ — ١٩٣٩م.

هوامش

(١) مقدمة الكتاب ص ٧ — ٨
(٢) مقدمة الكتاب ص ١١
(٣) مقدمة الكتاب ص ١٢

(١) شبولر ص ١٩
(٢) د. فؤاد الصياد: — المغول في التاريخ ص ١٩ — بيروت ١٩٨٠م
وجدير بالذكر أن الصياد استاذ اللغة الفارسية بجامعة عين شمس قد اعتمد في كتابه هذا على مراجع فارسية اصيلة تداركت النقص في المعلومات والغموض الذي اكتنف التاريخ البدائي للمغول ومن اشهر الكتب التي اعتمد عليها كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمداني الذي كما يقول عنه الدكتور الصياد — لولاه لجهلنا الشيء الكثير عن تشعب القبائل التركية المغولية ولهذا كان أكثر اعتماد الدكتور الصياد في كتابه الفترة المبكرة من حياة المغول على هذا الكتاب الذي كان هو ومؤلفه موضوعا لرسالة الدكتوراه التي حصل عليها بعنوان «مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني» ونشرت في القاهرة عام ١٩٦٧م.

وقد اعتمدت كثيرا في بحثي هذا على الكتاب الأول للدكتور الصياد وهو (المغول في التاريخ) وقد قام د. الصياد بترجمة بعض أجزاء من كتاب جامع التواريخ الى العربية مع آخرين.

نظرا لأنه يعد أهم موسوعة الفت باللغة الفارسية في تاريخ المغول في العصور الوسطى (انظر د. الصياد — المغول في التاريخ ص٢١).

(٣) الصياد — المغول في التاريخ ص ٢٤
(٤) رشيد الدين — جامع التواريخ حـ ١ — ٦١ طهران ١٣٢٨ هـ. ش /١٩٥٩ م نشر الدكتور بهمن كريمي.

(٥) الصياد — المغول في التاريخ ص ٣٠
(٦) السيد الباز العريني — المغول ص ٢٩ بيروت ١٩٦٧م
(٧) شبولر ص ٢٠

(٨) الصياد ص ٢٧
(٩) شبولر ص ٢٢
(١٠) الصياد ص ٤٠
(١١) شبولر ص ٢٢
(١٢) رشيد الدين جامع التواريخ ص ٢٠٣ وعن الأولاد راجع الصياد ص ٤٠ — ٤١
(١٣) شبولر ص ٢٢
(١٤) الصياد ص ٤٩
(١٥) شبولر ص ٢٤
(١٦) يخول هذا اللقب لصاحبه أن يتمتع بالاعفاء من جميع المؤن والتكاليف، وأن تسلم له ما يغنمه في الحرب، وله ان يدخل على تموجين دون استئذان. انظر الصياد — ص ٤٧
(١٧) الجويني (علاء الدين ملك بن بهاء الدين محمد) تاريخ جهانكشاي نشر محمد بن عبد الوهاب القزويني ص ٢٧ — ٢٨ ليدن ١٣٢٩ — ١٣٥٥ هـ/١٧١١ — ١٩٣٧م.

(١٨) شبولر ص ٢٤
(١٩) رشيد الدين جامع التواريخ جـ ١ ص٩٧
(٢٠) الجويني — تاريخ جهانكشاي جـ ١ ص ٤٨
(٢١) ابن الأثير — الكامل في التاريخ جـ٩ ص ٢٩٥ نشر المكتبة التجارية بالقاهرة
(٢٢) شبولر ص ٢٦
(٢٣) دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية، المجلد ٧ العدد ٤ ص ١٢٨.

(٢٤) شبولر ص ٣٠
(٢٥) اعتقد أنه ذكر هذه اللفظة على سبيل التهكم
(٢٦) شبولر ص ٣٠
(٢٧) شبولر ص ٣١
(٢٨) الباز العريني — المغول ص ١١١، الصياد ص ٧٣
(٢٩) ابن الاثير — الكامل جـ٩ ص ٣٦١

(٣٠) السلوك لمعرفة دول الملوك حـ١ ص ٢١٨
(٣١) الصياد ص ٩٧
(٣٢) الباز العريني — المغول ص ١١٠

(٣٣) نفس المرجع ص ١١٨
(٣٤) الصياد ص ١٠٥، الباز العريني ص ١١٨
(٣٥) انظر شبولر ص ٣٥ — ٤٦
(٣٦) انظر شبولر ص ٤٦
(٣٧) ابن الاثير — الكامل جـ٩ ص ٣٨٣
(٣٨) شبولر ص ٤٧

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر (لأحمد سمايلوفتش)

محمد ماهر حماده
أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

سمايلوفتش، أحمد/ فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. ــ القاهرة : مطابع دار المعارف، [١٩٨٠م]، ٧٧٩ ص.

العلاقة بين الشرق والغرب قديمة كل القدم، وهي عدائية في الأعم والأغلب، على الرغم من العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية التي سادت بين الطرفين، وكانت أوروبا ولا تزال هي البادئة بالعدوان. فقديماً هاجم الاسكندر المكدوني بلاد الشرق وأخضعها لسلطة أوربا السياسية والثقافية مدة قاربت الألف عام (٣٣٠ ق م ــ ٦٣٢م) ولقد حرر الإسلام الشرق من ربقة طغيان الغرب وأصبح القوة العظمى من جميع الوجوه التي تمكنت أن تقف في وجه الغرب وأن ترد عدوانه، بل وأن تجعله يشعر بصغاره بالموازنة مع قوة الإسلام السياسية والحضارية والفكرية، ولكن ذلك لم يطل فترة طويلة، إذ أنه بعد انقضاء عصور الإسلام الزاهية استيقظ الغرب من سباته وبدأ يتطلع إلى إعادة سيطرته على مقدرات الشرق السياسية والحضارية. وقد تم له ذلك بعد عراك مع الشرق استمر أربعة قرون أو أكثر حتى تمكن أن يفرض سلطانه السياسي والثقافي على القسم الأكبر من بلاد الشرق، وذلك أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولم تستطع دول وشعوب الشرق المختلفة أن تتخلص من براثن الاستعمار الأوربي، إلا بعد أواسط القرن الحالي، وبعد أن ترك فيها جراحات وآثاراً رهيبة.

وقد رافق هذا الغزو العسكري لبلدان الشرق غزو فكري لا يقل أهمية عنه وربما كان أشد خطراً منه، وقد اضطلع بهذه المهمة عدد من المؤسسات في ديار الغرب كان الاستشراق أحد أدواتها الرئيسية في هذا الغزو.

ولقد ألف الكثير عن الاستشراق ومفهومه ووسائله وأثره وما ماثل ذلك. والقوم بين محبذ ومهاجم، ولا زال الموضوع خصباً وأهلاً لدراسات متعددة الجوانب. فالموضوع واسع وعميق ومتشعب وذو نواح كثيرة بحيث يصعب الاحاطة التامة بجميع نواحيه في مؤلف واحد. أضف إلى ذلك وجهات النظر المختلفة التي يعتنقها هذا المؤلف أو ذلك أو اهتماماته وميوله ومفاهيمه.

وقد أصبح الاستشراق وموضوعه مجالاً للدراسة في عدد من الجامعات ومن بينها الأزهر الذي منح درجة الدكتوراه العالمية بمرتبة الشرف الأولى للسيد أحمد سمايلوفيتش على رسالته المعنونة باسم «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر» وذلك سنة ١٩٧٤م. والباحث المذكور يوغوسلافي الجنسية مسلم وهو استاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية بمدينة سيراجيفو اليوغوسلافية ورئيس المشيخة الإسلامية لجمهوريات البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفنيا بيوغوسلافيا. والكتاب مطبوع في القاهرة بمطابع دار المعارف ولا يحمل اسم الناشر ولا تاريخ الطباعة ولكن رقم الإيداع القانوني يحمل تاريخاً هو سنة ١٩٨٠م.

والكتاب جهد ضخم بذل فيه جهداً كبيراً لا ينكر ورجع إلى المئات من المصادر والمراجع والكتب أغلبها باللغة العربية، وطباعته لا بأس بها وتحمل المسحة الأكادمية، وتملأ الهوامش أسفل الصفحات وقد ألحق المؤلف بكتابه لائحة مصادره التي يبلغ عددها، بين كتاب عربي وأجنبي ومقال دورية ٦٦٩ مصدراً، مع فهرس أو بالأحرى لائحة بمحتويات الكتاب، ولكن ليس هناك كشاف هجائي عام بأسماء الاعلام أو الأماكن أو الكتب .. ويبلغ عدد صفحات الكتاب بمجموعه ٧٧٩ ص. ولقد صدر الكتاب وقدمه إلى القراء الدكتور مصطفى محمود.

ويتألف الكتاب من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

والمقدمة قصيرة مختصرة شرح فيها المؤلف دوافع اختياره هذا

الموضوع وأسلوبه في البحث وعناصر هذا البحث وقد شرح عناصر بحثه بايجاز شديد يكفي للتعريف الموجز فقط بهذه العناصر. ففي شرحه لأسباب اختياره هذا الموضوع بالذات يقول : وقد لاحظت أن الهجوم على الإسلام يأتي غالباً من جانب الاستشراق الذي لا يقدس إلا غاياته وأهدافه، فرأيت لزاماً علي أن أدرس هذا الموضوع لأتعرف على مكامن الخطر كي أعد نفسي للدفاع عما نتمسك به جميعا من قيم دينية وفكرية وخلقية(١) . كذلك لاحظ المؤلف أن الاستشراق قد جانب الصواب في كثير من اتجاهاته وبحوثه ونظرياته، كما وأنه (أي الاستشراق) يحاول بكل ما له من وسائل وقوة وأفكار أن يفرض مفاهيمه هو على العالم العربي الإسلامي بأسره، ومن ثم وجب أن يدرس بعناية بالغة، وأن يعنى كل مسلم ومسلمة بدراسته وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بدينهم ولغتهم وأدبهم.

وهو يؤكد أن نظرته إلى الأمور والقضايا التي أثارها أتته نتيجة للنظرة القرآنية إلى ظواهر الكون والمجتمع والفكر، حيث بدت له التجربة العربية الإسلامية فريدة النوع في أفق التاريخ البشري كله مؤكدة صلاحيتها لكل زمان ومكان (٢).

وقد خصص المؤلف الباب الأول بكامله لدراسة الاستشراق وعنايته بالتراث العربي الإسلامي وهو يشغل أقل من ثلث الكتاب أذ يحتل الصفحات بين ١٣ و٢٤٠. وهو دراسة مفصلة كل التفصيل لهذا الموضوع التمهيدي. وقد قسمه المؤلف إلى مدخل وخمسة فصول. وقد حلل في المدخل انتشار الإسلام وقيام الدولة الإسلامية الكبرى وانتصار اللغة العربية وآدابها على اللغات والآداب الأخرى مما أدهش العلماء وجعلهم يبحثون في هذه المعجزة التي أدهشت العالم قديماً وحديثاً. وهو في مدخله هذا يؤكد على دور العقيدة الإسلامية الأساسي في توحيد العرب وفي جعلهم ينتصرون على أعدائهم عسكرياً وحضارياً وفكرياً وذلك بسبب عظمة الدين الإسلامي وسموه الفكري والحضاري ..«ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكنت جماعة من المحاربين الحفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة والقدرة على شن الحرب»(٤) ثم ينتقل إلى ذكر الصراع الدامي بين الإسلام والغرب ومحاولات الغرب المتكررة استرداد قبر السيد المسيح وعجزه عن ذلك، وكيف أنه خلال ذلك الصراع الدامي المستمر بين العرب والغرب ولدت في أوربا فلسفة الاستشراق التي تسعى جاهدة إلى معرفة حضارة الشرق(٥).

ولقد خصص المؤلف الفصل الأول من الباب الأول للتعريف بالاستشراق والاستعراب والاستغراب. وقد بدأ بلفظة استشراق وأتى بالمعنى اللغوي ثم المفهوم العلمي للكلمة ودعم آراءه بعرض مفهوم علماء الغرب لكلمة استشراق وما يفهمونه منها. وقد ذكر أن أول استعمال لكلمة مستشرق رأيناه في سنة ١٦٣٠م حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية(٦) . ثم يستطرد في ذلك استطراداً واسعاً ويأتي بتعاريف كثيرة وآراء متشعبة لعدد كبير من المعاجم والموسوعات والعلماء مدى العصور وينتهي من ذلك إلى آراء محددة في الموضوع.

بعد ذلك ينتقل إلى عرض آراء العلماء العرب في الاستشراق لفظه ومدلوله ومحتواه ويلخص آراء عدد كبير من الأدباء المحدثين في الموضوع من أمثال أحمد حسن الزيات وأحمد الأسكندري ومالك بن نبي وغيرهم. وبعد ذلك يلخص ما وصلوا إليه في الموضوع في نقاط محددة. وينهي بحثه في هذه النقطة بموازنة بين آراء الطرفين.

كذلك يخصص المؤلف حيزاً لا بأس به لدراسة كلمتي استعراب واستغراب وما تعني هاتان اللفظتان وكيف تطورتا ويدعم أقواله بآراء جمهرة من العلماء والبحاثة الأوربيين والعرب. وقد خصص المؤلف الفصل الثاني لدراسة حركة الاستشراق ودراسة دوافعها ونشأتها وأطوارها واتجاهاتها وخصائصها.

ففي رأيه أن الاستشراق يمثل حركة متواصلة الحلقات يحاول فيها الغرب التعرف على الشرق علمياً وفكرياً وأدبياً، ثم استغلاله اقتصادياً وثقافياً واستراتيجياً وجعله منطقة نفوذ له يسيطر بها على العالم بأسره (٧)

وعند تحليله لدوافع الاستشراق يقسم هذه الدوافع إلى دوافع نفسية وهي الرغبة الانسانية في معرفة الآخرين والاتصال بهم ودوافع تاريخية تتمثل في تعاكس التاريخ الأوربي مع التاريخ الشرقي ودوافع إقتصادية تتمثل في رغبة الغرب في التعامل الاقتصادي مع الشرق واستغلال ثرواته، ودوافع ايديولوجية، وتكمن هذه الدوافع في وجود الأيديولوجيات المختلفة، أيديولوجية الأفراد والجماعات والدول

والحكومات والأجناس والقوميات .. إلخ وكل منها تسعى لتفرض نفسها على غيرها وتسيطر عليها ويهدف صاحبها إلى أن يكون رئيساً والآخر مرؤوساً[٨] وهناك الدوافع الدينية التي حفزت الغرب للتعرف على ديانات الشرق وبخاصة الإسلام، والدوافع الاستعمارية والدوافع العلمية. ويحلل المؤلف هذه الدوافع ويستطرد للحديث عنها ويعززها بالشواهد هنا وهناك.

أما أسلوبه في دراسة نشأة الاستشراق فهو أسلوب الحكام والقضاة: استعرض آراء الباحثين العرب في الموضوع وهم كثر من أمثال أحمد أمين وأحمد الشرباصي ونجيب عقيقي وأحمد الاسكندراني وغيرهم، ثم استعرض آراء المستشرقين أنفسهم في نفس الموضوع من أمثال لامانس وبرنارد لويس ويوسف جبرا وغيرهم ثم يدلي هو برأيه في الموضوع. وقد بناه على آراء الآخرين وحاول التوفيق بين الآراء المتضاربة. ويستعرض جهود الدول الأوربية في هذا المجال وكيف بدأت اهتماماتها بالشرق.

وهو يقسم الاستشراق وأطواره إلى أطوار ثلاثة الطور الأول طور التأسيس والنمو والطور الثاني الذي ترافق مع الحروب الصليبية واستمر حتى مطالع العصور الحديثة والطور الثالث الذي بدأ في أواخر القرن الثامن عشر واستمر حتى الآن.

وفي رأيه أن الاستشراق له اتجاهات مختلفة أهمها الاتجاه العقدي الذي «نشأ منذ بدأت المواجهة بين المسيحية والاسلام، وإذ أحس أتباع المسيح أنهم أمام خطر يجب عليهم مواجهته، وقد بدأت هذه المواجهة أثر انطلاقة الإسلام من الجزيرة واستمرت حتى اليوم»[٩] وهناك من الشواهد ما يدل على أن الرصيد المختزن من مشاعر العداوة للإسلام يمتد الآن إلى العرب وعلى وجه أخص إلى القومية العربية[١٠]. أما الاتجاه العلمي فلا تكاد تصادفه إلا في الحقب الأخيرة، ذلك لأن الكنيسة كانت تسيطر على الاستشراق بقوة وتسخره لمصالحها، ولكن ما إن يخلص الاستشراق من سيطرة الكنيسة حتى سيطرت عليه أيديولوجية الاستعمار واستطاعت أن تسخره في سبيلها وتحركه لخدمة أهدافها وتبعث به إلى البلاد التي تنوي غزوها لكي يكون احتلالها لهذه البلاد قائماً على معرفة كاملة بجميع شؤونها فيكون أرسخ قدماً وأثبت مقاماً[١١]

خصص المؤلف الفصل الثالث من الباب الأول لدراسة علاقة الاستشراق بكل من الاستعمار والتبشير والصهيونية. فمهد لهذا الفصل بمقدمة طويلة استعرض بها جهود الغرب في السيطرة على الشرق وبشكل خاص العالم العربي والإسلامي. وقد لجأ إلى التاريخ، فدرس تاريخ هذه الجهود منذ ظهور الإسلام حتى الوقت الحاضر وبين كيف تحالف الاستعمار مع التبشير والصهيونية من أجل تحقيق هذه الغاية. ولقد كان هدف الغرب الأساسي في جميع تصرفاته نحو الشرق هو قهر الاسلام في عقر داره في العالم العربي بالذات، حتى معاملته مع الأمبراطورية العثمانية كانت على هذا الأساس على الرغم من عداوته لها ورغبته في سحقها[١٢]. بعد ذلك بدأ المؤلف يدرس العلاقة بين الاستشراق وكل عنصر من العناصر الثلاثة. فبين بوضوح تام العلاقة بين الاستشراق والاستعمار وكيف أن الاستعمار في حربه من أجل احتلال البلاد الاسلامية شن حرباً ضروساً شعارها: مدرسة أو مستشفى أو ملجأ أو كتاب، أو مقال أو ما إلى ذلك من خداع العناوين التي يقطر باطنها بالسم الناقع[١٣] ولقد لجأ الاستعمار إلى إرسال وكلائه إلى البلاد العربية وهؤلاء كلهم من المستشرقين. وقد تعاون الاستعمار والاستشراق قروناً طويلة وكان أغلب وأشهر المستشرقين موظفين في وزارات المستعمرات من أمثال ميور ومرغوليوث ولامانس ونولدكه..

وعندما أتى لدراسة الاستشراق والتبشير أفاض في هذه الدراسة وبين كيف أن أغلب المبشرين كانوا مستشرقين كما أن العكس صحيح تماماً. ولقد ذكر أساطين المبشرين وبينوا أنهم لجأوا إلى الكلمة المطبوعة وألفوا الكتب الكثيرة في الهجوم على الاسلام وبيان تأخره وسمو النصرانية ويذكر طائفة منهم باسمائها. ويذكر الباحث أن الدافع الحقيقي للتبشير والاستشراق هو استعمار البلاد الاسلامية ولا يتحقق ذلك إلا بتحطيم الاسلام باعتباره القوة العظمى الأساسية التي تقف في وجهه ولكن ما دام هذا هو هدف الغرب الحقيقي فأجدر من يستطيع القيام بهذه المهمة هو الاستشراق والتبشير اللذان اصبحا الدعامة الأساسية للهجمات الحديثة على المسلمين وتوهين القيم الاسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب الاسلامية والتنديد بأحوالها الحاضرة والازدراء بها في المجالات الدولية[١٤].

ونفس الروح تحركه في دراسة العلاقة بين الاستشراق والصهيونية واتبع نفس الأسلوب في البحث والمنهج. فقد بدأ باستعراض تاريخي للوضع وبين كيف التقت مصالح اليهودية العالمية مع مصالح الغرب

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فأدى الأمر إلى تحالف بين الطرفين للقضاء على الاسلام وقوته وتقطيع أوصاله واقتطاع مكان الصدارة في فلسطين وتأسيس دولة دخيلة فيها تكون سنداً للغرب وعامل قهر وسيطرة على الشرق والمسلمين والعرب.

وذكر الجهود التي بذلها اليهود للسيطرة على فلسطين وكيف ساعدهم الاستشراق لتثبيت حقهم المزعوم وبين كيف أن أغلب المستشرقين كانوا ولا زالوا من اليهود. ثم يعود الباحث إلى التاريخ مرة أخرى ليذكر كيف أن المسلمين لم يضطهدوا اليهود عبر حقب التاريخ وأن الذي اضطهد اليهود هم النصارى ويذكر وقائع من ذلك. ويذكر أن العداء بين اليهودية والنصرانية أكبر بكثير مما هو بين اليهودية والإسلام. ولكن جمع الطرفين كرههم للإسلام وأهله ورغبتهم في القضاء على الإسلام وقوته واستعمار أراضيه والسيطرة على مقدراته.

يخصص المؤلف الفصل الرابع لدراسة عناية الاستشراق بالتراث العربي الإسلامي. وقد لجأ إلى مقدمة تاريخية يذكر كيف أهتم الغرب من أقدم العصور بحضارة الشرق وكيف أن حضارة الشرق أقدم من حضارة الغرب وأثرت فيها بعمق ويؤيد ذلك بشواهد التاريخ. ثم يذكر أوائل من أهتم بالتراث العربي الإسلامي وكيف أن مؤتمرات الاستشراق ركزت على هذه الناحية وأوجدت الأدوات اللازمة لذلك. وقد ذكر كيف حافظ القوم على المخطوطات العربية وكيف اشتروها وكيف درسوها وكيف نشروها. كذلك أوجدوا المطابع العربية لطبع الكتب العربية وأسسوا المعاهد المختلفة لدراسة الشرق وحضارته وآثاره وأوجدوا الكراسي في أمهات الجامعات للدين الاسلامي والتراث الاسلامي واللغة العربية .. كل ذلك قبل أن يبدأ شيء من هذا في العالم العربي والاسلامي عندما كان الشرق كله يغط في سبات عميق. فقد طرقوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا وعالجوا كل أمر ذي شأن في ديننا وحضارتنا متبعين في دراساتهم طرق البحث العلمي المنظم(١٥) وإن كانت عصبيتهم تقودهم في كثير من الأحيان إلى الانحراف لأنهم كانوا يغضون الأبصار عن الطابع الروحي .. الذي ولدت في أحضانه أحداث الاسلام وطبقت أوامر القرآن، وسبب شغف الاستشراق بالتراث العربي الاسلامي أكثر من شغفه بغيره من التراث الشرقي هو أثر الحضارة الاسلامية في العقلية الأوربية التي تشعر بحق بأنها «ابتداء من الفلسفة والرياضيات إلى الطب والزراعة مدينة لتلك الحضارة بشيء كثير»(١٦) ويذكر أنه بسبب من جهود المستشرقين هذه تعرف العالم على مدنية الاسلام وحضارته الفكرية بشكل خاص. ثم يذكر موقف مفكري العرب في العصر الحديث من جهود المستشرقين هذه ويأتي بآراء المحبذين وآراء المتشككين ويختم بحثه بذكر المجالات التي اعتنى الاستشراق بدراستها من جوانب الحضارة الاسلامية منها عنايته بدراسة الاسلام كدين وعنايته بدراسة القرآن وعلومه والحديث الشريف وعلومه والفقه الاسلامي ومدارسه والتاريخ الاسلامي والعلوم الاسلامية واللغة العربية والأدب العربي.

بحث المؤلف في الفصل الخامس، فلسفة الاستشراق، وكالعادة بدأ بحثه بمقدمة حول تعريف الفلسفة وماهيتها ومفهومها وموضوعها وأفاض في ذلك ثم انتقل إلى ذكر ماهية فلسفة الاستشراق، وفي رأيه أن هذه الفلسفة نشأت أساساً من الرغبة في دحض تعاليم الاسلام وإثبات تفوق النصرانية على الإسلام كدين، كما وأنها نشأت بسبب المسائل والتساؤلات التي أثارها الاسلام ضد الديانة النصرانية بشكل خاص وليس لديهم جواب واضح عنها فلجأوا إلى الفلسفة يحاولون الإجابة على هذه التساؤلات. ينتقل بعد ذلك إلى دراسة نزعات الاستشراق فيقسمها إلى نزعة تفوقية تنادي بتفوق الغرب في كل شيء على الشرق ويمثل هذه النزعة رينان الذي كال الاتهامات إلى الإسلام في محاضرته الشهيرة: الإسلام والتقدم(١٧) ونزعة تحليلية تهدف إلى تحليل المعطيات والأفكار والحضارات حتى يمكن الحكم لها أو عليها ويمثل هذه النزعة الانكليزيان جيب وبوين، وهناك النزعة التخصصية التي تجعل فئة من المستشرقين يتخصصون في دراسة ناحية معينة من نواحي الحضارة الاسلامية وهذه هي أهم النزعات في الوقت الحاضر. وهناك النزعة اللاهوتية التي بدأها علماء اللاهوت النصراني وتنظر للأمور كلها من وجهة نظر كنسية، وهناك النزعة السياسية التي كان هدفها سياسياً بالدرجة الأولى من كل نشاطاتها ويخصص المؤلف حيزاً لا بأس به من الفصل لدراسة مدارس الاستشراق وهو يوزعها جغرافياً فهناك المدرسة الفرنسية والمدرسة الانكليزية والمدرسة الألمانية والمدرسة الروسية .. ويخصص حيزاً لا بأس به لدراسة معطيات المدرسة اليوغوسلافية وهي المدرسة التي ينتمي إليها المؤلف بحكم قوميته.

يشغل الباب الثاني من الكتاب والذي عنوانه: الأدب العربي

بين علماء الاستشراق وعلماء العرب حيزاً مهماً من الكتاب من صفحة ٢٤١ إلى صفحة ٤٢٢ وقد قسمه إلى مدخل وخمسة فصول. درس في المدخل عصور الأدب العربي من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث. وتناول في الفصل الأول معضلة البحث الأدبي وبين الصعوبات الناجمة في الموضوع وكيف أن الموضوع متسع ومدلوله يختلف وخصائصه متغيرة وأورد مناهج العلماء في دراسة موضوع الأدب. وقد بدأ بدراسة منهج علماء الغرب بدءاً من سقراط حتى كوليردج وديكارت وأحزابهما ثم أتبعه بدراسة منهج علماء العرب وقد اتبع المنهج التاريخي الاستقرائي ورد فيه التهم ودافع عن الفكر العربي الاسلامي وبين أن لدى المسلمين منهجاً علمياً دراسياً مستقلاً واستعان بآراء علماء أوربا المنصفين في هذا الشأن. والفصل الثاني خصه بدراسة مقاصد علماء العرب القدامى للموضوع فاتبع التسلسل الزمني التاريخي وعرض كيف نشأ هذا المنهج وما هي العوامل التي أدت إلى ظهوره ثم أتبعه بعرض آراء العلماء والأعلام الذين شاركوا في هذا النشاط من أمثال محمد بن سلام الجمحي والجاحظ وابن قتيبة ومحمد بن طباطبا وقدامة بن جعفر والقاضي والآمدي وغيرهم. وقد أتى بآراء كل عَلَم من هؤلاء الاعلام فيما يتعلق بالأدب بعامة وبكل فن من فنونه، وعدد مؤلفاتهم وبين اتجاهاتهم، كل ذلك بدراسة مفصلة مستفيضة. وحتى تكمل الصورة فقد خصص الفصل الثالث لدراسة اتجاهات ومواقف علماء الاستشراق من نفس الموضوع. وقد افتتح الفصل بكارل بروكلمان وجهوده في هذا السبيل وذكر نشاطه ودرس منهجه ولا سيما كما يبدو في كتابه تاريخ الأدب العربي الذي يعتبر أنه جاء على نمط لا يمكن أن نعده تاريخاً في الأدب العربي وحده وإنما نعده في رأينا مرجعاً هاماً لأعمال المؤلفين والشعراء العرب[18] وهو في عرضه لآراء بروكلمان يبين أماكن الخطأ والصواب ويظهر تعصبه ضد اللغة العربية وضد الاسلام وضد رسول الله ﷺ[19] ويستطرد في ذلك كل الاستطراد. ينتقل بعد ذلك إلى دراسة جهود عدد من أعلام المستشرقين من أمثال نللينو ونيكلسون وبلاشير وجيب وكراتشوفسكي وغيرهم ممن اهتم بالدراسات الأدبية العربية وقد اتبع نفس المنهج الذي اتبعه في دراسة كارل بروكلمان وهو مذهب وصفي عرضي دفاعي انتقادي يشكر عليه.

كذلك خصص الفصل الرابع من نفس الباب لدراسة آراء واتجاهات الأدباء العرب الحديثين من الأدب العربي وأصالته واستعرض آراء الكثيرين منهم من أمثال جرجي زيدان والرافعي والعقاد والمازني ونعيمة وطه حسين وهيكل والزيات ومحمد مندور وغيرهم كثير. وقد بسط القول كثيراً في آراء كل منهم في الموضوع ولخص كتبهم وبين اتجاهاتهم واهتماماتهم. وختم بحثه في الباب الثاني بفصل خامس ختامي للموازنة بين أعمال هؤلاء وأولئك وآراء الطرفين وبين ما أسداه المستشرقون من أيادٍ إلى هذه الأبحاث وما قاموا به من دس، كذلك بين تأثر العرب المحدثين بآراء المستشرقين وكيفية التأثر، سلباً أو إيجاباً.

أما الباب الثالث الذي هو أوسع الأبواب، وهو في الحقيقة موضوع الكتاب، فقد درس فيه الاستشراق وأثره في الأدب العربي المعاصر. وهو موضوع معقد وطويل وشائك ويحتاج إلى معرفة تامة وإحاطة كاملة بكل جوانب الموضوع.

وقد قسم هذا الباب الذي يحتل الصفحات ٤٢٤ إلى ٧٢١ إلى مدخل وخمسة فصول. وقد لخص في المدخل تطور مفهوم الأدب عبر العصور وكيف أن الإسلام رفع الأدب العربي إلى ذروة سامقة وكيف أن هذا الأدب لعب دوراً خطيراً جداً في الحضارة الإسلامية وفي إنتقاء اللغة العربية والمفاهيم الاسلامية، ثم يستطرد لذكر الأخطار التي تعرضت لها اللغة العربية والأدب العربي قديماً وحديثاً مثل الخطر الصليبي والخطر المغولي والخطر الاستعماري.. وكيف أدت هذه الأخطار إلى بروز أدباء همهم الدفاع عن ذلك الأدب وإبراز جماله ودوره. وانطلاقاً من هذا المفهوم فقد أوقف الفصل الأول لدراسة نهضة الأدب العربي المعاصر وقد افتتحه بمقدمة تاريخية استعرض بها تطور الأدب العربي خلال عصور الإنحطاط ثم عرض بشكل مفصل لليقظة الفكرية واليقظة العلمية اللتين أدتا إلى نهضة الأدب العربي المعاصر. وقد ركز، فيما يتعلق باليقظة الفكرية، على الحركات الإصلاحية الدينية التي وجدت في العالم العربي مثل دعوة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية وغيرها من الحركات الإصلاحية. ونجد المؤلف هنا يخالفه الصواب عندما يعطي الأولوية في يقظة العرب الفكرية إلى الحركات الإصلاحية الداخلية لا إلى الإرساليات الأجنبية ولا لحملة نابليون على مصر، لأن «الحركات الدينية المحلية لعبت دوراً تحريرياً ضد الاستعمار في عدد كبير من هذه الشعوب برغم وجود المنظمات

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

التبشيرية الأوربية والأمريكية التي لعبت في هذه الظروف دور الأداة النشطة للتغلغل والسيطرة الإمبريالية. إن الصيحة الأولى للنضال الوطني كانت باسم الله قبل أن تكون باسم الوطن. ولقد كان الإنتماء إلى الإسلام في الجزائر في القرن التاسع عشر، بمثابة احتجاج ضد السيطرة الاستعمارية وضد بؤس الجماهير وإذلالها[٢٠] وفيما يتعلق بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول المؤلف: وقد كانت الدعوة الوهابية فاتحة الدعوة إلى تحرير الفكر، وقد تلاها بعد ذلك حركة تحرير الفرد التي دعا إليها المشايخ والعلماء في مصر[٢١] أما اليقظة العلمية فيذكر الباحث أنها ولدت مع الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م ويأتي على ذلك بأدلة كثيرة ويستشهد بآراء كثير من البحاثة. ينتقل المؤلف لدراسة النهضة الأدبية التي بدأت في مصر وانتقلت إلى غيرها من أقطار العالم الاسلامي فيحللها ويورد آراء كثير من الباحثين المصريين في أسبابها ومظاهرها والعوامل التي أدت إليها مثل إدخال الطباعة وتأسيس المدارس زمن محمد علي وفتح المعاهد العليا وإصدار الصحف والمجلات والنقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وتأسيس الجامعات وإحياء التراث ونشره. ثم ينتقل إلى دراسة نهضة الفنون الأدبية واحداً واحداً فيبدأ بدراسة نهضة الشعر ويذكر حال الشعر قبل العصر الحديث وجهود فطاحل الشعراء في هذا المجال من أمثال البارودي وصبري وشوقي وحافظ والزهاوي وغيرهم حتى يصل إلى الوقت الحاضر. كذلك يدرس بنفس المنهج ونفس الروح يقظة ونهضة النثر العربي ويذكر كيف أن هذا النثر تطور وأهمل المحسنات اللفظية ورجع إلى منابع الثقافة الأدبية العربية الأولى يعب منها وعرض جهود أساطين ذلك النثر من أمثال محمد عبده والكواكبي وعلي مبارك واليازجي والبستاني والمويلحي وقاسم أمين ومصطفى كامل.

ودرس المؤلف اهتمام الاستشراق بدراسة الأدب العربي المعاصر وذلك في الفصل الثاني وعرض لبيان أسباب هذا الاهتمام، ثم انتقل إلى دراسة اهتمام الاستشراق بدراسة الأدب العربي القديم وعرض لدراسات بروكلمان ونيكلسون وغيرهما في هذا المجال. واتبع ذلك بدراسة اهتمام الاستشراق بدراسة الأدب العربي الحديث وبين صعوبة الموضوع ومجاله ومظاهره وذكر ظاهرة نقل الكتب العربية إلى اللغات الأوربية ويذكر أنه صدر للأدباء العرب ١٢٤ كتاباً يناهز عدد نسخها خمسة ملايين ونصف مليون في ٣٠ لغة من لغات الاتحاد السوفييتي[٢٢] وعرض كذلك لذكر جهود وأعمال أشهر المستشرقين الذين اهتموا بهذا الموضوع من أمثال كراتشوفسكي وجرمانوس وبيرك وغيرهم. وقد لخص الباحث في الفصل الثالث أثر الاستشراق في الأدب العربي المعاصر فشرح الوسائل التي أثر بواسطتها الاستشراق في هذا الأدب مثل إرسال البعثات العلمية إلى أوربا وحضور العرب مؤتمرات الاستشراق والاستعانة بالمستشرقين للتدريس في الجامعات العربية وترجمة أعمال المستشرقين إلى العربية وغيرها. ثم انتقل إلى دراسة الميادين التي أثر بها مثل تحقيق المخطوطات. وهنا عرض لجهود برجستراسر في هذا المجال وبين اهتماماته وكيف أنه أثر في عدد من المحققين من أمثال هارون والمنجد، ودراسة الأدب العربي وتأليف دائرة المعارف الإسلامية وفهرسة المعاجم العربية وتأثير الأدب العربي وتأثره بالآداب العالمية، وهنا يعرض المؤلف لآراء عدد كبير من المستشرقين وأعمالهم ويرد على كثير منهم ولا سيما من تعرض للطعن في الاسلام أو في شخصية الرسول عليه السلام أمثال مارغوليوث وغيره. ويختم بحثه بذكر الأدباء الذين نادوا بتغريب الأدب مثل طه حسين وأدونيس والشابي وغيرهم وأهم الأدباء الذين دافعوا عن الأدب العربي وأصالته أمثال الزيات والرافعي وغيرهما.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والفصل الرابع مهم لأنه يدرس موقف الاستشراق من بعض القضايا الكبرى مثل العقلية العربية والقومية العربية واللغة العربية والتشكيك في التراث العربي الإسلامي وموقف العرب من الاستشراق. وهو يبسط رأي المستشرقين في الموضوع ويرد عليهم بما يناسبه المقام ويستشهد بآراء عدد كبير من الباحثين العرب في الموضوع. وهو يشكر بشكل خاص لدفاعه الحار عن اللغة العربية ورده لهجوم المستشرقين عليها والدعوة إلى إحلال العامية محلها. كذلك يرد هجوم المستشرقين على التراث العربي الإسلامي ويبين أصالة هذا التراث وارتباط تلك الدعوة مع الشعوبية والاستعمار. أما بحثه في موقف العرب من الاستشراق فهو في الحقيقة عرض لموقف عدد كبير من الباحثين العرب من هذا الموضوع الخطير، وقد أتى بأسماء طائفة كبيرة من العلماء الاعلام ابتداءً من محمد عبده والأفغاني وانتهاءً بأنور عبد الملك. وهو يعرض آراء كل عالم بين محبذ ومهاجم ومشكك ومعتدل.

والفصل الأخير الذي هو الخامس ثبت بأهم منجزات

الاستشراق وإضافاته إلى الأدب العربي المعاصر. وهو يقسم الموضوع إلى عناصر. منها تعريف الغرب بالتراث العربي الإسلامي ومنها التنقيب في التراث العربي والاسلامي ومحاولة تقويمه واتباع المنهج النقدي في دراسته وغير ذلك من الأمور.

وقد ختم الباحث كتابه بخاتمة لخص فيها الخطوط الكبرى لبحثه الذي يتمثل فيما يلي :

عني البحث بتسجيل الاتجاهات العامة للاستشراق خلال عصوره وعهوده المختلفة عن البحث بتسجيل النشاط الاستشراقي الذي تغلغل في جميع الميادين العقلية والفكرية والثقافية في بلاد الشرق منذ أكثر من قرن وامتد حتى الآن.

إهتم البحث كل الاهتمام بالجانب الأدبي، وإن لم يتجاهل الجوانب الأخرى بين الباحث ارتباط الأدب العربي المعاصر بالكفاح من أجل الحرية والاستقلال أكد البحث على ضرورة الدراسة الموضوعية للاستشراق وآثاره السلبية والايجابية.

وإذا نظرنا إلى الكتاب ككل لاحظنا أنه دراسة منهجية أكادمية لموضوع من أخطر الموضوعات التي تعرض للعرب والمسلمين في حياتهم والتي لا تزال تؤثر في مصائرهم. وفي رأينا أن الباب الأول من الكتاب هو أكثر أبواب الكتاب أهمية وتمكن الباحث أن يبرز الاستشراق كحركة فكرية ارتبطت مع التبشير والاستعمار ارتباطاً عضوياً، كما وأنه استطاع أن يبرز الإطار الفكري والفلسفي لتلك الحركة إبرازاً جيداً إلى جانب قدرة المؤلف على العرض التاريخي والسرد الوصفي وتدعيم آرائه بالشواهد الكثيرة.

هذا وإن المآخذ التي تؤخذ على هذه الدراسة كثيرة منها:

أنها دراسة مفصلة كل التفصيل حتى أن الفكرة الأساسية قد تضيع وتغرق من كثرة التفاصيل التي يأتي بها المؤلف. وهو يلجأ وباستمرار إلى دعم الرأي الواحد بعشرات الشواهد من هنا وهناك حتى ليحس القارىء بالسأم والملل، بل والتشتت، كما هو الحال بشكل خاص في الباب الثالث حيث يدرس تأثير الاستشراق في الأدب العربي المعاصر.

كذلك يلاحظ على هذه الدراسة أنه حشر بها أشياء كثيرة لا صلة مباشرة لها بالموضوع مثل آراء المؤلفين القدامى في الأدب العربي والنقد العربي وآراء المحدثين وآراء المستشرقين فهذه ليست بذات صلة مباشرة بالموضوع بحيث يخرج القارىء بانطباع أنه كان من الممكن اختصار الكتاب إلى النصف أو أقل دون أن يخل بالفكرة الأساسية للكتاب.

ويلاحظ على المؤلف تعصبه الشديد ضد الأتراك العثمانيين وطعنه بهم والهجوم عليهم ووصفهم بما يصفهم به ممثلو القومية العربية . «أما الأدب العربي، فلعله لم يمتحن في تاريخه الطويل بمثل ما امتحن به في العصر التركي المملوكي، فقد أطبق الظلام الدامس على جميع الأصقاع العربية تحت الحكم العثماني الذي اتسم بالتعصب للغة التركية، تلك اللغة التي لا تترجم عن حضارة ولا تعبر عن ثقافة تمتاز بها العقلية التركية.[٢٣]» «لقد تمت للأتراك السيطرة على العالم العربي بفتح السلطان سليم لمصر عام ١٥١٧م وظل حكمهم سائداً فيه بعدئذ زهاء ثلاثة قرون أو أكثر، ثم حل محلهم الاستعمار الغربي .. وعانى العرب من الحكمين معاً، وإن كان الثاني أهول وأفظع[٢٤]»

وهذا مجانب للحق والصواب فالعثمانيون وسعوا دار الاسلام كثيراً وبشكل خاص في أوربا وهم حموا البلاد العربية من الوقوع في براثن الاستعمار الغربي، ولم يظهر تعصبهم للقومية التركية واللغة التركية إلا في أواخر عهودهم أواخر القرن التاسع عشر. وإذا كان المؤلف نفسه مسلماً فالفضل الأول في ذلك لله وحده ثم للعثمانيين الأتراك الذين نشروا الإسلام في أوربا وفي يوغوسلافيا بالذات. كذلك نراه، في كثير من الأحيان، يتبنى آراء دعاة القومية العربية الغلاة ويدافع عنها من أمثال ساطع الحصري وأمثاله.

ولا ندري كيف نفسر اقحامه لعبد الناصر وانقلابه الذي أحدثه سنة ١٩٥٢م، ووصفه له بالثورة العربية الكبرى عام ١٩٥٢م[٢٥]. كذلك تمجيده لأحداث عام ١٩٧٣م وذلك عندما يتحدث عن مرحلة التأصيل والتأكيد في تطور الشعر العربي الحديث، فيذكر أن الحركات التأصيلية توالدت في أقطار الضاد وهاجت كالبركان الثائر خلال العدوان الثلاثي الغادر عام ١٩٥٦م.. وتغلبت على كل الصعاب فتألقت من جديد بشرارة اكتوبر عام ١٩٧٣م[٢٦] ولعل ذلك عائد إلى تأثره بآراء الأدباء الذين اقتبس منهم وعاصرهم وتتلمذ على أيديهم.

وإذا درسنا مصادر دراسته التي استقى منها معلوماته وجدنا أغلبها مصادر ثانوية وهي تمثل وجهة نظر خاصة في الموضوع، فأولا بلغ عدد المصادر الأجنبية ٢٧ مصدراً من مجموع المصادر في

العام البالغ ٦٦٩ مصدراً. وهذا نقص خطير في الموضوع ولا سيما أنه صدر من شخص يتقن الانكليزية واليوغوسلافية وله بعض المعرفة بالألمانية. وكانت النتيجة أنه يورد آراء المستشرقين، وهي آراء جد خطيرة ، مستقاة من مصادر عربية مترجمة عن الأصل، وهذا لا يليق. كما أنه لم يرجع لمحاضر جلسات مؤتمرات الاستشراق وهي زاخرة بالمواد الأصلية التي تضفي على الرسالة جواً علمياً جديراً بالثقة. كذلك أغلب المصادر العربية تمثل وجهة نظر القوميين العرب الذين يعتنقون مبدأ القومية العربيةخاصة ولا ندري كيف نفسر ذلك.

وإذا أردنا إصدار حكم نهائي على الكتاب كان لنا أن نقول إنه كتاب موضوعي إلى حد كبير ووضح كثيراً من المفاهيم، ودافع عن الدين الاسلامي والعقيدة الاسلامية أجمل دفاع في وجه هجوم المستشرقين والمشككين. ونختم بحثنا بالقول إن المؤلف، وهو غير عربي، ذو أسلوب عربي لا بأس به وعنده القدرة على توضيح أفكاره بسهولة، لا نجد في كتابه من الأخطاء اللغوية والنحوية والاملائية ما نجده في كتابات كثير من أبناء الناطقين بالضاد.

الهوامش

(١) ص ٧
(٢) ص ٨
(٣) ص ٨
(٤) ص ١٧
(٥) ص ٢٠
(٦) ص ٢٢
(٧) ص ٣٩
(٨) ص ٤٦
(٩) ص ٨٧
(١٠) ص ٩٤
(١١) ص ٩٦
(١٢) ص ١١٤
(١٣) ص ١١٩
(١٤) ص ١٢٩
(١٥) ص ١٦٠
(١٦) ص ١٦٠
(١٧) ص ١٩٩
(١٨) ص ٣١٥
(١٩) ص ٣١٨
(٢٠) ص ٤٣٤
(٢١) ص ٤٣٥
(٢٢) ص ٥١١
(٢٣) ص ٤٣٢
(٢٤) ص ٤٣٣
(٢٥) ص ٤٤٤ وص ٤٤٦
(٢٦) ص ٤٦٧

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كارلو نالينو وكتابه (تاريخ الآداب العربية)

روكس بن زائد العزيزي
الأردن

نالينو، كارلو / تاريخ الآداب العربية . ـــ القاهرة ـ دار المعارف، ١٩٥٤م ، ٢٩١ ص.

○ **اقتباس من كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين:**

«كيف نتصور أستاذاً للأدب العربي، لا يُلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج ـــ المستشرقون ـــ من النتائج العلمية المختلفة، حين درسوا تاريخ الشرق، وآدابه ولغاته المختلفة، وانما يلتمس الآن العلم عند هؤلاء الناس». الأدب الجاهلي الصفحة الـ ١١.

○ **بدء الاستشراق :**

كان من رواد الاستشراق، إن لم يكن هو الرائد (جربر الراهب JERBERT ـــ الذي طلب العلم في الأندلس، في (اشبيلية) و(قرطبة) فلما عاد إلى (رومية) أنتخب حبراً أعظم ـــ أي بابا ـــ سنة ٩٩٩ للميلاد، وما إن اعتلى السدة البابوية، حتى أمر بإنشاء مدرستين عربيتين :ـــ

١ ـــ واحدة في ايطالية.

٢ ـــ وثانية في فرنسا في مدينة (ريمس).

ومن ثم أخذ الاستشراق يشيع في أوربة، وفي اميركا، ولعل غايته الأولى كانت دينية، ثم تطورت إلى الأغراض السياسية، ثم تحولت لأغراض علمية خالصة لوجه العلم.

وقد كان لهؤلاء المستشرقين فضل عظيم في خدمة النهضة العربية، في البحث عما عندنا من كنوز المعرفة وترتيبها، وتحقيقها، وطبعها طباعة أنيقة فاخرة، محلاة بأدلة تجعل مادتها ميسرة، فقد رأينا بعض تلك المطبوعات محلاة بنحو عشرين دليلا ـــ فهرست ـــ وما هذا بالشيء القليل. فلم يعد مطالع الكتاب حائراً في البحث عن مادة أو كلمة في الكتاب الذي قرأ.

○ **تعدد المستشرقين واتجاهاتهم :ـــ**

وقد تعدد المستشرقون في كل أمة، واتجهوا إلى كل لغة، ويهمنا فهم أولئك الذين أحبوا العرب ولغة العرب، ونشروا فضائلنا، وهم كثر.

فمنهم من اتجه إلى دراسة الإسلام. والتشريع، والأديان، والفلسفة، واللغة، والمعجم، والأدب والتاريخ، والجغرافية، والفلك، والكيمياء، والرياضيات، والطبيعة، والزراعة، والخط، والمخطوطات، والفنون، والآثار، واللغات السامية. فبرعوا في كل ما عالجوه، براعة تسجل لهم بالشكر، وإن اساء بعضهم في ما وصل إليه من اجتهاد عامداً، أو عن حسن نية!..

وقد أنصف البحاثة الفاضل (نجيب عقيقي) بمؤلفه القيم:ـــ (المستشرقون) المطبوع في دار المعارف، بمصر، طبعته الثانية من ١٨٩٥ ـــ ١٩٤٧ إذ بين في كتابه هذا المؤلف من ٢٣٩ صفحة من القطع الوسط جهود هؤلاء الرجال، وخدماتهم في كل فن ومطلب.

○ **لماذا اخترنا من هؤلاء المستشرقين الأستاذ (كارلونالينو) C.A. NALLINO** الايطالي المولود ١٨٧٢ المتوفى ١٩٣٨؟.

اخترناه لأنه أحب العرب واللغة العربية، ولأنه ألقى محاضراته المتميزة بلغة عربية مشرقة، في حين كان الأساتذة من أبناء قومنا يلقون محاضراتهم بعامية ركيكة. ولأن من طلابه أمثال الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي.

ولد هذا الأستاذ في مدينة (تورينو TORINO) في شمالي إيطالية، وقد كانت قديماً عاصمة (بيومنته) ودرس اللغة العربية في جامعة (تورينو) فعين أستاذاً للغة العربية في (المعهد الشرقي) في (نابولي) من سنة ١٨٩٤ ـــ ١٩٠٢، ثم عُيّن في جامعة (بالرمو)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم نقل إلى جامعة (رومية) عاصمة إيطالية سنة ١٩٠٩، وأخذ يدعى إلى جامعة (القاهرة) لالقاء محاضرات فيها باللغة العربية، وفي سنة ١٩٣٢ انتخب عضواً في المجمع الملكي الايطالي، وعضواً في المجمع الملكي في (مصر). ولما كان الشيء بالشيء يذكر، فإن كريمته الأستاذة (مريم) مستشرقة متمكّنة.

○ **مؤلفاته :**

لهذا الأستاذ (كارلونالينو) عناية خاصة بالجغرافية، والفلك عند العرب، فنشر زيج البتّاني[1] في الفلك ، والبيان طبع في (ليبزيغ) ١٨٩٣، وكتاب علم الفلك عند العرب، طبع في (رومية) سنة ١٩١١، واللغة المصرية العامية، طبع في (ميلانو)، سنة ١٩٠٠ والشعر الصوفي (ابن الفارض) نشر في مجلة (الدروس الشرقية) سنة ١٩١٩ و(ابن الفارض والتصوف الإسلامي) طبع سنة ١٩٢٠ والفلسفة الشرقية نشر في مجلة (الدروس الشرقية) ١٩٢٥م وحول (الفقيه ابن رشد)، و(تاريخ الآداب العربية) و(حول المعتزلة).

أما كتابه (تاريخ الآداب العربية) فقد طبع في مصر، كما ذكرنا رأس مقالنا هذا، بعد وفاته، وهو سلسلة محاضرات القاها على طلابه في جامعة القاهرة، وجمعتها ابنته المستشرقة (مريم) وكتب مقدمتها النفيسة تلميذه النابغة عميد الأدب العربي المغفور له الدكتور (طه حسين) مقدمة ضافية ، جاء فيها: «هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي، قرأته كما تعودت أن أقرأ أمثاله من الكتب التي تعرض للأدب العربي، وغيره من الآداب الأخرى، ولكني لم أقرأه بعقلي وحده، كما تعودت أن أقرأ كتب التاريخ الأدبي. إنما قرأته بعقلي وقلبي وشعوري، وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التي تثور في نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافاً من حياتهم في عصر من عصور شبابهم ! عواطف هذا الحنين إلى شيء، لا سبيل إليه، أو إلى أشياء لا سبيل إليها، وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه، ولا مطمع في تحقيقه، وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذي لا سبيل إلى استدراكه، ولا اتقاء ما يثيره في النفس من المضض، واللوعة والأسى!» إنتهى المراد نقله.

○ **الكتاب المبحوث عنه :ـــ**

وبعد أن قرأت المقدمة، التي تجمع بين روعة الشعر، ورصانة التحقيق البارع، وعمقه، اتجهت إلى الكتاب المؤلف من أربعة أبواب.

□ عالج في الباب الأول لفظ الأدب وبحث عن معنى الأدب الأصلي عند العرب، وما تفرع عن هذا المعنى من المعاني المتعددة المختلفة وعرف بتاريخ الأدب، وكيف يقسم تاريخ الآداب العربية.

□ وتناول في الباب الثاني الآداب العربية في العصر الجاهلي:ـــ

أ ـــ شعر أهل البادية،

ب ـــ شعر الوثنيين، الملازمين ملوك الحيرة وغسان،

ج ـــ شعر النصارى بالحيرة وفي مملكة غسان،

د ـــ شعر أهل الحضر في مدن الحجاز،

هـ ـــ النثر الجاهلي،

و ـــ المسائل المتعلقة بالقرآن الحكيم.

□ وفي الباب الثالث، تناول الآداب في صدر الإسلام، وأيام الخلفاء الراشدين:ـــ

أ ـــ الشعر في مدح النبي الكريم ﷺ،

ب ـــ ذكر شعراء المشركين الحاقدين على النبي ﷺ.

ج ـــ الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا في أبياتهم بأمور دينهم.

د ـــ شعر الفتوحات،

هـ ـــ الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و ـــ النثر.

□ الباب الرابع، الشعر في عصر بني أمية:ـــ

أ ـــ الغزل في مدن الحجاز،

ب ـــ النسيب عند الأعراب،

ج ـــ الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية

د ـــ الأراجيز

هـ ـــ شعر الجنود

و ـــ شعر الفتن السياسية والدينية،

ز ـــ شعر أهل الحضر في مدن العراق والشام،

ح ـــ الشعر القصصي اليمني

ط ـــ المراثي.

□ **تعريف الأدب عند قدماء العرب:ـــ**

يقول : «إن الأدب عند قدماء العرب يعني السُّنَّة وهي العادات القديمة التي يجب على الانسان أن يسير بموجبها الصفحة الـ ١٤ وقد أورد خارطة توضح تطور المعاني التي مرت بالكلمة أو مرت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بها من الجاهلية إلى منتصف القرن التاسع عشر، وقال إن المراد بأديب هو المميز بأمر مخصوص. ويقول إن ابن المقفع يرى في كتابه الأدب الصغير، أن الأدب هو المعارف جميعها. الصفحة الـ ٢٠ ثم هو محاسن الأخلاق بدليل ما جمع أبو عبدالله البخاري في باب الأدب من الأحاديث. لكن على الرغم من كل تقصيات المؤلف الدقيقة عن تطور الكلمة عند العرب في كل العصور التي عرض لها، فاننا رأينا للعلامة انستاس ماري الكرملي في الجزء الأول من معجمه المساعد، رأياً يخالف ما ذهب إليه.[٢]

أما الكتاب — في رأينا — فهو :—

أ — تنظيم للفكر أو هو ينظم الفكر،

ب — يعطي الدقة والعمق والاستقصاء في البحث.

ج — مدرسة للأمانة العلمية،

د — يعلم الاستفادة من كل صغيرة أو كبيرة في مصادره ومراجعه التي اعتمدها.

هـ — يلقى درساً بليغاً على الأساتذة الذين يستخدمون اللهجة العامية في محاضراتهم ، وفي دروسهم.

يخاطب العقل بأبحاث غاية في الدقة والتتبع ، والأمانة العلمية، ذاكراً المراجع التي استمد منها آراءه المدروسة الواعية. وهو في مخاطبته للعقل، لا يُغفل إثارة الإحساسات في قلب العربي الذي يقرأ كتابه، أو محاضراته تلك.

فهو يعتمد على أثر البيئة، والظروف، والاتجاهات الدينية، والمذهبية والسياسية في الأدب بموضوعية، وحياد علمي، ولعله كان في أسلوبه هذا جديداً لأن الأسلوب التقليدي، كان هو المسيطر في ذلك الزمن.

يصحح وينتقد المعلومات التاريخية الخاطئة في ضوء ما سجله الأدب الذي هو أصدق مؤرخ، فالمؤلف يقول : «إن القدماء الذين صنفوا الكتب في التاريخ والسير والأخبار، قلما ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعية، والأغراض الفاصلة في الحوادث، وإنما اقتصروا — أو كادوا — على ذكر ما يظهر من التقلبات دون الافادة من أسبابها الباطنة الخفية وإن تواريخ العرب تعتمد على المصادر الرسمية للغالب». الصفحة الـ ٢٠٤.

ولما ذكر تاريخ الأدب، قال: «إن تاريخ الأدب، علم جديد عند العرب، وإن العرب لم يتقنوا علم التاريخ نفسه، كما اتقنه اليونان والرومان، وإن المطلوب منه في محاضراته أن يطبق أساليب البحث في بلاد الغرب، على الآداب العربية.» الصفحة الـ ٤٣/٤٤.

وقد كان من أوائل الذين قسموا تاريخ الأدب العربي إلى ستة أعصر، وهو يحذر من الافراط في تقليد الغرب، إذ يقول: «إن التفريط في التأثير الأفرنجي، لم يخل من الإضرار بآداب الشرق، لأنه ربما أبعد الناس عن شدة العناية بلغتهم، وأدخل في تآليف بعض المحدثين، وفي بعض المجلات والجرائد العجمة المستقبحة، والتراكيب البشائنة السقيمة والركاكة — الركة — وسخافة الإنشاء، وغير ذلك مما يستنكف منه صاحب الذوق السليم، فاتفق لبعض الكتبة ما اتفق لبعض الناس الذين قلدوا الأفرنج في عوائدهم بدون بصيرة، وخلطوا الغث بالسمين، والبخس بالثمين» الصفحتان الـ ٤٦/٤٧.

□ أثر نقل العاصمة من الحجاز إلى العراق:—

ويتطرق في كتابه إلى أثر نقل الخلافة من الديار المقدسة إلى العراق فيقول: «أما في خلافة علي بن أبي طالب[٤] وما يتبعها من الزمان، فنجد بـ (مكة) و(المدينة) نوعاً جديداً من الشعر، أخذ يزهو بفنه، بل يغلب على سائر الأنواع، فكان المجدون في الشعر في مدن الحجاز، لا يتعاطون غيره خلافاً لعرفهم فيما قبل. وهذا النوع الجديد هو الغزل، ولعل أول من اشتهر به هو (أبو دهبل الجمحي) من أشراف الناس». ثم ينتقل إلى التفريق بين الغزل والنسيب، ويعتمد في ذلك على رأي (أبي زكريا يحيى التبريزي) المثبت في شرح حماسة (أبي تمام) في التفريق بينهما، وفي تعريفهما. قال : «والنسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن، والإخبار عن تصرف هواها به، وليس هو الغزل، وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والهجرة إليهن، والنسيب هو ذكر ذلك، والخبر عنه!» الصفحة الـ ١٠٢.

□ فحول شعراء الجاهلية والنسيب :—

وهنا يقول : «إن فحول شعراء الجاهلية لم يفردوا للنسيب أشعاراً طويلة خاصة فاقتصروا على جعله في أول قصائدهم، يشكون فيه شدة الوجد، وألم الفراق، ويصفون ما لمعشوقتهم من الجمال فإن ذهب أحدهم أحيانا إلى التغزل الحقيقي، حصره في بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة، ولم يدرجه في وسطها إلا ما ندر كما فعل (عنترة بن شداد) في معلقته قال نحو آخرها :—

«يـا شاة ما قنص لمن حلت له
حَرمُت عليَّ، ولـيتها لم تحرم» إلخ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والذي نراه — وهو رأي شخصي : «إن الغزل الأسلوبي عند العرب كان لفكرة دينية وثنية ، وقد كان ذلك عند اليونان. فكل أثر فني، كان يرفع إلى آلهة الفن، ودليلنا على ذلك أن هوميروس افتتح الياذته الشهيرة بهذا البيت :—

رَبّة الشعر عن (اخيل ابن فيلا)
انشدينا، وأروي احتداماً وبلا!»

وكانت العزّى إلهة العشق عند وثني العرب عظمى آلهتهم فتقربوا إليها بالنسيب أو بالغزل الأسلوبي، ودرج العرب على ما رسموا، بلا تدبر في الأمر، واعتبروه تلطيفا لجو القصيدة، ودليلنا على ما نقول إن العرب أو الأعراب تمسكوا بالنسيب في مطالع قصائدهم حتى في المراثي، فلو لم يكن الأمر لغرض ديني لما كانوا يفعلون ذلك في المراثي، التي يقولونها وقلوبهم تكتوي حزناً، ولما جاء الاسلام اختفى الغرض الحقيقي وظل القوم يثبتون النسيب في مطالع قصائدهم!

قال النابغة الذبياني في رثاء النعمان الغساني :—

«دعاك الهوى، واستجهلتك المنازل،
وكيف تصابي المرء والشيب شامل؟
وقفت بربع الدار، قد غير البلى،
معارفها، والساريات الهواكل،
أسائل عن (سعدى) وقد مر بعدنا،
على عرصات الدار سبع كوامل

ومما نحن في سبيله، رثاء (دريد بن الصمة) لأخيه (عبدالله) قال:

ارث جديد الحبل من أم معبد
بعاقبة أم اخلفت كل موعد،
وبانت، ولم أحمد إليك جوارها،
ولم ترج منا ردة اليوم أو غد

ولو لم يكن الأمر في أول نشأته للعبادة، ولتكريم العربي، لما ابتدأ القوم الرثاء بالنسيب!.. وقد قلد الخلف السلف، بحكم الاستمرار، أما ترى الناس اليوم في القرن العشرين يمارسون عادات وثنية وتقاليد لا يدرون كيف تحدرت إليهم، وما السر في ممارستها؟!..

☐ **أسباب تقلب الشعر في رأيه :—**

ومما قاله عن أسباب التقلب الشديد في أساليب الشعر في المدن الحجازية، يقول: «وإن سألتموني عن سبب هذا التقلب الشديد في أساليب الشعر في المدن الحجازية، قلت: «لا يخفى على أحد أن أكثر رجال السياسة والحرب قد تركوا جزيرة العرب، في أواخر خلافة (علي بن أبي طالب)[٣] فبقي بالمدينة أهل التقى والعبادة والنسك من الأنصار والمهاجرين، كأن الدنيا في الشام، والدين بمدينة النبي.

وكثرت في ذلك العصر ثروة الحرمين، ولا سيما (مكة) لاتساع العلائق والمصارف التجارية وزيادة الوافدين عليها تأدية لفريضة الحج، فزيادة الثروة والنعمة واتساع العيش زاد أيضاً ما تنزع النفوس إليه من الشهوات والملاذ والتنعم بأنواع الترف، وفسدت أخلاق الشبان من البيوتات الكبيرة، الذين لم يكن لهم بالحجاز مجال واسع للاعتناء بأمور السياسة والحرب، ولا بالعلوم العقلية، التي لم تزل مجهولة عند العرب في ذلك الزمان، فاشتد ميلهم إلى التظرف والغزل وسماع الغناء، وحضور الملاهي، دخلت إلى مكة والمدينة القينات والمغنيات بالرومي وبالفارسي ثم أخذ الموالي يغنون بالعربي أيضاً».

اقتبست هذا الكلام بنصه لا رد على المرحوم (نالينو) من كلامه بأن معاوية منع السكر والغناء في دمشق وإن الذين كانوا يميلون إلى الغناء من الأمويين، كانوا يدخلون المغنين إليها خفية. الصفحة ال ٢٦٠ وغرضي من ذلك، أن أقول : «إن اجتلاب المغنيات إلى الديار المقدسة، وإغراق أبناء البيوتات بالمال والترف، كان جزءاً من سياسة بني أمية لالهاء أولئك الشبان عن كل شأن من شؤون السياسة فوق هذا فقد كان هناك شبه إقامة جبر عليها القوم وأحصت عليهم حركاتهم، فمالوا بطبيعة الحال إلى المفاسد:—

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسدة»

وهناك دليل آخر يؤيد ما نقول، إن أول من سمح أو أدخل المغنين في دمشق هو الوليد بن يزيد ١٠١ — ١٠٥ هـ (٧٤٠ — ٧٢٤م) أدخلهم خفية فلما دخل ابن عائشة غير متخف حبسه وأمر به أن يقيد. تاريخ الآداب العربية لـ (كارلو نالينو) الصفحة ال ٢٦٨.

وكان الذي يعاكس سياسة بني أمية، يفرض عليه الجوع، وسياسة تجويع الخصم إلى أن يذل اشنع — في رأينا — من الاعدام الذي يريح الانسان من الذل الذي هو تمويت للروح وللجسم جميعاً!.. قال الكميت مشيراً إلى سياسة تجويع الخصوم :—

فقل لأمية حيث حلوا، وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه، وأشبع من بجوركم أجيعا

إذاً، فقد كانت سياسة بني أمية تمارس النقيضين:ــ

أ ــ إغراق في الترف من أجل الافساد، في أقدس بلاد الاسلام الحجاز.

ب ــ وتجويع لمن ناهض السياسة، وعارض الحكم!..

○ **تنبيه على بعض سرقات الشعراء :**

وقد نبه على بعض سرقات الشعراء، فقال إن (جميل بثينة) هو صاحب هذا البيت :ــ

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي؟

سرقه أبو العتاهية فقال :ــ

يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل!

وحبذا لو أنه عرج على سرقات (عمر بن أبي ربيعة) من (جميل بثينة) لأن (عمر بن أبي ربيعة) ــ في رأينا ــ كان يتكىء على جميل بثينة في الكثير مما قال، ولا سيما في درته الواسطة (الرائية) التي هي من أصدق شعره إن لم تكن أصدقه، فانه اتكأ فيها على جميل بثينة حتى في مطلعها:

قال عمر :ــ

أمن آل نعم انت غادٍ، فمبكر، غداة غدٍ،أم رائح متهجر؟

وقوله مسروق من قول جميل :ــ

آغاد أخي من آل سلمي فمبكرُ أبن لي، أغادٍ أنت، أم متهجر؟

وسرق من جميل قوله :

إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا، لكي يعلموا أن الهوى حيث تنظر،

أما جميل فقد قال :ــ

وطرفك إما جئتنا فاحفظنه، فذيع الهوى بادٍ لمن يتبصر،
واعرض إذا لاقيت عيناً تخافها، وظاهر ببغض إن ذلك أستر،
سأمنح طرفي حين ألقاك غيركم، لكي يعلموا أن الهوى حيث أنظر

المنهل في تاريخ الأدب الجزء الثالث الطبعة الأولى ١٩٥٦م الصفحة ال ١٤٦.

○ **تعليله لعدم نشاط الشعر في الشام في أول الأمر**

وقد علل عدم نشاط الشعر في الشام بأن معظم أهلها كانوا من غير الناطقين بالضاد، فلم يفهموا الشعر العربي، وهو تعليل صحيح لا غبار عليه، أما يوم أضحت الشام عربية، فقد راج فيها الشعر، لأن الأمراء كانوا من عشاق الشعر.

ومن مزايا بحث المرحوم (كارلونالينو) أنه نبه على إنطاق الشعراء لما لا ينطق في شعرهم، في حين أن العلامة المغفور له (علي الجارم) قصر إنطاق ما لا ينطق في الشعر على الأندلسيين، وقد رددنا عليه في مجلة الكتاب المصرية ــ في حينه ــ وبينا أن ذلك كثير في الأدب العربي شعراً ونثراً قبل أن يفتح العرب الأندلس وقبل أن يعرفوها.

ومما قاله المؤلف مجاراة لـ (الجاحظ) ــ إن الشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، الصفحة ال ٥٠.

○ **اللغة العربية مدينة بانتشارها للقرآن الحكيم:**

ومما قاله في كتابه «إن اللغة العربية مدينة في انتشارها للقرآن الحكيم» الصفحة ال ٨٢ ونزيد على قوله، إنها مدينة ببقائها وخلودها لهذا الكتاب العظيم، إذ لولاه ما ثبتت لكل ممارسات التدمير التي واجهتها.

أ ــ لقد فرض الترك العثمانيون تعليم العربية باللغة التركية أيام كان سلطانهم هو حامي حمى الاسلام.

ب ــ وطارد الفرنسيون الكتاب العربي في الجزائر. مع هذا فقد انتصرت اللغة العربية بفضل القرآن الحكيم.

○ **تنبيه على وهم تاريخي** : وعلى الفرق بين ما تشير إليه بعض التسميات:

نبه على وهم انزلق فيه العلامة الصامت المرحوم (جرجي زيدان) يوم نسب القصور الأموية في الأردن إلى الغساسنة مجاراة لوهم (دوسو) DUSSAUD الصفحة ال ١٣٠.

نبه على الفرق بين معتزلة ، ومعتزلة.

أ ــ فالمعتزلة الذين يرد ذكرهم في سيرة الإمام علي، هم الذين اعتزلوا الحرب التي ثارت بين (الامام علي) كرم الله وجهه، و(معاوية) كراهة سفك دماء المسلمين، حاشية على الصفحة ال ٢٠٦.

ب ــ أما فرقة المعتزلة ففرقة كلامية اسلامية ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري، وأصول مذهب هذه الفرقة خمسة:ــ

١ ــ العدل.

٢ ــ التوحيد،

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـــ المنزلة بين المنزلتين، وبدأت في قضية مرتكب الكبيرة، فقال الخوارج: «إن مرتكب الكبيرة كافر» وقال أهل السنة: «انه ليس بكافر بل إنه مؤمن فاسق» وقال المعتزلة: «ليس بكافر ولا بمؤمن، بل هو في منزلة بين المنزلتين، وأول من بدأ هذا القول (واصل بن عطاء)».

٤ ـــ والوعد والوعيد،

٥ ـــ والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،

وامتازوا بالجدل، وقوة الحجة والمناقشة، وظهر منهم علماء كبار.

عثرات المنجد، لسماحة الشيخ ابراهيم القطان الطبعة الأولى دار القرآن الكريم الصفحتان الـ ٥٣٧ و٥٣٨.

وقال المؤلف: «إن المساجد ـــ في أول أمرها ـــ لم تكن تختص بالأمور الدينية» الصفحة ال ١٣٤.

وقال: «إن قصيدة الأخطل (خف القطين) هي أفخر ما قيل في الشعر العربي الصفحة» ال ١٣٥.

وذكر أحكام العسكر الى (المهلب بن ابي صفرة) في اشعر الأثنين:

أ ـــ جرير

ب ـــ ام الفرزدق؟

وأنه أحالهم على الأزارقة تخلصاً من شر الشاعرين، وفي هذا أعظم دليل على قيمة الشعر والشاعر عند العرب، إذ توقف الحرب في سبيل الوصول إلى حكم في منزلة شاعر.

وقد نبه على وهم الأستاذ المقدسي في ترجمة EPIKE لكنه لم يعطها اصطلاحاً خاصاً، فالمقدسي سمى هذا الشعر بشعر الحماسة، أما الفيلسوف ابن رشد، فقد ترجم الكلمة بـ (الشعر القصصي) الصفحات ال ٢٧٩/٢٨٠/٢٨١.

○ أسباب نبوغ الشعر في عهد بني أمية؟

بعد أن قال ـــ وقوله صحيح ـــ إن الشعر في أول مرة لم يلق اهتماماً في الشام، لأن أهلها لم يكونوا عرباً، علل نبوغ الشعر ونضارته في عهد بني أمية بخمسة أسباب :ـــ

١ ـــ ولوع العرب الصميم بالشعر ـــ بعد أن تديّر العرب تلك الديار.

٢ ـــ ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر،

٣ ـــ تأثير الأشعار في الأمور السياسية،

٤ ـــ حظوة المديح عند الأمراء والخلفاء

٥ ـــ زيادة الرفاهية والترف، التي يزيد بها نفاق أسواق الأدب.

وقد غاب عن البحاثة الكبير، أن الأمويين شجعوا الشعر لأنه يلهي القبائل بعضها ببعض بالمفاخرة والمنافرة والهجاء، عن التفرغ للبحث عن أمور الخلافة، ولعل في شعر النقائض خير برهان على ما نقول. وقد قسم الشعر الأموي إلى تسعة أقسام، وفّاها حقها من البحث:ـــ

١ ـــ الغزل في مدن الحجاز،

٢ ـــ النسيب، عند الأعراب،

٣ ـــ الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية،

٤ ـــ الأراجيز،

٥ ـــ شعر الجنود،

٦ ـــ شعر الفتن السياسية والدينية،

٧ ـــ شعر أهل الحضر في مدن العراق، والشام،

٨ ـــ الشعر القصصي اليمني،

٩ ـــ المراثي.

○ ماذا قال عن العصر العباسي، عندما استطرد إليه؟

لما عرض للعصر العباسي، قال: إن شعراء العصر العباسي، ولا سيما في القرن الثاني والثالث، حصروا استعمال مشطور الرجز في الطرديات. والسبب في ذلك، أن هذا اللون من الشعر، كان بدوياً، وينسجم مع هذا الموضوع، والحكايات، وربما اتخذوا بحر الرجز في نسج الرثاء، وذكر الملح والطرائف، واستعملوا المزدوج في المنظومات الطولى، وفي الأخبار التاريخية، وشرح العلوم والفنون، مع استعماله في الهجاء الصفحة ال ١٩٣.

○ رأينا في أبحاث هذا المستشرق؟

والذي نراه أن أبحاث هذا المستشرق كانت من الاحاطة والدقة والعمق بمكانة عالية جداً، وكان اطلاعه على أسرار اللغة يستحق الاعجاب بخلاف ما رأينا عند بعض المستشرقين الذين لم ينفذوا إلى صميم اللغة، فقد رأينا المستشرق (جب) مثلاً، في تفسيره لبيت المتنبي:ـــ

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه!

يحول الجملة الإنشائية إلى جملة خبرية، فبدلاً من أن يقول إن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشاعر يدعو على نفسه بأن يبلى كبلى الأطلال أن لم يقف باطلال الأحبة كما يقف الشحيح إذا فقد خاتمه ووقف يتلمسه في التراب، قال إنه بلي كبلى الأطلال لأنه مثل الشحيح الذي وقف يبحث عن خاتمه في التراب.

كما أنكر حقيقة الشعر المنسوب إلى سبأ لأن لغتهم لم تكن العربية أما العرب الأصلاء فقد هضموا هذه النسبة، وزادوا عليها، بأنهم نسبوا إلى أبينا آدم شعراً عربياً فصيحاً، ونسبوا مثله لأمنا حواء، في رثاء هابيل، ويا ليتهم اكتفوا بتعريب ابينا آدم وأمنا حواء، بل زادوا على ذلك شعراً للشيطان يرد عليهما بعربية قرشية، صافية جداً!..

حقاً إني لا أدري بأي منطق قبل علماء العربية ذلك، وهضمته معدتهم العلمية؟!.

ولعل خير شهادة لهذا المستشرق هو رأي تلميذه عميد الأدب العربي المغفور له الدكتور (طه حسين) أن يقول « لأول مرة درس لنا الأدب العربي القديم درساً منظماً، ولأول مرة ألقى في روعنا الفرق بين الشعر التقليدي والشعر الذي استحدثته السياسة الاسلامية في العراق، والفرق بين النسيب التقليدي القديم، والغزل الذي نشأ في حواضر الحجاز، والغزل العذري النقي الذي نشأ في البادية العربية في الحجاز ونجدوالعراق» إلى آخر ما ذكر الأستاذ الدكتور طه حسين، من الأوليات التي جاء بها أستاذه الذي يلقبه بالعظيم!.

ويقول — والكلام ما زال لعميد الأدب — : «وما أعرف للأستاذ (نالينو) نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصرية، إلا زميله الأستاذ (سنتلانا) الذي أحدث نهضة خطيرة في دراسة الفلسفة الاسلامية» الصفحة ال ١٤ من مقدمة الدكتور طه حسين.

وقد لاحظنا أن كثيراً من آراء المغفور له الدكتور طه حسين المبتكرة تعود في جذورها العميقة إلى أثر (كارلونالينو) أستاذه فيه.

○ **خلاصة ما أريد أن أقول :—**

وخلاصة ما أريد أن أقول ، إن هذا الكتاب ، من الكتب التي تستحق أن تقرأ مراراً، وإن مؤلفه يستحق منا أن نذكره ذكرى عطرة.

هوامش

(١) البتّاني، هو أبو عبدالله من علماء الفلك، قضى معظم حياته في (الرّقة) له كتاب (معرفة مطالع البروج في ما بين أرباع الفلك، ورسالة في تحقيق (اقدار الاتصالات) و(شرح المقالات الأربع) لـ (بطليموس) و(الزيج) وهو أهم مؤلفاته، ولم يصل إلينا غيره، وبه نتائج أرصاد البتاني، وكان له تأثير في علم الفلك وفي حساب المثلثات الكبرى في أوربا.

(٢) المساعد الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة بغداد ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م تحقيق وتعليق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي مادة (أدب).

(٣) كان بعض الأقدمين يعتبرون الكنية متمما للعلم، أو أن شئت فقل كانوا يعتبرونها جزءاً من أصل الكلمة لا ينفك عنه، فهو في نظرهم كلمة واحدة، لا غير، فيكون الجزآن جزءاً واحداً، لا جزأين. وهذا لأن المسمى بلفظ يشبه الكنية هو ليس بكنية على الحقيقة بل علم رجل. ومنه في الحديث «إلى المهاجر بن أبو أمية» لاشتهاره بالكنية. أي باسمه صورته صورة الكنية، لكنه ليس بها، إذ لم يكن له اسم آخر معروف. ولهذا لم يجر. وكذلك القول في (علي بن أبي طالب) المساعد للكرملي ج١ ص ١٢٤ عن تاج العروس مستدرك مادة (ابو).

ركائز البحث

— تاج العروس لمرتضى الزبيدي
— تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية — كارلونالينو.
— ديوان جميل بثينة.
— ديوان عمر بن أبي ربيعة
— الشعر الجاهلي — طه حسين
— عثرات المنجد — إبراهيم القطان
— المعاني الحديثة في معاني الأب شيخو
— المساعد معجم الأب انستاس ماري الكرملي ج ١ بتحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي.
— المستشرقون ، نجيب العقيقي
— المنجد في الأدب والعلوم ، فردينان توتل
— المنهل في تاريخ الأدب العربي — ج٣ — روكس بن زائد العزيزي.

مختارات من الأدب العامي الحضرمي

لسارجنت

يقع هذا الكتاب في واحد وسبعين ومائتي صفحة من الحجم المتوسط. ولما كان العمل معداً للتكامل في مبناه ومحتواه بين المختارات في لغتها العربية وبين الدراسات عليها، فقد جاء في قسمين. النصوص الأدبية العامية،وهي ثلاث وسبعون قطعة، أخذت من الصفحات أربعاً وثمانين ومائة. وجاءت الدراسة وهوامشها باللغة الإنجليزية ، في سبع وثمانين صفحة. ومن المجدي ملاحظة أن العنوانين في الكتاب، بالعربية والإنجليزية، لا يتطابقان. فالعنوان بالعربية يحصر هذا الأدب في اللغة العربية «العامية» التي يستعملها الحضارم. أما العنوان في الإنجليزية، وهو South Arabian Poetry I Prose and Poetry From Hadramawt فلا يشير إلى «العامية» على الإطلاق، ويعلن أن هذا المجلد يمثل الجزء الأول من الموضوع الكبير وهو «الشعر في جنوب الجزيرة العربية» (الشيء الذي يوسع الحيز الدراسي ويخرجه من حضرموت ليشمل الساحل الجنوبي لعمان وبلاد اليمن)، وأيضاً فإن الواجهة باللغة الانجليزية تثبت أن الخطوط المصورة للنصوص العربية كانت لعلي حسن إبراهيم وعبد المنعم عبد اللطيف عوض بينما لا يشير العنوان بالعربية إليهما. وأخيراً فإن عدم التطابق يجعل تاريخ إصدار الكتاب في العنوان باللغة الانجليزية هو ١٩٥١، الأمر الذي يقود إلى الظن بأن إعداد النصوص وطباعتها التصويرية كان قد سبق بعام أو بعض عام إعداد وطباعة المقدمة وهوامشها الانجليزية.

كانت النصوص العربية التي جمعها سارجنت كالتالي : خمس مقامات نثرية امتزجت فيها العامية بالفصحى وانحصرت أربع منها في فنون الممازحة البليغة بخصوص مزايا وأفضال أنواع المآكل والمشارب. والقالب الغالب على هذه الممازحات هو المحاورة بين أصناف المطعومات والمشروبات. لكننا أيضاً يجب أن نحذر التعميم هنا. فأحمد بن عبدالله بركات يسمى إحدى قطعتيه كتاباً والأخرى خطبة. وأحمد ابن محمد المحضار — ويقال أن القطعة لأحمد بن عبدالله بركات — يسمى قطعته خطبة (ولعل هذا يرجح أن الكاتب هو أحمد بن عبدالله بركات). لكن طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي يسمى قطعته مقامة. واعتمد سارجنت فيما يبدو، على هذا الأسم المفرد ليجعل الفصل الذي يعنى بهذا النوع من الأدب في دراسته تحت عنوان «أدب المقامة». فاذا ما سايرنا سارجنت في نظرته هذه، بحسبان أنه قد لحظ، وهو المستشرق العارف بالأدب العربي، علاقة واضحة بين هذه القطع النثرية الحضرمية وأدب المقامة المعروفة لدى البديع الهمذاني والحريري والوهراني (الذي استعان كثيراً بالعامية)، نقول حتى إذا ما سايرناه في نظرته تلك، فان هنالك الآن ما يؤخذ عليه. فالتقليدية التي يُنسب لها هذا الأدب الذي جمعه سارجنت خضعت دراساتها لعدة توجهات في التطور العلمي الحاضر. ومن هذه التوجهات زجر الجامع للمواد التقليدية من أن يسميها بما لم يسمّها أصحابها، أو على الأقل ألا يفعل ذلك قبل أن يقوم بالدراسة المقارنة عليها. وكانت المحاورات بين الأطعمة والأشربة، في هذه القطع الأربع، بين الحبوب والثمار، والعصيد وغيره، والشربه، والشاهي والقهوة.

استوعبت القوالب المتنوعة للشعر العامي والشعبي القطع الثماني والستين الباقية من هذه المجموعة، أما الأشعار العامية التي

ارتبطت بمؤلفيها فقد بلغت ثماني وثلاثين قطعة. ومن حسنات سارجنت حرصه على تسجيل ترجمة وجيزة لأغلب هؤلاء الرجال في قسم من دراسته باللغة الانجليزية. وفي نفس الوقت فإن اشارات سارجنت للمؤلفات العربية التي اهتمت بالمعارف والآداب الحضرمية، مثلاً كتاب عبدالله بن محمد بن حامد السقاف المسمى (تاريخ الشعراء الحضرميين — القاهرة ١٣٤٩ هـ)، من شأنها أن تلقي المزيد من الضوء على شخصيات شعراء العامية في حضرموت وطرائقهم في التأليف وإيصال مادتهم إلى جمهورهم.

أما مواضيع هذا الشعر الذي يقدم عيناته سارجنت فقد تنوعت. فالغزل يحتل حيزاً كبيراً. لكن هنالك أيضاً مناجاة وابتهالات دينية. ونجد قصائد في العتاب، والتعزية، وفي ذم النساء البائرات. وينال الصيد، كمهارة شعبية ذات مراسيم وطقوس اهتماماً بيناً يظهر في تمثيله بخمس قصائد مطولة. ولما كان للحضارم مصير متعلق، على مدى قرون عدة، بجنوب شرقي آسيا والساحل الشرقي لافريقيا، فإن ذلك ينعكس في شعرهم. من ذلك قصائد في الشوق إلى حضرموت، وأخريات في المجادعات بين الشعراء الذين يتحمس بعضهم لحضرموت فيذم جاوة أو مثيلاتها من المهاجر، وبين الشعراء الذين تعلقوا بتلك المهاجر فمدحوها وذمّوا حضرموت. ومن الصور المعبرة عن الحياة الحضرمية قصيدة في الجراد، وقد جاءت، مثل بعض القصائد الغزلية مليئة بالجناس الحرفي — أي تكرار حرف أو أكثر في عدة ألفاظ متجاورة. ولما كان هذا النوع من الشعر المائل للغناء محبباً من جانب احتوائه على الموسيقى الداخلية للكلمات فإننا نقصر المثال الأوحد الذي نورده من الشعر الحضرمي عليه. يقول الشاعر في وصف الجراد:

« جراد فيه الوحش
ذيله شبيه الحنش
أرقش مُنقرش حبش
فخذه كفخذ البعير».

القصيدة ٣٨/ ص ١٤٣

ربما بسبب تعلق سارجنت بنموذج الاستشراق كعلم جامع لم يحاول في كتابه اطراد البحث في العلاقة بين الأدب العامي الذي يجمعه وبين الفولكلور الذي نضج في القرن العشرين وصار علماً مؤسسا على قواعد راسخة. هذا، لأن بعض الأدب العامي الجماعي الذي ألحقه سارجنت بنماذجه ينتمي إلى الأدب الشعبي دون شك. لكن سارجنت يكتفي في دراسته بالاشارة إلى الجانب التقليدي في الأشعار التي لم يربطها بمؤلف ووجدها سارية في وسط شعبي شامل. من هذه القطع، التي تجيء في آخر الباقات الشعرية، نرى رباعية من الشعر الدائر في بني هلال. ويقول سارجنت (ص ١٢) إنه قابل في حنين بحضرموت رجلاً من قبيلة نهد يحفظ حوالى ثلاثين إلى أربعين قصيدة هلالية، لكنه لم يكتب عنه إلا قصيدة واحدة. وحتى هذه القصيدة لم يلحقها سارجنت بكتابه وانما اكتفى في دراسته بتلميحات وجيزة إلى القضية الهلالية في اتساع رقعتها، من بلاد العرب إلى المغرب. وتضاف إلى هذه الأشعار الشعبية قصائد الدندنة التي تؤلفها الجماعات في جلسات الغناء ومواقفه (ص ١٧٢) وهي مجالات أعطت المؤلف فرصة لكتابه أحد أجمل أبواب دراسته في وصف الأدب الحضرمي وذلك في الباب الذي سماه «الأغنية الحضرمية».

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ذهب سارجنت إلى حضرموت خلال العامين ١٩٤٧/١٩٤٨ كباحث وظفته الإدارة الاستعمارية الانجليزية (Colonial Research Fellow). وقد طاف وزوجته بمناطق حضرمية مثل عينات، قبرهود، سيون، شبيام، المكلا، حبان، البروم، بير علي، خريبه، مشهد وحريده. ويبدو أن مركزه كان في تريم. هنا قابل سارجنت المشايخ والسادات والمتأدبين واندمج في حياة الدهماء، واعتمد كثيراً على مؤذن كهل يدعى عبدالله رحيم كان له بمثابة المعلم الدائم، فمعظم خوافي النثر والأشعار، واتزان قوالبها وبحورها، وايجاد صحيحها من خاطئها، كان قد تم على يد هذا الرجل.

يقول سارجنت إنه قد وضع نصب عينيه دراسة الحضارة الحضرمية من خلال اللغة ، وكان هدفه أن يُخرج حقائق مؤكدة معتمدة على ثوابت، بدلاً من الاقتصار على الانطباعات

الشخصية كما فعل غيره. ولأجل تحقيق هذا الموقف اختار جمع العينات النثرية والشعرية في اللغة العامية (ص ٩ بالحروف الرومانية). ثم يشير سارجنت إلى أعمال بعض المستشرقين الذين سبقوه في دراسة جنوب الجزيرة العربية أمثال لاندبيرج وسنوك هورخرونيه وروزي. وعلى هذه الأعمال وعدد آخر من المصادر العربية، قديمها وحديثها، يعتمد سارجنت كثيراً في دراسته.

أعد سارجنت دراسته في مقدمة وعشرة فصول. ورغم أنه كان مدققاً ومتوسعاً في ملاحظاته ومقارناته بين الأدب العامي الذي يعاصره وجذور ذلك في الأدب العربي عامة، إلا أن الوصفية كانت مهيمنة على منهجه كله. ويمكن القول بأن الدراسة الوجيزة المصاحبة كانت بمثابة فتح للمجال لأجل المزيد من الرؤية القادمة للتركيب العقلي والشعوري في الثقافة الحضرمية. وتجيء الفصول الستة الأولى من الدراسة لتشخص الأدب العامي الحضرمي. فالأول كان عن «الشعر المعاصر في جنوب الجزيرة العربية»، والثاني عن «القصيدة الحضرمية» والثالث عن «الأغنية الحضرمية» والرابع عن «التسجيلات التجارية من أغاني جنوب الجزيرة العربية» والخامس حول «أدب المقامة» والسادس يدور حول« القصيدة الكلاسيكية» أما الأربعة الباقية فقد كانت توثيقية أكثر مما هي أبحاث في صلب الموضوع. فالسابع كان حاوياً لتراجم الأدباء الذين جاء سارجنت بنماذجهم. وكان الفصل الثامن خاصاً بهوامش تحقيق النصوص وضبط الأصوات اللغوية فيها. وأخيراً يهتم الفصلان التاسع والعاشر بالبناء الداخلي للقوالب الشعرية في تلك النماذج.

اعتبر سارجنت عمله في هذا الكتاب توفيراً للمواد الأساسية التي يحتاج إليها دارسو الحضارة الحضرمية. لهذا نراه يلخص اسهامه في قوله: «كان هدفي هو اكتشاف الممارسات والأحداث والمعتقدات الخ التي تلمح إليها هذه الأشعار، وأن أشيد من هذه مادة لدراسة المجتمع في جزيرة العرب، قديماً وحديثاً. فالمادة الموثقة يمكن اعتبارها الدليل والمؤشر الذي يفسر به عالم الاجتماع مادته، والعون المفيد للمؤرخ في شرح التاريخ ومتونه، والمادة الجديدة للغوي المنقب في القاموس اللغوي والتراكيب، لتساعده في دراسة الأدب الكلاسيكي وأجروميته. بهذه النظرة العريضة في الذهن، وليس من زاوية لغوية ضيقة، صُنعت هذه التجميعات» (ص ١).

ربما كان سارجنت قد نجح في تحقيق ما تمنى. ونحن هنا نفتقد المعلومات التي قد تخبرنا عما أنجز من بعد أو إيضاح مدى الاستفادة التي حققها المستشرقون أو الإدارة التي بعثت بسارجنت في مهمته هذه. ويستطيع المحيطون بجوانب هذه الدراسات إعلامنا عما إذا كان سارجنت قد أوفى بما وعد به في الواجهة الإنجليزية لكتابه، وكذلك في أحد هوامشه الداخلية (ص ٦٨) عندما وعد بترجمة نصوص الجزء الأول من الكتاب وتقديمها بمصاحبة ما تحتاج إليها من هوامش وتحليلات في مجلد ثان.

المستشرقون (لنجيب العقيقي)

علاء الدين أغا

العقيقي، نجيب/ المستشرقون . ــ طبعة رابعة موسعة. ــ القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م، ٣ ج.

توطئة :

لم تختلف الناس حول شيء بمثل اختلافها على الاستشراق .. حاله، ميادينه، مناهجه، أغراضه.

وكان ضربة لازب أن ينفرق الناس إلى قسمين، قسم مادح مبالغ في مدحه وقسم قادح مبالغ في قدحه لا توسط بين الفريقين.

ويظل الأمر معمياً غامضاً شديد الغموض ما لم تأخذ الناس السبيل الأمثل إلى جادته وتتريث دون أن تفور نفوسُها أو تلُجَ في ضحضاح غيها السادر لا تميز بالعين الفاحصة ولا تقيس بالقسطاس القويم ولذلك كله قصة أتدرج بذكرها.

فقد كان طلب القديس الراهب بطرس إلى روبرت كبتون أن يترجم القرآن الكريم إلى اللاتينية فاتحة الاستشراق والتبشير في الدوائر والجمعيات الغربية للتعرف على أمة هذا الكتاب الكريم ولايجاد بديل عن الحروب الدامية التي لا تُبقي ولا تذر.

ثم جاء بعد ذلك روجر بيكون[١] الفيلسوف المشهور ليبعث برسالة إلى البابا سنة (١٢٦٦ ــ ١٢٦٨) يقترح فيها الآتي:

« ١ ــ وجوب ادخال اللغات الأجنبية وخاصة (العربية) في مناهج الدراسات الجامعية وذلك كوسيلة للتبشير ونشر المفتريات ضد الاسلام.

٢ ــ دراسة أحوال من يراد ردتهم لتسهيل المسارب التي منها يمكن النفاد إلى عقيدة المسلمين لهدمها وتقويضها.»[٢]

وأثمر هذا الاقتراح في مجمع فينا الديني سنة ١٣١٢ وفيه تقرر إدخال اللغة العربية مع غيرها من اللغات إلى جامعات أوربا المشهورة ــ أكسفورد، باريس، سالمنكة، روما ــ.

وبذا دخل الاستشراق مرحلة جديدة صادفت وثبة فكرية غمرت كل أوربا وصارت تعرف بـ (النهضة الأوربية أو الاصلاح الديني أو حركة التنوير)[٣].

والكشف عن هذه الوثبة أو الحركة الفكرية أمر يطول جداً لأنه فحص في التاريخ الثقافي والديني عند هذه الأمم وفحص أيضاً لبُنى العلوم ورجالها ومناحي التفكير عندهم.

وليس من المناسب هنا تفصيل ذلك التفصيل الصادع، لتداخله كأشد ما يكون التداخل، ولعُسْرِه أن تَفْرُقه مستقلاً عَنْ بعضه فتبتدره آحاداً دون أن تلحق به ملامح أخته أو يضرب إليها بسبب قريب.

واستدرك الأشياخ[٤] وأهل العلم فساد هذه الوثبة وتعقبوا أثرها وصداها في القليل الذي كتبوا لما استفزهم من استشرق أو استغرب في تلك الديار أو من حذاهم في الديار العربية حذو القُذة بالقُذة كما في المثل.

وعلى هذا فإن الذي كُتب في مصر ولبنان في الثلاثينات وحتى والخمسينات فيه روح من هذا الفساد وقد فتش بعض العلماء هذه الفترة وتعقبوا رجالها بالنقد والتفنيد[٥] لأن تدوين هذه الفترة مرَّ بمثل قول الشاعر:

(غطى هواكِ وما ألقى على بصرى)

فتدوين الأزجال المصرية كان أول أمره بأيدي المستشرقين، والنزاع القائم بين العامية والفصحى وبين لهجة بلد وأخرى[٦] والسؤال الدائر أيهم أقدر من اختها على التعبير السهل الذي يفهمه أهل الأقطار العربية؟.

بل توجه النزاع إلى أكثر من هذا فعمد إلى احياء جملة لغات ماتت كالبربرية والقبطية وغيرهما بقصد الدعوة إلى اهمال اللغة العربية في التعبير الرفيع وفي الحياة العادية[٨].

ولكن لا سبيل لأن العربية لغة مقدسة نزل بها القرآن الكريم ولأنها أثبتت قدرتها على احتواء العلوم والمعارف الجديدة ولها قوانينها وقواعدها الضوابط إذْ بذلك يكون إحسانها بقدر تعلمها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتملك طرق التعبير بها، هذا فوق تفردها برسم حروفها وإرنان أصواتها كالذي في الشعر الرفيع وبليغ الكلام.

ودخلت أكثر المقاييس النقدية الأدبية والتاريخية في الغرب بمدارسها ومناهجها ميدان الدراسات الأدبية والتاريخية في الشرق عن طريق الترجمة وعن طريق أبناء البلاد الشرقية الذين تلقوا علومهم في بلاد الغرب ولما عادوا بثوا حرفاً بحرف ما تلقوه على أبناء بلادهم فبهروهم بالذي تلقوه على جهلهم بتراث العربية والاسلام فكان شيئاً عجباً يسحر الألباب فطبقوه وتدارسوه دون تميز لصحيحه من خطئه فليس ضربة لازب أن تكون مناهج ومقاييس الغرب موافقة لتراثنا الأدبي والثقافي وأن نتعمل في ذلك كل التعمل ونسوق إليه المسائل والقضايا قسراً باذعان ونلوى أعناقها لياً كالذي يحدث في الجامعات العربية والاسلامية اليوم وفيما نطالعه من كتب مختلفة تدفعها الينا المطابع كل طرفة عين.

فمناهج درس العلوم في الغرب قامت على إرث العلوم اللاتينية القديمة واقتضاهم التطور الطارىء — من جراء الصناعة وحيل السياسية ونظامها — إلى هذه التقسيمات البارزة في مناهجهم مع التمسك بالإرث اللاتيني الأُم ومراعاة الخصائص القومية لكل بلد من بلاد الغرب الكبير.

التراث والمستشرقون :

أقصد بالتراث ذلك الكم العظيم من التدوين الفكري والعلمي والأدبي والتاريخي والفلسفي والديني وغير ذلك من العلوم العربية والاسلامية في العصور المتأخرة قبل ظهور الطباعة بكثير جداً.

فقد وصل الكتاب المخطوط إلى أوروبا حين كانت في عصور ظلامها — تغط غطيط البكر شُد خناقه كما يقول الشاعر القديم — أو بعد ذلك بقليل حين نشطت الحملات الاستعمارية في البلاد العربية والأفريقية ووضعت يدها على أرواح أهالي تلك البلاد وممتلكاتهم المادية والثقافية فرزحوا تحتهم بأزرى حال فصحائف التاريخ في تلك البلاد الوادعة تروى في ذلك أبشع الأحداث.

ولما كان الأمر كالذي وصفت تفطن رجال الدين من الاستعماريين ومثقفيهم إلى قيمة هذه الآثار المكتوبة التي ليس عليها رقيب أو حسيب وذلك بقصد درسها وفهم مضمونها للتوصل إلى فهم أفكار وأديان هذه البلدان ليسهل قيادهم والاستفادة من ذلك كله الفائدة القصوى بغير عناء قتال أو حراش.

وسافرت الكتب المخطوطة ونفائس أخرى في حنادس الليالي مخبأة في بطون الحقائب الدبلوماسية أو علانية وجهراً في وضح النهار، وبعضها سرق من صحون المساجد ومكتباتها لما أثقل أهل تلك البلاد الوادعة همُّ الرزق وعلاج الطبيب وحيرة العيش الغالبة.

سافرت الكتب على كل حال اهداءً أو شراءً لتستقر في خزائن أوربا ومكتباتها، غُنا بأغلاق ختامه وندي مداده حُزماً وصحائف أوتها جلود أو نظمتها خيوط أو رمتها صموغ، ثم نظموها وفهرسوها ودرسوها لكن أي درس؟.

والمستشرقون في ذلك أقسام :—

١ — قسم قصد أن يهدم هذا التراث من أساسه فكتب بقلم الناقم الخبيث أو يحرِّف ويضلل بأصناف الهراء السافر.

٢ — قسم أدرك بعقله قدر هذا التراث غير أن عصبيته ألجأته إلى الروغان وإصطناع الأساليب المموهة والمفضية إلى فراغ لا طائل تحته.

٣ — قسم أنصف هذا التراث وعكف على درسه غير أن عُجمته قصرت به عن مراده وشعبت به سبيلاً لا يسلم منها حصيف بحال فجرَّ عليه اللوم من حيث يدري ولا يدري.

والحق يقال أن النظام والاهتمام وسبيل التخطيط للدرس في البلاد الأوربية أحسن حالاً منه في البلاد العربية غير أن الأخيرة تمتاز على الأولى بحسن الذوق والفهم الأصيل على ما طرأ من فساد مرّ ذكره أخلَّ بتلك المزية.

وليس بنافع حسن الذوق والفهم والسبيل إلى النظام والتخطيط جدُّ بعيدة ومن ذلك أن جامعة من الجامعات العربية أرشدت أحد طلابها إلى تحقيق مخطوط عينته له ورسمت إليه سبيله ورشدته حتى أتمه ونال عليه الدرجة فإذا بجامعة أخرى في ذات البلد تُعيِّن لأحد طلابها نفس المخطوط لينال درجته عليه بتحقيقه ودرسه وعقدت له جلسة الامتحان فاجتازه بكتابه وما بين الجامعتين قيد شبر وما سمع هذا بهذا إلا بعد فوات الأوان وإطراح الجهود والأوقات دون كبير فائدة تذكر في العملين.

وزد فوق الذي ذكرته سوء حفظ المخطوطات والتواني في

فهرستها وتيسيرها للدارسين، والتنافس البغيض على تحقيقها بسبيل غير كريمة وحيازتها بوضع اليد وتعمية الطريق إليها.

فكما ترى أن الجهود المبذولة تجاه المخطوط العربي ضئيلة جداً بالقياس إلى الجهود المبذولة في أوربا تجاه المخطوطات بعامة حفظها وفهرستها وتيسيرها للدارسين بخطو وسبيل.

وأراني — بعد هذه التوطئة الوجيزة والاستطرادات السانحة التي جرَّها قلمي بنوع من اختصار — أعود إلى العقيقي وكتابه (المستشرقون).

استهل العقيقي كتابه بتوطئة وجيزة جدا تحدث فيها عن جملة أمور أهمها دواعي تأليف كتابه الذي أراده أن يكون (موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه، منذ ألف عام وحتى اليوم).

وأوضح العقيقي صعوبة هذا النوع من التأليف (التراجم) لا سيما اذا كانت (منذ مئات السنين وفي شتى البلدان وسائر اللغات، وذكر مكان وتاريخ آثارهم: المحققة والمترجمة والمصنفة وإحياء وسائل نشرها في المعاهد والمكتبات والمتاحف والمطابع والمجلات والمجموعات والمؤتمرات).

ولم يحظ الاستشراق بالتدوين الكامل الدقيق من قبل أهله إلا في القليل جداً الذي تقتضيه المناسبة، غير أن ديجا ألف (تاريخ المستشرقين في أوربا) بالفرنسية (١٨٦٨ — ١٨٧١) كما صنف آبري كتيبا بعنوان (المستشرقون الانجليز) وصنف بالألمانية فوك كتاب (الدراسات العربية في أوربا) كما ألف ليتمان (عصر من الاستشراق) ثم شرباتو في (الاستعراب في الاتحاد السوفيتي) بالروسية (١٩٦٠).

ومع ذلك ظل التعريف بالاستشراق ورجاله ناقصاً لم يبلغ درجة التمام .. قال مصنف كتاب (المستشرقون) (رأيت حظ المستشرقين من العربية أقل من نصيبهم فيها).

وفاته أن يذكر جهوداً لفضلاء من علماء العرب ضمَّنوا موسوعاتهم وكتبهم تراجم لكثير من المستشرقين كالفاضل العلامة خير الدين الزركلي في موسوعته «الأعلام» وكالبستاني في دائرة معارفه وكجماعة الاساتذة الأجلاء في «الموسوعة الميسرة» والاستاذين الجليلين صلاح الدين المنجد وعبد الرحمن بدوي في أكثر ما كتبا عن المستشرقين وآثارهم وترجمتها وتوجيهها نحو الدرس المفيد.

مهَّد المصنف لكتابه بوصف تاريخي لبلاد مهد الحضارة :

١ — سومر
٢ — مصر
٣ — فينقيا
٤ — قرطاجنة
٥ — شمال أفريقية
٦ — سوريا

ثم عرج المصنف إلى العرب قبل الاسلام وتحدث عن اليمن والبتراء وتدمر وبصرى والحيرة ومكة، وأفرد فصلاً كاملاً عن فتوح الاسلام، الامبراطورية الفارسية، الشرق الأقصى، الأمبراطورية البيزنطية، شمالي أفريقية، غربي أفريقية، الأندلس، البرتغال، فرنسا، ايطاليا وصقلية، الحملات الصليبية، الامبراطورية المغولية، السلطنة العثمانية، طرق التجارة ثم الشرق الأدنى.

وخص الفصل الرابع من الجزء الأول بالخلافة العباسية والأندلس.

النهضة الأوربية :

تحدث المصنف عن الاسلام في اسبانيا والبرتغال وصقلية وايطاليا، الفاتيكان، طلائع المستشرقين الأوائل، ودواعي الاستشراق، الحملات الصليبية، الرحلات ونشاطاتها وأهدافها، السفارات، الهند، النهضة العربية.

ثم تدرج مصنف الكتاب بذكر البلاد الأوربية التي قام للاستشراق فيها مكان وعمل وخص كل بلد من البلدان الآتية:—

فرنسا، ايطاليا، انجلترا، اسبانيا، البرتغال، النمسا، هولندا، المانيا، بولونيا، الدانمرك، سويسرا، السويد، المجر، روسيا، الولايات المتحدة، بلجيكا، تشكوسلوفاكيا، يوغسلافيا — بالحديث عن :

١ — كراسي اللغات الشرقية فيها
٢ — المكتبات الشرقية
٣ — المطابع الشرقية
٤ — المجلات الشرقية
٥ — المجموعات الشرقية
٦ — المستشرقون

وإذا تميزت بلدة عن اختها بمزية ذكرها مكانها كمزية المساجد وأدلة المؤلفات الشرقية وغير ذلك مما له صلة بالاستشراق.

كما أفرد فصلاً خص به المستشرقين الرهبان، البندكتيون، الفرنسسكانيون، الكبوشيون، الكرمليون، الدومينيكيون، البيض، اليسوعيون كما لم يغفل المدرسة المارونية بلبنان.

وخص الفصل السادس والعشرين من كتابه بجهود المستشرقين المتصلة والمتمثلة في الاكتشافات الأثرية، والمتاحف الشرقية، المخطوطات الشرقية، المؤتمرات الدولية، دائرة المعارف الإسلامية، المجموعات الشرقية، المجلات الشرقية، دور النشر الاستشراقية.

وختم العقيقي كتابه بالحديث عن تحقيق المخطوطات لدى المستشرقين وجهدهم في ترجمة تراثنا بشتى اللغات ثم دراسته والتصنيف في شتى فروع علومه المختلفة.

وأوضح مصنف الكتاب ميزات المستشرقين التي تميزت بها أعمالهم كالمنهج العلمي وعكوفهم على التراث العربي وتأثير منهجهم بيننا كما تعرض المصنف إلى موقف كتابنا منهم بالقدح أو المدح.

وذيل المصنف كتابه بفهارس فنية جعلت تناول الكتاب يسيراً قريباً من طالبيه وألحق بالجزء الثالث منه جملة صالحة من الرسائل التي تبادلها مع المستشرقين أنفسهم بصدد إعداد كتابه.

ملاحظات حول الكتاب :

ذكر المصنف أن المنصور (٩٧٧ ــ ١٠٠٢) (استولى على ليون وذبح أهلها وعلى شنت ياقب (٩٩٧) ودمر ضريح قديسها، وأرغم أسراه على حمل أبواب كنيستها وأجراسها في موكب نصره بقرطبة...)[٨]

وهذا الأمر ليس بصحيح (حين فتح ابن أبي عامر المنصور الحاجب المدينة هدمها بيد أنه أبقى على الكنيسة فنسب أحجامه عنها إلى معجزة سانت جيمس[٩])

وغير ذلك من الهنات التاريخية وضعف التأويل والتثبت من الحادثات ومجراها.

ويلحظ أيضاً أن الكتاب تحدوه روح التبجيل والتقدير الشديدين للمستشرقين وأن الهوى فيه ظاهر وعندي أن مصنف الكتاب فرّط في أصول التصنيف وحسن طريقته وحزمها لا سيما أن كتابه قدر له أن يكون مصدراً في موضوعه فقد اكتفى المصنف بجمع مادة كتابه عن طريق الملاحق الثقافية ومن السفارات وعن طريق المستشرقين أنفسهم كما دلت الرسائل التي بآخر الكتاب ثم بوبها تحت عناوين متناسبة دون أن يتحرى أصل مادته ويفحصها الفحص الدقيق ويعرضها إذ أن الكتاب في أجزائه الثلاثة كتاب تراجم وفهارس للكتب التي درسها المستشرقون قائمة على دقة الاحصاء وصدق المعلومة وحسن التنظيم وموسوعة للجمعيات والدوائر والمطابع والمجلات الاستشراقية.

ويظل الكتاب من أحسن ما كتب حول تراجم المستشرقين وأعمالهم لولا ما ذكرت في الذي مرّ.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

هوامش وإشارات

(١) روجر بيكون، ولد حوالي ١٢٣٤ ــ ١٢٩٢ في انجلترا كان محافظاً ومتمسكاً بالتقاليد وكان يرى تفوق المعرفة اللاهوتية، كتب معظم مؤلفاته استجابة لطلب البابا كليمنت الرابع وكان يدفعه إلى هذا التأليف ما كان يتمناه من زعامة سياسية ستؤول إلى الغرب ولمّا مات كليمنت تبخرت أحلامه وذهبت أدراج الرياح.

(٢) Southern, R.W.O.P. Cit. pp. 56 - 7 وأنظر أيضاً د. عرفان، عبد الحميد، المستشرقون والاسلام ، ص ص ١١ ــ ١٣، المكتب الاسلامي ط ٢، ١٩٨٠م، بيروت وقد حوى الكتاب وثائق أخرى جليلة الفائدة.

(٣) نفس المصدر ص ١٥.

(٤) قصدتُ بالأشياخ أعلام العلم في زماننا كالشيخ محمود محمد شاكر والشيخ محمد محمد حسين رحمه الله في أكثر توجه أقلامهما.

(٥) الاتجاهات الوطنية في الشعر العربي والاسلام ومشكلات الحضارة للدكتور محمد محمد حسين وأباطيل وأسمار للشيخ محمود محمد شاكر. وأكثر كتب المفكر مالك بن نبي والنقدات التي ظهرت أخيراً حول الدكتور طه حسين وجرجي زيدان.

(٦) أنظر د. نفوسة، العامية في مصر وآراء سعيد عقل حول هذا الموضوع وغير هذا كثير معروف مشهور.

(٧) مرادى من ذلك كالدعوات اللسانية التي تبناها الفرنسيون في تونس وغير ذلك من الدعوات التي تنادى باستبدال الحرف العربي باللاتيني في بعض أقطار العالم الاسلامي كأندونيسيا مثلاً.

(٨) المستشرقون، العقيقي ص ٤٨ ج١.

(٩) أنظر تفصيل هذه الواقعة في كتاب الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، للدكتور قاسم السامرائي ص ٢١ منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، ١٤٠٣.

مع المخطوطات العربية (لكراتشكوفسكي)

عبد الفتاح الحلو
أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كراتشكوفسكي، أغناتي/ مع المخطوطات العربية. — مطبعة التقدم، ١٩٦٣م.

هذا كتاب طريف، يتضمن ذكريات عزيزة على نفس مؤلفه، عاشها مع المخطوطات العربية، ومع الناس الذين التقى بهم في رحاب المخطوطات العربية، وكان صدوره في أصله الروسي للمرة الأولى سنة ١٩٤٥، واستقبل بترحاب كبير جعله يكتب مقدمة الطبعة الثانية في ديسمبر ١٩٤٥، ثم تصدر طبعته الثالثة سنة ١٩٤٨، وعن هذه الأخيرة تمت ترجمته العربية التي صدرت عن مطبعة التقدم سنة ١٩٦٣م.

وقد خلت هذه الطبعة من ذكر المترجم، وأعاد المترجم الدكتور محمد منير موسى طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٦٩م في طبعة منقحة، نشرتها دار النهضة العربية، واعتمادنا في ذكر الصفحات على طبعة مطبعة التقدم.

ومؤلف الكتاب اغناتي كراتشكوفسكي ولد سنة ١٨٨٣ في مدينة فيلنو، (في جمهورية ليتوانا السوفيتية الآن)، ثم انتقل به أبوه إلى مدينة طشقند، فاتصل بالحياة في آسيا الوسطى، وفي المدرسة الثانوية راح يدرس النحو العربي بنفسه، ثم انتسب سنة ١٩٠١ إلى كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورج (لينينجراد اليوم) ودرس إلى جانب اللغة العربية والأدب العربي لغات شرقية أخرى، وقد أنهى المرحلة الجامعية سنة ١٩٠٥، وأرسل عام ١٩٠٨ إلى الشرق العربي لاستكمال دراسته، فظل فيه إلى سنة ١٩١٠، ثم عاد، وانتخب عضواً في أكاديمية العلوم السوفيتية سنة ١٩٢١، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣، وبلغ مجموع ما كتبه كراتشكوفسكي نحو ستمائة دراسة علمية، ومات سنة ١٩٥١.

وقد رأيت قبره في لينينجراد سنة ١٩٧٧. حين كنت فيها ضمن وفد معهد المخطوطات العربية، بحثاً ودراسة للمخطوطات العربية في الاتحاد السوفيتي، وقد أحيط قبره بسياج برونزي يرتفع عن الأرض قليلاً كتبت عليه بخط كوفي أبيات أبي العتاهية، التي يقول فيها :

« الموت باب وكل الناس داخله ».

أما كتابه «مع المخطوطات العربية»، فقد سرد فيه ذكرياته مع المخطوطات والمتصلين بها دون التقيد بمنهاج مرسوم، وجاءت هذه الذكريات في فصول ثمانية، تحدث في الأول منها عن أول عهده بالمكتبة العامة ببطرسبورج وقسم المخطوطات بها حين دخل الجامعة، وفي الثاني عن جولاته في الشرق، ولقائه بعلمائه وسدنة المخطوطات فيه، وفي الثالث عن بعض الكتاب العرب ومستغرب روسي، وفي الرابع عن المتحف الآسيوي وبعض المخطوطات فيه، وفي الخامس عن المكتبة الجامعية في بطرسبورج وعن الشيخ محمد عياد الطنطاوي وعن المدرسة الإسبانية في الاستشراق، وفي السادس عن بعض ذكرياته مع لوحات أثرية. ورسالة صفدية، وأوراق من مصحف بخط كوفي، وعن ترجمة روسية لمعاني القرآن الكريم، وفي السابع عن علاقة المستشرقين بالمخطوطات العربية، وعشقهم للتراث العربي، وجهودهم في الإفادة منه، وفي الثامن عن مراحل نشر ديوان الأخطل.

والحق أن هذا الكتاب ممتع؛ لأن صاحبه أرسل نفسه على سجيتها، فهو إلى الحديث الشخصي أقرب، وهو إلى الحكاية أنسب، ولذلك فإن القارىء لا يمل من متابعته ويشعر خلاله بهذا العبق الاخاذ للمخطوطات العربية، وهي تطوف بالنفس في مجاهل التاريخ ، وتكشف له عن كنوزها، وتطلعه على أسرارها بعد جهد ودأب يجعل للفوز بها في النهاية مذاقاً شهياً، ونشوة آسرة أخاذة.

وليس هذا هو حصاد قراءة الكتاب فحسب، وإنما تجتمع لدى القارىء فوائد كثيرة تكشف النقاب عن ملامح كثيرة في حياة الاستشراق والمستشرقين، وأعد منها :

أولاً : بعض الدوافع التي تعلن عن نفسها، وتكشف عن الرابطة النفسية الخفية التي تلازم المستشرقين المسيحيين وتربطهم بالتراث المسيحي المكتوب باللغة العربية، وقد كشف المؤلف عن هذا في حديثه عن المستشرق ريسكه (ص ٣٢١) حين قال عنه: لقد جاء حقاً قبل أوانه، ففي العصر الذي سيطرت فيه نظرية أن الاستعراب يجب أن يقتصر على خدمة علم اللاهوت المسيحي، جرؤ على أن يعلن أن «اللغة العربية يمكن أن تكون مفيدة جداً للتاريخ والشعر، وهذا ما يقوّي رغبتي [الكلام لريسكه] في أن تكون اللغة العربية عندنا أكثر شهرة وذيوعاً، ولا يهمني أن ما يسمى بعلم اللغة المقدسة يمكن أن يبنى على أساسها...». بل إن من الأشياء التي أثارت اهتمام كراتشوفسكي في أوائل اطلاعه على المخطوطات خمس ورقات من الرق هي كل ما بقي من مخطوط كتب سنة اثنتين وسبعين ومائتين للهجرة، كتبه انبا أنطونه البغدادي في دير القديس سابا واستكتبه ابنا إسحاق لطور سيناء.

وكانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الطوائف غير المسلمة في البلاد الإسلامية تشغل مكاناً كبيراً في تفكيره، وهو يقول (ص ٢٦) : وإني لشديد الرغبة في أن أفهم بعمق موضوع علاقات العرب مع الشعوب المغلوبة في البلاد التي استولوا عليها، وأريد أن أفهم الروابط بين المسلمين والمسيحيين... . ولذلك اهتم بزيارة بطريرك أنطاكية مكاريوس لروسيا، وبوصف ابنه بولص الحلبي لهذه الزيارة، وظل يبحث عن نسختها الأصلية التي ترجع إلى عام ١٧٠٠ حتى عثر عليها، أو ساقها قدرها إليه ص٧٨ — ٨٨)، كذلك كان فرحه عظيماً حين وقعت بين يديه نسخة التوراة العربية في ثلاثة مجلدات، من مخطوطات البطريرك غريغوريوس الحداد الأنطاكي، التي أهداها إلى روسيا سنة ١٩١٣ في الاحتفال بذكرى عائلة رومانوف القيصرية، يقول كراتشكوفسكي (ص ٩١): وكان وجود هذه التوراة لدينا مبعث غيرة لدى الفاتيكان.

ثانياً : دأب المستشرقين في تعلم العربية، والرغبة في التعمق في الدراسات الإسلامية، وتنميتهم لهذا برحلتهم إلى الشرق، والاختلاط بأهله، والتعلم منهم، وقد لمست مدى الفائدة التي يجنونها من لقائهم بالمختصين العرب، في سفرتي إلى روسيا، فقد التقيت بعدد كبير من المستشرقين في ليننجراد، وعلى رأسهم الدكتور أنس خالدوف، ومعرفته بالعربية ومخطوطاتها جيدة، وقد رغب إليّ الرجل في أن نتدارس الأدب، وكنا نجلس في عطلة نهاية الأسبوع في حجرتي بالفندق ليقرأ عليّ شعر عدي بن زيد العبادي من كتاب الأغاني، وكم كانت دهشتي كبيرة حين سمع مني شرح الأبيات، فقد ارتفع الشعر العربي لديه إلى الذروة، وأدرك روعة المعاني وجمال المباني وسحر الأداء، وقد دفعه هذا إلى أن يعقد معي حلقات أخرى في القاهرة يتفهم فيها عبارات الفقهاء ومصطلحاتهم ، ويتعرف إلى أشياء كثيرة تربو فيها فائدة التلقي على النظر في أعطاف الكتب.

ويتضح هذا من رحلة كرتشكوفسكي إلى الشام ومصر (١٩٠٨ — ١٩١٠) فقد أفاد من لويس شيخو في المكتبة الشرقية بجامعة القديس يوسف في بيروت، كما حاول اللقاء بالعلامة أحمد تيمور في القاهرة فلم يوفق لسفر الباشا، ثم قام البريد بينهما مقام اللقاء، فأمطر أحمد تيمور صديقه الموسكفي بفوائده وتقييداته حتى وفاته رحمه الله، وفي ذلك يقول كراتشكوفسكي (ص ٦٥): كان هذا العالم كريماً لدرجة عجيبة، فقد كشف كل كنوزه لمختلف العلماء من مختلف البلاد، وكان هذا العالم متواضعاً نادر الوجود، فقد كان يجعل من نفسه زميلاً في العمل لمن يراسله من العلماء، إذا أحسّ بأن لدى هذا المراسل تذوقاً للأدب العربي، ثم كانت لكراتشكوفسكي لقاءات فكرية بأعمال محمد تيمور ولد العلامة أحمد تيمور، ثم مراسلات كثيرة مع ولده الآخر محمود تيمور. وقد التقى بأمين الريحاني مصادفة في بيروت سنة ١٩١٠، وأتيح للمراسلة بعد هذا أن تنمي الصلة بينهما حتى وفاته سنة ١٩٤٠م. كما كانت له صلات مراسلة بميخائيل نعيمة.

ويلفت النظر في هذا الجانب الفصل الذي كتبه كراتشكوفسكي عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي (ص ٢٢٨ — ٢٤٢) الأستاذ بجامعة سانت بطرسبورج، والمستشار برتبة عقيد، وقد جمع الطنطاوي مجموعة من المخطوطات تقارب المائة والخمسين مجلداً من قريته ومن طنطا

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

والقاهرة، وأثناء رحلته إلى روسيا ماراً بتركيا. وآلت هذه المخطوطات إلى مكتبة الجامعة. وقد رأيت عنايته بالمخطوطات، وأدركت مبلغ علمه بالأدب العربي، حين كنت أراجع بمكتبة معهد الدراسات الشرقية بلينينجراد نسخة من يتيمة الدهر للثعالبي، عليها خطه. وقد ألف أثناء مقامه في بطرسبورج كتابه «تحفة أولى الألباب في أخبار بلاد روسيا»، وأهداه إلى السلطان عبد المجيد، كما عثر على مخطوطة بقلمه في «وصف روسيا»، ويتضح من خلال هذا الفصل جهود الشيخ الطنطاوي، وأثره على الدراسات العربية في روسيا، ومدى استفادة المستشرقين من علمه.

ثالثاً: يكشف هذا الكتاب عن الظروف الخاصة ببعض المخطوطات العربية، والجهود التي بذلت في سبيل نشرها، كما يسجل الخواطر النفسية لمستشرق تنقلت به الأحوال بين الفرحة والترحة، والنشوة والإحباط، والأمل واليأس، وهو يتعامل مع بعض كتب التراث العربي، ويتضح هذا من عرضه لانتقال كتاب الإدريسي «نزهة المشتاق» من صقلية إلى بطرسبورج عبر إيران (ص ٣٤ — ٣٦)، ومن اكتشافه لرسالة نحوية لأبي العلاء المعري بمكتبة الأزهر وحديثه مع الشيخ المحمصاني حولها، ثم اتضاح الأمر له حيث تبين أنها رسالة الملائكة، وصبره عليها نحو عشرين عاماً يعالج نصها حتى صدرت سنة ١٩٣٢ (ص ٥٩ — ٦٦)، ثم تعلقه في مكتبة الإسكندرية بنسخة ديوان سلامة بن جندل، التي كتبت على طريقة ابن البواب، وإعجابه بها، ونسخه لها، ثم ما أصيب به من خيبة أمل حين سافر من الإسكندرية إلى بيروت ففوجىء بلويس شيخو يطبع الديوان.

وقد عرض كراتشكوفسكي تجارب كثيرة، وكشف عن تطورات مثيرة، وهو يتحدث أيضاً عن «البديع» لابن المعتز (ص ١٠٢) وابن قزمان وموشحاته وأزجاله (ص ١٥٢)، وكتاب «المنازل والديار» لأسامة بن منقذ (ص ١٦٤)، والأراجيز الثلاث لرائد البحرية العربي أحمد بن ماجد (١٧٨)، وديوان الأخطل وجهود ناشره في إخراجه على مدى خمسين عاماً (ص ٣٣٧).

رابعاً: والكتاب مفيد أيضاً في إيضاح الصورة عن أعمال المستشرقين في روسيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بل إنه يكشف عن مدى الصلات بين المدرسة الاستشراقية في روسيا، والمدارس الأخرى في أوربا.

خامساً: كما يكشف أيضاً عن الأساليب التي اتبعت في تكوين مجموعات المخطوطات العربية في روسيا، فقد ذكر كراتشكوفسكي وقائع كثيرة توضح ذلك، لعل من أهمها إهداء غريغوريوس الحداد البطريرك الأنطاكي أكثر من أربعين مخطوطاً من مكتبته في سوريا إلى القصر الملكي في بطرسبورج، يقول عنها كراتشكوفسكي: وهذه المخطوطات في الحقيقة عظيمة ورائعة، وغالبيتها مخطوطات فريدة لا توجد لها نسخ أخرى مماثلة.

كما تلقى المتحف الآسيوي أكثر من ألف مخطوط، تعرف باسم مجموعة القفقاس، كانت قد أحضرت من جبهة الحرب في القفقاس (ص ١٤٥)، كما جمع إيفانوف «مجموعة بخارى» (ص ١٤٦)، وقد تحدث كراتشكوفسكي عن مجموعة روسو، التي جمعها في سوريا، وكيف وصلت إلى المتحف الآسيوي، وحرمت منها فرنسا (ص ١٥٣ — ١٥٦) كما حكى في إسهاب كيف وصلت إلى يده رقوق من المصحف الشريف بخط كوفي قديم، تبيعها سيدة من أصل عربي، وكيف تهدّى إلى أنها من مجموعة إيريني نوفل (ص ٢٩١ — ٢٩٩).

سادساً: ومن الأشياء الطريفة التي يعرضها هذا التمازج الذي يحدث بين بعض المستشرقين والمخطوطات إلى الحد الذي يقع فيه المستشرق صريع عمله، وقد أطلق هذا اللقب على ريسكه، حيث قيل له: «صريع الأدب العربي» فمنذ أن كان في عامه السابع عشر أحس برغبة ملحة غامضة مجهولة لدراسة اللغة العربية، وحتى آخر أيام حياته «ذاق تماماً ما معنى مرارة الفقر»، وقد وصل ريسكه إلى ليدن سائراً على قدميه، وهناك أمضى ثمانية أعوام من شبابه في ظروف معدمة، وكانت السعادة الوحيدة التي وجدها في المخطوطات، وفي ذلك يقول: ليس عندي أولاد، ولكن أولادي يتامى بدون أب، وأعني بهم المخطوطات، وقد ربيت هؤلاء الأولاد بنفس جد حزينة حتى بلغوا رشدهم وخرجوا إلى النور، لكن ماذا سيكون أمرهم بعد موتي؟.. لقد عملت لهم كل ما استطعت من جانبي، بل ولن أكف عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مساعدتهم بكل ما أطيق حتى آخر رمق في الحياة. (ص ٣٢٢).

سابعاً : وأحب أن أختم هذا العرض لكتاب كراتشكوفسكي «مع المخطوطات العربية» بحقيقة مؤلمة، هي أن منطقة كبيرة هي شمال القفقاس (داغستان وتشيتشينيا وانغوشيتيا) تتكلم العربية بطلاقة، ونحن في غفلة عنها ، يقول كراتشكوفسكي: كانت اللغة العربية هناك طيلة عدة قرون هي اللغة الفصحى الوحيدة، لا للعلم فحسب، بل لعلاقات الأعمال أيضاً، وبهذه اللغة تطور تراث له معالمه الخاصة، خلق رجال الشريعة المحليين والمؤرخين والشعراء، وتولّد هناك أدب كبير باللغة العربية الفصحى، التي كانت تستعمل كوسيلة حية للعلاقات بين القبائل (ص ٣٠١).

ويقول أيضاً: إن قوة تيار التراث العربي القديم في القفقاس استطاعت أن تحمل، حتى أيامنا، اللغة العربية الفصحى، التي لا تستخدم في التخاطب العام في موطنها في البلاد العربية، أما في شمال القفقاس فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة، لا في الكتابة فحسب، بل وفي الحديث أيضاً (٣١٠).

تُرى، أما زال أهل شمال القفقاس على العهد، يتخاطبون، ويتكاتبون ويترنمون نثراً وشعراً بالعربية الفصحى!!.

بمناسبة رمضان فقط
نقدم الأجزاء الثلاثة الصّادرة من كتاب :
الطبقات السّنية في تراجم الحنفية
بسعر مائتي ريال
فاطلبوه من :
دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض - ص.ب ١٥٩٠
تلفون ٤٧٧٧٢٦٩

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com